الكون والناس والنظام العالمى

د. أنطون يعقوب ميخائيل

إهـــــــــداء ٢٠٠٦

الدكتور/ انطون يعقوب ميخائيل

القاهرة



الكـون ..
والنـاس ..
والنظام العالمى

د. أنطون يعقوب ميخائيل

اسم الكتاب : الكـون والنـاس والنظـام العلمـى
المـؤلـف : الدكتور انطون يعقوب ميخائيل
االتـوزيـع : مكتبة اسقفية البحث العلمى ت: ٤٨٨٢٥٢٢
ومن المؤلف ص.ب: ١٠٨٦ هليوبوليس بحرى - القاهرة
المـطـبـعـة : دار الطباعة القومية بالفجالة ت: ٥٩٠٥٤٨٦
رقم الإيداع : ٢٠٠١/٧٠١٠

مقدمة

هذه سياحة كونية تتوافق وعقلية العصر التى باتت ترى الأمور فى إطار كونى واسع، اندمج فيه المحلى بكل صوره ومشاكله وتطلعاته. وتزاوج فيه عالم الفضاء مع عالم الأرض. وتبلور مفهوم جديد للحياة باعتبارها وشيجة واحدة ممتدة بامتداد الكون، تتأثر أطرافها بما يجرى فى مركزها وكافة أرجائها، مهما تباعدت المسافات أو امتد نطاق الزمن. وهو مفهوم لو استقر فى أعماق وجدان الإنسان، ومس جميع أوتاره، لتغلب على الصغائر التى مازالت تفرض على الشعوب التباعد والتنافر، أو التقاتل والتناحر، تارة باسم الدين، وتارة باسم العرق أو العصبية، وكثيراً بدافع المصالح الضيقة.

والعولمية، ولا أقول العولمة، كحركة تاريخية مستمرة، ومفهوم فلسفى وجدانى، إنما تقرب حقيقة وحدة الإنسانية ووحدة المصير، وتؤكد أن شفاءها وخلاصها إنما هو فى وحدتها. فالمرض ما هو الا اختلال فى الجسد يؤدى إلى عدم تماسكه، وانفصام فى دورته وإهتزاز وحدته. ولقد تجمعت مفردات العولمية، وانبعثت كبارقة أمل وصخرة خلاص، بينما تجرجر البشرية أقدامها، فى مشوار الألم الطويل الثقيل، تتمزق حرقة بين مثالية ما تنشده، وهوان الواقع المتشرذم المتطاحن، تنهشها الفردية والأنانية البغيضة، على مستوى الفرد والمجموع، وتكاد تطوح بها إلى نهاية مريعة مروعة. لهذا تتنادى العولمية من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، تستصرخ أطراف المعمورة كى يفيق الجميع. فقد باتوا فى مركب واحد، بوصلته كونية، وأشرعته عالمية، ولم يبق إلا أن يتفق بحارته على وحدة المصير المشترك، لتمخر العباب نحو الأمان.

وسياحتنا تبدأ من بقعة المألوف، من أرضنا ومن تراثنا، حيث الوشائج والعلاقات الإنسانية مازال لها مقامها ومذاقها. فهى تنطلق بقصة مصرية، مثلما بدأ العالم من آلاف السنين، مع فجر التاريخ، بقصة مصر الضمير، ومصر العلم والمعرفة، والإيمان أيضاً. وبطلها الطفل **سان**، وهو بطل الرحلة كلها، يستهلها بـ **الكون يتسع**، من مهد طفولته إلى عالم واسع الأرجاء، يتبارى المستكشفون والمغامرون فى الوصول إلى أطرافه

المجهولة، حيث يتحولون إلى مستعمرين أو محتكرين ومستغلين. وفى الحالين يقدمون للشعوب كؤوساً تمتزج فيها ألوان من الحضارة مع أشكال من البؤس.

ويحمله شغف المعرفة إلى سياحة فى عمق الكون، فيعلم أنه **أكوان**، وأنه **مسكون**، وأننا نحن البشر **لسنا وحدنا**، وقد نلتقى يوماً بأندادنا. ويمر بـ**أوجاع الكون**: **بالصراع** مشكلة الكون الأزلية، والذى يزداد يوماً بعد يوم تعقيداً وتهديداً، حتى صار الآن من أشرس أعداء البشرية. **وبالزلزال** الأضخم الذى ودع به العالم قرنه الميلادى العشرين، فضاعف فيه من الأشلاء السياسية والاجتماعية فى ما كان يعرف بالعالم الثانى. **وبفلسطين**(*)، المحنة والهم والوجع الأكبر.

ويتفاءل **سان** مع المتفائلين فيحلق فى **مستقبليات** عالمه الكونى. ويناقش ما يتردد عن **نظام عالمى جديد**، وهل هو جديد، أم تكرار لنماذج سابقة فى ثوب مختلف؟ وهل حقاً هناك جديد تحت الشمس؟ وهل هناك فرق بين العولمية **والعولمة**، التى فتحت شهية الكتّاب والمفكرين فى أنحاء العالم، فغمروه بسيل من الكتابات والأفكار زادته بلبلة وتوجساً من المستقبل؟!

ويركز على نظامين أساسين فى الكون، هما النظام البيئى الذى أبدعه الله بمقدار، ووضع ضوابطه بحساب. والنظام السمائى الذى هو عصب الحياة البشرية، وعليه يستقر رجاء الشعوب. ويؤكد أن أى نظام عالمى لا يرتكز على احترام هذين النظامين لا أمل فيه ولا خير منه. فكل محاولات "نفى" الله إنما تعمق مأساة الإنسان، وتعجل بانهيار عالمه. والجاهل وحده هو الذى يقول «فى قلبه ليس إله» كما قرر ذلك داود النبى قديماً.

ومحطته قبل الأخيرة هى عند **شرطى الكون**. ومن ياترى يكون؟ وهل حقاً صار مصير العالم بين يديه؟ وهل فرض نفسه أم فرضته الظروف إلى حين؟ وما هو موقف مصرنا منه؟ تصادقه أم تعاديه؟ ومتى كانت مصالح الشعوب تسيرها العواطف والانفعالات؟

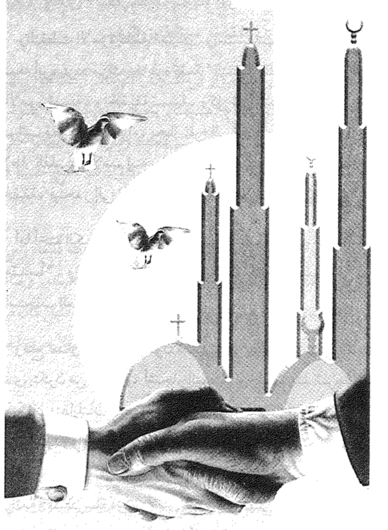
(*) صدر موضوعها فى كتاب مستقل بعنوان "فلسطين لمن؟".

وينتهى **ســان**، كما بدأ بمصر العزيزة **نـور الكـون**. فهى محطة البداية لكل أمل، وهى محطة النهاية لكل شوق وحلم. وستكون كما يريدها أبناؤها ومحبوها، رغم مهاترات الجيران ومؤامرات الخصوم. فبعزمهم تنهض، وباقتدار عقولهم وسواعدهم ترتفع وتسود، فى عالم تنافسى معقد، لا مكان فيه إلا للقادرين على المنافسة الملتهبة، وعلى إثراء الإنسانية بالمعرفة والإبداع.

يناير ٢٠٠١ **المؤلف**



قصة مصرية



حينما أنجبه طفلاً مشرق الوجه ضاحك العينين، سمّاه العالم. لم تستسغ الأسرة هذا الاسم. ولكنه أصر. ولما سألوه كيف يلفظه، وهل هو العالم بفتح اللام، أم بكسرها، قال سيان. فهو يريده أن يكون عالماً، بكسرها، وسيساعده على أن «يلاحظ ويسجل»، و«يقرأ ويحلل ويلخص»، حتى تنمو معارفه وتنضج مداركه، ويبهر جيله. وهو عنده عالَم، بفتح اللام، فالإنسان كون مصغّر، وخلية واحدة من خلاياه تؤكد وحدة الكون. بل إن الكون الذى فوقنا متواضع جداً إذا قورن بالكون الموجود فينا، وهو ملايين ملايين الخلايا المتنوعة الأشكال والأحجام والألوان، والمفعمة بالحياة.

والتقطت الأسرة كلمة "سيان" واستسهلتها، وصارت للطفل اسم "الدلع"، كلما سمعه أبوه يتردد مرت بخاطره كلمة "النسبية" المحببة لديه، والتى تمثل جانباً من فلسفته، فالأمور نسبية، والحقيقة نسبية، وكل شئ عنده له أكثر من وجه. وأحياناً كثيرة تبدو جوانب قضية ما أسواء، يحار المرء إلى أى منها ينحاز، أو أى منها يختار. ورغم هذا الإطار الفلسفى لاسم إبنه، فقد أشفق أن يتحول الاسم ليعنى "خلط" الأمور وتمييع الحقيقة، فينحدر إلى المثل المهين «كله عند العرب صابون».

أما أخته الكبرى فدعته **سان**. اسم خفيف فيه شئ من الموسيقى. ويعنى فى اللاتينية "مقدساً". وإن كان فى اليابانية يمثل مقطعاً للتكريم يضاف فى نهاية الأسماء والألقاب. واستجاب الطفل لهذا الاسم.

وفتح **سان** عينيه على كون صغير، هو بضعة مئات من الأمتار المربعة. فأمام البيت الذى يتكون من طابقين، أشجار التوت، وخلفها يمتد شريط "سكة الدلتا". وكلاهما صورتان متقابلتان للحياة. فشجرة التوت دائمة الخضرة، تفرش ظلالها على الأرض، وتشيع الهدوء الوقور فى المكان، وتبث السكينة، حيث يطيب الجلوس تحتها أيام الصيف القائظة. وتستهل الصباح الباكر بعصافيرها المزقزقة المشقشقة - موسيقى الريف البريئة الرائعة، المسترسلة دون تزويق. وهى التى تهش إليها، مع الغسق الوردى، بأنغام أشبه بتسابيح المساء، ودعاء من أجل الأمن والستر. وفى فصل الثمر تجتذب إليها الصغار، بين متسلق، وقاذف حجارة، طلباً فى توتها.

أما شريط السكة الحديد فيرتفع فوق مستوى الطريق بأربعة أمتار تقريباً. ويمثّل حاجزاً كثيباً يقسم المدينة إلى قسمين، يشق إجتيازه على الكثيرين من الناس، خاصة من يحملون حملاً أو متاعاً. وحين يمر القطار تهتز "الدنيا" كأنه يرجُّها رجاً. ويطلق صفيره الحاد فيمزق الهدوء، ويثير القلق، والكآبة أحياناً. وركابه بين واقف بين العربات، أو ممدد على أسطحها، أو معلق بالنوافذ، ولهم صخب يتناثر فى المنطقة تناثر الغبار. ويستقبله الأطفال، على جانبى طريقه، بين مرحب يصفر، أو يلوح بيديه، أو يتراقص هازجاً. وبين غاضب يقذفه بالسباب، وأحياناً بالظلط. وبين متهكم يسابقه ركضاً، ويتجاوزه حين يضطر للتهدئة وهو يقترب من "المزلقان" عند التقاطع مع الطريق الرئيسى.

وكان يطيب لسان أن يجلس فى بيته يراقب زوار فئ أشجار التوت. وكان من بينهم رجل مسن نحيل الجسم، لا يتخلف طوال أيام الصيف. يحضر مع الظهر، يفرش حصيرته، ويفتح كتاباً أو كراسة ويقرأ لبعض الوقت. ثم يتمدد وسرعان ما يغفو حتى آذان العصر، حين تحضر سيدة تصغره قليلاً، تجلس بقربه حتى يفيق. ثم تفتح حقيبة لا تفارقها، ويأكلان معاً مما تحمله فيها.

ويوماً استيقظ ولم يجدها. ولم تهدأ عيناه. ولا استقرت رأسه. ثم حملته قدماه يذرع الطريق جيئة وذهاباً، وكل جسده ينطق بالقلق. والشمس تشرف على المغيب. وسان يراقبه وقد انتقل إليه بعض قلقه وبعض ألمه. ومضى إلى داخل البيت. وبعد قليل كان فى الطريق يعبره، ويقف إلى جانب الرجل، ويلمسه بيد حانية، ويقدم له بالأخرى لفة صغيرة:

- ده شوية أكل تتصبر به حتى تعود صديقتك.

- (نظر إليه الرجل بمزيج من الحنان والامتنان، وتنهد) إنت صاحب الوجه الرقيق الذى يطالعنى من هناك (مشيراً إلى الشرفة). الطعام ليس المشكلة ياولدى. إنها الرفقة. الحاجة إلى الآخر. إلى صوته وكلماته. ولمسات المودة والرفق. ستعرف ذلك حين تكبر.

- أنا عارف ياسيدى. لما بتغيب أختى الكبيرة علىّ أتضايق وأزعل، وأشتاق للعبها

ومغايظاتها لىّ، وأحس كأن الوقت توقف والدنيا ثقيلة . ولما أسمع صوتها أشعر وكأن حجراً كبيراً تدحرج من على صدرى . وأندفع إليها . ولكن ماظنش إنها بتعرف أو تفهم عذابى .

- هذا كلام كبير يفوق سنك (وسأله عن عمره، ولما عرف أنه السابعة سأله) لماذا لا تشارك الأطفال مثلك فى ألعابهم فى الشارع؟ .

- ده له قصة . كنت ألعب معهم فى الأجازات . وفى يوم فى المساء كنت ألعب مع جارى "الكرة الشراب" ، لعبة "سنو" . وكنت عند "الميس الحجر" . ورميت له الكرة زى أصول اللعبة . وبدل ما يردها وينشن على "الميس" ، رمانى بظلطة ضربت أورتى (جبهتى) ونزل الدم . وجريت ع البيت خايف وغضبان ومن يومها منعتنى ماما من النزول للشارع .

- تصرف غريب وغادر من جار ورفيق . ولماذا فعل هذا؟ .

- معرفشى ياسيدى . ولكن بابا علمنى جملة حلوة : هذا أشبه بسهام الدهر ، تأتيك من حيث لا تدرى . وتباغتك عادة وأنت فى لحظة زهو ، أو وأنت مسترخ فى حضن الأمان! .

- الله! هذه فلسفة! ولكن يابنى لا تجعل شيئاً يمنعك من التمتع بطفولتك . تمتع باللحظات السعيدة ، فهى قليلة ، وما يذهب منها لا يعود .

ومن يومها تعلقت عينا الرجل بالشرفة ينتظر إطلالة الصبى . وما أن يراه حتى يناديه «سان . . سان . . يا قديس الزمان» . فيرد عليه «إزيّك يا عم برهان . . يا حلو اللسان" . توطدت العلاقة بينهما . أما زوجته فكانت تتلهف عليه .

ويوماً حمل إليه سان عصفوراً صغيراً . لقد وجده مساء اليوم السابق منزوياً فى ركن بالشرفة . فحنا عليه ، ودثره ، ووضعه فى فجوة صغيرة بالحائط . ولما تفقده فى الصباح كان جامداً بلا حراك . أنّت أحشاؤه . بكى طويلاً .

- (أخذ عم برهان العصفور وتنهد) لقد جف ياولدى . جمده البرد والخوف والوحشة فى الليل الطويل .

- لكنى لفيته كويس عشان يدفأ . .
- (فربت على رأسه بحنان) أنت لا تعرف الموت يابنى .
- فنظر إليه سان دامع العينين . ثم ركض صوب بيته دون كلمة .

ووجد عم برهان نفسه يدندن :

- ضحك الكون . . قالوا وُلدتْ
- كما يسقط العصفور سقطتْ
- عبس الكون . . قالوا انتهيتْ
- هو بسهم، وأنا أجلى بلغتْ
- وبين الضحكة والعبوسة مشيتْ
- غابت زقزقته وأنا صمتْ
- مشيتُ حتى تعثرتُ
- صمتنا كلانا صمتاً بأمر الموتْ

وفى صبيحة يوم من أيام الدراسة ، وقف أخوه الأكبر تحت الشرفة ينادى عليه . كان منتفخ العينين ، ذابل الوجه ، مقوس الكتفين كأنه كهل .

- هل استيقظتْ ماما؟
- نعم
- قل لها تيجى تشوف سوسو إبنى

أزعجته رنة الأسى فى صوت أخيه ، فتعثر وسقط . ثم أجهش بالبكاء حينما سمعه يردد «سوسو حبيبى مات . . » . وسوسو هو إبن أخيه الوحيد . وقد تعلق به إلى حد اللهفة . وحفر اسمه على جدران السطح أعلى البيت ، وعلق صوره فى كل مكان . كان طفلاً جميلاً . عيناه واسعتان لامعتان . ووجهه ضاحك . قلما سمعه يبكى . ما أن يراه حتى يردد اسمه «سا ... سا ... » بأعلى صوته ، ويزحف نحوه بكل قوة طفولية .

ومضت الأيام ثقيلة . واختفى وجه سان من الشرفة . وافتقده العجوز كثيراً . وتلهفت زوجته عليه . وفكر مرات فى الذهاب ليقرع باب بيته ويطمئن عليه . ويوم حاول ذلك التقى بسان فجأة وهو عائد من مدرسته .

- (وبادره سان) لقد عرفت الموت يا عم برهان .
- الموت؟ .

- نعم. عيون مسبلة. وجسد بارد. وسكون يخوّف وينشف الدم. ودنيا تهدمت على غفلة وبقيت زى كومة حجارة مالهاش معنى...
- (فضمه عم برهان إليه بقوة، واتجها إلى أشجار التوت حيث جلسا) نحن المؤمنين نقول «استرد الله وديعته».
- لكنه طفل صغير.. صغير.. ليه السرعة دى.
- (إبتسم عم برهان إبتسامة مرة، وتعجب من قدرة الحزن على إنضاج الإنسان بهذه السرعة) أنت لا تعرف قصتى ياسان. لقد كنت محامياً ناجحاً.
- (فى دهشة) محامى؟!.
- نعم. وكنت أكسب قضايا كثيرة، أصحاب بعضها كانت نزاهتهم مشكوكاً فيها. ولكنها المهنة وواجباتها. ومرض إبنى الوحيد راجى فجأة. كان يكبرك بعشر سنوات. وبدأت رحلة المعاناة المضنية، بين الأطباء والمستشفيات فى كبرى المدن. وأخيراً نفض الأطباء أيديهم، وقالوا علاجه فى الخارج. وقررت أن أحمله إلى أمريكا فلنا فيها أقارب. وأقنعت أمه بالبقاء لتشرف على مكتبى. والحقيقة إنى خفت عليها من مشقات السفر. وأخذنا الباخرة من الإسكندرية، فالطائرات لم تكن إنتظمت بعد. وبعد يومين فى البحر تدهورت حالة راجى، وعبر إلى البرزخ فى ليلة عاصفة، كانت الباخرة تترنح خلالها تحت لطمات الموج والأنواء العاتية، وأنا أترنح معها تحت ضربات القدر. واصطدمت بقانون البحر الذى يفرض دفنه فيه. ودارت بى الدنيا وتمزقت أحشائى داخلى. كيف أعود إلى مصر بدونه حياً أو ميتاً؟! ماذا أقول لأمه الثكلى المكلومة؟ ماذا أقول للناس؟ حاولت أن أرافقه إلى اليم فقيدنى البحارة، ووضعوا علىّ حراسة مشددة، وأغرقونى فى الخمر لعلى أنسى. وعدت إلى الوطن كسيح النفس كسير القلب. وطال بى الوقت وأنا أحبو وئيداً نحو شط السكينة، من خلال التأمل والابتهال. وزوجتى معى تشد من أزرى. ولما عدت إلى نفسى أبت أن تعود إلى المحاماة. تشاءمت منها ومن التزاماتها التى أرقت ضميرى.
- وماذا تعمل الآن؟.
- تصوفت ياسان. أجلس مثل بوذا تحت الشجرة، أتأمل فى أمور الحياة والموت.

- تصوفت؟

- لا تشغل بالك بهذه الكلمات . أنت يابنى فى سن الفرح . والحزن حيوان كاسر يفترس خلايا النفس . تجنبه . إلعب وامرح . وشارك العصافير جيرانك وهى تغنى ، فالغناء يفتح شباك القلب ، ومنه يدخل نور الابتهاج .

- ألعب وأمرح؟! لقد ذهب حبيبى سوسو ليكون مع إبنك راجى . لن يعود . ولن أعرف اللعب بعد اليوم . .

(وركض سان صوب البيت ، بدفعة من بخار الدموع المتشنجة الساخنة . طفل عرف الحزن الحارق قبل الأوان ، ويبكى بكاء الكهول) .

ومع الغسق جلس برهان جلسة تأمل صوفية وهو يردد :

لولا أمره ما كان كـــون ... ومـا كنـــــــتُ

ولولا وجهه ما أسفر صبح ... ومـا أسفـــــرتُ

جئت كما أرادنى هــــو ... وبـــه غـــــدوتُ

ماذا يفيد لو قلت «لا أدرى» كـــأنى نضجـــــتُ

والطفل فىّ يهفـــو إلـــــى الثدى الذى رضعتُ

يطلب الأمان فى حضنـه ... كأننى ما فُطمـــتُ؟

* * *

وإنتقلت أسرة "سان" إلى منطقة قريبة من النهر ، غرب المدينة . وانتقل إلى مدرسة أخرى بعد ما أتم دراسته الابتدائية . ولكن أشجار التوت وضيوفها لم تبرح مخيلته . وبقى عم برهان حياً فى الذاكرة ، يستعيد كل يوم بعضاً من كلماته وتعبيراته يحاول فهمها مجدداً فى ضوء ما استجد عليه من معرفة وخبرة .

وفى مدرسته الجديدة بدأ يشعر بوطأة السخرية من اسمه غير المألوف "العالم" . وويل له إذا أخطأ فى الفصل . فالتعليق المألوف لدى الأستاذ «خيبتك يا عالم» . فإذا تكرر خطؤه كان التعليق «صحيح إن لكل عالم هفوة ولكنك زودتها ، لازم تكون لكل هفوة عالم» .

ويوماً فاجأ مدرس التاريخ الصف بعقد إمتحان قصير كان الأول فى السنة الدراسية . ولما وزع ورق الإجابة على التلاميذ سرت فيهم رجفة الامتحانات ووجفتها . وقبل البدء ألقى "سان" نظرة خاطفة على ورقة جاره "حسين" وسطر ما رآه لا شعورياً على ورقته . وكتب الأستاذ الأسئلة على السبورة وانهمك الأولاد فى الإجابة . وفى اليوم التالى فوجئ سان بالأستاذ يطلب منه الوقوف فى مقدمة الصف ، ويعرض عليه ورقتى إجابة ليحدد أيهما ورقته . ورغم دهشته فقد ميز ورقته بسهولة . فدفعها الأستاذ إليه وطلب منه أن يقرأ الاسم فإذا به اسم جاره ، أى أن هناك ورقتين باسم واحد . وهنا صاح الأستاذ فى وجهه «غشاش – محتال» . إنهال عليه ضرباً وركلاً ، قبل أن يسمع منه تفسيراً أو توضيحاً ، ثم أوقفه على ذراعيه مقلوباً أمام زملائه وهو يقول إن ورقته هى الوحيدة التى حصلت على الدرجة النهائية ، ولكنه استبدلها بصفر عقاباً له . وعجز الأستاذ الطويل القوى البنيان عن فهم مغزى هذه النتيجة التى تنفى عن الصبى نية الغش أو الاحتيال .

مرض "سان" وتغيب عن مدرسته أسبوعاً كاملاً ، زاره زميله حسين مرتين خلاله ، وزوده بالفروض المدرسية ، ولخص له ما درسه الصف أثناء غيابه .

وكان من عادة أستاذ اللغة الإنجليزية عقد مسابقة مكتوبة كل أسبوع ، يدفع التلميذ "مليمين" عن كل غلطة إملائية يرتكبها ، وتعطى الحصيلة لمن يحصل على الدرجة النهائية . وتنقلت الجائزة من طالب لآخر . وفى الأسبوع الأخير ، قبل إجازة نصف العام ، حصل "سان" على الدرجة النهائية لأول مرة . ولكن الأستاذ لم يعطه الجائزة كالمعتاد . ومع أن طلبة الصف هتفوا فى نهاية الحصة «الجائزة يا أستاذ» فقد اكتفى بالقول «أيوه أيوه» وهو يغادر المكان .

لم تعرف الأسرة شيئاً من كل هذا . إحتفظ به "سان" لنفسه وهو يعلّق «ها أنا قد عرفت الموت والظلم أيضاً يا عم برهان» . وحدث أن أهداه أبوه كتاباً مصوراً مبسطاً لعلم الفلك يضم المجموعة الشمسية ومجرتنا درب التبانة . فانكب على دراسته كأنه فرض مدرسى ولكن بشغف شديد . ويوماً فاجأ أباه بسؤال بمنتهى الجدية عن الحياة فى كواكب أخرى . وأجابه أبوه بكل الجدية أيضاً عن احتمال وجودها وإن كان العلم لم يقطع بهذا بعد . ولما سأله إن كان يرغب فى السفر إلى كوكب آخر . تنهد وقال «يا ريت يابابا» .

وانشغل خلال إجازة نصف العام بقراءة كل ما هو متاح فى البيت من مجلات وكتب. وزاره صديقه حسين يوماً وهو متجهم الوجه. وتكلما فى أمور كثيرة وإن بقى التجهم مخيماً إلى أن فاجأه حسين بخبر احتراق المدرسة واحتمال تعطل الدراسة مدة قد تطول. فشهق "سان" شهقة لم تفصح عن حزن أو فرح. وعرف أن الحريق شبّ فى يوم سابق وأنه امتد من مخزن الكيروسين والمازوت الملاصق للمدرسة فى الجهة الشرقية، وأتى على فصول القسم الإعدادى.

وإكتشف "سان" أن أباه كان على علم بخبر الحريق، وبعدم سعادته فى مدرسته هذه، وبسعيه لنقله منها. وها قد فرضت الفرصة نفسها. وتوجه إليه فى غرفة مكتبه وجلس إلى جانبه فى هدوء، فطوقه بذراعه، وعبر له عن إكباره "لرجولته" التى منعته من أن يأتى إليه شاكياً أو باكياً كلما واجهته صعوبة أو سوء معاملة فى المدرسة. فقبل "سان" يد أبيه، وسمح لدمعتين كبيرتين أن تنحدرا على وجنتيه فأضاءتا وجهه، أو هكذا بدا فى عينى أبيه. وأحس بإنفراجة داخل نفسه.

وتأقلم سريعاً فى مدرسته الجديدة. وحباه الله زميلاً فى صفه يقيم فى منطقته. وكان "علاّم" طويل القامة رياضياً، ويشترك مع "سان" فى قيادة فريق تنس الطاولة بالمدرسة. وتوطدت العلاقة بينهما فى المدرسة وخارجها، وتعاونا معاً فى الاستذكار، وظلاّ يتنافسان على المراكز الأولى فى الامتحانات.

وازداد التصاقهما ببعض لدرجة أن التلاميذ كانوا يخلطون بين إسميهما، ويشيرون إليهما "بالطويلين قصيرى اللسان" لتعففهما فى الكلام، وصدقهما فى التعامل، وتدينهما. ورغم صغر سنهما فقد شكلا علاقتهما على روح من المجاملة الصادقة والمودة العميقة والاحترام المتبادل.

ولما لاحظ علاّم أن سان كان يصوم كثيراً وطويلاً دخل معه فى حوار ودى:

- كم يوماً تصوم فى السنة ياسان؟
- حوالى مئتان وخمسون يوماً، يعنى أقل قليلاً من ثلاثة أرباع السنة. .
- ياه! إنقطاعى مثل صوم رمضان عندنا؟

- بعض الأصوام إنقطاعى وبعضها الآخر عادى. ولكن نوع الطعام واحد، وهو الامتناع عن كل ما هو منتج حيوانى..
- يعنى أيه؟.
- يعنى مفيش لحوم ولا بيض، ولا لبن أو زبدة أو سمن ...
- وماذا تبقّى لك؟
- الزيت والبقول والخضروات والفواكه.
- الزيت؟ كل الأكل بالزيت؟ ياخبر! وعلشان أيه ده كله؟
- عبادة. وكمان علشان خلاص النفس.
- خلاصها من أيه؟
- من العذاب الأبدى.
- هوه فيه عذاب أكثر من اللى إحنا فيه؟
- (ويتضاحكان) ياخويا إن الله غفور رحيم.
- صحيح. ونحن نؤمن به إلهاً واحداً فريداً ونتذلل أمامه ونتفانى فى طاعته..
- ياسان متريح نفسك من كل ده، وقل الشهادتين وتضمن الجنة.
- ويخسر المسيحيون عبقرياً مثلى!
- نكسب إحنا.
- وكيف يسير الكون إذن لو اختفى الاختلاف والتمايز؟ لو كان ربنا عاوز «لجعل الناس أمة واحدة».
- سبحان الله الواحد الأحد
- التنوع من أسس الجمال ياعلام، والجمال سر الوجود.
- «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»[1].

(١) لو أراد الله أن يخلق الناس على هيئة واحدة لفعل، ولكنه شاء أن يجعلهم مختلفين لكى تغتنى الحياة وتتكامل بذلك التنوع (سورة هود ١١٨ و١١٩). لقد إقتضت حكمته ألا يكون الناس جنساً أو عرقاً واحداً ولكنه أرادهم شعوباً وقبائل لكى يتعارفوا (سورة يونس ٩٩ وسورة النحل ٩٣).

* وفى الفكر الهندوسى أن لدى الناس جميعاً القدرة على معرفة "عقل" الله، وأن حقائق وجوده ونواميسه أتاحها للجميع، وليس هناك من يحتكرها.

- شوف مثلاً قيمة صداقتنا وحبنا لبعض ونحن مختلفان؟! فى الإنجيل عبارة جميلة تقول: «إن أحببتَ الذين يحبونك فأى فضل لك؟» الاختلاف قائم وسيظل قائماً. وهو يمثل تحدياً وامتحاناً للإنسانية لتثبت كيف يمكنها تجاوزه والتعايش معه، وكيف يمكنها تسلق الحواجز لتحتضن "الآخر" فى الجانب المقابل مهما كان مغايراً. فيه قصة إنسانية ذكرها السيد المسيح ليدلل بها على معنى "القريب"[٢].

«إنسان يهودى كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص فعروه وجرحوه وتركوه بين حى وميت. فعرض أنّ كاهناً نزل فى تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوى أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله». فالكاهن واللاوى رغم كونهما من جنسه ومسئولين عنه دينياً وأدبياً فقد مرّا به مر الكرام. «ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنن. فتقدم وضمد جراحاته وصب عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به. وفى الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له إعتن به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعى أوفيك». وكانت هناك خصومة تاريخية مستحكمة، إلى حد العداوة، بين اليهود والسامريين. ولكن الإنسانية فى السامرى تغلبت على هذا الحاجز، بل اخترقته، ليقدم إلى إنسان يختلف عنه كل الاختلاف إحساناً، إمتنع أهله عن تقديمه إليه. فصُنْع الرحمة مطلب إلهى وهو أساس "القرابة"، التى هى لب الإنسانية وعمق وحدتها.

- والقريب فى الإنسانية مثل "الجار" الذى أوصانا النبى به حتى سابع جار.

وجاءت أم علاّم يوماً إلى المدرسة لتدفع المصروفات، وتعرفت على سان.

- إنت عالم/ أوه سان اللى دايماً يكلمنى عنك علاّم؟ تعال زورنا يا إبنى.
- بكل سرور يا "تانت".

وانتهز سان إجازة "مولد النبى" وزار علاّم فى بيته، فقد تواعدا على أكل "حلاوة المولد" معاً. ورحبت به الأم ترحيباً حاراً وقدمت له من حلوى "المولد"، فأكل وهو يهنئها. وفاجأته الأم بقولها:

---

(٢) إنجيل لوقا ١٠: ٣٠-٣٧.

- إنت عارف إن "مولد" مار جرجس الأسبوع القادم؟ .

شعر ببعض الحرج، واكتفى بهز رأسه . وأردفت الأم تقول:

- أصل عندى أختى تحب مارجرجس كتير، وتعتقد فى "سره" وتزوره كلما واجهتها مشكلة .

وأشرق وجه سان ولم يعلق . وإن غمره شعور عميق بالإمتنان والتقدير نحو هذه السيدة النبيلة، التى جسدت بكلمات قليلة صادقة معنى ومبنى النسيج الواحد للأمة، الذى يجمع ولا يفرق . وكشف عن ساقه اليمنى، وأشار إلى ندبة عميقة وطويلة بطول الساق . وروى لها كيف حدثت له وهو فى السابعة حين اشترك مع أصدقائه فى "زفة الشيشان" بمناسبة المولد النبوى الشريف . فقد كان أبوه يشجعه دائماً على مشاركة أصدقائه المسلمين فى أعيادهم ومناسباتهم .

- حمد الله بسلامتك يا إبنى .

- أنا منساش عم أحمد رجل المطافى الطويل اللى حملنى بكل حنان إلى مركز الإسعاف لتضميد جرحى، ثم إلى بيتى على قدميه مسافة كيلومترين تقريباً . وحاول يخفف علىّ ويشجعنى شوية بالغناء وشوية بالحكايات .

- أهل الخير موجودين يا إبنى فى كل زمان ومكان .

- تتصورى أمى باست إيديه الأتنين وهى تشكره . وأصرت أختى أن تذهب معه إلى بيته . ولما رجعت فهمنا إنها إشترت لأولاده حلاوة المولد . وفى اليوم التالى ذهبت إلى محل عمله لتشكره مرة أخرى أمام زملائه ورئاسته .

- أهى دى الروح الجميلة بحق . الناس لبعضها . والمحبة مكسب كبير .

(وظهر علام ومعه مضارب البنج بونج) .

- يالله بينا يا سان كفاية فلسفة .

- (الأم) على فين .

- الهلال والصليب عندهما ماتش بنج بونج مهم . وبعدين حنروح نذاكر فى بيت سان .

- (إبتسمت الأم) ربنا يديم محبتكم . . بس ماتتأخرش يا علام .

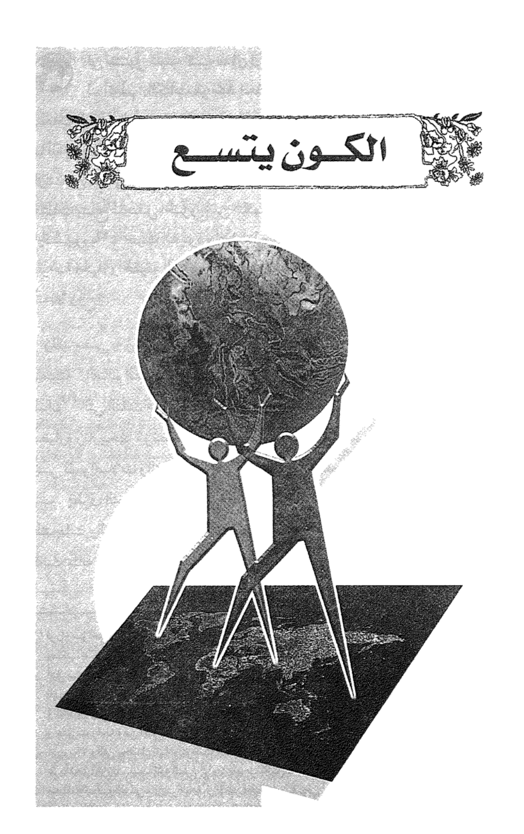
* * *

واستمرت علاقة علام وسان طوال مرحلتى التعليم الثانوى والجامعى. ومع أن علام إتجه إلى العلوم وسان إلى الآداب، فقد واصلا لقاءاتهما. وواصلت عائلاتهما التزاور. وتزوج علام فتاة ذكية متعلمة زكتها له أم سان، تنتمى لأسرة متدينة من جيرانها.

ولم تستطع مسئوليات العمل ومشاكل الحياة أن تباعد بينهما، بل قد زادا إقتراباً بحكم إنشغالهما بقضايا الوطن، وتعلقهما به وبمستقبله. وعُرفا بحواراتهما المستمرة حول كل ما يدور فى البلاد، وبتفكيرهما المستمر في الصالح العام ومجد الوطن. وأطلقت عليهما سامية، زوجة علام، "قادة حزب الأحلام اللذيذة"، لاعتقادها أنهما كانا مثاليين أكثر من اللازم. وظلت تتابع رسائلهما وكتاباتهما[٣] بكل حماس واهتمام.

(٣) وهى مضمون صفحات هذا الكتاب.

الكون يتسع





فى مستهل شبابه كتب **سان** فى مذكراته : تعلمت من الكتاب ما لم أعلم، وما لم أتعلّم. الكتاب هو سيد المعارف بلا منازع. هو جملة مدارس، وربوات من أصحاب الفكر والرأى والخيال. وهو المحصول الدائم لإهتمامات الذهن الإنسانى كلها، كما أنه يتيح البهجة مع العقول المتحضرة. وهكذا اتسع الكون، وامتد أمامى، وإن كنت مازلت فى مكانى، تحصرنى مساحات الأمتار القليلة التى هى مسارح أحلامى. إن الكتاب يتيح للعقل الخروج من الكهف، الذى أشار إليه أفلاطون فى محاورة "الجمهورية"، حيث القيود والأشباح والظلال، إلى رحابة الخارج حيث الشمس وفرحة الحياة والحقيقة الساطعة. وصدق "جوته" حين قال «إن بيتاً يخلو من كتاب هو بيت بلا روح».

ولقد مضى به زمن طويل تعلق فيه فكره وخياله بمركز "الكون" القديم، والذى جرت تسميته "العالم القديم"، الذى امتد على سواحل البحر المتوسط، فى مجموعة من البلدان[1] التى التقت على هذا البحر الداخلى، الذى كان يعتبر "وسط" العالم، وظلت الحضارة وتاريخها مرتبطة به، فهو "بحيرة الحضارة الكبرى"، والذى كان بمثابة طريق رئيسى للمواصلات والتجارة. وعلى مدى الأجيال تطورت تجارته وحضارته معاً جنباً إلى جنب. فطرق التجارة، التى تمثل خطوط إلتقاء الشعوب، لم تساعد فقط على نقل المواد والمنتجات والناس، بل والثقافة بما فيها الأفكار والعادات والتقاليد، والديانات أيضاً. فكانت بمثابة شرايين ثقافية تضخ دماء المعرفة بين الشعوب التى تجرى وسطها.

---

(١) فوراء سواحله، فى عصوره القديمة، كانت تمتد مناطق شاسعة غامضة : فى الغرب كان المحيط الأطلسى الذى يصعب عبوره، وفى الشمال والجنوب كانت أرض البرابرة الذين كانوا يحضرون منتجاتهم ليقايضوها بمنتجات أهل سواحله، ومنهم المصريون القدماء بحضارتهم الرائدة فى الجنوب الشرقى. أما فى الشرق، وحتى هضبة الفرس (إيران) فامتدت مناطق انزاح عنها برقع الجهل والتأخر، حيث قامت الحضارات القديمة للأشوريين والبابليين والفينيقيين والسوريين (الآراميين) الذين يتمون للعائلة السامية، التى كانت الجزيرة العربية موطنها، واعتبرت واحدة من أهم "حاضنات" الجنس البشرى. فى حين إنتمى اليونانيون والرومان إلى العائلة الهند - أوروبية، والتى يحتمل أنها استوطنت منطقة حشائش "الاستبس" شمال بحر قزوين، وكانت الفرع الذى إتجه غرباً نحو أوروبا، بينما إتجه الفرع الآخر صوب الجنوب الشرقى، واستقر بعضه على هضبة إيران، حيث نشأ منه المديانيون والفرس، وعبر البعض الآخر الجبال ليستقر فى أودية نهرى الإندوس والجانجز فى شمال الهند. ويؤكد الأنثربولوچيون اليوم أن كل هذه العائلات قدمت فى الأصل من سهول هضبة البحيرات العظمى، وخاصة حول بحيرة رودلف، فى وسط إفريقيا، وسهول أثيوبيا الجنوبية.

كما أن المتوسط كان دائماً بوتقة ونقطة تقابل لحضارات عظيمة وخاصة الديانات السماوية الثلاث. واشتهرت فيه مراكز العلم الكبرى مثل هيليوبوليس، وصور وبيبلوس، وأثينا، والأسكندرية، وأنطاكية وغيرها. كما تقاربت المنابع الثقافية لبلدانه، وهى التى ترجع إلى ثقافات الشرق الأدنى القديم، من مصر ووادى الرافدين وفينيقيا وسوريا وميديا (أعالى الفرات)، حتى الأناضول، ووصولاً إلى بلاد الإغريق الأوائل على سواحل بحر إيجه. وجمعت بينها النزعة الروحية المؤمنة بضرورة الخالق، والموروثة فى كل الثقافات القديمة فى الشرق الأدنى، إلى جانب الفلسفة والعلم. وتأثر بها الأدب والموسيقى وعلم التاريخ وعلوم اللغة، وغيرها من النظم الفكرية. ولعبت الترجمة والنقل دوراً رئيسياً فى هذا التمازج والتلاقح، قام بهما اليونانيون فى القرون الميلادية الأولى، ثم جاء دور العرب فعربوا ما توافر لديهم من مصادر، ونقل عنهم الغرب ما عربوه فيما بعد.

واصطدم **"سان"** بمقولات فى الغرب تصر على إعطاء الريادة الحضارية لليونانيين والرومان، ومعهم العبرانيون[٢]، وتقر بفضلهم وحدهم على الغرب، بإعتباره يدين بالدين أو الشريعة لإسرائيل، وبالعلوم والفلسفة لليونان، وبالقانون والإدارة لروما، التى اضطلعت أيضاً بدور الوساطة للانتقال من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى. فلا ذكر لأى دور للفكر القديم، فى مصر وبابل وفينيقيا مثلاً، فى تأسيس الفكر اليونانى، المعتبر الجذر الأول للفكر الفلسفى الغربى.

وأحزنه الذين يغالون فيما يذهبون إليه من أن الثقافة اليونانية قامت بذاتها على خطوطها وحظوظها هى، دون مساعدة أفكار ومعارف الشرق، بل وفى تناقض معها. فهى قامت كما بقوة سحرية، وسط عالم غريب تماماً، مثلما إنبثقت الإلهة "أثينا" من رأس زيوس، حسب الأسطورة الإغريقية. لم تقتبس شيئاً من الشعوب حولها، الذين لم يتعد دورهم - فى رأيهم - مجرد إظهار مدى تفرد وتميز ثقافة اليونان. فالعلم بمفهومه النظرى المجرد، الذى يعنى إكتشاف القانون العلمى الذى يفسر الظاهرة وجزئياتها، هو

---

(٢) وأحدث "هراء" هو ما صرح به نتنياهو، رئيس وزراء إسرائيل السابق، من أن المصريين سرقوا الحضارة من شعب إسرائيل، ونسبوا الأهرامات إلى أنفسهم. ولا أدرى لماذا لم يحملوها معهم مع ما "سلبوه" من ذهب ونفائس من المصريين (تك٣ : ٢٢). وحسب شهادة التوراة، فإن صلتهم بالبناء كانت صناعة الطوب اللبن وحسب. فما كانوا من المعماريين أو قاطعى الأحجار. والثابت أنهم استعانوا بأبناء فلسطين فى بناء هيكلهم وقصورهم لما استقروا فيها بعد خروجهم من مصر.

إبداع يونانى. وهذا ترديد لرؤية أرسطية قديمة، فأرسطو، فى تأريخه للعلم والفلسفة، بث هذه الرؤية التى ترسخ المعجزة اليونانية، وإبداع الإنسان اليونانى، الإنسان الحق وحده "الحيوان العاقل الحر". أما بقية الناس فبرابرة(*). وهو ما إستقر فى وعى "الغربى" وجعله ينظر إلى "الآخر" ويعامله بمكيالين. وفى هذا إنكار لديناميكية الأفكار، وتحركها المستمر، مع الفن والخبرات الإنسانية، بين الشعوب القديمة والحديثة على السواء، مما يتيح الاقتباس والتطوير، ونمو الحضارة الإنسانية. فهى تسرى مسرى الطاقة عبر أسلاك الزمن وعقول البشر، طالما أن التوصيلات والإتصالات قائمة.

ويؤمن "سان" أن الذين يروجون لمثل هذه الشطحات، ويحرضون اليوم على عدم التقاء "شاطئى" البحر المتوسط حضارياً، وهو البحر القائم همزة وصل دائمة بينهما، إنما يفرزونها من مخزون من الشك والخوف، الذى ولّدته الحروب والصراعات بين شماله وجنوبه على توالى العصور. ويفترضون، أو بالأحرى يفرضون استحالة التلاقى بين الحضارة الأوروبية المسيحية فى الشمال، والحضارة العربية الإسلامية والأرثوذكسية فى الجنوب[٣]. مع أن أوروبا على تنوع مشاربها الدينية وأنظمتها السياسية وأيديولوچياتها، هى الشريك التاريخى لحضارتنا العربية من خلال جدلية سياسية وإجتماعية وإقتصادية واستراتيچية وحضارية كبرى، أوشكت فى لحظات كثيرة أن تجمع بين الشرق الشمالى والشرق الجنوبى من حوض البحر المتوسط، أى بين أوروبا والعرب، بين المسيحية والإسلام، لأسباب عدة على رأسها إصرار الجميع على الإبقاء على إستقلالية وصيانة مصالحه وتأمين مستقبله.

وهناك شواهد فى أوروبا ذاتها تؤكد أن العرب هم أصل النزعة العلمية، وأن أقدم الجامعات فى أوروبا كانت جامعات "طليطلة وقرطبة وأشبيلية"، فى أندلس أسبانيا،

(*) أطلق فى العالم القديم على كل من ليس يونانياً أو رومانياً، أى أجنبى. واستعمل أيضاً ليشير إلى كل من ينتمى إلى شعب أو جماعة ذات حضارة بدائية، أو من يفتقر إلى أية ثقافة أو تمدن.

(٣) وهى من مناطق التمايز الحضارى والثقافى والهويات، التى تدخل ضمن أحزمة الصدام الذى يحتمل إنطلاقه بين شعوبها، حسب مقولات صموئيل هنتنجتون. وإن كانت مصر، بحسها الحضارى وبإدراكها البعد المتوسطى فى هويتها الثقافية، قد طرحت مبادرتها أمام البرلمان الأوروبى، عام ١٩٩١، لقيام "منتدى البحر المتوسط" الذى يشمل جميع دول أوروبا والشرق الأوسط، ويكون بمثابة نقطة محورية للحوار والتفاعل بين الرسمى وغير الرسمى، وبين المثقفين والمهنيين فى مجتمعاتهم، مما يفتح آفاقاً أرحب للتعاون على المستويين الإقليمى والدولى.

وصدرت من هذه الجامعات البحوث العلمية والفلسفية التى صنعت النهضة الأوروبية الحديثة .

وطبيعى أن يكون هناك من يتسمون بالموضوعية والأمانة العلمية والتاريخية ، ويعترفون دون تردد بتأثير الحضارات التى قامت فى وادى النيل ووادى الفرات وجزيرة كريت ، بإعتبارها سابقات تاريخية لقصة كل من إسرائيل (القديمة) واليونان وروما ، وشكلت الإطار التاريخى الذى فى نطاقه قامت ثلاثتها ولعبت أدوارها . وقدمت قيماً ثقافية حقيقية تركت بصماتها على أعمال وحياة الثلاثة .

وأكثر من ذلك فقد ثبت الآن أن مصر الفرعونية هى أم حضارات البحر المتوسط(٤) . والمؤرخ هيرودوت نفسه هو أول من قال إن المدن الإغريقية كلها مصرية قديمة . ويؤيده اليوم باحث معاصر هو "مارتن برنال" مؤلف الكتاب المعروف "أثينا السمراء" ، إذ يقول إن أكثر العادات الإغريقية فرعونية الأصل ، وإنه إلى جانب ما تعلمه الإغريق فى مصر(٥) قد نقلوا معهم إلى بلادهم كل النظريات الهندسية والمعمارية . بل إن نصف اللغة الإغريقية القديمة من أصل فرعونى . وفى أمريكا ، الآن ، دراسات تؤكد أن الحضارة الإغريقية كلها مصرية قديمة . ومن جانبه يقول "چون كيسى" ، عالم المصريات البريطانى بجامعة

---

(٤) وقد نشرت جريدة "التيمز" اللندنية (٨/ ١٠/ ٩٦) دراسة تاريخية بريطانية تؤكد أن مدينة الإسكندرية هى أم الحضارة الغربية . وأن المؤرخين والعلماء أختاروها كأفضل مدينة فى العالم القديم ، حققت السعادة والرفاهية للجنس البشرى كله . وكانت هى أول مدينة فتحت أبوابها أمام العالم ، ونشأ فيها ما يمكن تعريفه "بالمجتمع المفتوح" ، إذ كانت تمثل تجمعاً فريداً لسكان العالم فى ذلك الوقت ، من مصريين يقطنون فى القطاع الغربى ، وإغريق فى القطاع الشرقى ومعهم اليهود وغيرهم من سكان العالم آنذاك . كما أنها إبتكرت السلع الغذائية للحضارة العالمية ، فكل المنتجات الزراعية كانت تأتى إليها من مناطق البحر المتوسط حيث يُعاد تصنيعها ، وتباع فى الأسواق الكبيرة التى تؤمها نساء الطبقات المتوسطة . ومما ساعدها على ذلك أن الحضارة المصرية كانت تحمل أيضاً ملامح الحضارة البحرية ، من الخروج إلى العالم الرحيب وإكتشاف أصقاعه . فقد أنشأت الموانئ على سواحل البحرين المتوسط والأحمر ، وبنت الأساطيل التى قامت برحلات بعيدة مثل رحلة حتشبسوت إلى بلاد البونت (حوالى عام ٥٠٠ ق . م) .

(٥) فقد جاء إلى مصر كل من كان منهم به ظمأ إلى المعرفة ومستعد لاحتمال المشقة فى سبيلها . ولقد جاءها أفلاطون ، أعظم فلاسفة اليونان ، ونهل من حكمتها وعلومها ومعارفها ، مما دفع "هنرى توماس" فى كتابه "أعلام الفلاسفة" إلى إرجاع التفكير الحديث إلى حكمة المصريين ، التى أخذها عنها اليونانيون ثم إنتقلت إلى الغرب . فجذور ما أخذ عن أفلاطون وأرسطو موجودة فى فلسفة "بتاح حتب" الذى سبقهما بثلاثة وعشرين قرناً . وتراث تولستوى الروسى وشوبنهور الألمانى كائن فى حكمة "أبوؤر" وإلهامات سبينوزا وكانط ترديد لرؤى أخناتون! . كما أن الفكر المصرى القديم ، فى "كتاب الموتى" مصدر مهم للديانات التوحيدية الثلاث .

كمبردج، إن الفراعنة الذين حكموا مصر قرابة ثلاثة آلاف عام أقاموا أعمالاً وتركوا آثاراً تفوق الخيال، وهى الآن مثار شغف العالم وإعجابه.

ويردد "سان" عن إقتناع مقولة توفيق الحكيم عن الحضارة المصرية إنها «ظهرت فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة، كما يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق»، وأنها بمثابة القاعدة الكبيرة للحضارة الإنسانية بما هى أقدمها وأحفلها بالريادات فى العلوم والفنون، وفى الفكر والروح. فالمصريون القدماء أبدعوا كل فكرهم وأدائهم وعلومهم على غير مثال سابق(٦). ولمصر دور رائد وأساسى فى وضع قواعد الثقافة الأولى، التى حفزت مبدعى الثقافة فى المناطق المطلة على البحر على التفاعل مع مقوماتها. وما لبث البحر المتوسط أن أصبح عالماً ثقافياً فى قلب العالم القديم، ثم اتسعت دوائره على أساس الأخذ والعطاء حتى تغلغل فى مناطق عميقة فى آسيا وإفريقيا وأوروبا، وأصبحت ثقافة البحر المتوسط هى الثقافة العالمية التى شملت قارات العالم كله.

وتأصل هذا الدور بقيام مكتبة الأسكندرية العظيمة، التى أنشأها بطليموس الأول (سوتير) فى القرن الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى القرن الثالث الميلادى. فعاشت العلوم والفنون على كوكبنا لمدة سبعة قرون، وهى تدور فعلاً حول منارة هذه المكتبة، التى كانت أول مركز للبحث العلمى، وأول معهد للدراسات الإنسانية، وأول مكتبة للتراث الأدبى والعلمى فى العالم(٧). وهى المكان الذى تشكلت فيه نظرية فيثاغورث الشهيرة، نظاماً منهجياً بعبقرية إقليدس السكندرى (٣٠٠ق.م). والتى أشعلت خيال الإغريق.

والحضارة المصرية هى القاعدة الكبيرة للديانات السماوية بشوقها إلى المطلق، ونزوعها إلى التجرد، وولوعها بالقيم فى الفكر والروح. والكثير من قيمها يعيش الآن فى المسيحية والإسلام المصريين، وتأثرت به شعوب العالم بدرجات متفاوتة.

---

(٦) وهى جديرة بلقب "الحضارة المعجزة"، كما يقول جون ولسون مؤلف كتاب "الحضارة المصرية". فالتاريخ الحقيقى للعلم يبدأ من برديات كاهون وجاردنر وسميث وايبرز الطبية (القرن ٢٠-١٦ق.م)، وبرديات رانيدا وجولينشف وغيرهما فى الهندسة والرياضيات.

(٧) إحتوت على مئات الألوف من الكتب، ولفائف بردى مخطوطة قدرت بنصف المليون. وكان "الموسيون" من أهم أجزائها بإعتباره أول مركز متكامل للبحث العلمى فى تاريخ البشرية، ضم مدرجات للمحاضرات وقاعات للتشريح، وحدائق للنباتات النادرة. والعلم الذى أنجز فيه على أيدى علماء الأسكندرية هو مصدر كل ما يعرفه الغرب الآن من علم. واحتلت وريثتها، المدرسة السكندرية اللاهوتية، المكانة المتميزة فى العالم المسيحى، وكانت بصماتها واضحة ولاهوتها له السيادة فى القرون المسيحية الأولى.

وظل البحر المتوسط "مركز الكون" حتى القرن السابع عشر الميلادى، حين كانت مدينة البندقية الإيطالية محوره، لكونها مركز النشاط التجارى والحرفى والفنى. وأصابت ثراءً ورخاءً واسعين. ولعل تأثيرها وقوتها، فى زمان عزها، بلغا الجزر البريطانية، وأثرا فى شكسبير وأدبه، فكتب مسرحيتين مشاهدهما فى البندقية، وهما "تاجر البندقية" و"عطيل". ولم يهز وضع ومركزية هذا البحر إلا إكتشاف أمريكا فى نهاية القرن الخامس عشر (١٤٩٢م). فبعده تغيرت طرق التجارة. وتوجه النشاط نحو استثمار القارة الجديدة الضخمة. ومن ثم انتقل مركز الجاذبية للعالم المتحضر إلى شمال أوروبا.

وقد جذبت قصص الكشوف الجغرافية الحديثة إهتمام **"سان"**، لأنها كانت توسع نطاق عالمه بكل ما تضيفه من يابس وماء إلى خريطة خياله. وقد بدأ عصرها قبل نهاية القرن الخامس عشر الميلادى[٨]، وحملت لواءه چنوه الإيطالية، والبرتغال وإسبانيا، فى تحد لمدينة البندقية، وحسد لها على إزدهارها وإحتكارها لتجارة عالم البحر المتوسط. ففى منتصف القرن تقريباً وصَل البحارة البرتغاليون إلى الساحل الغربى لإفريقيا (١٤٣٠)، ودفعوا طريقهم إلى المحيط الهندى، ووصلوا بقيادة فاسكو دى جاما إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨)، وحققوا الهدف الذى كانت تسعى إليه أوروبا فى ذلك الوقت، وهو إيجاد طريق إلى الشرق الأقصى يحل محل الطريق البرى، عبر أراضى الإمبراطورية العثمانية. وهو نفس الوقت تقريباً الذى عبرت فيه السفن الإسبانية المحيط الأطلسى، تحت قيادة كريستوفر كولومبس، واكتشفت جزر الهند الغربية (١٤٩٢). ثم واصل الأوروبيون إستكشاف السواحل الأمريكية من الشمال إلى الجنوب، واستطاعوا أن يصلوا، على سواحل أمريكا الجنوبية، إلى المضيق الذى سمى باسم مكتشفه ماجلان (١٥١٩)، وإخترقوه مبحرين غرباً فى المحيط الهادى، ليصلوا إلى جزر الهند الشرقية،

---

(٨) ووصل الإغريق، من جانبهم، إلى شواطئ البحر الأسود وشواطئ الهند فى أعقاب غزوات الإسكندر. ووصلت السفن فى عهد الرومان حتى سواحل إنجلترا وألمانيا. ونشط العرب فى زيارتهم للبحر فى الفترة ٥٠٠-١٥٠٠م. ووسعوا نطاق رحلاتهم التجارية فى المحيط الهندى، فوصلوا إلى مدغشقر وموزنبيق فى الجنوب، وإلى الهند وسيلان والصين فى شرق المحيط. وبرز بينهم "الشريف الأندلسى الأدريسى" و"ابن جبير الأندلسى"، و"ابن بطوطه" (١٣٠٤-١٣٦٨م) الذى زار ربوع آسيا وإفريقيا، وسجل رحلاته فى كتابه "تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

محققين للمرة الثانية هدف أوروبا فى الوصول إلى جزر التوابل. واستطاع الهولنديون الوصول من هذه الجزر إلى سواحل أستراليا، فجزيرة تسمانيا ثم نيوزلنده (١٦٤٢). أما قارة أستراليا فاكتشفها الإنجليز بقيادة چيمس كوك (١٧٧٨)، الذى وصل أيضاً إلى سواحل أمريكا الشمالية الغربية.

ويتوسط عام ١٤٩٢، عام إكتشاف القارة الجديدة، فترة تمتد أربعة قرون. فقبله بقرنين تقريباً إنتهت غزوة الغرب للشرق العربى بهزيمته وإنسحابه بعد معارك استمرت قرنين. وبعده بقرنين تقريباً نجح الغرب ونهض بثورته الصناعية (إنجلترا ١٧٦٠)[٩] التى غيرت وجه العالم، وبدأ هجمة استعمارية جديدة استمرت قرنين فى أفريقيا والشرق الآسيوى.

ويأخذ بعض المؤرخين عام ١٤٩٢ هذا بإعتباره تاريخاً يفصل بين عالمين: العصور الوسطى، والتى عرفت بعصر الإيمان، وقد بدأت فى الأفول، والعصر الحديث وقد بزغ نجمه. وهو ما يعنى الانتقال إلى عالم جديد[١٠]، أو بتعبير الوقت الحاضر، إلى نظام عالمى جديد. ويتصادف بعد مرور خمسة قرون منه يتحدث العالم الآن عن نظام عالمى جديد مرة أخرى (١٩٩١). وقبله أيضاً بخمسة قرون يمكن القول إن نظاماً ما جديداً تأسس حين قامت الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بتتويج أوتو الأول "Otto" (٩٦٢م)[١١]، ككيان سياسى كبير، فى وسط أوروبا، وسط الفوضى السياسية التى اتسمت بها العصور الوسطى.

وإنصب إهتمام **"سان"** على تحليل نتائج هذه الأحداث التاريخية الجسام على مجمل العالم، وعلى مقدرات الشعوب وحياتهم - وعلى الإنسان الفرد الذى هو مركز

---

(٩) سبقتها هولنده على نطاق أصغر، وبنشاط تجارى ضخم، فى القرن الثانى عشر الميلادى.

(١٠) والواقع أن القرن الخامس عشر الميلادى قد حفل بأحداث هامة كانت بمثابة روافد حيوية تصب فى نهر التغيير العظيم، الذى أدى لقيام عصر النهضة، والثورة العلمية، والإصلاح الدينى وغيرها. وشهد ميلاد قطبين عظيمين هما كوبر نيكوس (١٤٧٧) الذى قلب المفاهيم السائدة بما قدمه من فتح فى عالم الفلك، ومارتن لوثر (١٤٧٣) الذى رفع لواء الإصلاح الدينى. وقبل ذلك ظهرت أول طبعة للكتاب المقدس بمطبعة جوتنبرج (١٤٥٥) مما فتح الباب لإنتشار الثقافة الدينية والعامة، وساعد على توسيع نطاق الإصلاح الدينى وفاعليته.

(١١) حسب إحدى وجهتى نظر تاريخيتين. الأخرى تعتبر بداية هذه الإمبراطورية بتتويج شارلمان عام ٨٠٠م، وقد قامت ببركة بابا روما واستمرت حتى عام ١٠٨٦، وكانت تضم الشعوب الناطقة بالألمانية وشمال إيطاليا.

تعاطفه : ومدى ما أصابته به ، فى موقعه ، من أذى أو شر ، أو ما أصاب هو منها من نفع وخير .

فقد أدت الكشوف الجغرافية إلى وصول أوروبا إلى مناجم المعادن الثمينة كالذهب والفضة والماس ، وخامات الحديد والنحاس وغيرهما ، ومواد الطاقة كالفحم ومؤخراً البترول . فلما قامت الثورة الصناعية إندفعت أوروبا نحو استعمار إفريقيا وآسيا ، وقبلهما الأمريكتان ، لتأمين حاجتها من كل هذه الثروات ، ومعها الموارد الزراعية ، ولتكوين تراكم رأسمالى هائل ، كان الأساس فى دعم وتوطيد الثورة الصناعية وإمتدادها من إنجلترا إلى غرب أوروبا ، مما حقق لهذه البلاد طفرات غير مسبوقة فى التقدم ، وفى الثراء أيضاً . وإن كان الإنسان العادى - كالعامل والحرفى وأمثالهما - قد وقع ضحية لهذه الثورة ، إذ جرى استغلاله بصورة لا إنسانية ، من أجل تعظيم أرباح أصحاب الصناعات من الرأسماليين . وقد صور "تشارلز ديكنز" الأديب والروائى الإنجليزى ، وغيره من كتاب أوروبيين حياة هذا الإنسان ومأساته فى رواياتهم وقصصهم ومقالاتهم .

أما شعوب القارات المستَعْمَرة فقد دفعت الثمن غالياً ، من استنزاف لثرواتهم وإستغلال مشين لإمكاناتهم ، وتخريب لثقافاتهم ، واستعباد لحرياتهم ، وإمتهان لآدميتهم ، وسقوط ضحاياهم نهباً للجوع والحرمان حتى أن كاتب فرنسا الكبير "أندريه جيد" قال قولته «إن حزناً هائلاً قد استقر فى نفسى إلى آخر الزمن» ، بعد ما زار هذه المستعمرات التى حكمتها بلاده وبلاد أوروبية أخرى ، وأذهله ما رآه من مأساة الإنسان الإفريقى .

وقد تجددت الأوجاع بمناسبة الاحتفالات بذكرى مرور خمسمائة عام على إكتشاف الأمريكتين إذ ثار أحفاد السكان الأصليين ضد "كولومبوس" ووصفوه بالسفاح(*) ، واتهموه بأنه فتح الباب للاستغلال الفاحش والتوسع الاستعمارى الذى خرب المجتمعات ، وللعنصرية التى أبادت الشعوب ، وأنه أول من أدخل تجارة الرقيق بالأمريكتين ، وتسبب فى إبادة الملايين من الهنود الحمر وطمس حضارتهم . وظهرت عدة

(*) وهو الذى كتب فى مذكراته أن اكتشافه للعالم الجديد هو جزء من خطة إلهية لإقامة "جنة الألفية" ، وأن الله جعله رسولاً إلى هذه الجنة ! (التى تحولت إلى جحيم لشعوبها الأصليين) .

مؤلفات لمفكرين يرددون ذات الاتهامات. منها كتاب لـ "كيرك باتريك" بعنوان "فتح الجنة"؛ بينما دعا الكاتب المكسيكى "ألفريدو ماجينيز" إلى تحطيم أسطورة كولومبوس الذى "دمر أعرق الحضارات"، وفتح الباب لإبادة الهنود الحمر، الذين كان عددهم خمسة عشر مليوناً عندما وصل سواحل أمريكا، فهبط إلى مليون واحد بعد عدة قرون.

وبالمثل أقام الشعب فى جزر هاواى محكمة لإدانة المكتشف الإنجليزى كوك، الذى عذب أجدادهم وأحرقهم حتى قتلوه فى النهاية. وطالب الأبورجين فى أستراليا بمحاكمة الرجل الهولندى الذى إكتشف قارة أستراليا، قبل وصول كوك إليها. فقد عذبهم وكواهم بالنار. وإنتقموا منه متأخراً جداً بأن أقاموا التماثيل له وأحرقوها.

وأدت الكشوف أيضاً إلى تطور نوع قديم من الإجرام والإرهاب وإتساع نطاقه، وهو قرصنة البحار[١٢]. فانتشرت بواخر القراصنة الضخمة المسلحة تسليحاً متقدماً فى المحيطات تهدد الملاحة البحرية وبحارتها، وتغير على السواحل غارات همجية، تقتل أهلها، وتنهب الثروات، وتنشر الفساد، والأمراض أيضاً. وإنتشر أدب القرصنة فى الكم الكبير من القصص والروايات التى تصور مغامراتها وويلاتها، والكنوز التى طمرها القراصنة لإخفائها، وماتوا وتركوها للمغامرين يبحثون عنها حتى الأمس واليوم.

أما إكتشاف الأمريكتين، وانتشار زراعة السكر والبن والطباق والنيلة، والقطن بالذات، فكان وبالاً على شعوب إفريقيا خاصة. إذ دفعوا ثمناً غالياً جداً، حين تحول

---

(١٢) نشاط إجرامى قديم فى المحيط الهندى والبحر المتوسط، الذى كان واحداً من ساحاته المهمة إشتهرت فيه قراصنة البربر، قبل أن ينتقل إلى المحيط الأطلنطى فالهادى. وكان للقراصنة قوانينهم وحكوماتهم وكانوا يحررون بمقتضى قانون "لا غنائم ... لا مكافآت No prey no pay" ومن أشهر شخصياتهم القرصان المعروف باسم "ذو اللحية السوداء The Black Beard" وكانت من بينهم نساء أوائل القرن الثامن عشر، وإشتهرت من بينهن "Anne Bonney" ومن اسمها مع كلايد كان اسم فيلم الإجرام المرعب "Bonney & Clyde". وكانت سفن القراصنة ترفع أعلاماً تشير إلى جنسيتها أو هويتها، وما أن تقترب من السفن الضحية حتى ترفع علم القراصنة الشهير بعظمتيه وجمجمته، ومن ثمّ تعترضها وتسرق حمولاتها من الغلال والبضائع والذهب وغيرها، ثم تختفى فى ضباب المحيط.

ومن عجب أن القرن الجديد يشهد الآن ألواناً جديدة من القرصنة، كالسطو على الحاسبات الآلية لإختراق أسرارها واستغلال معلوماتها لصالح اللصوص، أو لتبديدها بإصابة الحاسبات بالفيروسات. ولعل أخطرها "قراصنة اللاسلكى" الذين يدعون أنهم من برج المراقبة، ويقدمون عامدين تعليمات خاطئة للطيارين بالهبوط، مثلاً، معرضين بذلك أرواح مئات المسافرين للخطر، كما حدث مؤخراً فى بريطانيا.

ملايينهم إلى عبيد أرقاء [١٣]، ومات أضعافهم فى مراحل اصطيادهم وسط غابات القارة، وأثناء ترحيلهم إلى حقول العبودية على بعد آلاف الأميال من أوطانهم وأهليهم. وسجل الأدب العالمى هذه المآسى فى قصص وروايات، من العم بن Uncle Ben للكاتب H. B. Stowe، إلى أحدثها رواية "محبوبتى" للكاتبة تونى موريسون التى فازت بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٤، ورواية الجذور للأديب الأمريكى أليكس هيلى، وغيرها. وضاعفت الحرب الأهلية الأمريكية، التى قامت بسبب قضية الرق، من ويلات الزنوج. ومازالت هذه القضية تمثل اليوم جزءاً من أزمة المجتمع الأمريكى، الذى تهزه صور العنصرية، ومشاكل الرجل الأسود، خاصة بعد ظهور النازية الجديدة، وإرتفاع أعلام "الأمة الآرية"، ومعها الدعوة إلى "تبييض أمريكا" بترحيل السود إلى إفريقيا. وهى مشاكل ومآس تكشف عنها روايات أدبية مثل "الرجل الخفى" لرالف أليسون، و"النار فى المرة القادمة" لجيمس بلدوين، وغيرهما الكثير.

والإنسان العادى أو من يشار إليه "برجل الشارع" هو أيضاً الذى إكتوى بالآثار الجانبية التى تمخضت عنها حركة الإصلاح الدينى اللوثرية، التى استهدفت عتق الإنسان وضميره. فقد إتسع نطاق الصراع السياسى والدينى، وقامت ممالك وإمارات وسقطت أخرى، وإنفتحت أبواب جهنم على مصراعيها، وصارت أحكام محاكم التفتيش - محاكم الضمير الرهيبة - جوازاً لدخول ضحاياها فيها، حيث عانوا أهوالاً وألواناً من التعذيب قيل إنها فاقت خيالات الشيطان الشريرة نفسها. ثم كانت الهجرات الجماعية إلى

---

(١٣) المعروف أن البرتغاليين والأسبان بدأوا جلب الرق قبل رحلة كولومبس بقرن، للعمل فى مزارع السكر حول ملجا (أسبانيا) والجرف (البرتغال). والاسترقاق فى الواقع قديم العهد جداً. وكان له مكانه فى الفلسفة! فأرسطو هو الذى قسّم الموجودات فى المجتمع اليونانى القديم إلى قسمين: (١) الأشخاص هم الأسياد الذين يملكون الأرض والعقل والسلطة. (٢) الأشياء وهم العبيد العاملون فى الأرض والنساء والحيوانات. وكان يرى أن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة. وقد قامت للعبيد فى جنوب إيطاليا أشهر ثورة فى التاريخ، وذلك ضد روما فى القرن الأخير قبل الميلاد (٧٣-٧١ق. م). وساعدت كتابات التنويريين العظام، أمثال روسو ومونتسيكيو والأب ريال وجريجوار، ضد الرق على تراجعه. كما أعلن لورد مانسفيلد بإنجلترا عدم شرعيته عام ١٧٧٢م..

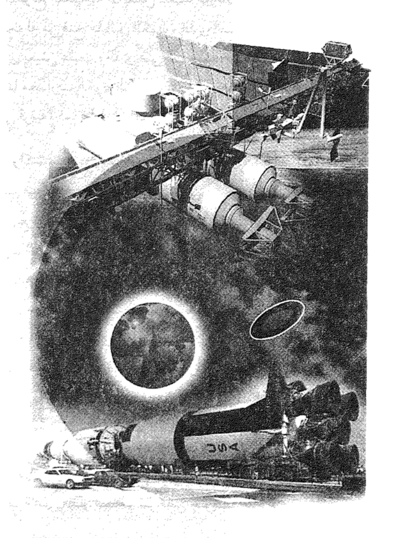
- وبعد حوالى خمسة قرون من بدء الحملات الاستكشافية والاستعمارية لإفريقيا، قدم د. چورچ كارى، أسقف كانتربيرى، إعتذاراً رسمياً لقبائل إفريقيا عن المعاملة اللانسانية التى لقيها الأفارقة على يد الإنجليز خلال العهد الاستعمارى. وقد تم هذا خلال لقائه مع زعماء القبائل الإفريقية فى ولاية أوجون جنوب غرب نيچيريا (فبراير ٢٠٠١)

العالم الجديد، أملاً فى النجاة من ويلاتها، حيث واجه المهاجرون أهوالاً من نوع آخر، وتسببوا من جانبهم فى مآس لسكانه الأصليين قبل أن تنعم ذرياتهم بالاستقرار والحرية.

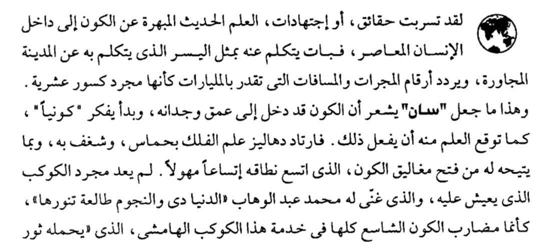
وكأن عجلة التاريخ حين تدور تهيئة لنقلة جديدة نحو ما يسمى "بالتقدم والتمدين والتحديث"، إنما تعتمد على طاقات الإنسان العادى، من تضحياته وحرمانه، من عرقه ودمه. ويكفينا اليوم أن نلقى نظرة، والعالم يستعد لقفزة جديدة، كما يُروّج، على ساحات الموت فى رواندا والكنجو والصومال وسيراليون وأفغانستان، وقبلها فى كمبوديا وليبريا وجواتيمالا ونيكارجوا لنتأكد أن الذى يدفع الثمن دائماً هو الإنسان **"الصغير"**. الكبار يفتعلون المشاكل ويخلقون الأزمات، ويشعلون الحروب - مثل "أمراء" الحرب فى الصومال وليبريا - ومع ذلك قلما يسقط أحدهم فى التهلكة. وإن ضُيق الخناق عليهم هربوا بغنائمهم إلى حيث يتنعمون!.

الكــون أكــوان





- ١ -



لقد تسربت حقائق، أو إجتهادات، العلم الحديث المبهرة عن الكون إلى داخل الإنسان المعاصر، فبات يتكلم عنه بمثل اليسر الذى يتكلم به عن المدينة المجاورة، ويردد أرقام المجرات والمسافات التى تقدر بالمليارات كأنها مجرد كسور عشرية. وهذا ما جعل "**سان**" يشعر أن الكون قد دخل إلى عمق وجدانه، وبدأ يفكر "كونياً"، كما توقع العلم منه أن يفعل ذلك. فارتاد دهاليز علم الفلك بحماس، وشغف به، وبما يتيحه له من فتح مغاليق الكون، الذى اتسع نطاقه إتساعاً مهولاً. لم يعد مجرد الكوكب الذى يعيش عليه، والذى غنّى له محمد عبد الوهاب «الدنيا دى والنجوم طالعة تنورها»، كأنما مضارب الكون الشاسع كلها فى خدمة هذا الكوكب الهامشى، الذى «يحمله ثور على قرنيه» كما قالت أساطير القرون الخوالى.

واكتشف أن الإنشغال بعلوم الفلك قديم قدم أجداده. فقد إهتم قدماء المصريين بهذا العلم مبكراً جداً، وقبل غيرهم من الشعوب، إذ حاولوا التعرف على أسرار الكون، ووضع تصور لنظامه يعتمد على معتقداتهم الدينية. وتعد اللوحة الحجرية الموجودة فى معبد "دندرة" الدليل الأول عن فكرتهم عن هذا النظام، وهى تمثل إلهة السماء "نوت" بجسدها المرصع بالنجوم وقد إنحنت على هيئة قوس واسع لتحيط بالأرض وآلهتها. وقد اخترعوا أدوات بسيطة لتحديد مواقع النجوم، ونظموا التقويم الشمسى عام ٤٠/ ٤٢٤١ق.م، أى قبل عصر الأسرات. وحددوا العام بـ ٣٦٥ يوماً[(١)]، وجعلوا بدايته عيد بزوغ ألمع النجوم، المعروف بالشعرى اليمانية، عند شروق الشمس فى الأفق الشرقى، والذى كان يصادف يوم ١٩ يوليو. وتمكن تحتمس الملك والقائد العظيم من صنع أول ساعة شمسية فى العالم لتحديد اليوم والساعة.

وساعدتهم طبيعة البلاد على هذا التوجه. فأحوالها المناخية، مثلاً، وهبتهم سماءً صافية على مدار السنة، تتراقص نجومها أمام عيونهم، وتغريهم دائماً على الملاحظة

---

(١) ويقول "برستيد" إن هذا التقويم كان يتزامن مع بداية الفيضان، الذى كان يحدث تقريباً مع بزوغ ألمع النجوم المعروف بالشعرى اليمانية Sirus، عند شروق الشمس يوم ١٩ يوليو. والذى وضع التقويم هو "توت" الذى ألهه المصريون ودعوه رب العلم والقلم. واعترفا بفضله أطلقوا إسمه على أول شهور السنة.

والتأمل والتعلم . وجاء تعلقهم بالغيبيات ، وإيمانهم بالبعث والخلود ، كعامل قوى شدهم إلى العوامل الغامضة التى تملأ آفاقهم . وجعلهم ينظرون إلى النجوم بإعتبارها مستقر الآلهة ، ومكان إعتصامهم بعيداً عن الشر ، ومحطات يسافر إليها الفرعون - إبن الآلهة - بعد الموت لينضم إلى ذويه . وهناك "نوت" آلهة السماء التى تحمى الآلهة الأخرى على الأرض ، والإله "أنوبيس" الموكل إليه محاسبة الموتى ، وإليه ينتسب نجم الشعرى اليمانية ، الذى استرشد القدماء بتقاطع أشعته مع أشعة النجم القطبى الشمالى فى تحديد غرف الملك داخل الأهرامات ، وتحديد إتجاهات معابدهم .

ولحق بهم الشامريون ثم البابليون الذين حرصوا على تدوين أرصادهم الفلكية على الأحجار بالخط المسمارى منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وكانوا بين أوائل من اشتغلوا بالكهانة والتنجيم ، وربطوا بين النجوم ، أو ما يعرف بخط البروج حول الأرض ، ومصير البشر ، وهى معتقدات سادت قروناً - ومازالت[٢] - وإنتشرت بين مختلف الشعوب . ففى إيطاليا ، ومنذ خمسة قرون ، أى فى القرن الخامس عشر ، كانت دراسة الطب متشابكة مع علم أحكام النجوم . فأعضاء الجسد البشرى تنتسب بعرى غامضة إلى دائرة البروج ، وأمزجة الإنسان تتأثر إلى حد كبير بحركات الأجرام السماوية ، وتتركب من أربعة "أخلاط" : فهو بلغمى أو صفراوى أو دموى أو سوداوى ، تبعاً لزيادة أحد العناصر .

---

(٢) يحتل التنجيم اليوم فى أوروبا ، مثلاً ، مركزاً مرموقاً . ففى فرنسا وحدها عشرة آلاف منجم من أشهرهم "إليزابث ميسيه" التى تنبأت بإنهيار الشيوعية وسقوط حائط برلين ، وغزو العراق للكويت . وتصدر لهم أربع مجلات شهرية تبيع ما يزيد على المليون نسخة . ويدأب المنجمون والعرافون فى مختلف بقاع الأرض على الترويج لقدراتهم الفائقة ، ليس فقط فى سبر أغوار المستقبل المجهول ، بل وفى رسم سياسات الدول أيضاً . ويدللون على ذلك برجوع رؤساء الدول إليهم قبل إتخاذ القرارات الهامة . فليونيد بريچينيڤ ، الزعيم السوڤيتى ، وغيره من قادة شرقى أوروبا ، كانوا يلجأون إلى العرافة الچورچية المشهورة ، جوانا دافيتا شڤيلى ، لاستشارتها فى أمورهم ، لما عرف عن قدرتها على قراءة الغيب واستجلاء القادم من الأحداث . وقد أوهمت بريچينيف بقدرتها على شفائه واستسلم لها حتى مات . وقيل عن "بوريس يلتسن" ، الرئيس الروسى السابق ، إنه كان لا يفعل كبيرة أو صغيرة إلا بإذن العرافين ، وكثيراً ما كان يلغى مواعيده وزياراته الرسمية فجأة بأوامر من النجوم . وسبقه فى ذلك الرئيس الفرنسى الراحل ميتران ، والرئيس الأمريكى الأسبق ريجان وزوجته نانسى ، وهيلارى زوجة كلينتون الرئيس الأمريكى الحالى . ومما يتردد أن عرافاً هو الذى إختار للرئيس ريجان يوم ٨ ديسمبر ١٩٨٧ ، الساعة الواحدة والنصف ظهراً ، موعداً لتوقيع إتفاقية خفض الأسلحة النووية بين أمريكا والإتحاد السوڤيتى السابق .

وقدرت جريدة "الصنداى تايمز اللندنية" فى تقرير لها نشرته عام ١٩٩٧ ، ما تكلفه صناعة التنجيم بأكثر من ٢٠٠ بليون دولار فى السنة . وذلك بالرغم من أن تحويل التنبؤات إلى مشروعات يكون خاطئاً فى ٨٠٪ من الحالات ، حسب ما قاله "وليام شروان" مؤلف كتاب Fortune Sellers أى بائعو الحظ .

والالتجاء إلى التنجيم بهذه الصورة كان يعنى تنحية الطب عن مكانه كعلم . ولعل أحد أسباب ذلك يعود إلى أن حركات النجوم الملحوظة تخضع للحساب ويمكن التعبير عنها رياضياً. فرفعة شأن علم الفلك ترتكز على تميزه بطواعيته للمعالجة الرياضية .

وكان البابليون يمتلكون جداول معروفة للظواهر الفلكية كخسوف القمر وكسوف الشمس ، وكان لديهم قانون فلكى يقول بكسوف الشمس مرة كل تسعة عشر عاماً . وقد شيدوا برجاً ، ربما على غرار برج أجدادهم الذين أرادوا أن يكون "رأسه بالسماء"(٣) . وشيدوه من سبع طبقات ، كل طبقة تمثل كوكباً بكهنته الذين يكهنون فيه ، وإن غلب على اعتقادهم أن مقر آلهتهم كان على قمم جبال زاجروس .

وكان الكون عند الإغريق ، الذين أخذوا معلوماتهم عنه عن الفراعنة والبابليين ، كما ذكر أرسطو ، محدوداً بما ترصده العيون وما يشطح إليه الخيال . فالسماء قبة مادية عريضة ، مصنوعة من البرونز أو الحديد . وهى ترتفع عن الأرض إرتفاعاً شاهقاً ، قدروه بارتفاع ثلاثة جبال بعضها فوق بعض ، وبإمكان المرء أن يصل إلى هذه القبة إذا ما ارتقى سلماً(٤) بهذا الارتفاع . فإذا ما سار شرقاً إلى أقصى الشرق ، بلغ المكان الذى تلامس فيه القبة الأرض ، وتبدأ الشمس فى الصعود . فى حين يحمله السير غرباً ، إلى أقصى الغرب ، إلى حيث تغرب الشمس ، إلى أرض الظلام ، قريباً من مدخل العالم الآخر حيث يرقد الموتى ، والمعروف باسم Hades ، وهو تصور قريب مما كان عند قدماء المصريين . وحين تصل الشمس إليه تشق طريقها تحت الأرض لتعود إلى الشرق . ويسلك القمر والنجوم ذات المسلك ، أو مسالك خفية لم يُستبعد وجودها .

وإعتقدوا أيضاً أن الأرض يحدها الأوقيانوس(٥) من جميع الجهات . وهو بمثابة نهر

---

(٣) وتقول قصتهم فى العهد القديم (سفر التكوين ١١ : ١-٤) : «وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . وحدث فى ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك ... وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء . ونصنع لأنفسنا إسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض» .

(٤) قارن قصة يعقوب والسلم التى رآها «منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء» (تك ٢٨ : ١٢) .

(٥) هناك أسطورتان إفريقيتان ، تقول إحداهما إن الخالق جعل الثعبان يلف جسمه ويضع ذيله فى فمه ، ليكون بمثابة حلقة ليسند الأرض حتى لا تغوص بأحمالها فى المحيط . وتقول الأخرى إن الثعبان المقدس لف جسمه حول الأرض لضمّها معاً وحفظها راسخة .

عظيم يجرى فى شكل دائرة حول الأرض، من الجنوب إلى الشمال فى الجانب الغربى، ويجرى بصورة عكسية في الجانب الشرقى. وتستمد كل البحار والأنهار مياهها منه. ويقطن أقصى شمال الأرض قوم سعداء ينعمون بربيع دائم، وحياتهم خالية من المرض والشيخوخة والمتاعب. وفى جنوبها يسكن قوم من الأبرار الصالحين باسم "الإثيوبيين - سمر الوجوه"، تحبهم الآلهة حباً عظيماً، وتزور بلادهم، وتشاركهم إحتفالاتهم وتقديم القرابين.

وتعددت التصورات والنظريات حول الكون ونسقه وتركيبه، من أرسطو فى اليونان، إلى فلكيي الأسكندرية الكبار أمثال أريستاركوس الساموسى (٢٨٠ ق. م)، وهيباركوس مدير جامعة الأسكندرية (١٦٠ ق. م) وكلوديوس بطليموس (الذى عرف بالقلوذى - القرن الثانى الميلادى). كان من رأى أرسطو (عام ٣٤٠ ق. م)، الذى إعتبر الأرض أثقل العناصر، أن مكان الأرض فى النظام الكونى المركز، وهى مستقرة لا تتحرك، وتختلف عنها النجوم والكواكب فى أنها لم تستقر مكاناً، وهى قناديل معلقة في كرات بللورية مشفة صلبة، تدور فى حركات سنوية حول الأرض[٦]. وناقض أريستاركوس هذا التصور، وأثبت عام ٢٦٥ ق. م أن الأرض ليست مركز الكون، وأنها تدور حول الشمس التى هى مركز الكون. ومن جانبه أكد "إراتوسثينيس"، أحد علماء مكتبة الأسكندرية، كروية الأرض، وحسب محيطها بأدوات بسيطة حين غرس عصا فى كل من الأسكندرية وأسوان ظهر يوم ٢١ يونيو.

أما كلوديوس بطليموس[٧] فتوسع فى تفسير حركات الكواكب والنجوم (١٥٠ق. م)، على أساس أن لكل كوكب مداراً دائرياً، يقال له "فلك الكوكب الدائر"، وأن الكوكب يتحرك فعلاً على محيط دائرة أصغر يقال لها "فلك التدوير". فكأن الكوكب يتحرك

(٦) علّم فيثاغورس (القرن السادس ق. م) أن هناك تناغماً فى الطبيعة، وأن لها لغة، ولغتها هى الأرقام. وأنه لابد أن تتمكن من تقدير مدارات الأجرام السماوية عن طريق ربطها بالفاصلات الموسيقية، لأن كل الإنتظام فى الطبيعة إنتظام موسيقى.

(٧) كان نموذج السماء الذى رسمه بطليموس مدهشاً فى تعقيده، ولكنه إبتدأ من قياس بسيط، يقوم على أن القمر يدور حول الأرض. وقد رأى أن الشمس والكواكب تفعل نفس الشئ. وحرك بطليموس الكواكب فى دوائر، أو فى دوائر تجرى بدورها على دوائر أخرى. فالإغريق كانوا يعتقدون أن الشكل المثالى للحركة هو الدائرة.

حركتين دائريتين منتظمتين. وكتب ١٣ كتاباً فى علوم الفلك، ترجمها العرب وأعطوها بالعربية اسم "المجسطى" The Magiste والذى ظل لقرون طويلة المرجع الأساسى فى علم الفلك، رغم الأخطاء العلمية مثل تصويره الأرض مركزاً للكون، كما قال أرسطو، وأنها ثابتة ساكنة، يعيش فوقها الإنسان الذى هو الكون الأصغر.

واستقر نظام بطليموس قرابة أربعة عشر قرناً، حتى سقط على يد كوبرنيكوس، عالم الفلك الإيطالى (١٥٣٤م). وكانت العقول جميعها، فى أيامه، قد استراحت إلى هذا النظام، ومعه فيزيقيا أرسطو. وكانوا يدللون على مركزية الأرض بأن الحجر إذا قُذف فى الهواء عاد ثانية إلى الأرض. وإذا قُذف من أحد الكواكب الأخرى، كالمريخ مثلاً، فإنه قطعاً يسقط على الأرض. فهم وقتها كانوا يجهلون جاذبية الأرض التى أعلنها إسحق نيوتن عام ١٦٨٧.

وقد ارتقى الفلك كعلم على أيدى العرب، الذين جعلوه علماً قائماً بذاته خالياً من أعمال التنجيم. وبدأوا بترجمة كتابات الأمم المختلفة التى تبحث فى الفلك إلى العربية(٨)، فحفظوها من الضياع. كما قاموا بمراجعتها وتصحيح ما فيها من أخطاء، وشرحوها وزادوا عليها، وأضافوا إليها ما صنفوه من مؤلفات جديدة فى العلم، وقاموا ببناء المراصد الفلكية فى أنحاء عدة من العالم الإسلامى، كما برعوا فى ابتكار وصنع آلات الرصد التى ساعدتهم فى إنجاز أعمالهم. والمعروف أن الفلك كان واحداً من أربعة علوم إنقسمت إليها الرياضيات الإسلامية. والثلاثة الأخر هى الحساب والهندسة والموسيقى. وقد تفرع أربعتها إلى فروع عدة.

ويشار إليهم بإعتبارهم الذين مهدوا الطريق "لكوبرنيكوس". فابن كثير الفرغانى،

(٨) وبدأت المرحلة الأولى حين أمر الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بترجمة "السدهانات" أى "مقالة الأفلاك" التى عرفها العرب باسم "السند هند"، وكانت أكبر موسوعة هندية فى الفلك والحساب، ومن وضع "براهما جوين"، وحملها العالم الهندى "كنكة" إلى بغداد عام ٧٧٠م. وكانت من جزئين أحدهما عن الأزياح أى سير الكواكب التى يستخرج منها جداول التقاويم، والآخر عن الوسائل الحسابية لهذه الجداول التى فتحت أمام العرب آفاق الحساب وحساب المثلثات. ثم ترجموا كتاب "إقليدس" الذى زاد من إزدهار الرياضيات العربية، وعالم الهندسة بالذات. والأزياح، أى الجداول الفلكية والرياضية، التى جمعها "تيكوبراهى"، استخدمها "كبلر" من بعده فى صياغة قوانينه المشهورة عن حركة الكواكب، مما ترتب عليه تقدم علوم الفلك والأرصاد، إلى جانب إزدهار الملاحة البحرية فى البحرين المتوسط والأحمر، وفى المحيطين الهندى والهادى.

بمرصده فى بغداد، ترك كتاب "أصول الفلك"، الذى كان له تأثيره فى عصر النهضة، وذلك عن طريق جامعة بولونيا بإيطاليا، حيث درس كوبرنيكوس. كما ترك البيرونى والبوزجانى والخجندجى وجابر بن أفلح الأندلسى ذخيرة من علم المثلثات الكروية. وإبن أفلح بالذات كانت له نظريات[٩] تنتقد تصورات بطليموس بشدة، وكانت أعماله من أهم مراجع كوبرنيكوس فى أبحاثه، إلى جانب نظريات أبو إسحق نور الدين البطروجى الأندلسى وكتابه "الهيئة"، وكتاب "السماء والعالم" لإبن رشد. وجميعها ساهمت فى زعزعة نظريات بطليموس. كما أكد أبو سعيد عبد الجليل السجزى، مستنبط "الاسطرلاب"[١٠] الزورقى، أن الأرض متحركة، والفلك بما فيه السبعة السيارة ثابت. وأضاف أبو الريحان البيرونى أن الأرض كروية تدور حول نفسها وليست مستوية ثابتة.

وقد إنطلق "كوبرنيكوس" فى تحديد نظريته عن الكون من منطلق إعتقاده أن الله خلق الكون متكاملاً لا تعقيد فيه. وسعى إلى نسق سهل ويسير فى التعبير عنه من الوجهة الرياضية. فارتأى وضع الشمس مركزاً للكون بدلاً من الأرض. وقال «إنها نور العالم، بل روحه، وهى التى تتحكم فيه، وهى جالسة على عرشها القدسى، ترشد أسرة الكواكب إلى طريقها». وبرهن على أن الكون كروى، والأرض كروية أيضاً. وأن كل حركة ظاهرية للنجوم هى نتيجة لحركة الأرض. والأرض وما عليها لها حركة دورانية حول محورها كل يوم، بينما النجوم ثابتة. وأن الأرض مجرد كوكب ضئيل لنجم ضئيل فى جسد لا نهائى من النجوم. أو "نقطة" كما وصفها قبله الإمبراطور الرومانى ماركوس أوريليوس. أو "نقطة زرقاء باهتة"[*]. وأن الإنسان مركز الخلق. فانهارت نظريات كثيرة، ومعها أفكار التنجيم، التى سادت قروناً طويلة.

---

(٩) وظهر أيضاً كتاب "الجهل العلمى" للكاردينال نيقولا الكوزى، فى القرن ١٥، الذى أكد أن الكون غير متناه، لا مركز ولا محيط له. وبرهن على أن الأرض لها حركة دورانية، وليست لها حركة إنتقالية، وأن الحركة بمعناها الفيزيقى نسبية. ولا يمكن إختيار نقطة ما من الكون لاعتبارها مركزاً له.

(١٠) جهاز فلكى بدائى، صنعه أحمد الصاغانى الإسطرلابى، من أهل بغداد، يقيس إرتفاع الشمس أو النجوم. وتطور ليساعد على تحديد خطوط العرض ووقت شروق الشمس وغروبها، ومواقيت الصلاة، وتحديد القبلة للمسافرين. وظل لفترة طويلة ساعة الجيب للعالم ومسطرته الحسابية. كما استعمله المسيحيون لتحديد موعد عيد قيامة السيد المسيح بدقة.

(*) كما وصفها "كارل ساجان"، عالم الفلك والفضاء المعاصر، فى كتابه الحديث "كوكب الأرض: نقطة زرقاء باهتة".

ومما دعم نظرية "كوبرنيكوس" إكتشاف "تاكوبراهه Tacho Braha" لنجم من نوع السوبر نوفا المتألق عام ١٥٢٧م، وتأكيده أن الكون متحرك وليس ثابتاً. كما تمكن العالم الإيطالى "جاليليو" من اكتشاف صحة النظرية بعد ما صنع أول تليسكوب فلكى من إختراع هولندى عام ١٥٦٠.

وقد جاءت نظريات كوبرنيكوس كنهاية لعصر فكرى متزمت، وتهيئة ضرورية لعصر آخر هو عصر العلم. فكانت بداية ثورة أحدثت تطوراً عارماً فى العلوم والرياضة، وفي المفاهيم الاقتصادية حين أصبح الذهب هو مقياس الثروة بدلاً من الأرض، وفى الأوضاع السياسية والإجتماعية والثقافية، بما فيها الدين والفنون. فحين ينهار إعتقاد قديم راسخ، تنفتح الأبواب لمتواليات من التغيير، وسقوط قيم وقيام أخرى، وبزوغ مفاهيم جديدة فى كل ما يتصل بالحياة تقريباً.

وتابع **"سان"** تطور إنشغال العلم بالفلك، من قضية حركات النجوم والكواكب، إلى قضايا أكثر تعقيداً. وفى كل مرحلة، بل فى كل خطوة، بل فى كل فكرة ينطلق بها عالم راسخ، تسقط حقائق، أو ما كان يظن أنه حقيقة، وتنشط حقائق أخرى. وبهذا يتميز العلم، كباحث وراء الحقيقة، إذ يمكن تخطئته دون أن ينهار أو يتجمد ويركد. بل إن تخطئته فى مكان ما بقصد تصويبه هى بمثابة شحنه بطاقة جديدة لانطلاقات أضخم وأبعد. فالعلم، كما يقول كارل بوبر - خلافاً للميتافيزيقا - هو ما يقبل التخطئة. وهو يتجدد ويتبدل ويتغير. وكل يوم يضيف لنا العلماء شيئاً جديداً، نتطلع به إلى الكثير، وتقترب به أمالنا وأحلامنا من المجهول شبراً.

وهذا أيضاً أجمل ما فى العقل - عطية الله العظمى للإنسان ونور منه. إنه فى سعيه وراء الحقيقة يتحرر من عقدة "عدم الخطأ"، ومن الاستبداد بالرأى أو التعصب والتحيز له. فهو يعرف أنه فى كهف مظلم يكتشف ما فيه بكل ما يملك، سواء بالحواس أو بالقدرات الذهنية، أو بالخيال، أو بالتنبؤ بقدرة حواس غير حسية، وهو بديهياً معرض للخطأ، وينبغى أن يكون دائماً مستعداً للاعتراف بأى خطأ، وتصحيحه وإضافة ما هو صواب. فهذا ما يحفظ له شبابه وتوقده. وواجبه أيضاً ألا يرفض ما لا يراه من أمور، أو ما لا يفهمه من أقوال وأحكام العارفين، بل يتريث فى انتظار ظهور أدوات جديدة للمعرفة وقدرات مبتكرة للتحقق من كل هذا.

وتساءل "ساجان" عما يدفع الإنسان إلى البحث فى أعماق الكون، والسعى الدائب إلى استكناه أسراره ومحاولة الوصول إلى إدراك حقيقى لأبعاده. وإلى ارتياد الفضاء والتوغل فى عالم المجرات والكواكب السيارة التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية. ولم يجد جواباً أفضل من أنه ظمأ الإنسان إلى المعرفة، الذى لا يرويه إلا مزيد من المعرفة. وكل خطوة فى الطريق إلى معرفة الخلق تقود إلى معرفة الخالق الذى قال عنه أيوب النبى «يعلق الأرض على لا شئ» (أى ٢٦ : ٧ , ٨)(١١). وكلما زاد علماً زاد إحساساً بضعفه أمام الحقيقة الهائلة، والمجهول الذى لا يعرفه(١٢). وكل شئ فى الكون مربوط محكوم - محكوم بالحكمة والعقل والمنطق. فلا شئ عبث، ولا شئ بلا معنى. فالله «يحصى عدد الكواكب. يدعو كلها بأسماء»(١٣)، وصنع كل شئ بحكمته. وتركيب الكون وإنتظام حركة الكواكب والمجرات هو بلاشك من أعظم الشواهد على حقيقة معجزة الخلق الإلهى. وقد دعا "يوحنا ذهبى الفم" الطبيعة والكون "الكتاب العظيم" الذى يعلن عن عظمة الله. وهو "الكتاب" الذى قاد رجلاً مثل أوغسطينوس إلى معرفة الله، فقاد بدوره الألوف المؤلفة إلى محبة الله.

ويرى بعض العلماء أن علم الفلك الحديث قد بدأ فى العشرينيات من القرن العشرين

---

(١١) يقول أيوب النبى " «يمد الشمال على الخلاء ويعلق الأرض على لا شئ. يصر المياه فى سحبه فلا يتمزق الغيم تحتها... رسم حداً على وجه المياه عند إتصال النور بالظلمة. أعمدة السموات ترتعد وترتاع من زجره» (أى ٢٦ : ٧، ٨، ١٠، ١١). ويقول إشعياء «الجالس على كرة الأرض.. ينشر السموات كسرادق.. يخرج بعدد جندها يدعو كلها بأسماء» (إش ٤٠ : ٢٢، ٢٦).

(١٢) من حسن الحظ أن العلماء متواضعون. الشاعر العربى شبّه العلماء بالغصن الذى كلما كثرت ثماره تواضع وإنحنى. وكان الفيلسوف الوجودى هيدجر يقول إنه يركع عند قدمى المعرفة حانى الرأس، ينتظر كلمة من معبودته، أو إشارة تهديه إليها. ولما سئل أينشتين إن كان قد عرف كل شئ، إنزعج وقال إنه يلهو ببعض الأصداف على شاطئ محيط الحقيقة. وأن الذى عرفه الإنسان من العلم يشبه طابع بريد أُلصق عند قمة مسلة فرعونية، والمسلة تمثل ما يجهله الإنسان. ويضيف "چون ويلز" الفيزيائى المعاصر أن أعظم الإكتشافات العلمية لاتزال أمامنا. ويسجل "چون كستى" فى كتابه "قناعات مفقودة" العديد من المجهولات التى على العلم أن يتوصل إليها.
وفى الجانب الآخر يرفع عالم الفلك البريطانى كلارك شعاره الذى بناه على أن العقل هو أثمن شئ فى الوجود: إذا قال عالم إن شيئاً ما ممكن فتأكد أنه قريب من الصواب. أما إذا قال إنه غير ممكن فيكون هناك خطأ ما بكل تأكيد. أى أنه لا شئ مستحيل طالما أن عقل الإنسان يعمل ويجتهد. وكلارك كاتب أشتهر بما كتبه عن الفضاء وإكتشافاته، ورحلات الفضاء أوديسى ٢٠٠١ وأوديسى ٣٠٠١ وغيرها.

(١٣) مزمور ١٤٧ : ٤. وفى المزمور ١٤٨ «سبحيه (الرب) يا أيتها الشمس والقمر سبحيه يا جميع كواكب النور. سبحيه ياسماء السموات ويا أيتها المياه التى فوق السموات» (عدد ٣ , ٤).

حين أعلن (١٩٢٤) أدوين هابل، العالم الأمريكى أن السدم المضيئة، التى تبدو فى خلفية مجرة درب التبانة، ما هى إلا مجرات كاملة بعيدة عنا، وتضم آلاف الملايين من النجوم. فالتبانة ليست المجرة الوحيدة فى الكون كما كان يظن، فهناك العديد غيرها وما هو أضخم منها بكثير. فالكون[١٤] واسع يقاس بألوف ملايين السنين الضوئية. وهو فى أبسط حالاته يتكون من عدد لا نهائى من المجرات والمجموعات النجمية، والتى تحتوى على آلاف الملايين من المجموعات الشمسية والتى تشبه إلى حد كبير مجموعتنا الشمسية.

- ٢ -

وحين حلّق التليسكوب الفضائى "هابل"[١٥] خارج الغلاف الجوى، قال العلماء إنها خطوة لفتح نافذة جديدة على الكون الفسيح سوف تهتك أسراره المستغلقة. ولما تركوا عدسته مفتوحة لمدة عشرة أيام، مركزة على منطقة فى الفضاء لا يتجاوز حجمها حبة رمل فى كف اليد، نقلت العدسة صورة اشتملت على ألف وخمسمائة سديم أو مجرة فى مراحل التشكيل والتخلّق، لم يسبق رؤيتها بسبب شحوبها الشديد. وكل نقطة ضوء هى مجرة تحتوى على نحو مئة مليون من الشموس المسافرة بعيداً عن الأرض بسرعة تسعة

(١٤) إكتشف علماء الفيزياء الكونية أن السموات كرة كونية هائلة جداً، وهى لهذا تبدو لا أول لها ولا آخر، مع أن الخالق حيزها بزمان ومكان. ومما يقوله العلم اليوم إن الكون الذى نعرفه عمره من ١٥ إلى ٢٠ مليار سنة. وقد يكون هناك ملايين غيره. وكوكب الأرض عمره أربعة مليارات سنة. وظهرت عليه الحياة الميكروبية من ثلاثة مليارات سنة أما الكائنات المجهرية المعقدة فظهرت من مليارى سنة. والحياة الحيوانية من ٦٠٠ مليون سنة، والثدييات من مئتى مليون سنة. والإنسان فى مراحله الأولى من ثلاثة ملايين سنة. والإنسان الذى يصنع أدواته من ثمانية آلاف سنة، ومعها العصر التكنولوجى بما فى ذلك بناء الأهرامات. أما سيطرة الإنسان على البيئة، أو محاولته ذلك، فمع الثورة الصناعية من مائتين وخمسين سنة. وإذا كانت العظمة العلمية التى بلغها الإنسان عمرها عشرات السنين فقط، فما الذى يمكن أن يصنعه فى القرن الحادى والعشرين وما تتلوه من قرون؟!.

(١٥) فى فبراير ١٩٩٧ إنطلق مكوك الفضاء الأمريكى فى مهمة خاصة بتجديد وتنشيط هذا التليسكوب العملاق، فكان بمثابة ورشة إصلاح فضائية. وقد سحب الرواد التليسكوب إلى الداخل وعملوا له "عمرة" كلفت عدة ملايين من الدولارات، ليواصل عمله بضعة سنوات أخرى، بعدما ركّبوا فيه جهازين بحجم كشك التليفون، وكاميرات تعمل بالأشعة فوق الحمراء لمراقبة النجوم البعيدة بشكل أدق. وقد أعلنت "ناسا" أن الصور التى أرسلها بعد تطويره أزاحت النقاب بشكل غير مسبوق عن عملية "ولادة النجوم وموتها"، كما مكنتهم لأول مرة من تحديد مكان ثقب أسود هائل يزيد حجمه على حجم الشمس بثلثمائة مليون مرة، ويقع فى المجموعة النجمية (إم٠ ٨٤) التى تبعد عن الأرض بنحو ٥٠ مليون سنة ضوئية. والثقب الأسود عبارة عن منطقة فى الفضاء ذات جاذبية خارقة لا تسمح حتى للضوء بالإفلات منها. وقد أجريت له "عمرة" ثانية فى فبراير ٢٠٠٠.

عشر ألف ميل فى الثانية، بأشكال وألوان وأحجام مختلفة، بيضاوية ولولبية ودائرية[١٦].
ولا يوجد تفسير واضح لكيفية نشأة هذه المجرات وطريقة تشكّلها، ولا متى بدأت فى عمر الزمن. فمن فتحة التليسكوب قفزت ألغاز وأسرار جديدة من الكون الخارجى إلى الأرض زادت من حيرة العلماء والفلكيين، الذين وجدوا أنفسهم فى نقطة البداية بالنسبة لقضية كانت فى طريقها للاتفاق، وهى قضية عمر الأرض، وذلك بعدما واجهوا لغزين: العثور على نجم جديد يبعد حوالى مائة سنة ضوئية من الأرض دلت القياسات أن عمره يناهز تسعة عشر مليار سنة، مع أن معظم النظريات العلمية المعروفة كانت ترى أن عمر الكون يتراوح بين عشرة وخمسة عشر مليار سنة فقط. فكيف يظهر نجم عجوز عمره أطول من عمر الكون نفسه؟ وأين الخطأ، فى النظريات أم فى القياسات؟ واللغز الثانى، أن مقياساً جديداً للمسافات البعيدة جداً بين المجرات أوضح أن الكون أصغر كثيراً من بعض نجومه.
وهكذا تعرضت الفرضيات الخاصة بعمر وبنية وهندسة الكون لهزة عنيفة، خاصة بعد سقوط النظرية التقليدية التى حاولت شرح وتفسير لغز المادة الداكنة فى الكون، والتى تشكل ٩٠٪ من حجمه، والتى لاتزال سراً غير معروف، والتى تعتبر مفتاحاً لفهم مصير الكون، وهل سينهار على نفسه، أم سيظل يتمدد إلى مالانهاية، كما قال أدوين هابل عام ١٩٢٩.

ويعتبر العالم البلجيكى "چورج لوماتير" أول من قدم نظرية الإنفجار العظيم[١٧] Titanic Explosion لتفسير نشأة الكون وتمدده، عام ١٩٢٧. وقال إن الكون لابد وأنه

---

(١٦) ومن حصيلة ملاحظاتهم، حدد العلماء أربعة أنواع من المجرات الكونية: المجرات البيضاوية وهى لا تحتوى على الكثير من المواد والأتربة الكونية، وبالتالى تساهم بقدر ضئيل فى الكتلة الأساسية للكون. والمجرات غير المنتظمة حيث يتبع توزيع المواد والأتربة الكونية فيها نسقاً مضطرباً. والمجرات الحلزونية الممتدة وتحتوى على تشكيلات مادية عبارة عن أنواع تمتد عبر مسافات شاسعة من مركز المجرة إلى الفراغ الكونى. والمجرات الحلزونية حيث يتخذ توزيع المواد الكونية شكلاً حلزونياً فى الفراغ، على إمتداد الآلاف والملايين من السنوات الضوئية، وهى مثل المجرة التى تضم مجموعتنا الشمسية التى هى جزء متناه من الصغر وسط مليارات النجوم التى تحتويها هذه المجرة. بينما أرضنا - كما وصفها أحد كتابنا - بذرة صغيرة.. هبأة تافهة تدور حول الشمس. وتدور الآن دراسة أجزاء من نيزك عمره ٥ر٤ مليار سنة، أى من عمر النظام الشمسى تقريباً، سقط فى كندا فى يناير الماضى (٢٠٠٠)، بهدف الوقوف على العناصر الأولية التى شكلت النظام الشمسى قبل ولادة الكواكب.

(١٧) من أجل معرفة المزيد عن هذا الإنفجار أطلقت أمريكا سلسلة من الأقمار الصناعية الفلكية لرصد أعماق الكون، كان أولها "إيراس" عام ١٩٨٣ الذى رسم خريطة لملايين النجوم. وبعده كوب COBE عام =

بدأ من ذرة لانهائية ساخنة شديدة الكثافة هى المفردة الكونية Singularity التى إنفجرت بقوة عظيمة، منذ قرابة عشرين بليون سنة، وشكلت المادة فى الكون. كما قال إن الكون يتمدد بقوة الإنفجار العظيم منذ حدوثه وحتى الآن. وأيد "إدوين هابل" هذه النظرية، عام ١٩٢٩، حين أعلن أن الكون يتمدد بانتظام، وأن المجرات تبتعد بعضها عن بعض. كما أكدها العالم "چورج جاموف" الروسى الأصل، بمعادلاته الرياضية، وسماها بالإنجليزية The Big Bang. وأوضحت المعلومات التى أرسلها القمر COBE أن الانفجار كان سلساً وهادئاً للغاية، وأن جميع الجسيمات الأساسية فى الكون الآن تم إنتاجها خلال ثلاث دقائق من الإنفجار. أما موجات الميكروويف الكونية التى نجمت عن الانفجار العظيم فقد تم اكتشافها مصادفة عام ١٩٦٥.

وتمكن عالما الفلك الأمريكيان، "إرنوبنزاس" وزميله "روبرت ولسن" من اكتشاف الدليل العملى القاطع على نظرية الإنفجار هذه، وحصلا معاً على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٧٦ بسبب هذا الاكتشاف الذى عرف "بالصدى الكونى" للإنفجار الكونى الأول، وكان فى صورة صوت (ضجة) ثابت لا يزول التقطاه وهما يعملان فى مشروع أول قمر صناعى للاتصالات، وتأكدا أنه يأتى من الكون على اتساعه كالصدى الهائل يتردد فى كل أرجاء الفضاء.

ورغم استقرار نظرية الإنفجار العظيم عن بداية الكون، فإنه لا يمكن القول إن العلماء إتفقوا حول ما إذا كان الكون يتمدد أو يتراجع. فمن نظرية تقول إنه مايزال يتمدد منذ خلقة الله، وإن كانت لا تحدد مدى اتساع هذا الكون، أو مدى اتساع الفضاء. إلى نظرية تقول إنه مستقر متوازن، وأنه لم يتغير فى شكله أو حجمه. وثالثة تقول إن سرعة الانطلاق والتمدد ستتناقص بعد ألوف ملايين السنين، فينكفئ الكون كله على ذاته

= ١٩٨٩. ثم أطلق تليسكوب هابل عام ١٩٩٠ كأول تليسكوب بصرى يدور حول الأرض لمدة ١٥ عاماً. وفى عام ١٩٩١ أطلق القمر الفلكى جرو GRO الذى يعمل بأشعة جاما.

- وصنع العلماء الروس (عام ٢٠٠٠) أول وأكبر جهاز فى العالم لاستقصاء نشوء الكون وإكتشاف عملية الإنفجار الكونى، ويضم مختبرات وتليسكوباً ضخماً.

- وأنشأ قبلهم (عام ١٩٩٨) الإتحاد الأوروبى تليسكوباً ضخماً يبحث أيضاً فى نشأة المجرات ومستقبلها. ويتكون من ٤ تليسكوبات قطر كل منها ٨ر٢ متراً، بالإضافة إلى عدد من التليسكوبات المتحركة الأصغر حجماً (بقطر ٨ر١ متراً). وقد وضع فى شيلى بمنطقة نائية ترتفع ٢٦٠٠ متراً عن سطح البحر. ويعتبر أكبر وأحدث تليسكوب فى نصف الكرة الجنوبى.

ويتساقط على مراكزه، ويتكاثف ويتكاثف حتى يعود كما بدأ ذرة (حبة) فيها كل القوى وكل الطاقات ليعود فينفجر مرة أخرى.

وفى عام ١٩٩٦ أعلن علماء الفلك الأمريكان، من سان أنطونيو (تكساس) إن الكون يتعرض فيما يبدو لبطء فى معدل نموه عن طريق التمدد، مما قد يشير إلى بداية إنهياره فى عملية يطلقون عليها "الإنسحاق الأعظم". وهى مرحلة لن تأتى قبل عشرات المليارات من السنين. وقد التقطوا من التليسكوب الفضائى "هابل" أول صورة مفصلة وواضحة لنجوم فى مرحلة الموت. وعلقوا على ذلك بأن النجوم - مثل الشمس - تعيش لمدة عشرة مليارات عام ثم تموت، بعد أن تستهلك طاقتها النووية، فى إنفجار عنيف، مخلفة وراءها جمرات حمراء فى حجم الأرض، وحفراً فى الكون لها أشكال غريبة.

ولقد شككت دراسات حديثة حول[١٨] الإنفجار العظيم فى الصورة التى استقرت فى الأذهان عن شكل الكون وبنيته وملامحه العامة. فهى تشير إلى أنه بدون شكل ثابت، ولا صورة دائمة لملامحه. فشكله وتكويناته وخصائصه تظهر بصور متعددة تختلف باختلاف الزاوية والمكان وإتجاه رؤية العلماء له أثناء عمليات الرصد. ومع التسليم بأن هذا الأمر غير مفهوم على نحو دقيق ونهائى فقد وضعت له الدراسة عدة تفسيرات منها، مثلاً، أن الإنفجار الكونى العظيم إندفع فى إتجاه ما أكثر من الإتجاهات الأخرى، أو أن مجراته العملاقة ونجومه وذرات الغبار الصغيرة إندفعت فى الفراغ فى إتجاهات مختلفة وبسرعات تباينت حسب حجم وكتلة كل جزء. أو أن أصل الكون لم يكن تاماً مكتملاً كما ساد الاعتقاد. أو أن قوة ما مجهولة وراء هذه الظاهرة، غير قوى الجاذبية والمغناطيسية والنووية والكهربية المعروفة لدينا -- قوة إلهية؟!.

وأضافت الدراسات أن ذبذبات الإشارات القادمة من إحدى مجموعات النجوم تختلف عن تلك القادمة من مجموعة أخرى فى إتجاه آخر، مما يشير إلى أن إتجاهات الكون

---

(١٨) أجراها أساتذة فى الطبيعة الفلكية هما د. روبرت كيرشنر بجامعة هارفرد، وجون رالستون من جامعة كنساس، وبروج رولاند من جامعة روشستر. وقاموا بتجميع ١٦٠ صورة للمجرات البعيدة باستخدام التليسكوبات العاملة بموجات الراديو.

- وقد اكتشف علماء الفلك بمعهد كاليفورنيا للتكنولوچيا، عام ١٩٩٦، أبعد مجرة فى الكون تم العثور عليها، وتبعد حوالى ١٤ مليار سنة ضوئية عن الأرض، والضوء المنبعث منها خافت للغاية، وقد توفرت أدلة جديدة على كيفية تكوين المجرات، ومن بينها مجرتنا درب التبانة.

ليست متساوية، وأن المجال المغناطيسى فيه ليس واحداً فى كل الإتجاهات. ولعل التفسير البسيط لهذه النتائج، فى رأى العلماء، هو احتمال أن الضوء يسافر فى الكون بسرعات مختلفة. فإذا ثبت هذا إهتزت نظرية النسبية للعالم أينشتين، والتى تفترض أن الضوء والموجات الكهرومغناطيسية تسافر دائماً بالسرعة نفسها وأن الكون ليس له مركز!.

وتتعدد الآراء حول المادة التى يتكون منها الكون. فمن قائل إنه كله من تراب، إلى قائل إنه من غازات تبرد وتتفاعل وتتولد منها مواد جديدة، تتحول بدورها مع الغازات والطاقات الهائلة إلى مواد جديدة وعناصر شديدة التعقيد، دعاها أحد كتابنا "شوربة كونية". ومن أجل التعرف على طبيعة هذه المادة، وهل هى صلبة أو هشة أو جوفاء صماء، أطلقت أمريكا، فى فبراير ١٩٩٦، معملاً فضائياً إلى "إيروس ٣٣" وصله فى يناير ١٩٩٩، وهو كوكب صغير إهتدى إليه العلماء مؤخراً، وواحد من ملايين الأحجار[١٩] الضالة فى الكون، والشاردة فى مدار طويل جداً بين الكواكب، ويشار إليها بنشارة الكون أو الفتافيت التى تكاثرت عندما وقع الإنفجار العظيم. أى أنها من مخلفات نشأة الكون، وبمثابة "عينة" صغيرة من المادة التى خلق الله منها الكون.

وإنطلقت، لنفس الغرض، أربعة صواريخ صوب المذنّب "هيل - بوب"[٢٠]، أقرب المذنبات إلينا، ويحمل كل صاروخ مجموعة من الأجهزة والتليسكوبات لجمع بيانات عن الإنبعاثات الغازية والغبار الذى يتكون منه جسم المذنب، الذى يبلغ طول ذيله ملايين الكيلومترات، وينطلق بسرعة ثلاثين كيلومتراً فى الثانية، ويبعد عن الأرض ٢٧٠ كيلومتراً. ويعول العلماء كثيراً على البيانات التى سترسلها الصواريخ فى التوصل إلى أدلة جديدة عن نشأة الكون والمادة التى يتكون منها.

(١٩) وهذه الكواكب الصغيرة عمرها مليارات السنين، وقد سقط بعضها على كوكبنا والكواكب الأخرى. من بينها نيزك هائل سقط على الأرض من ستين مليون سنة، فى منطقة من المحيط الأطلنطى قريبة من الشواطئ الجنوبية لأمريكا الشمالية، فقضى على الديناصورات وغيرها من الحيوانات الكبيرة. وإقترب أحدها من الأرض عام ١٩٨٩، وكان حجراً يزن خمسين مليون طناً، وسرعته ٤٦ ألف ميل فى الساعة، وعلى مدى ساعات ضوئية منها، ولكنه مر بسلام.

ومما يقوله علماء الجيولوچيا التاريخية والفلك إنهم إكتشفوا حديثاً أن المجموعة الشمسية بأسرها (وبينها كوكب الأرض) تدخل مرة كل ٢٦ مليون سنة أرضية منطقة ملغمة بالغبار والكتل الضالة، وذلك أثناء إرتحالها شبه الدائرى حول أطراف المجرة، أو سديم الطريق اللبنى، مما يعرضها للأرتطام ببعضها.

(٢٠) وهو أكبر المذنبات المعروفة حتى الآن، ويحمل اسمى العالمين اللذين إكتشفاه فى يوليو ١٩٩٥. وقد زار كوكبنا مرة قبل أربعة آلاف عام. وزارها ثانية عام ١٩٩٧، على مسافة تقدر بمائة وخمسين مليون كيلومتراً. وقد =

ويعنى هذا كله أنه رغم تقدم علم الفلك فمازلنا لا نعلم الكثير عن "السماء" لأنها، كما نعتقد، أكبر من قدرة العلم البشرى على الاكتشاف والمعرفة، وهى تنطوى على آيات خارقة ومتجددة. فالرب، كما يقول أيوب «يصنع عظائم لا ندركها» (أى ٣٧ : ٥). ويضيف داود النبى ترنيمته «السموات تحدث بمجد الله» ذلك المجد الذى يصعب على الإنسان الإحاطة به أو الوصول إلى قممه. و«الفلك يخبر بعمل الله» وهى أعمال متجددة «ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض» (مز ١٠٤ : ٣٠)، وهى دائماً تسبق علم الإنسان بخطوات واسعة. و«يوم إلى يوم يذيع (الفلك) كلاماً وليل إلى ليل يبدى علماً» يتفوق فى الحكمة والعمق والإبداع.

ومع ذلك فقافلة "**المعرفة**" مستمرة، لأن هذا "الجابل" يريد من خليقته - أو خليفته - أن يقرأ وأن يعرف. وقد صارت لديه الآن إمكانات جبارة لوسائل الرصد الكونى الحديثة، من بينها التليسكوبات الأرضية البصرية العملاقة، فى أستراليا وبريطانيا(*) وألمانيا وكاليفورنيا وجزر هواى وشيلى وغيرها، والتليسكوبات الفضائية وأهمها "هابل". وكل يوم يُرى حجر وتراب وجليد ووميض، وتدور العدسات والأطباق والهوائيات نحو ما يتم رؤيته. وتتجه عيون المراصد المدارية والمراصد التى فى الطريق إلى الكواكب الأخرى، وتلتقط صورة لمولود جديد، أو جنازة نجم قديم، أو ملايين النجوم تدفع بعضها البعض إلى مقبرة كونية اسمها "الثقوب السوداء". ففى جانب من الكون تولد نجوم، وفى جانب آخر مقابر فلكية تبتلع ملايين النجوم. والذى يموت سوف ينهض

= إقترنت زيارته هذه بإنتحار مجموعة من الشباب الأمريكى، عرفت بإسم جماعة "باب السماء"، بمزرعة خارج مدينة "سان دييجو" بكاليفورنيا، لإعتقادهم أنه يختفى وراءه سفينة فضاء جاءت لتحمل أرواحهم إلى الفردوس! وهو عبارة عن كرة ضخمة من الثلج والغبار والمواد الكيماوية التى تتجمد فى البرد الشديد للفضاء الخارجى. وعند إقترابه من الشمس يسخن الجليد وينبعث رذاذ يشكل ذيله الذى يصل طوله إلى عشرين مليون ميلاً.

- وفى فبراير ٢٠٠٠ إقتربت مركبة فضاء أمريكية من المذنب إيروس، الذى يدور حول الشمس، لتسير معه فى المدار ذاته لمدة عام كامل لدراسته عن كثب، فى محاولة لفهم ظاهرة المذنبات الفضائية وتجنب مخاطرها على الكرة الأرضية. وقد أطلقت هذه المركبة فى فبراير ١٩٩٦ فى الفضاء الخارجى البعيد جداً ومزودة برجل آلى. وستقوم المركبة بالتقاط صور للمذنب، بينما سيعمل الرجل الآلى على دراسة صخور المذنب.

(*) وأهمها مرصد "جورديل بانك" بجامعة مانشستر، بتلسكوبه اللاسلكى القابل للتوجيه الذى زُود حديثاً بأحدث أنظمة الاستقبال التى جعلته أكثر حساسية بمقدار ٣٠ مرة. ويتوقع منه العلماء أن يساعد على اكتشاف نجوم نيوترونية نابضة جديدة، وكائنات ذكية فى الفضاء.

مرة أخرى، ويتفجر ويتناثر ويتمدد إلى مالانهاية، ثم يتقلص وينكمش ويتكثف. فكل شئ فى الكون يولد ويموت. ولا يبقى غير وجه الرب الخالق ذى الجلال.

ويؤمن **"سان"** أن كل ما يصل إليه العلماء، وما يحققونه من إنتصارات، إنما هو مجرد كشف عن أسرار إلهية **"مودعة"** فى الكون منذ الأزل. فهو ليس خلقاً. إنهم يقفون عند حد إكتشاف الظواهر والطاقات، وتقليدها، دون الوصول إلى السر الأصلى لها، أو سر عملها. بل ولا يمكنهم أن يحيطوا «بشئ من علمه إلا بما شاء». والعلم يبدو وكأنه "مخزون" ضخم من الأسرار أخفاه الله منذ الأزل، ليسعى[٢١] الإنسان إلى إكتشافه بقدر نمو مداركه وقدرته على الاستيعاب، وتوافر إمكاناته واستعداده، وتمكنه من روح الإبداع والإبتكار، وذلك لأسباب منها أن يجد ما يعمله ويجدّ فى سبيله، وأن يجد جديداً كل يوم حتى لا يصاب بالملل الذى هو واحد من أعدى أعدائه. ولكى يحميه التدرج من أن ينبهر فيفقد توازنه الروحى ويشقى بما يكتشفه. وأيضاً لحكمة كتلك التى أوحت للأب - فى الأمثولة المعروفة - أن يقول لأولاده إنه خبأ كنزاً فى حقوله. فمضوا بعد موته ينقبون عنه، فقلّبوا تربة الأرض رأساً على عقب، حتى أنها جادت بمحاصيل وافرة فاقت كل توقعاتهم. والمحصول المرتجى هنا محصول روحى، وهو أن يؤمن الإنسان بالله الآب و«بالذى هو أرسله» (يو ٦ : ٢٩)، ليتسنى له أن يعمل أعمال الله، ويفرح وجه الأرض.

---

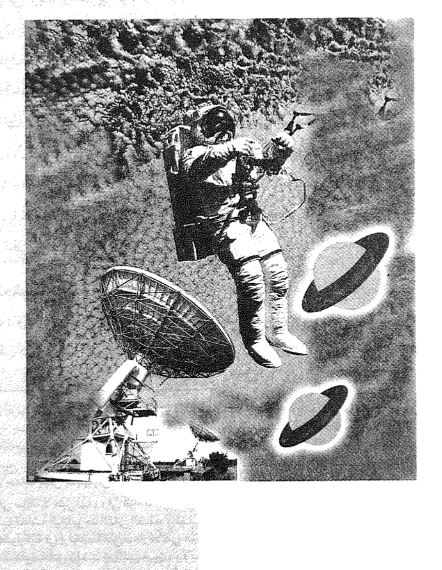
(٢١) ومن محاولاته مشروع ضخم أنجزه العلماء الأوروبيون، واستمر العمل فيه سبعة عشر عاماً وتكلف ما يقرب من ثلاثة أرباع المليار دولار، وملأ سبعة عشر مجلداً تحتوى على أرقام ومعلومات عن عمر الكون وحجمه، ويقدم أدق خريطة للكون وما فيه من نجوم حتى الآن. وقد عرض هذا العمل الكبير على مؤتمر علماء الفلك الذى إنعقد فى البندقية (إيطاليا) فى مايو ١٩٩٧. ومن معلوماته أن عمر الكون حالياً هو ١١ مليار عام، ويزيد حجمه بنسبة ١٠٪-١٥٪ عما قدره العلماء حتى الآن. وإن كان عمر الكون لم يستقر عند رقم قاطع بعد. فهناك دراسة أمريكية حديثة تقدر عمر مجرتنا بين ١٤ و١٧ مليار سنة.

- أما العلماء البريطانيون، بجامعة كمبردج فقد طوروا كمبيوتر ضخماً بحجم سيارة صغيرة، تكلف مليونين من الجنيهات الاسترلينية، ويتوقعون أن يساعدهم على تحديد كيفية بدء الكون فى التشكيل، وإلقاء الضوء على مختلف النظريات الخاصة بنشأة الكون.

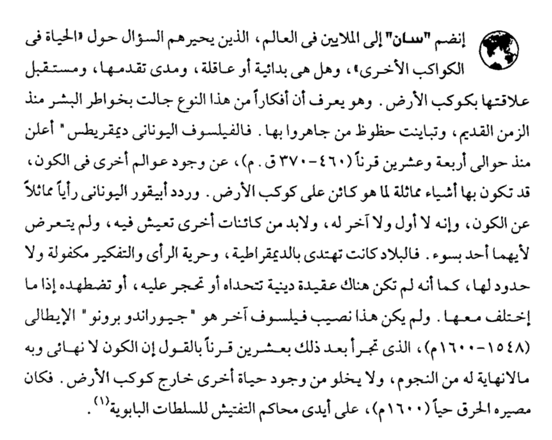
- وعلماء الفلك الأستراليون، من جانبهم، تمكنوا من رسم خريطة تفصيلية لنحو ١٠٠ ألف مجرة فى المنطقة المحيطة بمجرة "درب اللبانة"، وباستكمالها تضاعف عدد المجرات التى يتم تحديد مواقعها أربع مرات. وهى تغطى ٥٠٪ من السماء، وتتوغل إلى مسافة أربع مليارات سنة ضوئية فى أعماق الكون، واستخدموا فى رسمها تليسكوباً "روبوت" أتاح لهم التقاط أدق صور ثلاثية الأبعاد للكون حتى الآن.

الكــون مسـكون

لسـنا وحـدنا



- ١ -



إنضم "سان" إلى الملايين فى العالم، الذين يحيرهم السؤال حول «الحياة فى الكواكب الأخرى»، وهل هى بدائية أو عاقلة، ومدى تقدمها، ومستقبل علاقتها بكوكب الأرض. وهو يعرف أن أفكاراً من هذا النوع جالت بخواطر البشر منذ الزمن القديم، وتباينت حظوظ من جاهروا بها. فالفيلسوف اليونانى ديمقريطس" أعلن منذ حوالى أربعة وعشرين قرناً (٤٦٠-٣٧٠ ق. م)، عن وجود عوالم أخرى فى الكون، قد تكون بها أشياء مماثلة لما هو كائن على كوكب الأرض. وردد أبيقور اليونانى رأياً مماثلاً عن الكون، وإنه لا أول ولا آخر له، ولابد من كائنات أخرى تعيش فيه، ولم يتعرض لأيهما أحد بسوء. فالبلاد كانت تهتدى بالديمقراطية، وحرية الرأى والتفكير مكفولة ولا حدود لها، كما أنه لم تكن هناك عقيدة دينية تتحداه أو تحجر عليه، أو تضطهده إذا ما إختلف معها. ولم يكن هذا نصيب فيلسوف آخر هو "جيوراندو برونو" الإيطالى (١٥٤٨-١٦٠٠م)، الذى تجرأ بعد ذلك بعشرين قرناً بالقول إن الكون لا نهائى وبه مالانهاية له من النجوم، ولا يخلو من وجود حياة أخرى خارج كوكب الأرض. فكان مصيره الحرق حياً (١٦٠٠م)، على أيدى محاكم التفتيش للسلطات البابوية[1].

فالعقيدة الدينية كانت قد اطمأنت إلى العلاقة بين خلق الإنسان والله، من خلال التراث، وتفسيراتها للكتب المقدسة، ولم تشأ أن تتبدد هذه الطمأنينة بتأثير المغامرات العلمية. كما لم تشأ لدور الأرض، بإعتبارها مركز الدراما الكونية برمتها، أن تتهدده هذه

---

(١) ولا أقول "الكنيسة" البابوية، لأن الكنيسة لا تنتسب لبابا أو بطريرك أو أسقف. إذ أنها، فى المفهوم الكتابى هى بمثابة جماعة المؤمنين الحقيقيين فى كل مكان وزمان. وهى - عقيدياً ولاهوتياً - تنطوى على حقائق عميقة: فهى بمثابة جسد المسيح، الأمر الذى يحدد العلاقة اللصيقة الإندماجية التى تربط المؤمنين بمخلصهم. وهى عروس المسيح، موضحاً مدى القداسة والحب وعمقه بينهما. إذ توصف بأنها "بلا غضن ولا عيب". فالتصرفات والأحداث ينبغى نسبتها إلى "السلطات" البابوية، أو إلى "المؤسسة" الدينية.

وفي سابقة لا مثيل لها. وفى أثناء قداس هائل أقيم فى ساحة القديس بطرس بالڤاتيكان (١٢ مارس ٢٠٠٠)، طلب قداسة البابا يوحنا الثانى الصفح والمغفرة من الله عن الأخطاء والذنوب والآثام التى شاركت المؤسسة الكاثوليكية فى إرتكابها على مدار الألفى سنة الماضية. قال قداسته «إننا ننشد الغفران ونطلب الصفح للإنقسامات التى وقعت بين المسيحيين، ولاستخدام العنف ضد الآخرين بزعم خدمة الحق، وأيضاً للروح العدائية التى سادت فى مناسبات عدة ضد أبناء الأديان الأخرى». كما صدر عن الڤاتيكان وثيقة بعنوان "ذكرى ومصالحة" تتضمن إعتذار البابا بتفصيل أكثر.

الخيالات لو ثبتت. ويمكن تفهم هذا الموقف اليوم، عند استعراض ما تعانيه هذه العقيدة الدينية من بلبلة وقلق، فى مواجهة الفتوحات العلمية الحديثة، فى مجال مثل الهندسة الوراثية، وتأثيرها على طبيعة الإنسان وإنجابه، وما إلى ذلك.

ثم إن الإنسان، كما يبدو، لا يريد أن يهتز الاعتقاد القائل إنه أفضل الكائنات الحية، وأنه "مركز الكون" والوحيد فيه. وأن كل شئ ينبغى قياسه[٢] إنطلاقاً منه. وهو يعتز ولاشك بما يقوله عنه الإنجيل «ما هو الإنسان حتى تذكره أو ابن الإنسان حتى تفتقده. وضعته قليلاً عن الملائكة. بمجد وكرامة كللته وأقمته على أعمال يديك» (عب ٢ : ٧ , ٧). وإن كان هذا لم يمنع العلماء من التفكير فى "البكتريا" بإعتبارها كائنات حية، قد تكون أكثر "أصالة" من الإنسان! وهى تستمد أصالتها من أنها عاشت فوق سطح الأرض عدة بلايين من السنين، قبل ظهور أى نوع آخر من الكائنات الحية. وأنها صمدت لتقلبات كثيرة، ولم تتعرض للانقراض شأن الكائنات الحية العملاقة مثل الديناصورات. وقد تستمر باقية حتى بعد إنقضاء البشر.

ويرى علماء الإنسان أن الإنسان، فى بداية العصر الحجرى، لم يكن قد أدرك بعد حجم الدور المكلف به فى هذا الكون الغامض بالنسبة له، ولذلك فقد كرس حكماء تلك الفترة الزمنية للأنواع الأخرى دوراً أكثر فاعلية وأهمية من الإنسان. فكانوا ينظرون إلى الحيوانات المفترسة برعب وريبة، ويتعاملون مع الحيوانات الأليفة بحب وإعجاب. وتوجد آثار تثبت وجود من كانوا يعاملون كلابهم كأعضاء كاملين فى المجتمع، فيقومون بدفنهم باحترام وتبجيل يفوقان أحياناً ما كان يلقاه الموتى من البشر. والملاحظ أن التماثيل التى أقاموها لآلهتهم لم تكن على شكل إنسان، إنما كانت تحاكى الحيوان والطير بإعتبارهما الجنس الأفضل والأهم. ويدل على ذلك، مثلاً، مقابر المصريين القدماء والآثار التى تركوها، وتقديس البقرة عند الهندوس.

---

(٢) ثم أن الفلاسفة والمؤرخين القدماء رأوا أن الإنسان الفرد هو أصل الجماعة ومادة التاريخ، ووحدة الكون، ولهذا اتخذوه مقياساً لكل كيان يستمد وجوده منه، فالدولة أو الجمهورية عند أفلاطون تشبه النفس الإنسانية فى وظائفها الثلاث التى تؤديها وهى الإدارة والدفاع والإنتاج. وتاريخ الدولة عند إبن خلدون صورة من تاريخ الإنسان الفرد تبدأ بالطفولة فالشباب، ثم الكهولة التى تنتهى بالضعف والموت.

وكان من الشائع، فى أوروبا الغربية، حتى ثلاثة قرون مضت، معاملة الحيوانات والإنسان بالتساوى فى الحقوق والواجبات. فكانت الكلاب تقدم للمحاكمة إذا إرتكبت خطأ، وتعاقب حسب درجة الجرم بعقوبات قد تصل إلى الإعدام. والمعروف أن الهنود الحمر كانوا يخاطبون الحيوانات بصيغة الإحترام: أنتم؛ أنتن؛ حضراتكم. ويقول هنود الباونى Pawnee إن الحكمة والمعرفة كانتا مع الحيوان فى البداية، لأن "تيراوا"، الكائن الأعلى، لم يتكلم مباشرة مع الإنسان، بل أرسل إليه الحيوانات أولاً لتعلمه[٣].

وفى رأى هؤلاء العلماء أن المكانة التى بلغها الإنسان فيما بعد، جاءت مع مرور الزمن وتطور البشرية. فنما لديه شعور "بالمساواة" مع هذه المخلوقات، مع بداية التعاون والألفة بينه وبين الطبيعة! ثم أخذ يشعر تدريجياً بأهمية الدور الذى يؤديه، بعد ما صار وحده القادر على تطويع الطبيعة وتسخيرها لخدمة أغراضه، السلمية منها والعدوانية. ثم توّلد لديه شعور قوى بالذاتية والاستقلالية، وبالتفوق على كل ما يحيط به من كائنات ومخلوقات. وإنتهى به الأمر إلى الإعتقاد بأنه مركز الكون، وهو ما يسمى بمبدأ الإنسان القوى. ويعزو الفكر الهندوسى هذه المكانة العالية، التى بلغها الإنسان، إلى مروره بعمليات متتالية من تناسخ الأرواح، والتى لا يفقدها إلا إذا ارتكب جرماً فى حق الحياة.

ولقد بدأ السؤال يتردد بقوة عن احتمال وجود عوالم وحياة أخرى فى الكون منذ أن صنع "جاليليو"، عالم الرياضيات والفلك والفيزياء الإيطالى الأصل (١٥٦٤-١٦٤٢) تليسكوباً بدائياً ونظر إلى السماء[٤]، وسجل المجرات والنجوم والكواكب فاتحاً الطريق لما نسمع به اليوم من اكتشافات مذهلة فى الكون الفسيح[٥]. فبعد قرن تقريباً من وفاته عثر

---

(٣) قارن ما قاله بطرس الرسول عن بلعام «إذ منع حماقة النبى حمار أعجم ناطقاً بصوت إنسان» (٢بط ٢ : ١٦). ونُسب إلى العالم النمساوى الكبير، د. لورنتس، أنه من الذين يؤمنون بأن الحيوانات أقدر كائنات الله على حفظ سره وبيان حكمته فى كل شئ. فالله أودع هذه الكائنات كل عظمته اللانهائية. وينقصنا معرفة لغتها لكى نحيط بها.

(٤) وبعده صنع الفلكى الهولندى "كريستيان هينجيز" (١٦٢٩-١٦٩٥) عدسات وتليسكوبات إكتشف بها الحلقات الغازية حول كوكب زحل.

(٥) كان الفلكى الألمانى "كبلر"، فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى، يؤمن أن الإنسان سيخترع يوماً ما سفناً يطير بها إلى الفضاء ويصل بها إلى الكواكب الأخرى. وتخيل فى مذكراته أول رحلة للقمر. وبعده كتب الأديب الفرنسى "سيرانو دوبرجراك" رائعته الكوميدية التى تخيل فيها صاروخاً يتجه إلى القمر. وبعد قرنين تقريباً =

"وليم هرشل" على كوكب "أورانيوس" (١٧٨١م)، وبعده بأقل من قرن إكتشف "چون جالين" كوكب "نبتون" (١٨٤٦). بينما إكتشف "كلايد توجبون" كوكب بلوتو عام ١٩٣٠، وكان "توجبون" مساعداً للعالم "برسڤيل لويالا" الذى بنى تليسكوباً خاصاً به (١٨٩٤م) فى ولاية أريزونا الصحراوية، بأمريكا، بسمائها الصافية، من أجل إكتشاف الحياة التى كان يعتقد أنها موجودة على سطح المريخ. وللمريخ قمران هما "دايموس" و"فوبوس" يدوران حوله من الغرب إلى الشرق أى عكس كل النجوم والكواكب.

وجاء إطلاق الأمريكيين للسفينة "بيونير-١" وما حملته فى ٢ مارس ١٩٧٢، تعبيراً عن اشتداد اللهفة العلمية لمعرفة أسرار الحياة فى الكون. فقد انطلقت السفينة بسرعة تقارب ٤٥ ألف كيلومتراً فى الساعة إلى الفضاء خارج مجموعتنا الشمسية، وهى تحمل متحفاً نظمه الفلكى الراحل كارل ساجان يضم صوراً للحياة على الأرض، من نبات وحيوان وإنسان، ولوحات فنية وتسجيلات موسيقية، وعبارات بكل اللغات بما فيها اللغة العربية، وخريطة تبين موقع الأرض فى المجموعة الشمسية. وكانت السفينة بمثابة رسالة من علماء الأرض إلى سكان الكواكب الأخرى للتعريف بسكان الأرض، ويطلبون إليهم أن يتصلوا بهم! وإن كان الهدف الأساسى من إطلاقها هو المرور فى جو كوكب المشترى. وقد صورت وسجلت ورسمت وبعثت خرائط وتحليلات رقمية لجو المشترى ومجالاته المغناطيسية المتداخلة، ولاتزال ترسل صوراً وأرقاماً حتى الآن، وإن كان صوتها يضعف بالتدريج. وقد أطلقت أمريكا بعدها "بايونير ١٠ و١١" و"فويجر ١ و٢" فإكتشفت قمر

= كتب المفكر الإنجليزى "هـ. ج. ويلز" رائعته "حرب العوالم" التى تدور حول سفينة فضائية مريخية تحطمت على سطح الأرض، ثم بدأ سكان المريخ فى غزو الفضاء، والقضاء على الحضارات القائمة.

وبدأ الخيال العلمى والأدبى يتحقق حينما دار رائد الفضاء الروسى "يورى جاجارين" حول الأرض ما يزيد قليلاً على الساعة والنصف فى أبريل ١٩٦١. ولحق الأمريكان بالروس، وحققوا حلمهم الكبير بهبوط رائدهم الفضائى "نيل أرمسترونج" على سطح القمر فى ١٩٦٩/٧/٢١، من خلال برنامجهم الطموح "أبوللو"، إلى جانب برامج أخرى لإستكشاف سطح القمر، أهمها برنامج "رينجر" الذى نجحت ثلاث من سفنه، عامى ٦٤، ٦٥، هى رينجر ٧ و٨ و٩ فى إلتقاط آلاف الصور لسطح القمر. ولما هبط رجال الفضاء الأمريكيون الثلاثة فى منطقة "بحر السكينة" بالقمر هنأهم الرئيس نيكسون قائلاً لهم «بهبوطكم الناجح جعلتم الفضاء جزءاً من العالم». ومما يقال عن القمر الآن إنه «سبب الحياة على الأرض»، فقد ذكرت الباحثة "روبين كانوب"، فى دراسة أعدتها جامعة "كلورادو" الأمريكية، أن بعد القمر عن الأرض وحجمه ساعدا على إستقرار محور الأرض، وجعله أقل قابلية للتغيرات التى تحدث فى كواكب مثل المريخ. وأوضحت أنه لولا القمر لعانت الأرض مناخاً أكثر عرضة للتقلبات التى جعلت كوكباً مثل الزهرة تصل حرارته إلى ٤٨٠ درجة مؤية.

"بو" حول كوكب المشترى. ثم "ماجلان" لدراسة كوكب الزهرة؛ و"جاليليو" لدراسة كوكب المشترى، ومركبة الفضاء "كاسينى" لنفس الغرض.

وفى عام ١٩٨٩ أُطلق مجس الفضاء "جاليليو" لاستكشاف كوكب "المشترى" ووصل إليه فى عام ١٩٩٥، وانفصل أحد أجزائه واستقر بالسحب الغازية العملاقة فى جو الكوكب، وأرسل معلومات غاية فى الأهمية، مما مكّن العلماء من أن يرصدوا ذرات بها غاز النيتروچين والكربون، الأساسيين لتكوين الحياة، وذلك على قمرين تابعين للمشترى هما "جانيميد وكاليستو".

وفى أكتوبر ١٩٩٧ أطلقت ناسا، بالاشتراك مع وكالة الفضاء الأوروبية، السفينة Cassini/Huygens، وهى من أكثر سفن الفضاء تطوراً، صوب كوكب زحل لاكتشاف حلقاته الغامضة التى تحيط به. وسوف تصله فى يوليو ٢٠٠٤ حيث تصرف أربع سنوات فى دراسته ودراسة بيئته الغازية الفريدة، ودراسة Titan أكبر أقماره.

ومن أحدث[٦] الكواكب المكتشفة كوكب يدور حول نجم معروف باسم "أورسا ماجوريس ٤٧، أو الدب الأكبر ٤٧"، على بعد ٣٥ سنة ضوئية من الأرض، وحجمه ضعف كوكب المشترى، أكبر كواكب المجموعة الشمسية، وتجرى فيه أنهار جبارة وبسرعة مئات الكيلو مترات بشكل متواصل. وكوكب آخر أكبر، ضعف المشترى ست مرات، واسمه "نرجنيس أو ٧٠ نرجنيس". ودرجة حرارة الكوكبين ٨٠ درجة مؤية بما يكفى لوجود الماء واستمراره فى هيئة سائلة. والعالم الذى اكتشف الكوكبين أعلن فى مدينة سان أنطونيو، بتكساس، أمام مؤتمر لكبار الفلكيين (١٩٩٦)، أن الإنسان يقف الآن على عتبة الكون، يحاول أن ينظر من تحت الباب، ألف مليون باب. يرى ظلالاً ويسمع ضوضاءً، ويرى من حين لحين شيئاً يبرق وشيئاً ينطفئ، وتحمل كلها علامات استفهام كبيرة ممتزجة بالدهشة.

---

(٦) ومن بين ما أعلن عنه مؤخراً هو إكتشاف كوكب فى مجموعة "سيجانوس"، المعروفة باسم "الصليب الشمالى" على بعد سبعين سنة ضوئية من الأرض، ويأخذ مداراً بيضاوياً وشاذاً.

ومما يذكر أنه قد تم مؤخراً (أغسطس ٢٠٠٠) إكتشاف عشرة كواكب جديدة خارج المجموعة الشمسية، أحدها فى حجم كوكب المشترى وقريب فلكياً من الأرض. وبذلك يصل عدد الكواكب المكتشفة خارج المجموعة الشمسية إلى خمسين كوكباً.

والمعلومات التى أمكن جمعها، قبل ذلك بعقدين تقريباً (١٩٧٦)، بفضل رحلة المركبتين "فايكنج ١ و٢" اللتين هبطتا على سطح المريخ[٧] (١٩٧٦)، أتاحت الفرصة للعلماء أن يتحققوا من أن سطح المريخ يحتوى على عناصر الحياة المعروفة على الأرض، أى الكربون والهيدروچين والأوكسچين والفسفور، بالإضافة إلى بخار الماء، وطبقة من الجليد تحت قشرة الكوكب[٨]، مما حملهم على الاعتقاد بأن حياة ما وجدت، فى وقت ما، على سطح هذا الكوكب. وعزز هذا ما كشفت عنه الدراسات، التى أجراها علماء الجامعة المفتوحة ببريطانيا، من أنه يوجد نوع من الحشرات (البق) عاش على سطحه من ستمائة ألف سنة، مما يرجح توافر الفرصة الجيدة لوجود نوع من الحياة حتى الآن فى أماكن معزولة ومطموسة من الكوكب.

وفاجأت "ناسا" العالم، فى سبتمبر ١٩٩٦، بخبر كشف مهم يؤكد وجود أدلة قوية على أن نوعاً من الحياة، فى شكل بكتيريا أحادية الخلية، كانت تعيش على كوكب المريخ منذ ٦ر٣ مليار سنة[٩]. وقد توصل علماؤها إلى ذلك بعد دراسات وأبحاث مستفيضة أجروها على صخرة نيزك[١٠] سقط واستقر فى القارة القطبية الجنوبية منذ ١٣ ألف عام، وتم اكتشافه عام ١٩٨٤[١١]. واهتز العالم لهذا الاكتشاف، وإعتبره البعض من أهم

(٧) بعثت هاتان المركبتان ١٤٠٠ صورة عن التربة وتحليلها، والغازات الموجودة فى التربة وفى الجو، وعن الجو والضغط والمغناطيسية.

(٨) وهى صورة تماثل ما توصلت إليه المركبتان أيضاً عن القمر "أوروبا" الذى هو واحد من ١٤ قمراً تحيط بكوكب المشترى. فهو مغطى بطبقة سميكة من الثلوج عائمة فوق محيطات من المياه، مع وجود آلاف الينابيع الحارة التى تذيب الثلوج، ومركّبات عضوية تشكّل مجتمعة بيئة مناسبة لنشوء الحياة، إذ أنها فى جملتها ظروف طبيعية تماثل الظروف السائدة فى القطب الجنوبى الزاخر بالحياة تحت سطح الماء المتجمد. وقد تأيدت هذه الظروف بالصورة التى التقطها مؤخراً مختبر الفضاء "جاليليو" للقمر. ولما ازداد المختبر إقتراباً من القمر - حوالى ٥٨٠ كيلومتراً- عام ١٩٩٧، تلقى العلماء رسالة منه تقول إنه تُسمع أصوات غريبة. وإن كانت الصور القريبة التى أرسلها شككت العلماء فى وجود حياة فى المياه الدافئة أسفل سطح القمر المتجمد. وقد تأكد مؤخراً أنه محاط بطبقة "أيونوسفير" مما يقوى إحتمال وجود غلاف جوى حوله يماثل غلاف الأرض الجوى.

(٩) ويعنى وجودها إحتمال وجود أشكال وألوان من الحياة فى كواكب أخرى، سواء فى مجموعتنا الشمسية، أو فى ألوف ملايين الكواكب التى تدور حول ألوف ملايين النجوم.

(١٠) إنسلخ من كوكب المريخ من ٣٠ مليون سنة وظل يدور فى الكون حتى سقط.

(١١) وفى المؤتمر الدولى للچيولوچيا، الذى إنعقد فى بكين فى سبتمبر ١٩٩٦ أيضاً، أضاف العلماء الصينيون رأيهم أن سقوط أجسام كونية على الأرض، فى العصور الچيولوچية السحيقة، ربما كان سبباً فى نشوء الحياة على الأرض، وإن أدى فى الوقت نفسه إلى إنقراض الديناصورات.

إنجازات القرن العشرين . وإن كان قد تعرض للتشكيك من جانب علماء أوروبيين ، ثم من علماء جامعة "هاواى" الأمريكية الذين أعلنوا أن آثار الحياة التى وجدت على النيزك لم تكون بفعل كائنات عضوية ، رغم أن غيرهم من علماء أمريكا أعلنوا قبلاً ، فى فبراير ١٩٩٧ ، أنهم وجدوا فى الصخرة آثاراً لجزيئات لا تسببها سوى أنواع معينة من البكتيريا ، كما وجدوا طبقات دقيقة حية على حبوب صغيرة الحجم للغاية داخل الصخرة .

ولقد تهيأت فرصة أخرى للعلماء للتحقق مما توصلوا إليه ، بعد هبوط سفينة الفضاء الجديدة على سطح المريخ ، فى ٤ يوليو ١٩٩٧ ، والتى استغرقت رحلتها إليه سبعة أشهر قطعت خلالها ٢٩٧ مليون كيلومتراً . واسمها نفسه - "باث فايندر ، أو مكتشف الطريق" - ينطوى على التفاؤل والأمل فى الوصول إلى المزيد من المعرفة والعلم . وخرجت منها مركبة مريخية صغيرة "روڤر" ومختبر مريخى صغير باسم "سوجورنر - أو الزائر المؤقت" ، طوله ٦١ سنتيمراً ووزنه عشرة كيلو جرامات ، وبه أعظم وأدق ما ابتكره العقل الإنسانى من أجهزة للتصوير الملون المجسم ، لتحديد خواص وميكانيكا التربة ، ورصد الجو والحرارة والرطوبة والزلازل . وسرعان ما قام باختبارات على مورفولوجية السطح ومعادنه ، وأرسل سيلاً من الصور البانورامية والمعلومات ، وذلك بعدما تلقى الأوامر بالتحرك من مركز التحكم فى "باسادينا" بكاليفورنيا . وقد أكدت المعلومات الأولية مدى التشابه الوثيق فى التكوين بين الكوكب الأحمر والأرض ، وغيرت فى الوقت ذاته وجهات نظر العلماء السابقة عن الكوكب . ثم تدعمت هذه المعلومات بالصور التى أرسلتها سفينة أخرى بلغت الكوكب فى سبتمبر ١٩٩٧ ، ودارت حوله سنتين ترسم له خريطة كاملة .

وفى كريسماس ١٩٩٩[١٢] هبطت عليه مركبة صغيرة تكلفت ٨٠٠ مليون دولار ، بعد

---

(١٢) وفى عام ٢٠٠٥ ستصل إليه سفينة أخرى لتنقل عينات من التراب والحجارة والجو ، وتحفر تحت قشرته بحثاً عن الماء أو أية صورة للحياة العضوية ، وتعود إلى الأرض .

- وسوف تشارك مصر فى محاولات دراسة سطح المريخ حين ترسل حفاراً مصرياً ، يحمل اسم أحد آلهة الفراعنة ، إلى الكوكب ، والذى ستقله مركبة الفضاء الروسية "مارسخود" ، خلال رحلتها التى ستقوم بها عام ٢٠٠١ ، والتى ستنطلق فيها من قاعدة "كيب كانيڤرال" الأمريكية بصاروخ دلتا الأمريكى . ويقوم العلماء المصريون الآن بوضع التصميم النهائى لهذا الحفار .

رحلة استغرقت ١١ شهراً، بهدف التأكد من وجود الماء فعلاً على سطحه. ولكن المركبة أصيبت بالصمت، ولم تنفع كل المحاولات والرسائل فى استنطاقها. وهناك مركبة أخرى كانت منطلقة إلى الكوكب ولكنها طاشت فى الفضاء الخارجى بسبب خطأ أحد علماء الإنجليز، الذى حسب كل شئ للمركبة بالياردة والبوصة بدلاً من المتر والسنتيمتر. وقد أعلنت "ناسا" مؤخراً عن خطة تنفذ على مدى عشرين عاماً لمواصلة اكتشاف الكوكب. وتتضمن مشروعاً أمريكياً فرنسياً مشتركاً لإرسال مركبة فضائية غير مأهولة إليه والعودة بعينات من تربته. ومن المقرر إرسال أول مركبة عام ٢٠١٤ للعودة بهذه العينات.

وبسبب الأمل الذى يراود العلماء فى أنه كانت على هذا الكوكب الأحمر حياة لكائنات أخرى، ربما عاقلة، وأنه من الممكن أن يستأنف الإنسان الحياة عليه، توجد الآن مشروعات مستقبلية لتعميره وتحويله إلى صورة تماثل كوكب الأرض. ومن رواد هذا الحلم عالم الكواكب كريستوفر ماكاى، وعالم الفضاء أوين تون، اللذان نشرا عنه أكثر الأبحاث شمولاً، ومنها كيفية تحويل جوه إلى جو أكثر دفئاً ورطوبة وإمتلاء بالغازات ليصير صالحاً للحياة، وذلك بزيادة الفاعلية التى بها يستطيع ثانى أكسيد الكربون فى جوه إمتصاص أشعة الشمس والاحتفاظ بدرجة الحرارة. وأيضاً بوضع مرايا ضخمة فوق قطبيه. ويدرس علماء (ناسا) إمكان استنبات أشجار تم تعديل خصائصها الوراثية لزراعتها فى الكوكب، ويمكنها النمو والحياة داخل غلاف واق يقام حولها. كما أن هناك تخطيطاً للحياة على هذا الكوكب، وعلى القمر، لفترات طويلة - فيكون حمل وولادة، وعودة إلى الأرض بأول مولود فضائى. ولقد كشف العالم الفرنسى "بيير كولر"، فى كتابه "المهمة الأخيرة" عن زيجات وعلاقات جنسية تمت فعلاً بين الرواد فى سفن الفضاء تمهيداً لبدء حياة طبيعية على أحد الكوكبين أو كليهما. وتشير أحدث الأخبار إلى أن وزارة الدفاع الأمريكية تقوم بتمويل مشروع بحثى لتوصيل خدمة شبكة الإنترنت إلى كوكب المريخ وبقية كواكب المجموعة الشمسية، التى يمكن أن تصلح للحياة البشرية فى المستقبل، وذلك لربط الأرض ببقية كواكب المجموعة.

وقد أدى ما تحقق فى عالم الفضاء فى العقود الأخيرة إلى تعاظم الاهتمام العلمى[(١٣)] فى البحث عن وجود حياة عاقلة، والاتصال بحضارات متقدمة إن وجدت فى أرجاء الكون. ويوجد فى الوقت الراهن شبه إجماع من أغلب العلماء على وجود حياة أخرى فى أطراف الوجود، وأيضاً حضارات مماثلة لحضارة الأرض[(١٤)]، وربما أكثر تقدماً. وتأسست فعلاً أفرعاً جديدة من العلم، مثل علم "الأحياء الخارجية" (Exio-biology)، والذى يتناول تفسير بدء الحياة البيولوچية تحت تأثير ظروف الفراغ الخارجى، والبحث عن إحتمال وجود إحدى المجموعات النجمية التى تماثل مجموعتنا الشمسية فى التكوين. وعلم "المجتمعات الخارجية" الذى يدرس نمو المجتمعات خارج إطار الكرة الأرضية، والتى لم تكتشف بعد؛ وعلم الحياة الفضائية أو الأستروبيولوچى.

ويتردد الآن بين العلماء أن مستقبل البشرية أصبح فى الفضاء، ويتوقعون تكوين مستعمرات على القمر خلال العقدين القادمين، ونزول الإنسان على المريخ خلال الخمسين سنة القادمة، خاصة وأن ناسا قد أكدت فى يوليو ٢٠٠٠ العثور على أدلة تؤكد وجود مياه فوق سطحه. وأضاف العلماء الأمريكيون، فى أغسطس ٢٠٠٠، أن القراءات المغناطيسية لقمر "أوروبا" أحد أقمار كوكب المشترى، تؤكد وجود كميات هائلة من المياه السائلة تغطيها طبقة سميكة من الجليد. مما قد يمهد لاكتشاف حياة على سطحه على المدى البعيد. ويعود الفضل فى هذا الاكتشاف إلى المعلومات التى أرسلتها مؤخراً مركبة الفضاء "جاليليو".

---

(١٣) فمثلاً قد تقرر أن تسافر إلى المريخ سفينة فضاء كل ست وعشرين شهراً، لكى تبلغه فى أقرب مداره من الأرض، ليتمكن العلماء من التأكد من كل مكوناته، تمهيداً لهبوط أربعة من الرواد على سطحه حيث يقيمون حوالى سنتين يدرسون ويحللون، ويبعثون بكافة المعلومات إلى الأرض قبل أن تحملهم مركبة عائدين إليها.
ويقول العلماء الآن إن أنسب وقت لإرسال هذه المركبة المأهولة هو يوليو ٢٠١٤ عن طريق كوكب الزهرة.

(١٤) ومن رأي البروفسور البريطانى المقعد "ستيف هوكنج"، صاحب نظرية الثقوب السوداء فى الكون، أنه إذا كانت هناك كائنات أخرى فى الكون أكثر حضارة وتطوراً فربما تنتظر إلى أن نتطور مثلها كى تتواصل معنا. أما إذا كانت متخلفة عنا فكيف إذن ستصل إلينا؟ وهو يرى أن علينا الإنتظار طويلاً قبل إيجاد إجابات شاملة لكثير من الأسئلة التى تؤرقنا عن الكون وسكانه الآخرين. وإن كان يظن أن سكان الأرض قد يواجهون مصير الهنود الحمر فى أمريكا إذا ما حل بها زوار من الفضاء الخارجى!.

- ٢ -

ولقد سبق لشعراء وأدباء وكتاب كثيرين أن تخيلوا، عبر العصور، وجود أحياء "مريخيين" فوق سطح المريخ، أقرب الكواكب إلى أرضنا، وإن كانوا قد تصوروهم على شاكلة الآدميين بدرجة أو بأخرى. وتوقعوا أن يهبطوا على كوكبنا يوماً ما[١٥]. وتقدم لنا كتب وأفلام الخيال العلمي[١٦]، بين الفينة والفينة، مخلوقات ذات أشكال غريبة، منها

---

(١٥) إنتشرت من خمسين عاماً ظاهرة الأطباق الطائرة، أو الأجسام المضيئة مجهولة الهوية، والكائنات التى تحملهم وكيف أنها حلقت وهبطت على أرضنا، وعادت لأسباب ليست واضحة. وادعى آلاف الناس مشاهدتهم، حتى فى سماء مصرنا. وقيل عن بعض هذه الأطباق أنه بيضاوى الشكل، أو سلسلة من الأجسام المضيئة، أو كرة من النار. وتشترك كلها في قوة إبهار ضوئها. وقيل إن بعض من شاهدوها أمكنهم تصويرها. بل إن أحد الأمريكيين إدعى أنه أختطف داخل إحداها عام ١٩٩٧ وأُخضع لعدة كشوف. ويؤكد تقرير صدر عن المركز القومى الأمريكى لرصد هذه الأجسام، بمدينة سياتل، كثرة ظهورها. ففى عام ١٩٩٨ رصد ٥٦ حالة فى أغسطس، ١٦٤ فى سبتمبر، ١٢٧ فى أكتوبر، و٦٦ فى نوفمبر. وفى يونيو ٢٠٠٠ عقدت ندوة فى أسطنبول حول الأطباق الطائرة وحضرها مئات المندوبين والهواة، أكدوا أنها حقيقة وأنهم شاهدوها، وبعضهم دخلوها، ووصفوا ملاحيها.

ويحظى الطبق الطائر الذى شوهد بالقرب من قاعدة جوية أمريكية، بمنطقة روزيل بولاية نيومكسيكو، بشهرة خاصة لأنه كان، كما يبدو، أول طبق يشاهده الناس ويشاهدون بعض المخلوقات التى كانت بداخله. كان راسياً على الأرض وقد تحطمت أجزاء منه، وبالقرب منه بعض المخلوقات الشبيهة بالإنسان، من بينها من كان بعد حياً. وقتها أعلنت القوات الجوية الأمريكية أنها تحفظت على الطبق وتجرى عليه الإختبارات، ولكنها عادت ونفت الواقعة بجملتها. وبالرغم من ذلك فهناك فيلم فيديو تسجيلى بالأسواق لهذا الطبق وعملية تشريح المخلوق الفضائى. على أن الطبق الذى أطلق موجة عارمة من الإثارة والحيرة فى الوقت ذاته هو ذلك الذى هبط عام ١٩٥٥ بالقرب من البيت الأبيض الأمريكى، وخرجت منه عدة كائنات فضائية وطلبت الإجتماع بالرئيس الأمريكى، وكان وقتها الجنرال دوايت إيزنهاور. وتم الإجتماع فعلاً - كما قيل - وحضره بعض رجال المخابرات CIA، واستغرق مدة طويلة. وبعدها أسدل ستار كثيف من التكتم على الموضوع برمته. ومن العجيب أن الرئيس الأسبق كارتر تعهد بإزاحة الستار عن الموضوع أثناء حملته الإنتخابية، ولكنه تراجع عن ذلك بعد إنتخابه لتخوفه من أن يؤدى إعلانه إلى كارثة تشمل كوكب الأرض كله. ومما ينسب إليه قوله إنه بعدما شاهد بنفسه أحد الأطباق الطائرة فلن يسخر من هذا الموضوع أبداً.

ومن أخبار "الفضاء" فى الكتاب المقدس أن إيليا النبى «صعد فى العاصفة إلى السماء. فى مركبة من نار وخيل من نار» (٢مل ٢ : ١١). وقيل عن "أخنوخ" أنه «لم يوجد لأن الله نقله» (عب ١١ : ٥) ربما على مثال إيليا النبى. ويؤكد التقليد الكنسى أن جسد القديسة العذراء «صعد إلى السماء». أما عن صعود السيد المسيح له المجد فيقول الكتاب «إرتفع وهم (تلاميذه) ينظرون. وأخذته سحابة عن أعينهم» (أع ١ : ٩).

(١٦) يعبر أدب الخيال العلمى، منذ بدايته، عن أحلام البشرية ومخاوفها من المجهول. ويمثل نمطاً من التفكير العلمى لدى الإنسان القديم، بالإضافة إلى النزعة الملحة إلى المعرفة. ولقد كتب "لوسيان" السورى، فى القرن الثانى الميلادى، كتاباً أسماه "قصة حقيقية" وكان أول محاولة قصصية معروفة للسفر إلى القمر. وفى "ألف ليلة وليلة" نجد الحصان الطائر والبساط السحرى. ومن هنا يقال إن أحلام الأدباء تتحول إلى أعمال فى عقول العلماء.

مثلاً من له أطراف قصيرة وقامة منحنية وأدمغة كبيرة، ومنها الرجال الخضر الصغار، الذين عرضهم فيلم ET بإعتبارهم الوافدين من كوكب ناء، ودعاهم Extra Terrestrials، وصور لنا زياراتهم لكوكبنا على أنها للتعرف على أحوالنا، أو لغزونا. ومن أربعة أعوام عرض أهم أفلام الخيال العلمى فى أمريكا، باسم "يوم الاستقلال"، ويدور حول إجتياح عاصف للأرض، يتعرض فيه البيت الأبيض للتدمير، بواسطة غزاة من الفضاء الخارجى.

ويروج العلم اليوم أن الكواكب القريبة الشبه من الأرض، والصالحة للحياة فوقها، تعيش عليها مخلوقات أخرى غير التى نعرفها على الأرض، قد تكون أقل درجة، أى من نوع الأميبا وحيدة الخلية والحشرات والزواحف. أو تكون أعلى درجة وأرفع شأناً، وأكثر تقدماً من البشر، عاشت قبل إنسان الأرض بآلاف السنين، وحققت تقدماً مذهلاً، يفوق ما حققه إنسان الأرض. والذين يؤكدون وجود حياة خارج أرضنا يقولون إنه لا يعقل أن يضم الكون العظيم ملايين الملايين من النجوم والكواكب التابعة لها، من أجل الإنسان وحده، باعتباره هو الكائن العاقل الوحيد. ويدعو بعضهم الإنسان إلى أن يتخلى عن غروره وجهله وضيق أفقه، بل وعن أنانيته، وأن يسخر من نفسه إن استمر على وهمه أنه الوحيد، مع أنه يعيش على كوكب هامشى وسط زحام من عمالقة النجوم والكواكب.

أى أننا الآن وصلنا المرحلة حيث صارت الحياة فى الكون هى القاعدة وليست الاستثناء. وبدأت الأسئلة تتنوع معبرة عن هذا الاقتناع. فمثلاً يثار تساؤل حول الحياة وهل انتقلت من المريخ إلى الأرض فى مرحلة ما، أم أنها هاجرت من كواكب أخرى لم يعرفها الإنسان بعد. وهذه التساؤلات وغيرها قد يجد لها العلم إجابات(١٧) إن عاجلاً أو آجلاً.

---

(١٧) فالعلم يؤكد أن صور الحياة على الأرض، وفوق الكواكب الأخرى، لا تضيع أبداً. فهى "سابحة" فى الفضاء لآلاف السنين. فصور الحياة فى مصر وغيرها على الكرة الأرضية، منذ خلق الإنسان، مثلاً، مازالت موجودة داخل صندوق الفضاء اللانهائى. ويمكن استدعاؤها ومشاهدتها! فالفضاء اللانهائى سجلّ ضخم لانهائى، مسافات ومساحات وزمناً، يضم "أشرطة" تسجيلية، بالصورة والصوت، لكل ما يحدث فى الكون. وقد لا يطول الوقت قبل أن تتوافر التقنيات التى تمكّن الإنسان من إستدعاء هذه التسجيلات، لتصبح وثائق كونية تاريخية، تعظّم معارفه، وتطلق ثورة جديدة فى حياته وحياة كوكبه. ومن يدرى فقد يجئ اليوم، طال إنتظاره أو قصر، حين تتبادل فيه الكواكب هذه "الأشرطة" لتوثيق العلاقات بين قاطنيها!.

ويأخذ العلماء هذه الأمور بكل الجدية. وقد انتشرت مراصدهم ومحطات استقبالهم ومراكز أبحاثهم فى مناطق كثيرة من العالم. فهناك التليكسوب الضخم بمرصد "جوردل" البريطانى، ومعامل فى مانشستر وأدنبره، ومعامل ناسا وتليسكوباتها، وتليسكوب الفضاء "هابل". إلى جانب عدة مراصد ضخمة فى جزيرة بورتريكو لإلتقاط الإشارات الفضائية، وعدة محطات أرصاد ضخمة أمريكية/ أسترالية فى كانبرا لنفس الغرض.

ويجلس فريق من العلماء طوال ساعات اليوم الأربعة والعشرين، ومنذ ست وثلاثين سنة، فى محطة استقبال وإرسال ذات طابق هوائى قطره خمسة وثلاثون متراً، ومحطة إرسال تليسكوبى تعرف باسم "BETA" بمحطة "جولدستون" فى كاليفورنيا، وتضم غرفة مراقبة بها معدات إرسال غاية فى الدقة والتنفيذ، وإشارات جوية على أجهزة كمبيوتر، وذبذبات صوتية على أجهزة راديو. ويقوم الكمبيوتر باستقبال وإرسال الإشارات أتوماتيكياً دون تدخل إنسان، لتكون مستعدة دائماً لاستقبال أية إشارة قد تجئ فى أية لحظة. وهم جالسون بصبر وباستمرار لأن هناك الكثير من الدلائل لديهم على وجود مخلوقات أخرى غيرنا فى هذا الكون الواسع. وقامت "ناسا" من جانبها بعمل أول مشروع علمى للبحث عن وجود حياة عاقلة فى الكون تشبه الحياة على الأرض، وأطلقت عدة تليسكوبات لاسلكية فضائية من معامل صحراء كاليفورنيا، إلى جانب تليسكوب "هابل"، للقيام بعملية مسح للكون ودراسة الظواهر الغريبة. كما أعلن فى لندن (نوفمبر ١٩٩٦) أن علماء الفلك الأمريكيين والأوروبيين سيقومون بعدة محاولات جادة لمعرفة عمق الكون، وإجراء عدة دراسات لاكتشاف أى دليل أو إشارة عن وجود مخلوقات ذكية فيه، وسيكثفون جهودهم لتلقى أية إشارات راديو قد ترد من كواكب غير معروفة حالياً، وخاصة تلك القادمة من أكثر النجوم قرباً لنا، والمشابهة للشمس، والتى يزيد عددها على الألف.

ومنذ أن التقط التليسكوب الراديوى فى أوهايو، بأمريكا، رسالة صوتية مدتها ٣٧ ثانية، أكد العلماء وقتها أنها رسالة عاقلة من حضارة تبعد ألوف السنين عن الأرض، والعلماء يحاولون أن يقولوا «نحن هنا»، إنتظاراً لرد قد يجئ يوماً ما يقول: «ونحن نعرف».

وجاءت بادرة أمل في هذا المضمار، في ديسمبر ١٩٩١، حين أعلن عدد من علماء بريطانيا أنهم تلقوا إشارات وذبذبات غريبة من كواكب أو عوالم خارج المجموعة الشمسية، وهي إشارات غامضة لا صلة لها بلغات العالم المعروفة، وربما يكون مصدرها عالم آخر بعيد عنا، ومأهول بأجناس أخرى لمخلوقات تختلف عن الإنسان ولكنها تتمتع بحضارة متقدمة. وهذه الإشارات مستمرة حتى اليوم بانتظام عجيب، ويُعتقد الآن أن مصدرها الكوكب "بولسار". وأضافت "ناسا"، عام ١٩٩٥، أن معاملها وتليسكوباتها بكاليفورنيا وأنحاء متفرقة من أمريكا إلتقطت هي أيضاً حوالي ثمانين موجة لاسلكية تحمل إشارات إذاعية بلغات غير معروفة. وقد إبتكر العلماء الأمريكيون مؤخراً أحدث وأقوى جهاز في العالم لتحليل مثل هذه الإشارات، ووضعوه في جزيرة بورتريكو داخل أكبر جهاز تليسكوب يتلقى إشارات الراديو في العالم، مما سيزيد من قدرات العلماء لتلقي هذه الإشارات وتحليلها. وقاموا بزرع مجموعة من أجهزة التليسكوب العملاقة التي تفوق قدرة استقبالها تلك التي "لهابيل" أربعين مرة، وهي موزعة في الفضاء الخارجي حول الأرض بحيث تربط بين كوكبي المشتري والمريخ، ويمكنها إلتقاط أية إشارة كونية قد يبعث بها أي من جيران إنسان كوكب الأرض في الكواكب الأخرى، يبحثون هم أنفسهم عن جيران لهم في الكون الفسيح[(١٨)].

ولا جدال في أنه حين تتأكد هذه الأمور حقاً وفعلاً، فستنقلب رأساً على عقب كثير من المفاهيم والمسلمات التي عاش عليها الإنسان آلاف السنين، وستتغير رؤية الإنسان لنفسه وللكون المحيط به تغييراً جذرياً. والطريف أنه أُجري في فرنسا، في سبتمبر ١٩٩٦، إستطلاع حول الحياة في الكواكب الأخرى تبين منه أن نصف الفرنسيين يعتقدون بوجودها. وعن سؤال حول ما قد يجلبه العالم الآخر للأرض، تضمن الجواب "الحكمة والتقدم". بينما عبر عشرهم عن خشيتهم من وقوع حرب معه. وهذا الخوف ليس بمستغرب، لأن معظم الأفلام والمسلسلات العلمية تقدم صوراً عن صراعات وحروب، وغزو قادم من كوكب آخر. مما يدل على مدى تمكن العدوانية من العقلية الإنسانية،

---

(١٨) والعلماء الذين يتابعون المركبة التي هبطت على المريخ في كريسماس ١٩٩٩، وصمتت، جاءتهم أصوات أشبه بالطنين أو الهمهمات، وإختلفوا حول مصدرها وهل هي من المركبة، أو من مصادر أخرى، أو رسائل كائنات عاقلة من مكان ما في الكون تمر عبر المريخ.

فمضت "تسقط" مخزونها العقيم هذا على تفكير وسلوكيات مخلوقات العوالم الأخرى، التى لم تكتشفها بعد.

ولنا أن نقدر العلم وجهوده فى بحثه عن "رفقة" لنا فى هذا الكون الشاسع، فالوحدة عدو قاتل، وإن كانت التكلفة جد باهظة، يراها البعض إسرافاً عبثياً ويشكك فى جدواها، بينما كوكبنا وشعوبه(١٩) فى أمس الحاجة لكل ما ينفق فى هذا المضمار. وهو موقف لا يتفق معه التقدميون، ويعتبرونه إنكفائياً قصير النظر، بإعتبار أن العلم ليس ترفاً، مهما كانت المجالات التى يجوسها أو يشطح إليها، ومهما كان الثمن عالياً. والواقع أنه لو ضنت البشرية عليه بالمال، وحبسته عنه طوال القرون الأخيرة، ما تحركت خطوة واحدة إلى الأمام.

ثم أن سعيه وبحثه عن حياة فى الكون، خارج كوكبنا، عملية مثيرة تساعد على مقاومة الملل والرتابة والتململ الذى يعانى منه كوكبنا فى الحاضر. والملل عدو آخر شديد المراس يواجهه إنسان اليوم فى كل ركن من دنياه، ويكاد يقضى على معنوياته، ويخنق خياله وأحلامه.

أما الإشارات التى يرسلها فى أنحاء الكون، أملاً فى وجود من يلتقطها، فهى بمثابة أصوات استغاثة - تنطلق موازية لابتهالاتنا للسماء - لعلها تجد من يستجيب لها من مخلوقات متحضرة فاضلة، تندفع لإنقاذ مجتمعاتنا من شرور كثيرة تقف عاجزة أمامها، وستكون أشد عجزاً فى المستقبل، لأن الحظر بات داخلياً، يتمثل فى جيوش خفية من محترفى الإجرام والإرهاب تعمل فى الظلام، وتكاد تطوح بكوكبنا فى ظلام لانهائى.

والمؤمنون(٢٠) الحقيقيون الذين ينتمون لمختلف الديانات، شرقاً وغرباً، هم الذين لا

(١٩) وهو ما يفرض على العلم والعلماء مسئولية كبيرة لمساعدة "الإنسان العادى"، الذى يتحمل نصيبه من الأعباء، بطريق غير مباشر على الأقل، وإن استمر يكابد شظف العيش وقسوة الحرمان، فى عالم يتطور بصورة مذهلة لصالح القادرين فى المقام الأول كما يبدو.

(٢٠) وهناك الإيمان بأن الكون كله مسكون بالمردة والجان والدواب والمخلوقات التى لا نعلم عنها شيئاً، إلى جانب الملائكة المخلوقات النورانية الأثيرية. وهناك أيضاً الإعتقاد بأن الأسلاف يسبحون فى الفضاء اللانهائى مع إحتفاظهم بصلة وثيقة مع ذويهم الأحياء. أما الذين "هبطوا" والذين "صعدوا" من بشر ومخلوقات، وزوارنا من ركاب الأطباق الطائرة القادمة من الكواكب والمجرات الأخرى، فالحديث عنها يطول كثيراً، ويبحث العلم من جانبه عن الأدلة القاطعة. وإن أفادت بعض الروايات أن معظم ما نشر عن هذا الموضوع فى الخمسينيات والستينيات كان من تأليف القوات الجوية الأمريكية لصرف الأنظار عن طائرتى التجسس المتطورتين "يو-٢" و"إس. أر-٧١".

يعترفون بهذه **"الوحدة"** أو يشعرون بها، فالإله الخالق، مهندس الكون ومبدعه، يملأ الفضاء اللانهائى عليهم، وسماواته مفتوحة وملائكته يصعدون وينزلون من أجلهم، ويدخلون معه فى مناجاة روحية وذهنية مستمرة لا تتوقف. ويقول فى ذلك داود النبى[٢١]:

من خلف ومن قدام حاصرتنى وجعلت علىّ يدك
عجيبة هذه المعرفة فوقى إرتفعت لا أستطيعها
أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟
إن صعدت إلى السموات فأنت هناك
وإن فرشت فى الهاوية فها أنت
إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر
فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك
فإذا قلت إنما الظلمة تغشانى. فالليل يضئ حولى
الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضئ.

(٢١) مزمور ١٣٩ : ٧-١٢.

أوجاع فى الكون



(١) الزلزال

إنتصف عقد الثمانينيات من القرن العشرين وفى الكرملين وجه جديد لم يألفه هذا الصرح العريق، ليس فقط بتلك "الوحمة" البنية اللون التى تمتد فوق الجبين، كعلامة فارقة بين صاحبها وبين من جاءوا قبله من الرجال، بل وبين ما يحمله رأسه من أفكار جديدة[1]، وفلسفة حكم غير مألوفة فى عالم الماركسية، من بريسترويكا "إعادة البناء" وجلاسنوست - مصارحة ومكاشفة مع الشعب وإنفتاح على العالم. فتمزق جدار الصمت والتزمت الذى تميز به الكرملين، واهتز الستار الحديدى وتفكك لأول مرة منذ قيام النظام البلشفى عام ١٩١٧.

ففى عام ١٩٨٥ صعد جورباتشوف إلى قمة السلطة فى الكرملين، وهوى بالنظم الشمولية، عندما إنهار سور برلين[2] فى نوفمبر ١٩٨٩ تحت أقدام ومعاول الهاربين من جبروت العسف والقهر إلى دروب الحرية. فكان الرجل بأفكاره التحررية بمثابة قنبلة موقوتة سرعان ما انفجرت وفجرت نظام الحكم من الداخل، فسقط الحزب الشيوعى، وخرج من السلطة فى الإتحاد السوفيتى عام ١٩٩٢، وتوالى سقوطه وخروجه فى أقطار أوروبا الشرقية. ويرى غالبية الباحثين أن القرن العشرين إنتهى عام ١٩٨٩. وكانت السنوات ١٩٨٩-١٩٩٢ بمثابة زلزال ممتد متواصل هز الأركان التى بدت راسخة على مدى يزيد على السبعين عاماً. وجاء السقوط فجأة ومفاجأة[3]، أشبه بانهيار عمارة شاهقة فى لحظة خاطفة، فتحولت هى إلى كومة، بينما إهتزت العمارات حولها، وسرت فيها رجفة مباغتة، وإنتشرت الشروخ فى جنبات بعضها.

كانت موسكو كعبة الليبراليين والمثقفين والتجديديين فى أنحاء كثيرة من العالم،

---

(١) يقال إن قادة موسكو كانوا الأسبق فى التفكير بشأن إحداث تطور سياسى داخل الإتحاد، وإن لم يتفقوا حول عمق هذا التطوير ولا طريقته. وكان بريجنيف أول من طرق هذا الباب، ثم جاء أندريبوف الذى دعا إلى تحديث السياسة، إلا أن المرض لم يمهله. أما جورباتشوف فهو التلميذ الوفى لفكر أندريبوف.

(٢) كان طول السور ٥٥كم، وإرتفاعه ٣٫٥ متراً، وبناه خروشوف في الستينيات ليقطع خط الرجعة على الهاربين إلى برلين الغربية.

(٣) ولا أدل على ذلك من توقع الرئيس الأمريكى نيكسون، السياسى المخضرم، فى كتابه "١٩٩٩- نصر بلا حرب"، أن يكون الإتحاد السوفيتى أكبر منافس لبلاده فى القرن الحادى والعشرين!.

وخاصة بلاد العالم الثالث، الذى كان يتطلع إليها كملاذ ضد شطحات وتسلط الغرب، وضغطوط الرأسمالية، وكقوة مساندة لتحرره وإستقلاله. ولكنها عند الغرب كانت تعتبر عاصمة العبودية، وإهدار الحريات وحقوق الإنسان، ومركز التآمر العالمى. ودعاها اليمين الدينى عاصمة "مملكة الشر"، و"ضد المسيح". وما أن إنتهت الحرب العالمية الثانية، عام ١٩٤٥، التى تحالفت موسكو خلالها مع الغرب، حتى تبنى الأخير سياسة الإحتواء containment، التى إبتكرها الأمريكى چورج كينان، والتى قامت على إحتواء الإتحاد السوڤيتى داخل حلقة ممتدة على مستوى العالم، من الأحلاف والنظم السياسية والقواعد العسكرية، التى تحصر نفوذه داخل دائرة لا يخرج منها[٤]، وتكبل تحركه الأيديولوچى، وتحاول أن تخنقه داخلها. وكانت هذه السياسة بمثابة حرب غير معلنة، نعتت "بالحرب الباردة"، لأن مدافعها على الجبهات الرئيسية كانت صامتة.

والحق إن الصورة التى سيطرت بين المعسكرين، الشرقى بقيادة الإتحاد السوڤيتى والغربى بقيادة الولايات المتحدة، كانت حرباً أيديولوچية وسياسية، بكل ما تضمنتها الحرب من تشويه لصورة الأخر، وتنبوء بقرب نهايته، وصراع المخابرات والجواسيس لتدبير الانقلابات والتصفيات الجسدية[٥]، وسباق ضار للتسلح البيولوچى والكيميائى والنووى، حتى وصل إلى مرحلة "حرب النجوم" الباهظة التكلفة، والتى خرجت بها إدارة ريجان فى ولايته الثانية (١٩٨٤-١٩٨٨). وجهود محمومة لتجميع الأنصار. والضغط على الدول المتوسطة والصغيرة لكى تنحاز لمعسكر دون الآخر. وكان مبدأ السيادة الوطنية هو الأساس فى مجال العلاقات الدولية، بحيث أن أى مساس بهذه السيادة كان يثير عادة موجات من الاضطراب السياسى فى مجالها، ومنها ما كان يتحول فعلاً إلى حرب محلية أو إقليمية. ولم يمنع هذا بعض الدول الصغيرة والمتوسطة من

---

(٤) كانت للإتحاد محاولاته المتكررة للخروج منها. ولعل أخطرها كان تحالفه مع كوبا، وصفقة الصواريخ بعيدة المدى التى أبرمها خروشوف مع كاسترو عام ١٩٦٢، والتى وضعت على سواحل الجزيرة الكوبية المواجهة للولايات المتحدة، والتى كادت تشعل الحرب العالمية الثالثة. وأيضاً محاولاته كسر الحلقة جنوباً، نحو مياه شرق البحر الدافئة "المنطقة النواة"، التى إعتبر "ماكندر" الجغرافى المعروف، وغيره من الجغرافيين، السيطرة عليها تمهد للسيطرة على العالم.

(٥) ومنه ما عرف "بغسيل مخ" الأسرى بواسطة السلطات الشيوعية بحيث يعودون إلى بلادهم وهم شديدو العداء لبلادهم ولنظامهم الديمقراطى الرأسمالى. وكان الغسيل كيميائياً وتسنى معرفة طبيعة المواد الكيميائية بعد سقوط الإتحاد السوڤيتى ووقوع وثائق مخابرات ألمانيا الشرقية (أشتاسى). فهذه المواد تحول الإنسان إلى أداة طيعة مجردة من الإرادة تتقبل أية توجيهات وتعليم.

الاستفادة من وراء تنافس المعسكرين، والحصول على الدعم والمساعدات من واحد منهما، وأحياناً من الاثنين معاً، وهو ما اعتبر وقتها نوعاً من الإبتزاز الدولى. وقد استطاع المعسكران تحجيم هذه المحاولات بعد إجتماع كوسيجين وچونسون فى نيوإنجلند أواخر الستينيات، وقيام سياسة الوفاق (أو خفض التوتر Detente) بينهما، والتى بلغت قمتها فى مؤتمرى وشنطن وموسكو أيام بريچنيف ونيكسون أوائل السبعينيات.

وحققت سياسة الإحتواء هدفها الرئيسى، بعدما استنزفت إقتصاديات الإتحاد السوڤيتى بصورة سيئة، أثرت على أوضاعه الداخلية ومستوى معيشة شعوبه، وإن كانت فى الوقت نفسه أربكت إقتصاديات الغرب وضاعفت من ديونه الداخلية، وشوهت أسس الإقتصاد الأمريكى، وأدت إلى عجز الميزانية وضعف الاستثمارات. وجاءت حرب السوڤيت فى أفغانستان (١٩٧٩) - وكانت بمثابة قمة توريط أمريكا لهم - كالقشة التى قصمت ظهر البعير. وصار عام ١٩٨٩ هو نقطة الانقطاع الفاصلة، والتى بدأ عندها تداعى النظام العالمى الثنائى القطبية، بعدما إنهارت وتفككت الكتلة الاشتراكية، وتوحدت ألمانيا التى ظلت مقسمة إلى شطرين قرابة نصف قرن. وانتهت الحرب الباردة، وسقطت معها مفردات القاموس القديم.

ويسود إعتقاد لدى بعض الدوائر، خاصة بين المتعاطفين مع اليسار، أن تفكيكه تم بذكاء خارق من الداخل فى الأساس، أى من خلال سيطرة المجموعات اللاقومية الصهيونية على جهاز الحكم والحزب، فى مرحلة ضعف القيادة المركزية. وهناك فعلاً من يعتبرون جورباتشوف ويلتسين ومن لف لفيفهما، من الخونة، لأنهم سلموا الإتحاد واستسلموا لأمريكا[٦]. كما يعتبرون جريمة تفكيك الإتحاد السوڤيتى أكبر جريمة سياسية فى التاريخ، وأكبر حادثة إنتحار چيوبوليتيكى فى الجغرافيا السياسية، لم يكن لها مبرر حقيقى بالصورة التى تمت بها. ويرون أنه كانت هناك بدائل كثيرة للتغيير والتفكيك بالتخطيط والتدريج.

(٦) يكشف كتاب جديد للصحفيَّين كارل برنشتاين الأمريكى وماركو بوليتى الإيطالى، عن تعاون واسع إدعيا أنه كان قائماً بين البابا چون بول الثانى والولايات المتحدة وجهاز مخابراتها ضد الإتحاد السوڤيتى. وقالا إن البابا وريجان، لدى زيارته له أوائل الثمانينيات، إتفقا على أن إنهيار الإمبراطورية السوڤيتية أصبح محتماً. وأضافا أن محاولة إغتيال البابا فى رأى الـ CIA كانت بتدبير بلغاريا أحد أهم حلفاء السوڤيت.

فى حين أكد كاتب معروف هو إزبجنيو برجنسكى، السياسى الأمريكى، فى كتابه "الإنفلات"، أن سقوط الشيوعية كان أمراً حتمياً، بإعتبارها كانت تمثل أكبر فشل إنسانى - من حيث التكلفة - فى التاريخ. فقد أزهقت أرواح ستين مليون نسمة على الأقل، إلى جانب الأماكن الدينية التى نسفت، والآثار التى خربت، والمكتبات التى نهبت أو أحرقت، والأعمال الفنية التى سرقت، والروح الإنسانية التى حطمت(٧).

أما جورباتشوف، فى كتابه "مذكرات" فينتقد الذين يساوون بين الأيدولوچية الشيوعية والفاشية، ويؤكد أن الأيدولوچية الشيوعية فى صورتها النقية تقترب كثيراً من المسيحية. فأفكارها الأساسية هى الأخوة لجميع الشعوب دون إعتبار لقومياتهم، والعدالة والمساواة والسلام، ونهاية العداء بين الشعوب. فإن كان جورباتشوف محقاً فيما ذهب إليه دلل فشل النظام على خطر الفجوة بين المبدأ أو الفكر مهما سما، وبين تطبيقاته. فالرأى السائد أن الماركسية إنفردت بالساحة فى الإتحاد السوڤيتى، يفكر قادتها نيابة عن الملايين، فتم تأميم الحوار الفكرى، وصودرت الحريات السياسية واختفت الديمقراطية، وعلا صوت الحزب الواحد، وحُرّمت التعددية الحزبية، ومنع النقد الحر، واضطهد كل من تجرأ عليه سوڤيتياً كان أو أجنبياً(٨). فخربت نفسية المواطن السوڤيتى، وساد الخواء

---

(٧) ويرى علماء الإجتماع السياسى فى سقوط الإتحاد السوڤيتى المفاجئ والمشين عاملاً مساعداً لتضخم موجات الإرهاب العالمى فى العقد الأخير من القرن الماضى، والتى تمثل رد فعل لخيبة الأمل التى أصابت قطاعات كبيرة لهذه النهاية المفجعة. إلى جانب تحول روسيا - التى قامت محله - إلى مصدر كبير لموجات من المافيا والمجرمين العالميين.

(٨) ولقد بدأ توجيه النقد مبكراً، وصدر بعضه آنذاك من المتعاطفين مع الإتحاد السوڤيتى، الذين أرادوا تقويم التجربة الإشتراكية من أجل نجاحها ومن أجل الصالح العام:
- ففى عام ١٩٢١ كتب الأديب السوڤيتى "يفجينى زمياتن" روايته "نحن" والتى لم تنشر فى الإتحاد السوڤيتى وإن ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٩٢٤. وهى تندرج تحت ما يعرف برواية "المدينة الفاسدة". وتدور حول المواطن "د-٥٠٣" الذى أصيب بما شُخص على أنه الورم المعروف "بالروح" أو الوهم، وتسبب فى ثورة عاطفية تجلت فى حبه للمواطنة "أى-٣٠٣". وتمثل العلاج فى استئصال ورم "الروح" من المريض ومن كل الناس لوقف إنتشاره. وأراد بها أن ينبه النظام إلى أن يتجنب فرض آلياته التى ترسم مسار حياة الناس وتحركهم ضد إرادتهم، وتحولهم إلى أرقام صامتة بلهاء، مما يترتب عليه خلق فراغ روحى مفزع فى حياتهم. ولكن النظام لم يتنبه لهذه الرسالة ولم يأخذ بها.
- وهناك كتاب "الإله (الصنم) الذى هوى"، الذى صدر أوائل الأربعينيات، وشارك فى كتابته ستة من كبار المفكرين والأدباء الأوروبيين والأمريكيين، من بينهم "أندريه جيد" الكاتب الفرنسى الكبير، والذى كان فى بدايته من الشيوعيين المتحمسين. وتميز هذا الكتاب بأهمية وثقل وزنه وعنفه فى نقده للنظام السوڤيتى.
- وسبقهم جميعاً "بيتر كروبتكين" الذى حذر ضد أخطار الماركسية حين كان يروج لها كارل ماركس، وأفصح عن أفكاره فى كتاب "غزو الخبز" الذى نشره قبل قيام الإتحاد السوڤيتى بمدة طويلة، وتنبأ فيه أن نمط الدولة التى يدعو إليها ماركس لن تؤدى إلى تحقيق الرخاء، وأنها سوف تتجه إلى وأد الحرية.

الروحى بين الناس. مع أنه الشعب الذى خرج منه الروائى الكبير تشيكوف (١٨٦٠-١٩٠٤) الذى مجد الحرية، والذى كان يدعو كل روسى ليطهر روحه وسلوكه يومياً من أدران العبودية، فالخبز بدون حرية هو خبز مغموس فى الذل.

ومما زاد من هذا الخواء الروحى ما يقال من أنها إعتبرت علم النفس كلاماً فارغاً، وأن علمى النفس والروح من وجهة نظرها لا وجود لهما، وكل ما فى داخل الإنسان هو "تفاعلات" بين مواد وأحماض تؤدى إلى نشاط عقلى ووجدانى. وكل سلوكيات الإنسان فسيولوچية. ولهذا رُكز على "التشريط الباڤلوڤى" لغسل مخاخ الأتباع والخصوم على حد سواء. كما أن الأديان كلها عبارة عن مخدرات يعطيها الأغنياء للفقراء حتى لا يسرقوا أموالهم، أو يمسوا إقطاعيات الطبقة البرجوازية.

ويقال الآن إنه طوال سبعين سنة لم يعرف المثقفون الروس ما هى العلوم النفسية والاجتماعية والجمالية والدينية، والتى تعمق فيها الغرب فارتاد أغوار النفس الإنسانية وأنماط السلوك الإجتماعى والأساطير الشعبية ومعناها قديماً وحديثاً.

ثم أنها متهمة بالتنكر للذين حكمت باسمهم، أى الطبقة العاملة (بروليتاريا). فالنظام السوڤيتى إبتعد بدرجة خطيرة عن هموم وآمال الشعب، رغم أنه بدأ مهتماً بالإنسان العادى - رجل الشارع - ويعمل على أن يوفر له ما عجز النظام القيصرى القديم عن توفيره له من كرامة وآدمية. لدرجة القول إن حربه ضد الدين لم تكن لذاته، بقدر ما كانت ضد رجاله ومؤسساته، التى أشاعت فى الناس روح الخنوع والاستسلام. فالأرثوذكسية الروسية، كما صورتها الماركسية، لم تنجح فى خلق روح التحدى والعمل التى أثارتها البروتستانتية[٩] التى نبتت فى تربتها الرأسمالية. فالمجتمع الأمريكى بتمايزاته، مثلاً، أقامته روح التحدى وجهاد الرواد فى جو المناخ الدينى، وعلى نفس المنابع الدينية.

أى أن عجز النظام السوڤيتى عن تحقيق طموحات شعبه فى حياة كريمة، وحرمان الشعب من مشروعية الحلم فى مستقبل مشرق، بحيث لم يبق له غير الكوابيس، كان

(٩) وقيل عن البروتستانتية أنها حاولت تحرير الفرد من السلطة الكنسية، وأزالت إلى حد بعيد التناقض بين النجاح فى الدنيا والخلاص فى الآخرة، ورفعت من قيم العمل والإدخار والعمل التطوعى. وعلت من قيم الحرية والفردية والمسئولية، وشجعت على التعددية مما أفسح المجال لاتساع مساحات التسامح الدينى.

المعول الأشد هدماً فى كيان الإتحاد. فسهام العدو الخارجى عادة ما تتكسر، قبل أن تصيب فى مقتل، شعباً يؤمن بوطنه ويثق فيه وفى نظامه، ويعرف أفضاله. فسلامة الجبهة الوطنية وعافيتها ووحدتها هى من أكبر الضمانات لحماية الوطن فى وجه الأزمات المصيرية. ويعنى هذا أن الشيوعية التى قامت كنتاج لفشل الديمقراطية اللبرالية فى تحقيق التوقعات منها، كما يقول ميكل هاورد المؤرخ البريطانى البارز، سقطت هى نفسها لإخفاقها فى تحقيق الأمرين معاً، الديمقراطية والتوقعات. وتبين على سبيل القطع أن صيغة الحزب السياسى الواحد، الذى يحتكر السياسة المطلقة، صيغة فاسدة، بل هى مضادة للتنوع الخلاق الكامن فى صميم الطبيعة الإنسانية. ومن هنا القول بأن النظم الشمولية مكانها الآن متاحف التاريخ.

ثم أن الإقتصاد الموجه، الذى ركز على المزايا المفترضة فى التخطيط المركزى والمشاريع المملوكة للدولة، عمق فى الواقع الفقر والركود، وقضى على المناخ الصحى لعمل أصحاب المبادرات الإقتصادية.

ويقال الآن إن التكنولوچيا الرقمية، بما أوجدته من تشجيع واسع للمبادرات التجارية، ومبادرات الأفراد الإقتصادية، عجلت بإنهيار الشيوعية المناقضة للمبادرة التجارية. فقد أقنعت هذه التكنولوچيا، أكثر من أى أفكار أو تنظيرات أخرى، الشيوعية بعيوبها الجوهرية، وبعجزها أيضاً. ويتردد الآن أن مستقبل الديمقراطية هو فى "الرقمية" التى ستقرب بين الدولة والشعب، وتخلق درجة عالية من الشفافية.

وجاء خطاب جورباتشوف، الذى ألقاه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٢/ ١٠/ ١٩٩٢)، بمثابة رفع العلم الأبيض فى طلب الهدنة، ليدخل العالم فى منعطف جديد من مسيرته التاريخية. فقد قرر فى هذا الخطاب أن عهد التمسك بمبدأ "الأمن القومى"، بكل ما انطوى عليه من مذاهب ونظريات، قد مضى إلى غير رجعة. ولم يعد استخدام القوة أو التهديد بها يصلح كأداة من أدوات السياسة الخارجية، ولا ينبغى أن يكون من أدواتها. ذلك أن الاعتماد وحيد الجانب على القوة العسكرية من شأنه أن يضعف من المكونات الأخرى للأمن العالمى. ويرى أن مفهوم الأمن العالمى الشامل ينهض على أساس ميثاق الأمم المتحدة، الذى هو مُؤسس على الطبيعة الارتباطية لنموذج جديد

للأمن الإقتصادى، وليس على أساس تراكم الأسلحة، بل بالعكس على خفضها. والتوسل بالحلول الوسط لحل المشكلات. وهكذا إختفت لغة التهديد والوعيد، كما اختفى وللأبد "الحذاء" الذى لوح به خروشوف فى وجه النظم المعادية، من فوق هذا المنبر العالمى.

توابع الزلزال

لم يختلف زلزال السقوط السوفيتى عن غيره من الزلازل الأرضية الجيوفيزيقية فى كونه له توابع. وكانت توابع رهيبة فعلاً. لم تتمثل فى تفسخه إلى دول مستقلة متعددة وحسب، بل امتدت إلى وريثته روسيا الإتحادية، فبددت أمنها، ودهورت إقتصادها، وحطمت عملتها. فبعدما كان الروبل يعادل دولارين بات الدولار يساوى عشرات المئات منه، وقضت على استقرارها السياسى، وأضاعت هيبتها، وصارت مرتعاً للفساد وللجريمة المنظمة. وتقول الإحصاءات إن ٨٠٪ من شعبها الآن يعيشون تحت خط الفقر، وكأنها واحدة من البلاد النامية وليست دولة عظمى!. وكان طبيعياً أن تمتد توابع الزلزال إلى شرقى أوروبا، وجاء نصيب يوغسلافيا (السابقة) منها فادحاً، إذ اشتعلت فى أنحائها حرب سياسية عرقية ضروس، لبست عباءة الدين، وارتكبت خلالها أبشع الجرائم ضد الإنسانية، ومازالت ذيولها تفيض بالمآسى وألوان البؤس وعدم الاستقرار.

أما العالم بطوله فمايزال يعانى من توابع الزلزال الذى جعل عقد التسعينيات مرحلة إنتقال تتسم بعدم الاستقرار، وبالميوعة، وبالسيولة أيضاً. يصورها بعض المفكرين والكتاب السياسيين بحقبة عدم التأكد، وعدم القدرة على التنبوء، أو التعرف على العالم الذى سيكون غداً. فهو يفتقر إلى رؤية واضحة لمستقبله، بل لعله يفتقر إلى أيه رؤية على الإطلاق.

ويصورها البعض على أنها حالة **"فوضى"**، تحمل نفس ملامح السنوات التى تعقب عادة إنتهاء مرحلة تاريخية ذات تكوين وشكل بيّن وقواعد ونظام، وقبل بداية عصر تاريخى آخر. وأبرز ملمح لها هو "عدم التيقن" لاهتزاز الأسس، وعدم ثبات الرؤى. ووضع كهذا من شأنه أن يؤدى إلى عجز القوى العظمى فى العالم، وخاصة القوة الأعظم

التى تمسك بدفة الأمور - وعجزها بالذات عن رسم سياسات، وإتخاذ قرارات محددة متبلورة لها صفة الاستقرار وبعد المدى، ومواقف لها مفهوم فلسفى وفكرى يحكم حركتها، لدرجة أنها متهمة بأنها مازالت تتعامل مع العالم حالياً بنفس قواعد التعامل مع عصر الحرب الباردة الذى مضى. ومع أن هذا قد يعزى إلى ظهور مجموعة من الصراعات الجديدة التى حلت محل الصراعات على المصالح ومناطق النفوذ التى سادت طوال العقود الأربعة التى تلت الحرب العالمية الثانية، فالثابت أنها لم تكتشف بعد قواعد التعامل الجديدة للسياسات الخارجية مع القرن الحادى والعشرين، وباتت فى حاجة إلى إعادة تجهيزها بأدوات جديدة ومفاتيح جديدة للتعامل مع العالم بروح التفاؤل.

ويمكن إعتبار "الفوضى" الراهنة بمثابة المادة الخام التى "يتخلق" منها نظام جديد، كما يقول أنتونى ليك مستشار كلنتون السابق للأمن القومى. وإلى أن يتأسس هذا النظام تظل الفترة الراهنة فترة "تأرجح"، وربما تخبط فى التوجهات ورسم السياسات. أى أنها مرحلة "اللاسياسة" و"اللانظام". أو حالة سيولة وهلامية. ومن هنا تصورها مارسيل تورين، الباحثة الفرنسية، "بإنقلاب العالم". ففى كثير من أرجاء العالم إنقلبت الأوضاع التى كانت تبدو منطقية ومستقرة، فصعدت موجات القوميات العرقية[١٠]، وموجات الأصولية. وفرضت إشكالية "الشمال والجنوب" نفسها وبقوة على المسرح العالمى. وباتت قضية "الدولة" باعتبارها كياناً مستقلاً موضع تساؤل. وتهافتت السيادة الوطنية تحت وطأة تأثير الشركات دولية النشاط. أى أن كل تقنيات الفلسفات والأفكار السياسية والأنماط الإجتماعية، التى ورثها المجتمع العالمى وطورها من قرون خلت، وعرفها فى القرن العشرين على وجه الخصوص، باتت مهتزة ومزروعة بالشكوك القوية.

والمرحليات فى تاريخ عالمنا هى سمة مستقرة. فهو دائب الإنتقال من مرحلة استقرت، بكل مزاياها ومساوئها، إلى مرحلة جديدة لها إرهاصاتها، التى قد تطول زمنياً أو تقصر، ويفترض أن يكون لها فكرها وفلسفتها ومفاتيحها. ولماذا نذهب بعيداً والعالم الذى

---

(١٠) شهد العالم منذ نهاية الحرب الباردة عام ١٩٨٩ حوالى خمسين صراعاً مسلحاً، وعدداً مماثلاً لصراعات أصغر فى أنحاء مختلفة منه. والنموذج الأغلب هو الصراعات الداخلية. وبينما توجد قطاعات واسعة من الرأى العام الأوروبى المستنير يتطلع إلى إنهاء هذه الصراعات، فهناك قوى أوروبية أخرى تعمل على تأجيجها والنفخ فيها لأنها مرتبطة بصناعة السلاح وتجارته.

تفتت، أو هكذا يبدو منذ نهاية عقد الثمانينيات، هو نفسه العالم الذى "داهمته" الثورة الروسية عام ١٩١٧، وشغلته بتأثيراتها وإنعكاساتها، واستنفذت الكثير من طاقاته، حتى خرج إلى الوجود نظام إقتصادى حديث مركب من نقيضين هما الاشتراكية والرأسمالية، متصارعين، يستبعد كل منهما الآخر. وأفرخت فلسفة الشمولية شموليات فاشية ونازية، وفرانكوية وبيرونية.. إلخ. وقبلها بقرن وربع القرن مهدت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) لمرحلة جديدة، بعد إنهيار نظام كان الملوك يحكمون فيه بالتفويض الإلهى، وبشروط رجال الدين. وهو نظام سلب الإنسان حريته كلها، وحوّل الشعوب إلى قطعان مستعبدة جسداً وروحاً للمتسلطين عليهم. وقد ناهضه فلاسفة ومفكرو القرن الثامن عشر، وعلى رأسهم ڤولتير الفيلسوف والشاعر، وقبلهم فلاسفة القرنين السادس عشر والسابع عشر أمثال ديكارت وباسكال وراسين وموليير وچان چاك روسو وغيرهم، الذين سفهوا الخرافة وحاربوا الطغيان ومجدوا العقل والحرية، وطالبوا بحق الناس أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فى ظل نظام ديموقراطى، واستطاعوا أن يزلزلوا أسس ذلك النظام، ويحققوا النقلة الكبرى أواخر القرن الثامن عشر. أى أنها كانت عملية تاريخية استغرقت قرابة ثلاثة قرون، تمت خلالها إقامة البنية التحتية المعرفية والجمالية، بجهود طبقة من الناس حصلت على المعارف والخبرات، وحاولت النسج على منوال تراث اليونان والرومان الذى ورثته، وظهر منها الفلاسفة والشعراء والفنانون والمسرحيون والعلميون ورجال الدين المستنيرون.

والمشكلة فى الحقبة الراهنة التى تعرف بالعولمة - كما يرى المحللون - أنها تختلف عن مثيلاتها فى الماضى، حين كان الفكر الإستشرافى للمستقبل يسبق دائماً المتغيرات فى حركة التاريخ بخطوة زمنية ما، وكان هناك - فى مراحل التغيير أو الإنتقال الكبرى - قدر من الأفكار التى تنبأت به أو مهدت له، أو نبهت إليه، أو حتى حذرت منه. أما هذه المرة فالعكس يحدث تماماً. فالمتغيرات متلاحقة سريعة الخطى[11]، تسبق الفكر الإنسانى

(١١) كما أن الإهتمام بمقدم القرن الحادى والعشرين فاق الوصف، بعكس ما حدث عندما دخل العالم فى القرن العشرين. ويعود ذلك إلى فتوحات هذا القرن وإنجازاته وإختراعاته وإكتشافاته، مما جعله قرناً فريداً يكاد يمثل بداية فاصلة فى تاريخ البشرية، يفصله عما قبله من قرون. فغالبية ما يستعمله الإنسان اليوم، من قلم الحبر الجاف، إلى الكمبيوتر وكافة الالكترونيات، مروراً بالمناديل الكلينكس والعلب البلاستيك، هى من إنتاج القرن العشرين. أما الفتوحات العلمية الخارقة فى مئات المجالات، وأحدثها الثورة المعلوماتية والهندسة والوراثية والبيولوچية، فلا تقع تحت حصر.

بجميع إتجاهاته، بل تفاجئه وتباغته نتيجة للكم المعرفى الهائل الذى يتولد يومياً. حتى أنها جعلت الكثير من مناهج العقل المعاصر فى الرؤية، وأدواته فى البحث، تفقد جدواها ومصداقيتها، رغم حظ هذا العقل من التراكم المعرفى الضخم الذى أثراه عبر التاريخ.

على أن هذا لا يعنى أن العالم يقف جامداً فى إنتظار نهاية فترة التأرجح. فمراكز الدراسات والأبحاث والفكر السياسى تعمل بكل الهمة. وقد تضخمت تقاريرها، وتنوعت تصوراتها المستقبلية، وغمرت العالم بفيض من الأفكار والتنبؤات. ومعينها لم ينضب بعد خاصة مع دخول القرن الحادى والعشرين. وإن كانت فى غالبيتها أدت إلى زيادة البلبلة، لأن هذه المراكز تستشرف المستقبل ونظامه العتيد بنفس أدوات النظام القديم التى تهيأت لها مما اكتسبه الإنسان من قدرات ومهارات فكرية وفلسفية وإجتماعية، فى حضن تاريخ قديم يوشك أن ينحسر. وهذه مشكلة ومعضلة تتطلب الحل ليتسنى التعامل بفاعلية مع تاريخ جديد غير معروف، تتشكل قيمه وثقافته فى رحم مستقبل لم يولد بعد.

وتتسم الحالة الحضارية التى يمر بها العالم الآن بتعمق آثار الثورة العلمية والتكنولوچية والمعلوماتية. وبروز العولمة بكل تجلياتها الإقتصادية والسياسية والثقافية، ومواصلة غزوها للخطاب الإنسانى ومفرداته بإتساع شبكة الإتصالات وقوتها. وتعاظم قضية البيئة بكل إنذاراتها وهواجسها لتؤكد وحدة الكوكب، وشمولية النظرة إليه من قبل الفرد والجماعة. إلى جانب زيادة حدة المواجهة بين القطب الأوحد - الولايات المتحدة الأمريكية - والأقطاب الصاعدة بعد إنهيار الإتحاد السوڤيتى، ومن بينها أوروبا واليابان والصين، والتى أصبحت روسيا مدارها ومحورها الخفى، لأنها الهدف وضمان الرابح لكل من أوروبا التى تريد إجتذابها ليكتمل بها البيت الأوروبى، والولايات المتحدة التى تريدها حليفاً خارج البيت الأوروبى.

وبينما تزدهر فى عالم اليوم دعوات حقوق الإنسان، وتعايش التعددية الحضارية والثقافية والفكرية والدينية، تنفجر فى أنحاء عدة منه غرائز الإنسان البدائى، وتتصارع بضراوة، وتشتعل هنا وهناك نيران جحيم العنصرية الدينية، واللامساواة ونفى الآخر، ومعها الفقر، كأنه مايزال فى محله، فى نقطة الصفر الحضارى.

ولهذا ينبه بعض المفكرين إلى وجود أزمة فى **الثقافة التحتية** للبشرية فى الوقت

الحاضر، تطل برأسها، خاصة، فيما يبدو من إنكماش الرغبة فى التفاهم والتثاقف، وتشوش وإضمحلال كفاءة الإتصال بين الأمم، مع إنفلات الجمود والتمركز العرقى، والتعصب والعنف، بسبب إنسداد القنوات، وفشل المؤسسات العالمية فى إبراز وتكتيل إمكانيات البشرية فى القضاء على المشكلات المزمنة للفقر وعدم المساواة، والمنافسات المدمرة على كل المستويات. مما حدا بالبعض للتندر بمقولة "العالم قرية كبيرة" لأنه يراه غابة شاسعة تعج بالكواسر.

ولا تعنى هذه الأزمة غياب عناصر الثقافة التحتية تماماً، فللفكر الإنسانى منطلقات مبدعة حقاً، وإجتهاد ومثابرة فى إنتاج مقتربات جادة للتعامل مع المشكلات السائدة. ولكن المطلوب الآن، وأكثر من أى وقت مضى، هو أن يقدم هذا الفكر منظومة كاملة من الأفكار المترابطة، والمقبولة من عموم التيارات الثقافية المعاصرة، ليتحقق التفاعل بينها، وطرح آفاق متقدمة وإنسانية حقاً، لإنتاج تيار ثقافى عالمى، يستطيع أن يوجه السياسة، ويكتل القدرات للتعامل مع جبهة كاملة من المشكلات المشتركة، ويضع حجر الأساس لتاريخ جديد للبشرية. وهو ما يستدعى حواراً جاداً، وتعاوناً مثمراً بين كافة الفعاليات المؤثرة فى كوكبنا، وفى كافة الميادين الإقتصادية والتجارية والبيئية، والإجتماعية والسكانية، والعلاقات الدولية، من أجل الإتفاق على الغايات المشتركة، وتحديد الأولويات بوضوح، وفهم العقبات التى قد تحول دون بلوغ تلك الغايات، والوصول إلى صياغة هيكل للمصالح المشتركة من كافة الدول، بما فيها منطقتنا العربية، على أساس من التوافق، ومبدأ المشاركة فى المخاطر والمسئولية. والإستفادة القصوى بالتغييرات التكنولوچية الضخمة، بوجهها الإيجابى، التى تمكن الحكومات من إبتكار وسائل مستحدثة لإشباع المطالب والحاجات الجماهيرية، والحد من الدم المراق فى الصراعات.

(٢) الصراع

يشاطر **سان** الناس، على إمتداد البشرية، دهشتهم وحيرتهم، ويتساءل معهم إن كانت جرثومة الإفتراس والتوحش قد اتخذت بعداً جديداً من التسلط على تفكير الإنسان وأفعاله. ففى "نفس" واحد يتكلم عن نظام عالمى جديد، وأيضاً عن صراع سوف يحتدم فيه. مع أن الحديث عن الجديد القادم، يفترض إنبثاق الأمل معه أو به، بحيث تتاح لمجتمع البشر فرصة جديدة للتنفس الصحى، فى جو خلا من البارود والكيماويات والنوويات، فرصة للفهم والتفاهم، والإصغاء الرصين لكافة الأصوات، بأمل أن يؤلف بينها، كما يؤلف الموسيقار بين مختلف الأصوات والآلات، ليخرج صوت واحد متناغم، تتشنف به الروح، وتهدأ به أوجاع النفس، وتتراجع عنها إحباطاتها.

ولا جدال فى أن ظاهرة الصراع البشرى هى إحدى الحقائق الثابتة والدائمة فى واقع الإنسان والجماعة البشرية على كافة مستوياتها، وهى نشاط موجود فى الطبيعة فى كل مكان حولنا. فهناك مثلاً صراع يومى يحدث فى غلافنا الجوى، أشبه بصور الحرب، لم نتعرف عليه علمياً إلا أواخر العقد الثانى من القرن العشرين. فبعد تطور الطيران كسلاح فعال فى الحروب، كان لابد من وسائل للتنبؤ عن الطقس بصورة دقيقة. وأمكن لعالم أرصاد نرويجى أن يكتشف دور الكتل الهوائية والمنخفضات الجوية فى تشكيل خرائطه. فعند إلتقاء الكتل القطبية الباردة مع الكتل المدارية الدافئة، تلتقى كغريبات أو غريمات، لاختلافها فى المنشأ ودرجات الحرارة ونسبة الرطوبة، وتتكون جبهة front بين كل كتلتين، أشبه بجبهة الحرب، ويبدأ الصراع بينهما حول حق المرور. فإما أن تنزلق الكتلة الدافئة صاعدة بإعتبارها الأخف، وإما أن تندفع الكتلة الباردة بقوة لتقذف بالدافئة إلى أعلى. وفى الحالين يتغير الجو وتتبدل إتجاهات الرياح وتتكون السحب وتسقط الأمطار، وتنشأ عواصف تكون أشد فى الحالة الثانية. ثم يصفو الجو بعد أن يغادر "المنخفض" المنطقة.

فالإنسان، كما يبدو، تعلم أبجدية الصراع من الطبيعة، وجمع من الحياة مفرداته وتكتيكاته. ويقول الأبيقوريون إن الإنسان فى بدايته الأولى كان ضارياً كالحيوان المفترس، وأن تحوله من حالة التوحش إلى الحضارة قد تم من خلال صراعه مع الطبيعة. وبديهى أنه بمرور الزمن تفوق على الطبيعة، وتفوقت أدواته. وصار الصراع رفيقه، طبيعة

ثانية، بإعتباره وسيلة لاقتناص الرزق وللحفاظ على النفس، ولصيانة الحياة، وللسيطرة أيضاً[١].

وهناك مبدآن يرتكز عليهما الصراع، مبدأ المنفعة الشخصية، فكل شخص يهتدى فى تصرفاته عموماً بما يحقق منافعه الشخصية. والمبدأ الثانى هو مبدأ المنافسة التى يلجأ إليها من أجل تحقيق منافعه حين يدخل فى تنافس مع بقية الأفراد فى المجتمع. والمنافسة تتحول إلى صراع عندما تحاول الأطراف رفع مكانتها عن طريق إنقاص مكانة الآخرين، ومحاولة إعاقة الآخرين عن تحقيق غاياتها وإخراج منافسيهم من دائرة العمل السياسى أو حتى تدميرهم. ولهذا يرى الكاتب الإنجليزى "فيرجسون" أن معظم الصراع والتصادم بين البشر يرجع إلى أسباب إقتصادية وسياسية. على أن النضال من أجل القوة والنفوذ هو أحد الملامح الرئيسية للحياة البشرية.

وعرفت الحضارات القديمة الصراع الدولى بإعتباره ظاهرة طبيعية، وتفهمته على أساس أنه صراع بين الخير والشر، وإنجرت إليه على أسس أخلاقية. فجمهورية أفلاطون المثالية لم تخل من حراس عسكريين يدافعون عنها وعن قيمها. ودعت الفلسفة الصينية، خاصة الكونفوشية، إلى تجنب الصراع والعدوان. وذهبت الفلسفة الهندية إلى أبعد من ذلك بالدعوة إلى عدم الإضرار بكل المخلوقات، وهى الفلسفة التى اعتنقها ومارسها غاندى. وعلمت المسيحية منذ البداية بحب السلام وباركت دعاته باعتبارهم "«أبناء الله يدعون»"، وشددت على نبذ العنف والحرب، وإن برز مفهوم "الحرب العادلة" الذى بلوره القديس أوغسطينوس فى القرن الخامس. ودعا الإسلام إلى السلم فى كافة أحواله، وإن كان لم ينكر ظاهرة الصراع فى العلاقات الدولية، وأباح الحرب العادلة الدفاعية بهدف رد العدوان.

---

(١) وتقول الكاتبة الأمريكية "بربارة إريكسون" فى كتابها Blood Rites: The History & Origins of Wars: إن الحرب هى أقدم نشاط بشرى. ولم تنشب الحروب الأولى بين الناس، بل بين الإنسان والحيوان، ومن هنا استقرت طقوسها فى وعيه مرتبطة بما يجنيه من ورائها من منافع، ومن تأكيد لسيادته وذاتيته. ويعمل على شنها سعياً وراء هذه النتائج. ومن الأمثلة التى قدمتها فى دراستها الحرب التى أعلنتها "مسز تاتشر" رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، على الأرجنتين، فأدت إلى تغيير أحوال مجتمعها، إذ إتحد وتكتل ونهض الإقتصاد، وفازت وحزبها بدورة ثانية فى الحكم.

والصراع[٢]، فى فلسفة اليوم، يحكم عالم البشر، ولولاه ما تقدمت الحياة. وداڤيد هيوم يرى أن الصراع وتصفية الخصوم مصدر كل تقدم بشرى حقيقى. بل إن الصراع الدولى والحرب، فى نظر البعض، يؤديان إلى تدعيم الصحة الأخلاقية للأمم، ويشبهون هذا بما تفعله الرياح التى تحفظ للبحر نظافته بهبوبها وصرصرها. فالهدوء المستمر يؤدى إلى تجمع الشوائب وإنتشار العفن.

ومما يقوله المؤرخون أيضاً إن الصراع كان أحد المحركات الرئيسية للتاريخ حتى القرن التاسع عشر، حين تمكنت الحضارة الغربية من حسمه لصالحها بفضل عوامل تفوق كثيرة. فلما استقلت الشعوب ذات الحضارات الأخرى، استعانت بوسائل الغرب المتطورة، وعاد التهديد بالصراع الآن يأخذ أبعاداً متعددة. مما يعنى أن الإنقسامات الكبرى فى البشرية، والتى هى بالأساس حضارية، هى المنبع الرئيسى للمشكلات حيث أنها ستكون صراع حضارات، أى بين الدول والمجموعات ذوات الحضارات المختلفة، بحيث تصبح الحدود الفاصلة بين الحضارات جبهات القتال فى المستقبل.

وهذا فى الواقع هو فحوى الرسالة التى فاجأ بها صموئيل هنتنجتون، المفكر الأمريكى، العالم، بنظريته الخاصة "بصدام الحضارات"[*]. والتى دعمتها دراسة مطولة للكاتب الأمريكى أوين هاريس بعنوان "الحرب الباردة القادمة". ومع أن هذه الكتابات وغيرها الكثير، التى تصدر عن مراكز الفكر السياسى، فى الغرب خاصة، هى بمثابة

---

(٢) بدأت فى العصور الوسطى أولى محاولات إقامة نظرية عامة للصراع بفكر إبن خلدون فى مقدمته، حين نسب الصراع أساساً للعصبية. فشدة إرتباط المرء بعصبيته أو جماعته والتعصب لقيمها ونصرتها هى بذرة الصراع الإجتماعى والسياسى فى الدولة وفى النظام الدولى كله. وفى العصور الوسطى جعل "ميكياڤيلى" الصراع محوراً مركزياً للحركات السياسية، مؤسساً هذا الفكر على إفتراضاته أن الطبيعة البشرية أنانية، عدوانية، استحواذية. وطور فكره العديد من المفكرين أمثال هيوم وفيرجسون ومالتوس. أما هيجل ونيتشه فقد مجدا الصراع الدولى والحرب حتى بدت ظاهرة القوة والصراع غاية فى حد ذاتها. وبعد الحرب العالمية الثانية تأسست مراكز لدراسة ظاهرة الصراع عموماً، والصراع الدولى خصوصاً، تصدرتها فكرياً المدرسة الأمريكية بعد ظهور المناهج السلوكية والنظامية فى إطار العلوم الإجتماعية.

ويظل الصراع على الوصول إلى "مركز القوة" العامل الحاسم فى تاريخ المجتمع الإنسانى. ويتطابق هذا مع ما قاله الفيلسوف الصينى "هان فى تسو" من آلاف السنين: جوهر الحياة البشرية هو القوة، وأن هدف الإنسان الدائب هو الاستحواذ على أكبر قسط منها.

(*) الحضارات عند كثيرين هى مزيج من مفهوم الحضارة ومفهوم الثقافة، وإن إتجه بعضهم إلى قصرها على مفهوم الثقافة شأن "هنتنجتون" الذى ركز على الجانب الدينى من الثقافة.

محاولات لاستشفاف المستقبل، أو التنبؤ بما يحمله للعالم، فإنها أثارت هواجس العالم بخصوص مستقبله ومازالت تثيرها. وبدا له ما يردده زعماء اليوم عن السلام إنما هو "إسطوانة مشروخة"، أو لون من لغة النفاق، وأن الصراع حتمية لا مفر منها. وتضخمت هذه الهواجس فى شرقنا العربى وعالمنا الإسلامى، لأن كتّاب الغرب يرشحون الحضارة الإسلامية كطرف من الأطراف فى الصدام القادم. أعلن هنتنجتون[٣] هذا فى كتابه "الغرب والآخرون". وعبر نيكسون، الرئيس الأسبق، فى كتاباته عن تخوفه من الصعود الآسيوى واليقظة الإسلامية، مشيراً إلى ظهور معالم خط جديد للقوة يمتد من جمهوريات آسيا الوسطى إلى إيران، والدول العربية والآسيوية والإفريقية وإمتداداتها فى شمال إفريقيا.

وراج الفكر القائل بأن الإسلام[*] هو "العدو البديل" بعد غياب المعسكر الشيوعى. كما شاعت المقارنات بين الأيدولوچية الشيوعية و"الأيدولوچية" الإسلامية، لتؤكد ما بينهما من تماثل فى استراتيچيات التآمر، ومعاداة كل من لا يؤمن به، والتوسل بالعنف لتحقيق الأهداف، والترويج لحتمية الإنتصار النهائى على الخصوم. وهى أفكار لها خلفياتها فى كتابات بعض المستشرقين الذين لم يلتزموا بالموضوعية والأمانة فى عرضهم للإسلام وتاريخه وتعاليمه، وفى ما تنتجه هوليود من أفلام تقدم العربى فى صورة تبرز بربريته وتخلفه. فالمستشرق "برنار لويس"[٤]، مثلاً، يشير إلى الإسلام فى غلظة بقوله

---

(٣) صموئيل هتنجتون هو أستاذ السياسة بجامعة هارڤارد الأمريكية. وقدم نظريته هذه عام ١٩٩٣ فى ندوة "لوكسمبرج" فى إطار أن الحضارة تتكون من عناصر الفكر والثقافة والدين. وقد نشر بحثه فى مجلة "فورين أفيرز Foreign Affairs" بعد ما هذّب خاتمته وجعل منها دعوة إلى تفهم الأديان والحضارات الأخرى. ثم أصدر كتاباً حول فكره عام ١٩٩٦ بعنوان "صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمى"، لطف فيه من توجهاته الأولى حين دعا إلى الإعتراف بالحضارات الأخرى، ورفع شعاراً أنه يمكن إقامة نظام عالمى على أساس "التوفيق" بين كتل تجمع بين الحضارات المختلفة، بحيث يمكن تفادى الحرب.

(*) وإنتشر فى الأوساط الغربية ما يعرف بـ "إسلاموفوبيا" أى الخوف من الإسلام.

(٤) مستشرق ومؤرخ وأستاذ دراسات الشرق الأدنى بجامعة "برنستون" الأمريكية. وله كتابه "صراع الثقافات: المسيحيون والمسلمون واليهود".

- وهذا الإصرار على التنبؤ بالصراع، من جانب الكتّاب الغربيين، فيه - كما يبدو - إذكاء لنار الفتن بين الحضارات، وهو ما لا يستقيم مع ما يتحدث عنه المجتمع الغربى دائماً من إعلاء لقيم الإنسانية بما فيها الديمقراطية وحقوق الإنسان والتنمية المستدامة، ومن قيام المساواة بين الجميع دون تمييز. ثم أن تنوع الحضارات لا يؤدى بالضرورة إلى أن تكون متصارعة أو متناطحة.

إنه منذ توسع أتباعه فى حوض البحر المتوسط أصبح الإسلام «الجار المزاحم والعدو للمسيحية»، وأن المسيحية الأوروبية عاشت ما يقرب من ألف عام «تحت تهديد الإسلام»، وخاصة أيام الإمبراطورية العثمانية "بعبع" أوروبا لقرون عدة مضت.

والرد على هذه "النعرات والترهات" لا يكون بالتشنج، أو بالإنفعالات العاطفية، أو بالتجريح. فنحن نخسر دائماً بهذه المقتربات والأدوات. وهى ذات الأدوات التى أفسدت قضيتنا الفلسطينية، وعرضتها للسقوط فى المحافل ودوائر الرأى العام العالمى فى الماضى، رغم عدالتها وقوتها. وصرنا اليوم نحاول، وأحياناً "نستجدى" الحصول على الفتات مما كان بالإمكان الحصول عليه من خمسة عقود مضت. الأمر يتطلب الموضوعية، والركون إلى المنطق والأدوات العلمية، والحوار الذكى والجدل العقلانى، فى إطار إعلام يقظ متطور يأخذ بتطبيقات الثورة الإتصالاتية والمعلوماتية الحديثة. مع مواجهة ما يجرى التركيز عليه من إختلافات بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية، بالتأكيد على ما هو موجود فعلاً من توافق بينهما، وما هو موجود من قنوات ربط عديدة بين الثقافتين لا تغيب عن كل مستنير. وكما قال "لامبرتو دينى"، السياسى الإيطالى، عن أن العودة إلى منابع الأصل الأصيلة للديانتين الكبيرتين يمكنها إعادة إكتشاف المبادئ الأساسية المشتركة بينهما، وإعطائها قيمتها المناسبة وخاصة مبادئ التسامح وإحترام الحياة والحقوق الأساسية للإنسان. ثم أن الخلاف فى وجهات النظر لا ينبغى أن يولد الصراع، بل يجب إحترام رأى الآخر وعدم التعالى عليه.

ولا ننسى أن هؤلاء الكتاب يكتبون فى مجتمع حر مفتوح، لا يضع قيوداً على الرأى والاجتهاد مهما كانت شطحاته. وهو الذى سمح بهلهلة المسيحية، عقيدته وتراثه. ولا يكون الرد أيضاً بالمبالغة فى الدفاع عن تراثنا ومعتقداتنا، أو تضخيم حسناتها، أو "تزويقها" بإضافات ليست من صميمها. فهى إلى جانب كونها مداخل غير منهجية أو علمية، قد يُشتم منها العجز وضعف الحجة. فمقارعتنا ينبغى أن تكون بالمستوى الذى استنوه وأرادوه. ولنتح الفرص لأن تأتى التزكية والمدح من عقلائهم[٥]، الذين يتميزون

(٥) فى فرنسا طالب وزير العدل، فى الوزارة الاشتراكية الجديدة (يونيو ١٩٩٧)، بإسهام الأموال العامة فى بناء المساجد فى البلاد، أسوة بما تفعله مع دور العبادة الأخرى. وهناك كتاب "عوالم الإسلام"، الذى ألفه باحثون ألمان، والذى يعرض فضل الحضارة الإسلامية والعربية على الحضارة الغربية.

بالنزاهة والإلتزام حين يتناولون قضايانا الإسلامية والعربية، ومنهم عدد لا يستهان به، ومؤهل للتزايد كلما ركنا نحن إلى الحكمة والموضوعية والتواضع(٦).

ولا يمكن الإكتفاء بإخلاء مسئولياتنا والتبروء من التصرفات الطائشة والأعمال الإجرامية التى يقوم بها فصيل منا(٧)، وإعتبارهم نشازاً أو شذوذاً أو خوارج. فهم منا مهما كان الأمر. فالابن المجرم لا يعفى تنكر أبيه العلنى له أو إدانته من المسئولية. وإن نجا هذا الأب من إدانة المحاكم أو الرأى العام له، فلن ينجو من عذاب الضمير ومحكمة السماء. فواجبنا أن ننصرف بكل الجهد والتركيز والعلمية إلى دراسة هذه الظواهر المفجعة، كما

---

(٦) وآخر هذه المظاهر ما حدث بعد وصول حزب "الرفاه الإسلامى" إلى الحكم فى تركيا (١٩٩٦)، مما مثل تجربة ديمقراطية رائدة فى العالم الإسلامى، خاصة حين أثبتت التجربة أنه لا أساس للمخاوف التى إنتشرت بعد تسلمه السلطة، وحين أكد "أربكان" زعيمه أنه لا يلزم أحداً بالحجاب أو اللحية بإعتبارهما من الأمور التى تنطلق من الرغبات الشخصية للناس وليس لأحد أن يتدخل فيها. فقد بدأت الصحف فى الغرب تدعو إلى إعادة النظر فى الصورة النمطية الشائعة عن النموذج الإسلامى، وكيف أنه ليس واحداً ولكنه يختلف من بلد لآخر. وقد يختلف من حركة إلى أخرى فى القطر الواحد. كما دعا بعض الكتاب إلى إعادة النظر فى الرؤية الغربية لمجمل التاريخ الإسلامى، وشدد على ما تميز به الإسلام من سماحة فى تعامله مع أصحاب الديانات الأخرى، وهو ما استطاعت أوروبا أن تحققه منذ حوالى قرنين فقط.

- إلى جانب الكتب التى تصدر فى دراسات منصفة للإسلام، ومنها كتاب "چيمس بسكاتورى وايكمان" الذى يؤكد فيه تنوع الحالة الإسلامية، فمنها النهضوى ودعاة الإصلاح الديمقراطى، إلى جانب الرجعى، والثورى، والوسطى، ودعاة العنف. ويدعو الغرب إلى تشجيع المدارس الفكرية الإسلامية التى تدعو إلى التسامح والإعتدال. والكاتب الأمريكى "چون اسبوسيتو" الذى يتفهم الصحوة الإسلامية والدعوة إلى إحياء الإسلام، ولا يرى بالضرورة ربطها بالمتطرفين الذين يرفضون الديمقراطية.

- وفى الندوة الدولية التى عقدت فى فلورنسا بإيطاليا، فى مايو ١٩٩٧، بإشراف بعض الجامعات الأوروبية المعروفة فى مجال الدراسات الإسلامية، جاء فى كلمة وزير خارجية إيطاليا قوله: إن الثقافة العربية ساهمت فى الحفاظ على المناخ الثقافى الجديد للعصور الوسطى الغربية. ولولا العباقرة مثل ابن رشد وابن سينا والخوارزمى والإدريسى وغيرهم لربما ضاع الجزء الأكبر من التراث الهلينى الذى يعتمد عليه العلم الحديث. ثم أشار إلى بلاط الملك فردريك الصوابى ملك صقلية، الذى كان يستضيف عدداً كبيراً من العلماء والكتاب ذوى الثقافة الإسلامية، وإلى "المدرسة الصقلية" وآدابها التى استلهمت من شعر الغزل العربى المعاصر لها.

(٧) وقد لمس الأستاذ رجب البنا، رئيس تحرير مجلة أكتوبر، هذا الموضوع بدقة، فى كتابه الجديد "الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام". فقد علق على ما لمسه من تشوه صورة الإسلام فى أذهان الغرب عموماً والأمريكيين بصورة خاصة بقوله: هذا التشويه الذى أصاب صورة الإسلام لم يكن نتيجة حملات المستشرقين أو أعداء الإسلام، كما إعتدنا أن نقول، لكنه نتيجة أفعال جماعات ترتكب الجرائم باسم الإسلام، وتقدم فكراً وسلوكاً يتعارض مع الإسلام، وتدعى أنهما الإسلام الحق.

- كما دعت د. عزة عزت، فى كتابها "صورة العرب في الغرب" إلى ترشيد سلوك الأفراد العرب داخلياً وخارجياً، والعمل على تنقية شوائب الشخصية العربية وسلوكها، وتجميل صورتها، وخاصة صورة "الثرى العربى المسرف" وممارساته المستفزة.

يفعلون فى الغرب كلما فاجأتهم ظاهرة من ظواهر الإنحراف، صغرت أو كبرت. إذ يجردون لدراستها والعمل على علاجها، جهابذة علمائهم وقمم مراكزهم البحثية وجامعاتهم، مع إعتمادات وتضحيات مادية سخية، ولا يهدأ لهم بال حتى يصلوا إلى أسبابها أو منابعها، ويحددوا المسئول عنها، شخصاً كان أو سلطة أو مؤسسة أو تشريعاً.. إلخ، دون مجاملة أو مواربة.

وعلينا أن نواجه أيضاً ترسانة النظريات الغربية التى تتعلق بنظرتها[٨] إلى شعوب العالم الثالث عموماً، والعرب خصوصاً. والتى عادة ما تركز على الجانب المعتم من الصورة، محاولة إظهار العرب على أنهم محبوسون فى دائرة مغلقة، تسودها التقاليد القبلية والدينية والثقافية العميقة الجذور، بحيث لم تستطع رياح التغيير التى تهب فى أنحاء العالم من تغيير ملامحها، فتظل محكومة بالتخلف إلى الأبد، وفريسة للصراعات السياسية والإجتماعية الحادة، حيث يسود العنف وتهيمن النظم الإستبدادية، وغياب العملية الديمقراطية، وحرية التعبير، وغياب الأمن الذى يضمنه القانون، واضطهاد الأقليات الأثنية، والحجر على المرأة[*]. وهذه تهجمات تتجاهل عمداً الجوانب المضيئة فى تراثها ومجتمعاتها، وتنكر التغيرات الهائلة التى حدثت للبيئة التحتية فى عديد من البلاد العربية والتى غيرتها تغييراً، بالإضافة إلى شيوع التعليم واستخدام التكنولوچيا على نطاق واسع، وبدايات مشجعة للتصنيع، ومحاولات موفقة للحاق بركب التقدم العلمى فى العالم. إلى جانب نمو مشجع فى المجتمع المدنى وتشكيل المنظمات غير الحكومية فى مجالات متعددة كحقوق الإنسان والتنمية الإجتماعية. والتوجه نحو التعددية بطرق شتى. وإن بقى الكثير لتحقيقه فى الحياة السياسية، وتحريرها من كل ما يعوق قيام نظم الحكم الديمقراطية، بما يحقق تداول السلطة، وقيام الأحزاب، وضمان حرية الرأى المعارض. وأيضاً فى مجالات مثل التعليم والتحديث النهضوى، والاستفادة القصوى بأدوات العصر المتطورة، وماتوفره الثورة المعرفية الهائلة التى باتت مصدر القوة الحقيقية وسبيل التنمية الواعية، وركيزة التطور الإجتماعى والإنسانى الواعد.

---

(٨) ينسب هذا إلى عصر النهضة الأوروبية (القرن ١٥، ١٦م) الذى جعل أوروبا قلب العالم ورأسه، إذ جعل الرجل الأبيض يحاصر بقية الأجناس، كأنه وحده دون البشر خليفة الله فى الأرض.

(*) وفى منتدى دافوس لعام ٢٠٠٠ قال شيمون بيريز، وزير التعاون الإقليمى الإسرائيلى، كلاماً عجيباً: فهو يخشى أن تكون إسرائيل دولة ثرية فى محيط من الفقر، وأن تكون دولة نظيفة فى بيئة غير نظيفة.

- ٢ -

والشرق الآسيوى من المرشحين للتصادم الحضارى. فقد عدّد هنتنجتون ثمانية حضارات من بينها الكونفوشية (الصين) واليابانية والهندية[٩]. وتنبأ أن أكثر هذه الصراعات أهمية للمستقبل سوف تحدث على الخطوط الحضارية الفاصلة، واستعمل كلمة faultlines للتعبير عن كلمة "الخطوط الفاصلة"، وهى اصطلاح چيولوچى يعنى "صدْع"، أو منطقة تصدعات فى طبقات الصخور مع تحركات تؤدى إلى إزاحة أو زحزحة جوانب الصدع. أى أنه تعبير ذو دلالة تقسيمية لحضارات منقسمة متباعدة فعلاً، وتشرف على صدوع خطيرة، لأنها - چيولوچياً أيضاً - تعتبر خطوطاً لانطلاق الزلازل وطفح الحمم البركانية.

وموقف الشرق الآسيوى من هذه الأفكار والتخمينات يعتبر نموذجاً جديراً بالدراسة والتمعن فيه. فهى لم تروعه. ولم يأخذها بحساسية. ولم يعنف فى هجومه عليها أو إنتقاده لها. ولكنه واجهها بحكمة الشرق التأملية - بالتحليل والتفنيد، خاصة وأن ثقافاته تتميز بدرجة عظيمة من التسامح والمرونة، وتفرض مبادئه وفلسفاته إبراز التعايش والإخاء المشترك. وقدّر أن مثل هذه الأفكار إنما تصدر عن:

١ - نظرة استعلائية من جانب مروجيها ترى التفوق المطلق فى حضارتها الغربية، وتتوسل إلى فرضها على الغير بكل السبل. وترى أن عدم الأخذ بها فى مجتمع ما يعنى إندلاع الصراع مع الغرب، حتى يتحقق لها الإنتصار النهائى "الفوكويامى". وهى نظرة قصيرة إنطوائية لا صواب فيها، تتجاهل وجود حضارات غير الغرب من منطلق هيمنته الإقتصادية/ العسكرية.

٢- توجس وتخوف بسبب ما تواجهه الحضارة الغربية ذاتها، وربما لأول مرة، من تحديات خطيرة من حضارات أخرى. وما تستشعره من مظاهر التراجع فى قوة الدفع الحضارى عندها، وضعف كثير من القيم والفضائل، وتفشى سلوكيات متخلفة تفتك

(٩) ومعها الإسلامية، والسلافية (روسيا وأوروبا الأورثوذكسية فى الشرق)، واللاتينية (أمريكا الجنوبية)، والإفريقية.

عادة بالمجتمعات وتدفع بها إلى التقهقر، كالإدمان والتفكك الأسرى، والجريمة المنظمة، والعنصرية وما شاكلها.

٣- جهل بطبيعة الشرق أو ما يجرى فيه فعلاً، أو العجز عن تقييم تجربته تقييماً سليماً. فالشرق الآسيوى يمثل "الضفة الغربية" للمحيط الباسيفيكى (الهادى، بمعنى السلام والسكينة). وهى الآن أكثر مناطق العالم دينامية، بتقدمها الصاروخى فى مجال التنمية الاقتصادية والتحديث. واستطاعتها التغلب، فى خلال سنتين، على الإنتكاسة الاقتصادية التى أصابتها عام ١٩٩٧. فهى تستعين، وبأسلوب متزن مبهر، بأفضل الممارسات والقيم للعديد من الحضارات الآسيوية الفتية والغربية، وقد عرفت متى تقول «نعم»، ومتى تقول «لا» التى تقولها الآن كثيراً فى مواجهة كل من يحاول إعتبار الحضارة الغربية عالمية، أى حضارة العالم أجمع، منتقصاً من حضاراتها.

كما أن فلسفاتها الأخلاقية والسلوكية الطابع لا تمثل حاجزاً أو تقف حائلاً دون امتزاج أو تجانس الثقافات مهما كان مصدرها، بل وتشجع[(١٠)] على ذلك طالما أن هذا التمازج لا يمس الجوهريات.

فالشرق الآسيوى، فى الواقع، استعار من الغرب، بشقيه الأمريكى والأوروبى، ما ساعده على الإنطلاق وحسب. ففى البداية كانت عمليتا التغريب والتحديث مرتبطتين بشكل وثيق عندما كان يستوعب عناصر ذات شأن من الثقافة الغربية، ويتقدم بتؤدة فى طريق التحديث. وكلما ارتفع إيقاع التحديث إنخفضت نسبة التغريب، فى الوقت الذى تسير فيه الثقافة المحلية فى طريق البعث، والالتزام بها والوثوق فيها، من أجل تأكيد ذاته ومقامه الثقافى وهويته الحضارية، وتوطيد الثقة بالنفس. وضمان استمرارية القيم الآسيوية المتمركزة حول الجماعة - الأسرة/ الأمة - وحول الدين أو الفلسفة[(١١)].

---

(١٠) من كلمات المهاتما غاندى: أنا لا أريد لوطنى أن يبنى الأسوار حوله فى كل الإتجاهات أو يغلق النوافذ بينه والآخرين، إنما أن تهب كل ثقافات بلدان العالم على منزلى حرة قدر الإمكان. ولكنى أرفض أن يقلقل أحد موقع قدمى.

(١١) فالقيم الكنفوشية والبوذية والشنتوية هى التى تحدد علاقة الأفراد ببعضهم، وعلاقة الفرد بالمجتمع وبالدولة، وتتمركز حول الجماعة، وتعتبر الأسرة ركيزة المجتمع، وتناصر مفهوم "الأسرة"، على عكس مفهوم "الفردية" السائد فى الغرب، وتعتبر القيم المعنوية هى أساس الحضارة. وتصور المثالية اليابانية النساء والرجال على أنهم أولئك الذين يتصرفون بإحتشام وإعتدال دون غرور، ويتحدثون بحصافة وحذر، =

ويجدر ملاحظة أنه لم ينكفئ على جراح الماضى التى أصابته فى العصر الاستعمارى، ولم يجعل منها عقدة أو سبباً للصد والنفور، أو مشجباً يعلق عليه فشله، كما يحدث فى بعض مناطق العالم الأخرى، التى يكثر فيها ترديد الشعارات ضد الاستعمار بمناسبة وبدون مناسبة. بل خلق مجالات لإنسياب فطن للعلاقات، معتبراً الماضى بحلوه ومره جزءاً من الخبرات الإنسانية، ومخزوناً من الذكريات يعود إليها كلما أعوزته الحكمة، أو قوة الدفع لمواصلة المسيرة. وتُقدم ڤيتنام مثلاً رائعاً لهذا المنهج، حين نراها تؤسس علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة، التى دخلت معها فى "أوسخ وأوحل" حرب إقليمية استعمارية فى القرن العشرين. فهى ترحب برأس المال الأمريكى وبرجال الأعمال والمؤسسات الأمريكية التى تدفقت عليها، ومعها اليابانيون وغيرهم.

واليابان بالذات، التى استطاعت بعبقرية فذة التأليف الخلاق بين أصالتها والحضارة العلمية والتكنولوچيا المعاصرة، تشير كل الدلائل إلى صعود نجمها فى سلم القوى فى النظام العالمى، إلى جانب قوتها الإقتصادية(*). فمراكز التفكير الاستراتيچى التى كانت تهيمن عليها الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، والاتحاد السوڤيتى قبل إنهياره، قد إنتقلت إلى اليابان، مما يعنى أن مركز القيادة الفكرية قد إنتقل من عواصم العالم الرئيسية

= ويتجنبون الإساءة إلى الآخرين أو مضايقتهم. وهم مدربون من الطفولة على المجاملة والأدب، وعلى كتمان الأسرار، وعلى الإنصات طويلاً والتكلم قليلاً سعياً وراء الفهم والمعرفة، وعلى إحترام الكبير والاستسلام لرأيه. وقد يكون هذا الكبير هو رب الأسرة، أو رب العمل، أو رئيس الوزراء، أو الإمبراطور. ويميلون إلى حل النزاعات الشخصية بالطرق الودية. وهم لذلك أقل شعب يلجأ إلى القضاء. وشعارهم حول "العمل" إنه شرف وحق وواجب، وينفذون ذلك بعيونهم وقلوبهم وأرواحهم. ويتمثل الإضراب عندهم بوضع شارة على الصدر تعبر عن وجود مطلب يجب أن ينفذ، أما العمل فيستمر دون توقف. وهم شعب شديد التدين، يؤمن بأن كل الطرق توصل إلى السماء، وكل الديانات توصل إلى الحق والخير والعدل والجمال. وتؤمن "الشنتوية" بفطرية الخير فى الإنسان وأصالة روحه التى تعتبر "قدس الأقداس الذى تنبع منه كل الفضائل". ولا توجد تفرقة بين شخص وآخر بسبب ديانته. كما لا توجد حواجز ولا أسوار بين الأديان. وبإمكان اليابانى أن يعتنق أكثر من ديانة فى وقت واحد، وأن يصلى فى معبد وكنيسة فى يوم واحد. فالتعصب الدينى من الصفات الغائبة فى المجتمع اليابانى. والتعليم هو المصباح السحرى لتحقيق الأحلام، وله عندهم مكان التقديس.

- ومن المعروف عن سنغافوره أنها قامت بتصميم برامج للهندسة الإجتماعية هدفها إدارة سلوك المواطنين، وبلغت قمة فى الإنضباط والتحديث.

(*) وفى تدعيمه لهذا الإتجاه ينظر "شنتاروا إيشيهارا"، الكاتب اليابانى الشهير، إلى النجاح الآسيوى على أنه تحقق بأدوات إقتصادية بحتة، إذ يوضح أن قيم العملات الأجنبية، أوروبية وأمريكية، مقارنة بالآسيوية، هى مقياس النجاح الإقتصادى لآسيا. فبالنسبة للين مثلاً نقصت قيمة الدولار الأمريكى إلى حوالى ١٠٠ ين بعد أن كانت تصل إلى ٣٦٠ يناً خلال عقد التسعينيات.

إلى طوكيو، من خلال استراتيجية عملية يابانية مدروسة. فتشكل "نادى طوكيو للدراسات الكونية"[١٢]، الذى يضم مراكز بحوث غربية شهيرة، أمريكية وفرنسية وألمانية وإنجليزية، وتصدر عنه تقارير دورية عن حالة الإقتصاد العالمى وآفاق تطوره، ومشكلات العلاقات الدولية بكل أبعادها، مما يعنى تحول أنظار الباحثين إلى طوكيو لمتابعة هذه الدراسات الاستشرافية، والتى هى نواة فكر استراتيجى عالمى جديد يتفاعل فيه الفكر الغربى مع الفكر اليابانى.

والذى يزور الشرق الآسيوى ويتعرف على شعوبه، يدهشه كيف يفكرون آسيوياً، فى نطاق تقاليد وقيم معينة، ويتصرفون "غربياً" - ويفكرون أيضاً - فى كثير من أمور حياتهم وأنشطتهم اليومية وغيرها. ولهذا فهم ينتقلون بين بلدان "ضفتى" الباسيفيك فى آسيا والأمريكتين دون أن يشعروا بأنهم غرباء، أو أنهم عبروا حواجز ثقافية تفرق بينهم. وهذه التجربة الفريدة ينقصها أن تجد فرصة أقوى وأوسع فى "الضفة" الشرقية للباسيفيكى، بحيث يتحقق فعلاً وعملاً هذا التمازج والتجانس الثقافى والحياتى الفريد. فلا تبقى "آسيا" تعيش هناك فى كانتونات أو مناطق منعزلة تحمل أسماء أصولها مثل China Town وغيرها.

وملخص رسالة مفكرى الشرق الآسيوى لهنتنجتون ومدرسته هى: لا يوجد هنا faultline - أخدود أو صدع - بل جسر لعبور الحضارات، وتلاقيها، وتعاونها، مع إمكانية إنصهارها، لتخرج صيغة فريدة هى "العيش معاً"، والحياة طولاً وعرضاً جنباً إلى جنب دون غائلة. وعندئذ لا تكون المسألة "نهاية تاريخ" كحلم الواهمين، بل "بداية تاريخ" تمهد له الطريق حكمة المحنكين وترعى مسيرته.

والادعاء بوجود حضارة واحدة[١٣] للعالم إدعاء مرفوض، لأنه من الصعب بل من

(١٢) وهناك أيضاً لجنة جديدة باسم "اللجنة اليابانية لدراسة النظام الكونى ما بعد الحرب الباردة" تصدر تقارير غاية فى الأهمية حول النظام الكونى الراهن ومستقبله، مما يؤهل اليابان لتلعب دوراً بارزاً فيه.

(١٣) فالحضارة بإعتبارها مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى ومظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والإجتماعى فى الحضر إنما هى نتاج تطور إنسانى طويل شاركت فيه شعوب وثقافات شتى. وهل هناك من منكر أن الحضارة العربية الإسلامية فى عهود إزدهارها هى التى أمدت الحضارة الغربية، فى لحظات صعودها، بقواعد التفكير العلمى وأسس العلم التجريبى؟! وبالمثل، تاريخياً، يمكن الإشارة إلى إنجازات الحضارة الصينية وأثرها فى التطور التكنولوجى العالمى.

- من الملاحظ أن الاستعمال أصبح يسوى بين لفظ الحضارة ولفظ الثقافة فى المعنى. علماً بأن الثقافة هى روح الحضارة، وهى فردية الطابع، بينما الحضارة جماعية الطابع.

المستحيل إيجاد مثل هذه الحضارة. فهناك دائماً "حضارات"، بحكم الجغرافيا والتاريخ على الأقل، ولها دوراتها من ميلاد وموت، كما يقول توينبى، أو من صعود وهبوط كما يرى إبن خلدون. وقد تنفرد واحدة منها، فى فترة تاريخية ما، بقوة إرتكازية تميزها أو تفوقها على معاصريها من الحضارات. أو قد تحاول إحداها "إبتلاع أو إخماد" الحضارات الأخرى، مثلما حدث مع الإمبراطورية الرومانية وحضارتها التى استوعبت فيها الحضارة اليونانية. ولعل نظرية هتنجتون قبل تلطيفها كانت تلوح بهذا التوجه، خصوصاً وأنه يدعو لتقوية ودعم وحدة جناحى الحضارة الغربية - أمريكا الشمالية وأوروبا - بحيث تكون جبهة متماسكة وضاربة. ثم هو يستعديها على دول حضارتين بالذات، وهما الكونفوشيوسية والإسلامية، كما يحرض عليهما بقية الحضارات. ويطالب بالحد من تعزيز القدرات العسكرية لهما، واستغلال الخلافات والصراعات بين دول الحضارتين، بقصد إضعافهما وتسهيل السيطرة عليهما. ومن هذا يتضح أن الصراع بين الحضارات، أو بين الثقافات، لا يبدأ ولا يستمر إلا حينما تسعى دوائر المصالح الأنانية المغرضة إلى استغلال **الإختلافات** أو التناقضات بين الثقافات، وإلى استخدام بعض الدوافع - شبه الغريزية - التى تدفع إلى **النفور** من الآخر، أو ما يسميه علم النفس "إكسونوفوبيا"، من أجل خلق عداء مستحكم، ودوافع للعدوان، ولإشعال **صراع** يستهدف فى الحقيقة مكاسب مادية، من ثروة أوسلطة أو شهرة لأصحاب المصالح. ومن هنا يسود رأى يقول إن دعاوى "صدام الحضارات" إنما هى تغطية لأسباب الإحتكاك الحقيقية. والتى ستكون إقتصادية فى المقام الأول، وترتبط بالتنافس على الأسواق، وعلى التجارة والمكسب والخسارة، والإكتفاء بها عن إحتلال الأرض بحدودها الجغرافية من خلال القوة العسكرية. فالأسواق تمثل المجال الحيوى الذى كان للأرض والممرات المائية قديماً. والبحث عنها سيستمر كما كان دائماً أحد مظاهر الحركة لإستمرارية المجتمعات الإنسانية. وفى ذلك يقول "جارودى"، المفكر الفرنسى، إن وحدانية السوق هى التى تناضل فى سبيلها الجيوش والأساطيل الأمريكية المحيطة بالعالم.

والعلاقات **الحقيقية** بين الحضارات أو بين الثقافات المختلفة ذات وجهين دائماً: وجه صراعى تصادمى، ووجه آخر تفاعلى سلمى. ولم يكن الصراع يمنع التفاعل، بل لعله كان يزيده قوة ونشاطاً. والصراع إذا ما نشب كان دائماً بدافع أنانية المصالح أو الحماقة.

بينما كانت إختيارات الشعوب **الذكية** ومعرفتها بمصالحها الحقيقية هى الدافع الإيجابى للتفاعل. ومن ظواهر التفاعل الحضارى أن التأثير يسرى بداهة من الحضارة الأرقى إلى الحضارة الأخرى بقدر تهيؤها لقبولها واقتباسها، بينما يتبادلان التأثير، فى ذات الوقت، مهما كان الفارق كبيراً بينهما، وتتعاظم ثمار هذا التبادل والتواصل عندما يتمان فى جو من الحرية والتفاهم والسلام.

فلايمكن إذن التسليم ببساطة بأن الصراع هو الشكل الطبيعى أو الحتمى للعلاقات بين الحضارات. وفى عالمنا العربى لم تأخذ العلاقة بيننا وبين الغرب الشكل العدائى أو الصراعى، لاختلاف بين الثقافتين أو بين الحضارتين، بدليل أننا أخذنا الكثير منها فى الملبس والمأكل، وتعلّم لغاتها، والتشبه بها فى الكثير من الأنشطة الإنسانية والثقافية والإجتماعية، والسياسية أيضاً. ولكن لأن الغرب قام بغزونا بالسلاح، وبدأ ينسق أوضاعنا لكى "يحول هذا البلد الغنى إلى مستعمرة نافعة"، كما جاء فى مذكرات كليبر أحد قواد الحملة الفرنسية فى مصر وخليفة نابليون.

ثم كيف تستقيم دعوى **الصراع** هذه ونحن نتكلم عن "عولمة الإقتصاد"، وعن "كوكبية" الإتصالات، وعن "كونية العلاقات"، وعن عالم صغير جداً، تقاربت فيه عناوين الشوارع والبيوت، وبات همس الجيران مسموعاً؟! إن التطور الهائل فى سبل نقل المعلومات والأفكار[١٤] عبر العالم أدى إلى تبادل فعلى بين الثقافات المختلفة، وإلى إتاحة الفرصة لقيام تفاعل إيجابى ومفتوح بين هذه الثقافات. فهل تتيح هذه التحولات الضخمة لمجتمعات البشر فرصة حقيقية للتخلص من تحيزات الماضى وأهوائه، والقضاء على مختلف أنواع التعصب والشكوك والكراهية المتبادلة بين الثقافات، التى كانت تجهل بعضها البعض؟ أم أن الجرعة ليست كافية لتغيير التصورات الموروثة التى تحتفظ بها كل ثقافة عن الثقافات الأخرى فى العالم؟ المشكلة ليست فى كفاية الاتصال أو كفاءته وسرعته بعدما صارت عندنا شبكات الإنترنت، ولكن فى أساليبه ومادته التى لاتزال تعكس

---

(١٤) ويتمثل فى البث عن طريق الأقمار الصناعية. فعدد قنوات الإرسال التليفزيونى الآن تزيد عن المائتين، يعمل نصفها تقريباً على مدار الساعة، تبث معظمها شبكات أو شركات من أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا واليابان. إلى جانب القنوات المصرية والعربية. هذا إلى جانب شبكة الإنترنت التى تمثل أخطر تطور فى تاريخ الاتصال الإنسانى.

التحيزات القديمة والتصورات غير العلمية عن الثقافات، الأخرى سواء فى الغرب أو الشرق. فالتحيز والتعصب للأسف تبادليان، والتشويه التهكمى للرموز الكبرى للعقائد والثقافات، إلى جانب تثبيت تاريخ مشوه أو مزور لتلك الثقافات منتشران. والكل يلقى بمسئولية البدء بهذا التبادل العدائى على الآخرين[١٥]. وبات الأمر يتطلب شجاعة العقلاء كى يتقدموا الصفوف، ويستفيدوا بما نملك الآن من أدوات وإمكانات، وعلى رأسها المعرفة الموضوعية الواسعة، من أجل تحويل الصراع إلى منافسة سلمية، تقتضى الكثير من التعاون، وتؤدى إلى تدعيم عناصر وحقائق المشاركة والتكامل. خاصة وأن العولمة بأبعادها السياسية والثقافية والمعرفية، وبفضل ثورة الإتصالات، ستحدث ثورة معرفية وديمقراطية فى مجال المعرفة، لا سابقة لها فى تاريخ الإنسانية، بحيث يتسع المنظور الإنسانى وتتقارب الثقافات، مما قد ينشئ فى النهاية ثقافة عالمية تضع فى اعتبارها القيم الحضارية لمختلف الثقافات فى صميم نسق القيم العالمى. كما أن شبكات الإنترنت بالذات من شأنها أن تنشئ واقعاً جديداً لا سابقة له فى تاريخ البشرية، وبروز ما يمكن وصفه بنوع من " العقل الجماعى البشرى " حيث يصبح بالإمكان الاستعانة فوراً بالجهد الفكرى والبشرى فى أى موقع. فالإنترنت آلة بمنزلة " عقل إنسانى جماعى " نتيجة زوال الفواصل الزمانية والمكانية بين البشر، وبروز القدرة على تنغيم جهودهم الفكرية حتى تصبح وكأنها كل لا يتجزأ.

أمامنا إذن طريقان إما الصراع أو التعايش. والصراع الذى يجرى التلويح به لو التهب فسيؤدى إلى إتساع نطاق صدام القوميات والديانات الرهيب، الذى إندلع بعد سقوط الإتحاد السوڤيتى، ونموذجه الدامى كان فى البوسنة. ونقاط إنطلاقه يحددونها بدول النواة كالولايات المتحدة والصين وغيرها[١٦]. أما التعايش فله فرصة فى ما أدخلته العولمة إلى

---

(١٥) فالغربيون مثلاً يشكون من زيادة معدلات الهجرة من الجنوب ومن الشرق إلى مجتمعاتهم، بما يهددها من تغيير لتركيباتها الثقافية الموحدة، وتحويلها إلى تركيبات متعددة ذات مكونات أو عناصر متصادمة لا تقبل بعضها بعضاً، خاصة وأن الوافدة لا تذوب فى كيان الثقافة الغربية. ويشكون من وصول الإرهاب، والأمراض مثل الإيدز، ومن الإنفجار السكانى فى تلك المناطق التى هى مصدر الهجرة. ويرد الشرقيون على هذه الشكاوى بإتهام الغرب بأنه مصدر البدع والإنحلال والعنصرية والاستغلال وهو نفسه علة ما يعانيه من مشاكل يصدرها إلى بقية أجزاء العالم.

(١٦) الولايات المتحدة وألمانيا وروسيا؛ الصين واليابان والهند وإندونيسيا؛ إيران ومصر؛ والبرازيل.

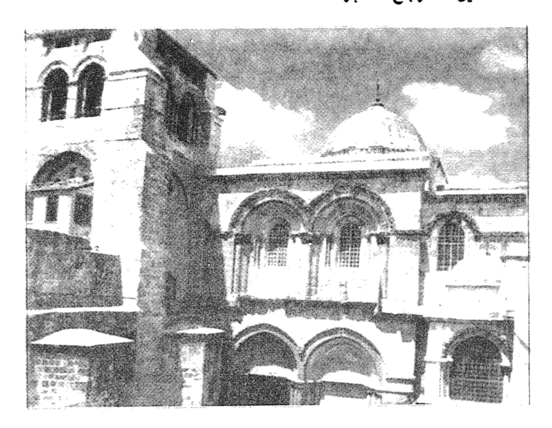
العالم من غياب المسافات وتقليص الوقت بين كافة أجزاء العالم. وهى فرصة تقول للعالم «ها نحن قد اجتمعنا جميعاً على "رأس دبوس" بكل قضايانا ومشاكلنا المتوطنة، وبكل إختلافاتنا وتمايزنا. كلها هنا مركزة. فهل سنفلح فى أن نعمل يداً واحدة وعقلاً واحداً وقصداً واحداً، أى إنقاذنا: إنقاذنا من أنفسنا من أجل أنفسنا؟ إن التحدى هنا بما تفرضه الكونية ليس التداخل الشديد إلى حد التشابك، ولا هو كيف نعالج قضايانا منفردين، فالإنفرادية هى التى شتّتنا وبددت قوانا، ودفعتنا نحارب بعضنا بعضاً. إنما التحدى هو كيف نعالج قضايانا مجتمعين، أسرة واحدة فى مركب واحد».

وبديهى أن يتطلب حوار الحضارات أن يضع المتحاورون فى إعتبارهم التاريخ الطويل لكل حضارة، وعمق تأثر أبنائها بها، وتحكمها فى تصوراتهم وتجاربهم فى الحياة، مما يفرض أن يكون الحوار متمهلاً بطيئاً، يتسم بالتحلى بالصبر وبقدر كبير من الواقعية، وبقسط طويل من الاتصالات. وبينما يأخذ الحوار فى الحسبان الخلافات بين الحضارات فيما يتعلق بالعقليات وأنماط الحياة والثقافات السياسية والنظم الإقتصادية، يركز فى الوقت نفسه على القواسم المشتركة بينها.

والمبادرات القائمة الداعية للحوار بين الديانات مهمة وحيوية. فجلوس أصحابها معاً من شأنه، بداية، أن يحطم ما يمكن وصفه بالحاجز النفسى بينهم، مما يسهل عملية انفتاحها بعضها على بعض، وقيام جو من الثقة يدعم مواصلة الحوار، الذى ينبغى أن يكون حواراً متكافئاً بنية صادقة، وعقول متفتحة، وقلوب مؤمنة، بعيداً عن ألاعيب السياسة، ويكون مضمونه حول ما يمكن الاتفاق عليه من قضايا، مثل حقوق الإنسان، وإنقاذ الإنسان، وحماية البيئة، والتسامح الدينى، وإحترام حقوق الشعوب وإنصاف المظلومين، ومساندة الأقليات، وما شاكل ذلك. على أن يحترموا بعضهم بعضاً فيما يختلفون فيه.

(٣)

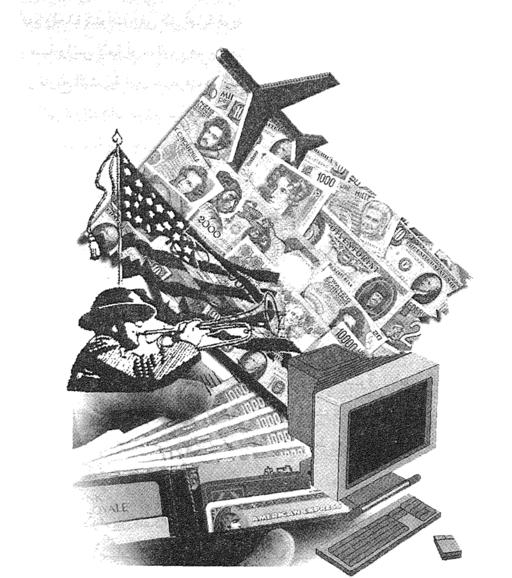
فلسطين .. الوجع الأكبر



لقد انشغلنا ياعزيزى "علام" بفلسطين وقضيتها منذ شبابنا، وحاربت أنت واستشهد أخى على أرضها. وصارت جزءاً منا وامتداداً لنضالنا، ولأحلامنا أيضاً. ولم يفهم جيراننا وإخوتنا هذه الصلة العضوية، وما فرضته علينا من تضحيات جسام على مدى عقود عديدة. ولا أخالهم سيفهمون. ومن هنا تقلبت أحكامهم علينا، وتلونت بحسب مصالحهم ومنطلقاتهم. ولكننا ثابتون فى خندقنا، متماسكون معها تماسك التوائم الملتصقة[١].

(*) بداية الكتاب الذى صدر عن "أسقفية الشباب" ٢٢٢ شارع رمسيس / العباسية / القاهرة.

أحلام بالكون



(١) الرأسمالية

يتساءل **سان** مثلما يتساءل المجتمع الإنسانى كله عما إذا كان المستقبل قد صار حقا مؤمناً للرأسمالية، بعد ما خرج النظام الرأسمالى، أو إقتصاد السوق، لتوه بأكبر إنتصار فى تاريخه، وانفرد كنظام إقتصادى بزمام القيادة فى العالم، الذى يعيش الآن، ولعدة سنوات، فى ظل تجربة فريدة تتمثل فى هيمنة عقيدة إقتصادية إجتماعية سياسية وليس لأمة أو دولة، وهو ما يعرف "بالسلم الرأسمالى"، مقارنة بما كان على مدى تاريخ البشرية حين سيطرت دولة بعينها على العالم، مثل السلم الرومانى والسلم البريطانى، وإن كان السلم الرأسمالى الحالى ينسب إلى أمريكا كدولة مهيمنة تملك قوة هائلة غير مسبوقة فى التاريخ.

والرأسمالية ببساطة تقوم على الإعتقاد بأن رأس المال هو العنصر الأساسى فى الإنتاج، ومن ثم حظيت الملكية الخاصة بالحرية المطلقة. فهى النظام الإقتصادى الذى فيه كل وسائل الإنتاج والتوزيع، التى تدار من أجل الربح، مملوكة كلها أو معظمها ملكية خاصة. وقد نشأت فى أوروبا الغربية نتيجة للتطور الطبيعى فى الاستجابة لحاجات البشر. وأدى إختراع التليفون إلى إنتقال مركزها إلى أمريكا. وإن كانت قد خضعت فى منتصف القرن التاسع عشر (أو منتصف العصر الفكتورى فى إنجلترا) لعملية هندسية إجتماعية تستهدف إيجاد أسواق حرة للسلع، وإيجاد سوق للأيدى العاملة - وهو الأهم- يضطر فيه العمال لبيع قوة عملهم وفقاً لمستوى الأجور المتدنية المحدد فى الأسواق الإجتماعية، التى كانت تدار فى ظل ضوابط وقيود كثيرة لتحقيق التماسك الإجتماعى.

وتختلف الآراء بين المفكرين والإقتصاديين حول طبيعتها ومستقبلها. فمنهم من يرونها مدمرة لنفسها لأسباب تعود إلى غريزتها الاستغلالية الإحتكارية، وإلى عنصر المنافسة التى هى عمودها الفقرى، والتى كثيراً ما تؤدى إلى صراع شرس قاتل بين المنتجين، يتمثل فى محاولات الاستئثار بالأسواق أو بأكبر حصص منها، فى إطار المعادلة الخالدة

" السمك الكبير يأكل السمك الصغير " . ولا يتوقع لها " چون جراى " أن تسود كنظام أو نسق حضارى عالمى، ولو حدث وتحقق فسيحمل إنهياراً ومآسى إجتماعية بالغة[١] .

ومنهم من يعزون تفردها فى التاريخ إلى قدرتها الذاتية المستمرة على التغيير المستمر بحكم حيويتها المعرفية والإدارية والتكنولوچية، وقدرتها على التكيّف، وإن كانت هذه الدينامية نفسها هى العدو الذى يتهددها . ومنهم من يؤمنون - مثل الإقتصادى " فريدريك هانك " - أنها ضرورية للحيولة دون إنتشار الفقر والموت على نطاق واسع، وإن كانوا يلمحون " الاشتراكية "[٢] فى خلفيتها كعامل يخفف من شراستها وقسوتها، أو توحشها كما يقال أحياناً، بحيث تكون ذات مسئولية إجتماعية، فتحمل اسم " الرأسمالية الإجتماعية " ، والتى تنتمى للمدرسة " الكينزية " الجديدة نسبة إلى Keynes الإقتصادى الإنجليزى المعروف، والتى تعتقد فى فاعلية الأسعار وقوة تأثيرها فى السوق، وتهتم بالمساواة والعدالة فى الوقت ذاته .

ولا يوجد مدافع جاد عن الرأسمالية يتوقع لها الفوز لمجرد قوة أدائها . ولهذا كان ألفريد مارشال، إقتصادى العصر الڤيكتورى فى بريطانيا، يحلم بأن تسود " الفروسية " فى عالم المال والإقتصاد . واستطراداً يسود إعتقاد بأن الرأسمالية التى ستنجح هى تلك التى تتسم بدرجة عالية من " البراجماتية " السياسية، مع تضاؤل الحماسة الأيديولوچية، وتساند فى الوقت نفسه وجود خدمة مدنية متطورة جداً، وتمتلك تراثاً من التلاحم العام خاصة فيما يتعلق بعلاقة العامل وصاحب العمل، ولديها القدرة على إيجاد الطرق التى تكفل للعمال فرصاً مناسبة للتوظف والحصول على الدخل، وتوفير الأساس الأخلاقى والإنسانى فى مجمل عملياتها، خصوصاً فيما يتعلق بتوزيع الدخل، بحيث لا تسمح بالفقر فى مجتمعاتها، ويشار إليها بالليبرالية الجديدة ذات البعد الإجتماعى . وهو دور لا يتم من خلال قوى السوق وحدها، التى لا يهمها سوى تعظيم الربح، وتواصل الإعتداء

---

(١) فى كتابه " الفجر الكاذب أو أوهام الرأسمالية العالمية " .

(٢) خرج الرئيس فرانكلين روزفلت، الرئيس الأمريكى الأسبق، أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، بصيغة إقتصادية/ إجتماعية جديدة، أطلق عليها " العقد الجديد " ، وبالإنجليزية The New Deal ، والتى يترجمها البعض : التوزيع الجديد " ، كما يستعمل فى ألعاب الورق . وكان هدفها تحقيق نوع من العدالة الإجتماعية، لإقتناع روزفلت أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة، التى أحاطت ببلاده، إنما تفجرت نتيجة للتوزيع السيء للدخول والثروات بين أفراد الشعب .

الوحشى على الطبيعة بغير النظر للمستقبل، وإنما من خلال دور نشيط للحكومة أيضاً، وعلى أساس أن المجتمع ليس مجرد أفراد، أو دمى، فى إقتصاد السوق، وإنما مواطنون عليهم إلتزام أخلاقى تجاه بعضهم بعضاً[٣].

وقد ساد هذا التصور، إلى حد كبير، الدراسات والمناقشات التى دارت حول إقتصاد السوق فى ثلاث مؤتمرات عقدت فى نوفمبر ١٩٩٩. فمؤتمر الإشتراكية الدولية كان يبحث عن مجتمع أكثر إنسانية، وأكثر عدلاً ومساواة. وأكد "بيير موروا" رئيس حركة الإشتراكية الدولية السابق، ضرورة الوقوف فى وجه الرأسمالية المنتصرة، وذلك بتبنى سياسات فاعلة يمكنها أن تواجه تطور الأسواق التى تفضل القوى على الضعيف، والتى أثبتت آلياتها دائماً أنها عمياء.

أما أصحاب **الطريق الثالث**، الذين تجمعوا فى فلورنسا بإيطاليا، فقد إلتقوا حول كلمة "ماريو موردى"، رئيس المفوضية الأوروبية، الذى أكد فيها أنه يتعين على أوروبا أن تجد طريقة كى تحول قدرتها التنافسية وفعاليتها إلى نمو إقتصادى يوفر الوظائف، ويحافظ على أسلوب الحياة الأوروبية فى مجتمع أكثر عطفاً. ويشار بالطريق الثالث[٤] إلى طريق وسط لمفهوم الرأسمالية، بين مبادئ السوق ذات النزعة المحافظة التى دعا إليها اليمين

(٣) والنموذج المثالى لهذا التوجه نجده فى شرقى آسيا وجنوبها، بين اليابان والنمور الأربعة، التى قام نجاحها ليس على أساس الإختيار بين "النمو" و"العدالة الإجتماعية"، فتتركز الثروة فى أيدى القلة، بل على أساس العمل على الجهتين، أى "النمو" و"عدالة توزيع الثروة". ولعبت الدولة دوراً بارزاً فى إقتصاديات تلك البلاد، إمتد ليشمل تحديد أشكال الاستثمار الصناعى والهيكل الانتاجى للدولة، وهو دور قيادى للإقتصاد وليس "سيطرياً". فعرفت "بالدولة التنموية"، تقوم على نظرية جديدة للدولة "neostatism"، تنهض على نظرية السوق الموجهة والمشاركة بين العام والخاص، والإهتمام بالبعد الإجتماعى، حيث تقوم الدولة بتوفير السكن الإقتصادى، والرعاية الصحية والغذاء المدعم، والإنتقال. وتزيد اليابان على ذلك الإلتزام بعدم فصل العمال وتمكينهم من الخدمة مدى الحياة، فسميت بالرأسمالية "الأبوية". والمعروف أن الشركات فى اليابان هى إمتداد للعائلة. وكلمة "أوشى" التى تعنى الشركة تعنى أيضاً البيت. كما أن كلمة "يابوم" التى تطلق على رب العمل معناها "فى مقام الأب". فالشركة هى التى تنظم لليابانيين كل شئ فى حياتهم، بما فى ذلك العلاج وتعليم الأولاد والترفيه، ويكنون لها عميق الولاء والإنتماء.

(٤) ويعود استخدام هذا المصطلح إلى أواخر القرن التاسع عشر حين دعا البابا "بيوس الثانى عشر" إلى طريق ثالث بين الاشتراكية والرأسمالية. وفى القرن العشرين طرح الفكر الخاص بأن الإسلام هو "الطريق الثالث"، أو البديل، فى مواجهة الشيوعية والرأسمالية. وخلال حقبة الستينيات صُنف النهج الناصرى بإعتباره الطريق الوسط بين هذين البديلين. وفى السبعينيات قدم "القذافى" النظرية الثالثة كبديل للشيوعية والرأسمالية أيضاً. ويعتبر البعض سياسة الصين "الإصلاح والإنفتاح" التى إتبعتها منذ عام ١٩٧٨ نمطاً من "الطريق الثالث". كما أن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت شكل "حركة الطريق الثالث" هذه بهدف التأليف بين حركة الرأسمالية وإطلاق العنان للحافز الفردى، مع مراعاة إعتبارات العدالة الإجتماعية فى نفس الوقت.

المحافظ، خاصة فى الفترة "الثاتشرية" فى بريطانيا و"الريجانية" فى الولايات المتحدة الأمريكية في الثمانينيات[٥]، وبين مبادئ اليسار الداعية إلى قيام عدالة إجتماعية، أو مجتمع التكافل، من خلال نظام إجتماعى لإعادة التوزيع وفق أساليب مختلفة. وهو ما يعرف "**بأنسنة**" الرأسمالية، أو تحديثها. ويشار إليه أيضاً بالإشتراكية الديمقراطية التقليدية، حيث الملكية الخاصة حق للجميع، مع تحسين الأحوال الاجتماعية من خلال العدالة الإجتماعية والكفاءة الإقتصادية.

وتشير الدراسات والمصنفات الحديثة التى تركز على الرأسمالية ومستقبلها، إلى التحديات الجسام التى هى فى السبيل إلى مواجهتها، وبعضها من إفرازاتها. ويقدم الباحث الإقتصادى الأمريكى المعروف "لسترثرو"[٦] دراسة موثقة بالأرقام والبيانات تحذر من أن ثوابتها المستقرة الخاصة بالنمو والتوظف الكامل لقوة العمل والاستقرار المالى والإرتفاع الحقيقى للأجور والدخول تبدو وكأنها تتبخر كما تبخرت الشيوعية. وإذا كان لها أن تبقى فعليها أن تعمل لتلافى الإحتمالات الخطيرة المتوقعة. فالتطور التكنولوچى الذى أنجزته قد نجم عنه تقليص حجم فرص العمل، وبالتالى تقليص الأجور، فهل يمكن لها أن تعيش وأن يستمر إنتعاشها فى ظل ركود السوق المترتب على تزايد البطالة[٧] وتدنى الدخول؟ ويتلازم مع هذا الوضع رغبتها المحمومة فى استمرار السير غير المحسوب على درب الجشع غير المحدود. ثم أن الإبتكارات والإختراعات التكنولوچية الحديثة التى أنجزتها باتت لها الأولية كأساس للنمو الإقتصادى، مما يعنى أن قوة العقل أصبحت أقوى من قوة رأس المال. وأصبحت الميزة النسبية لأى دولة هى القدرة على إكتشاف تكنولوچيا جديدة تؤدى إلى إكتشاف أساليب مبتكرة، وتحقق جدوى أكثر وإنجازاً أسرع وأخطاء

---

(٥) وقد أدت فى كل من الدولتين إلى مآس إجتماعية شتى، من تدهور فى سياسة توزيع الدخل القومى لمصلحة الأغنياء، وإرتفاع عدد الأسر تحت خط الفقر، وإرتفاع معدلات الجريمة والطلاق، إلخ.

(٦) كتابه "مستقبل الرأسمالية".

(٧) وللزعيم اليابانى الراحل "كيزو أبوتشى" رأى مختلف. فحين سئل عما يتردد عن "البطالة التكنولوچية"، أى البطالة الناجمة عن التطور التكنولوچى، وتراجع الطلب على اليد العاملة، بسبب توافر الآلة المتطورة، نفى أن يكون هذا هو الحال فى اليابان، مؤكداً أنها ليست حتمية. فقد أدت آلية الإنتاج، والاعتماد على المعلوماتية فى اليابان إلى رفع مستوى الاستهلاك نتيجة لخفض أسعار تكلفة الانتاج، إلى جانب زيادته، مما أدى بدوره إلى زيادة الطلب على العمالة. وأضاف قائلاً إنه إذا أدى تحديث أدوات الإنتاج إلى بطالة نسبية عملنا على تكييف هيكلى يخفف من الآثار المترتبة.

أقل، وفاقداً أصغر وسعراً أقل. وأوجدت ثورة الإتصالات الرهيبة واقعاً جديداً يتمثل فى إمكانية صنع وإنتاج أى شئ فى أى مكان، مع سرعة تسويقه وبيعه فى أى مكان آخر مهما بعدت المسافات، وهو ما سيؤدى تلقائياً إلى أن يصبح الإقتصاد العالمى أكثر تداخلاً فى إقتصاديات الدول النامية، ونشوء رغبات ملحة فى بناء تكتلات إقتصادية إقليمية تواجه العولمة، مما يرشح القرن الحالى ليشهد نهاية العالم أحادى القطبية سياسياً وإقتصادياً.

ولو فُرض وضمنت الرأسمالية المستقبل لنفسها فإن العارفين ينبهون إلى أنها لا يمكنها الركون إلى هذا النصر، لأن الاستسلام له والتعويل عليه قد يؤدى إلى نهايتها نتيجة لغياب عنصر المنافسة والدافع إلى التحدى اللذين سيؤديان بها إلى أن تلقى نفس المصير الذى تعرضت له المذاهب الإقتصادية والاجتماعية الأخرى على مدى التاريخ، منذ مصر القديمة التى لم يكن لها منافسون، فترهلت وفقدت قدرتها على التجديد والإبتكار. فغياب المنافسة فيه غياب لعامل التحفيز والاستنفار الذى من شأنه أن يستنفر القوى والطاقات الكامنة فى النظام أو المجتمع للخلق والإبداع والتفوق. ويفرض هذا ضرورة أن تنأى الرأسمالية بنفسها عن الشمولية الفكرية والسياسية والإقتصادية، وخاصة الاحتكار. ويتفق هذا مع أفكار توينبى، المؤرخ الكبير، وإن كان قد صاغها بعبارة مختلفة، حين أكد أن السقوط يأتى نتيجة استئثار النظام الأقوى بالسلطة المؤثرة أو بالثروة، وهو ما يعنى الأنفراد بالعالم.

والتخوف من **الشمولية الفكرية** وإمكانية أن تتدعم بالعولمة قائم منذ سقوط الشيوعية، والقضاء على الحوار الثقافى والجدل الفكرى بين أنصار كل من الرأسمالية والشيوعية، والاتجاه بسرعة نحو سيطرة نوع من التفكير الأحادى، وفرض النموذج الرأسمالى على العالم بإعتباره النموذج الأمثل، نتيجة لتحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى النظام الدولى، استناداً إلى قوتها الفائقة. ولقد نشر بيتر برجر، العالم الإجتماعى، كتابه "الثورة الرأسمالية"، عام ١٩٨٧، صاغ فيه مبادئ الرأسمالية على نسق مذهب أيديولوچى، ليكون المقابل الموضوعى "للمنفستو" الشيوعى، أبرز فيه محاسنها وأفضليتها كنظام إقتصادى، تنبغى له السيادة، يقوم على الفرد، وعلى حريته فى ضوء قواعد المنافسة المفتوحة، فى إطار حرية السوق وآلية العرض والطلب، وتوفير تكافوء الفرص لكافة الأفراد، بحيث يتحقق الصالح العام للمجتمع ككل. وجاء بعده فوكاياما،

عام ١٩٩٤ ، ليعلن نبوءته المثيرة للجدل عن أن التاريخ قد **إنتهى** إلى إنتصار الرأسمالية ، لتكون مذهب الإنسانية إلى أبد الآبدين . بإعتبار أن البدائل الفكرية للرأسمالية أو لاقتصاد السوق قد باءت بالفشل الذريع وأحدثت من الدمار والخراب لمجتمعاتها ما أحالها لمتحف الأفكار المنقرضة . مما يرجح أن الرأسمالية تتجه نحو شمولية فكرية ، تفرض نفسها على المجتمعات ، باعتبار كونها تملك وحدها الحقيقة المطلقة ، وتوفر الحل الأمثل لكل مشكلات البشرية . وهو توجه يجد فى الوقت نفسه ، للأسف ، دعماً من موقف الحضارة والفكر الغربى من الحضارات الإنسانية الأخرى ، يقول بوحدانية الحضارة فى الغرب منذ الإغريق ، وينكر فى الغالب ما قدمته الحضارات الأخرى من إسهام فى التراث الحضارى الإنسانى ، مما أثر على نظرة الغربى إلى الآخر فى تعامله معه بمقياسين ، إلى جانب إفتتانه بذاته ، وحصاره لبقية الأجناس ، كأن الرجل الأبيض هو وحده خليفة الله على الأرض .

ومقولات الرأسمالية هذه تذكّر بما كانت تردده الماركسية حين أرادت أن تستأثر بالنظام العالمى ، بفلسفتها الداعية إلى إعادة الصياغة الجذرية لبنية المجتمع ، من خلال قيادة طبقة محددة هى البروليتاريا ، التى يقع عليها تاريخياً واجب تحويل المجتمع الرأسمالى إلى مجتمع اشتراكى تختفى فيه الطبقات - وخاصة الطبقة العليا التى تمارس الاستغلال الطبقى ، من أجل الاستحواز على فائض الإنتاج - ويحقق كل فرد إمكانياته الفعلية . مما ترتب عليها إلغاء الملكية الخاصة ، وإشاعة الجماعية فى المجال الإقتصادى من خلال تأميم المصانع ، وإقامة المزارع الجماعية ، بالإضافة إلى الإلغاء الفعلى لمبدأ الحافز الفردى ، على أساس أن واجب الفرد أن ينكر ذاته ويعمل لصالح الجماعة .

وهذا التوجه الشمولى فى الحالين ، وفى غيرهما ، والذى يتنافر مع روح ونفسية وإحتياجات إنسان القرن الحادى والعشرين ، يمثل خطورة بالغة على بنية المجتمعات واستقرارها السياسى ، وعلى الشخصية الإنسانية ذاتها وإزدهارها الذى يعتمد على الحرية والتخلص من الهيمنة أو السيطرة ، أياً كان نوعها ، من خلال التعددية ومساحة واسعة من حرية حق الإختيار وحق تقرير المصير . وقد جاء إنهيار الشيوعية كأيديولوچية شمولية ليؤكد المصير الذى سيكون من حظ غيرها من الشموليات .

ومن هنا تتجه أصوات المثقفين نحو الدعوة إلى **حوار الإنسان للإنسان** على مستوى

الكوكب كله، بحضاراته ودياناته وثقافاته ومدارسه الفكرية المتعددة، دون قيود أو عقد أو حساسيات، من منطلق الميراث المشترك للإنسانية، والذى تراكم لها عبر الأجيال، من خلال التاقف وتفاعل الأفكار المتزامنة، والتلمذة الحضارية، والإنضاج المتبادل للخبرات والمؤسسات، عبر التجارب وعبر العصور، من خلال موجات ثقافية مبدعة أسهمت بها شعوب مناطق بأسرها، من نشأة الدين، إنطلاقاً من مصر القديمة، وتفتح الثقافة والفلسفة اليونانية، وفكرة القانون الرومانى، وسطوع نجم الفلسفة والعلوم اليهودية والمسيحية والإسلامية والكونفوشية والبوذية وغيرها، وإفرازات حركة التنوير الحديثة التى إنطلقت بفضل إختمار الأفكار التى أنتجتها كل الحضارات، وتوطدت بإجتهاد وإبداع طغمة من الفلاسفة والمفكرين المجددين، التى قدست قيمة **التعددية**، التى صار الإيمان بها اليوم قيمة بحد ذاتها. لأن تياراً ثقافياً أو سياسياً أو إقتصادياً واحداً بعينه، لا يمكنه أن يحقق للبشرية الانتقال إلى عصر جديد يمنح الأمل للجميع فى السعادة وتحقيق الذات، وإشباع الحاجات الأساسية بما فيها الحاجات الروحية والمعنوية.

وفى هذا الإطار سبق أن وجه چاك بيرك، المستشرق المعروف، دعوة مبكرة، عام ١٩٨١، لبناء عالم جديد يجعل **الجوهر الإنسانى** رابطة مشتركة، ويجعل التنوع (التعددية) والخصوصية مادة للتفاعل ودافعاً للتقدم. وبيرك هو المستشرق الذى شدته الحضارة الأندلسية التى إنصهرت فيها الأديان والأجناس، من خلال فهم الأندلسيين للدين فهماً رحباً، فعاش المسلمون والمسيحيون واليهود متآخين، يتحدثون العربية والعبرية والقشتالية (الإسبانية). واحترموا العقل وفهموه فهماً صحيحاً، وإعتبروه جوهراً مشتركاً. فلا فرق بين عقل يونانى وعقل عربى[٨]. فامتزجت الثقافات وتفاعلت تفاعلاً حضارياً بناءً.

(٨) صورة من مجالس العلم فى العصر العباسى: عشرة كانوا يجتمعون فى مجلس لا يعرف مثلهم فى الدنيا علماً ونباهة هم: الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سنى)، والحميرى الشاعر (وهو شيعى)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوى)، وسفيان بن مجاشع (وهو من الخوارج الصفرية)، وبشار بن برد (وهو شعوبى خليع ماجن)، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبى)، وابن راس الجالوت الشاعر (وهو يهودى)، وابن نظير المتكلم (وهو نصرانى)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسى)، وابن سنان الحرانى الشاعر (وهو من الصائبة). وكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون فى جو من المودة والألفة، حتى لا يكاد يخطر على بال المتابع أن بينهم ذلك الإختلاف الشديد فى دياناتهم ومذاهبهم. ويتساءل **سان** أين نحن من هذه الصورة الرائعة. لقد أدرك هؤلاء النبهاء "المشترك" بينهم فتعلقوا به واستثمروه لمصلحة التعايش والتفاعل. وأدركه الصوفى بن عربى حين قال: فأصبح قلبى قابلاً كل ملة، فدير لرهبان ومرعى لغزلان. وهيكل عباد وكعبة طائف، وإنجيل توراة ومصحف قرآن. فلماذا نفشل نحن فى عصرنا الحاضر؟!.

ويدور الحديث أيضاً عن مبدأ **المسئولية المشتركة**، على أساس أن مسئولية العالم ونظامه ليست مسئولية حضارة أو أمة بعينها، مهما بلغ إزدهار هذه الحضارة أو قوة تلك الأمة. فهى مسئولية جماعية تتطلب تنقية وترقية كفاءة الإتصال والتفاهم والتعلّم المتبادل، بوداعة وتواضع. خاصة وأن العالم الحاضر قد إنكمش وصار مجرد قرية كبيرة، وبات على مجتمعه، وقد تقارب إلى هذا الحد، شأن مجتمع القرية، أن يزيل كافة الحواجز أو الفواصل مهما كان نوعها أو طبيعتها، وينطلق من مفهوم **المستقبل المشترك**، يدعم الإيجابيات، ويسلط فى الوقت نفسه الضوء على كافة السلبيات[٩]، وخاصة تلك التى تتمثل فى الإخفاق على صعيد التنمية من منظور عالمى، والإخفاق فى إدارة بيئته البشرية، مما يؤدى إلى أخطار تتهدد العمران فيه، بفعل طغيان بعض بنى البشر على غيرهم من بنى البشر وعلى أنفسهم.

وفى هذا الإطار إقترح الأمين العام للأمم المتحدة، فى مؤتمر دافوس ٢٠٠٠، الذى يضم نخبة الرأسمالية العالمية الجديدة، صياغة عقد إقتصادى/ إجتماعى/ سياسى بين الشركات العملاقة العابرة القارات، وبين الأمم المتحدة أو المجتمع السياسى الدولى، يوفر قيام **شراكة** بين القوى الفاعلة فى عالم اليوم، أى المال والدول. فالعولمة تسير بسرعة الإنترنت، وهى سرعة تتزايد وتتسع مع الأيام. بينما الدولة، كمؤسسة حكم وإدارة، لا يمكنها مسايرة هذه السرعة، ومن شأن بطئها أن يؤثر سلباً على العلاقات، وخاصة الصراعات الدولية التى تعتمد فى تسويتها على الدولة. وبمقتضى الشراكة المقترحة تساعد الشركات العملاقة بإمكاناتها الضخمة مجتمع الدول فى اتخاذ القرارات السياسية المناسبة وبالسرعة المطلوبة، والتى من شأنها أن تسهم فى إدارة الصراعات وتسويتها، وتجنبها كلما أمكن ضماناً للسلم والرخاء العالميين.

ولقد عُقد إجتماع فى استوكهلم بالسويد، عام ١٩٩١، صدرت عنه وثيقة بعنوان

(٩) فمثلاً، يخبئ المستقبل أسباباً متزايدة لزيادة وشيوع البطالة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والفشل فى إيجاد حلول لها، لأنها ستصبح أحد الملامح الهيكلية الأساسية لبنية الاقتصاد الرأسمالى فى البلاد المتقدمة والنامية على السواء، بسبب حلول التكنولوجيا محل البشر فى الإنتاج، وهو ما يعرف "بالبطالة التكنولوجية". وأيضاً نتيجة إرتفاع معدلات الإعتماد على العمل الذهنى وتقلص الأعمال اليدوية. ولقد تحول ممارسو العمل الذهنى، وخاصة الملتحقين بصناعات الكمبيوتر والسوفت وير، من الشبان، إلى مليونيرات بسبب ما يحصلون عليه من دخول كبيرة.

" المسئولية المشتركة فى التسعينيات " ، وتشكلت منه لجنة باسم " لجنة إدارة المجتمع العالمى " ، بمباركة من هيئة الأمم المتحدة ، أصدرت تقريراً موسعاً يتضمن أهدافها ورؤيتها العامة لمسيرة العالم ، والاحتمالات المستقبلية ، وما ينبغى أن يكون عليه الغد ، فى عالم تراه يحتشد من أجل حياة أكثر ديمقراطية وأمناً واستمرارية ، ولتحقيق مستويات أعلى من التعاون فى المجالات ذات الاهتمام والمصير المشتركين . وهذا التوجه المشرق يمكن تحقيقه ، فى رأيها ، بواسطة سلسلة من الدوائر تتضمن الوحدات المحلية ، والدولة ، والمجموعات الإقليمية ، وهيئة الأمم المتحدة . وتركز فى ذات الوقت على صيغة العولمة ، أو الكوكبة باعتبارها الإطار الذى يستوعب سلسلة الدوائر مجتمعة ، ويتحقق بالإتجاه نحو " النموذج الغربى " . ورغم " سقطة " التحيز للنموذج الغربى (١٠) بالذات ، فما يهم فى هذه الوثيقة هو وجاهة الفكرة والمناخ العام الذى أوحى بها ، والذى يسعى إلى فرض نفسه ، باعتباره رغبة عامة وغالبة لشعوب العالم - ألا وهى جماعية العمل ، العمل المشترك ، بندية وتعاون ، بوصفه الطريق الأمثل للنجاة والحياة . فيكون " حق المشاركة " مبدأً أساسياً يحتل مكانه فى العالم على نطاق واسع تُتخذ بمقتضاه القرارات عن طريق المناقشات الواسعة والاقتراع العام ، بدلاً من إتخاذها عن طريق المصلحة الذاتية وحدها ، أو بواسطة أشخاص محظوظين بثرواتهم أو مراكزهم ، لتقرير الأمور من جانب واحد ، فيتسنى للمواطنين جميعاً المشاركة فى تحديد كل مرحلة من مراحل حياتهم الإقتصادية ، بما فيها تحديد المهام التى يقوم بها كل فرد ، والسلع والخدمات التى تُنتج فى المشروع الذى يعمل فيه كل شخص ، والحصة التى يحق لكل شخص الحصول عليها من التدفق المشترك للسلع ، بحيث تحل المساواة الاجتماعية ، فى النهاية ، محل عدم المساواة .

ومن هنا يتضح أيضاً أهمية إصرار الكتّاب والمفكرين السياسيين والاجتماعيين ، وخاصة المستقبليين ، على ضرورة تزاوج السياسة **والأخلاق** كركيزة للنظام الجديد ، وكعامل أساسى من عوامل نجاحه فى تحقيق ما تصبو إليه البشرية من العدل والرخاء .

---

(١٠) إن مفهوم الغرب الواحد هو الآن موضع خلاف شديد ، حتى أن مراكز صناعة القرار السياسى فى الغرب مشغولة بنبوءة حول إختفاء الغرب الواحد ، الذى عرفه العالم خلال سنوات الحرب الباردة ، فى القرن الماضى . فجانبا الأطلنطى (أى أوروبا وأمريكا) يتباعدان سياسياً وإقتصادياً وحضارياً ، ولم يعد مستبعداً أن يقع صدام بينهما ، من مؤشراته الحرب التجارية بينهما ، وشكوى أوروبا من الغزو الثقافى الأمريكى . فالتجارة من المادة ، والمادة من طبيعتها تنقسم على ذاتها ! .

فتقدم الأمم ليس فقط راجعاً إلى إعتبارات إقتصادية من تراكم رؤوس الأموال، أو توافر الموراد الطبيعية، أو تحقيق الثورة العلمية والتكنولوجية، أو إختيار النظم والسياسات الإقتصادية المناسبة، بل يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى توافر مقومات ثقافية أساسية فى علاقات المجتمع. ويجيء على رأس هذه المقومات، فى رأى فوكوياما[١١]، **الثقة** والاطمئنان. فالعالم فى حاجة إلى ثقافة الثقة لينطلق بها نحو التقدم الحقيقى المتسم بالإنسانية. فالثقة توّلد التفاؤل وكلاهما يشكلان القوة الدافعة إلى التقدم. والثقة علاقة تبادلية. وبينما هى تمثل وجهاً للعملة، فالوجه الآخر هو المسئولية، بمعنى أنه لا يمكن أن تقوم الثقة فى طرف ما لم يصاحبها، فى الطرف الآخر، الإحساس بالمسئولية والقدرة على الوفاء. فمجتمع الثقة إذن هو مجتمع المسئولية، مسئولية الفرد تجاه نفسه وتجاه الآخرين. وهو أيضاً مجتمع المنافسة الشريفة القائمة على الثقة فى احترام لقواعد اللعبة، وليس الكسب عن طريق الغش والخداع. والثقة، مثلاً، هى لب الإقتصاد. فالنشاط الإقتصادى يقوم على التبادل والعقود، والشيكات، وعلى المضاربة على المستقبل، والاستثمار، والتجارة والأوراق المالية والتجارية، وفى المشاركة والشركات بأنواعها، وعصبها جميعاً هو الثقة، وبنموها تنمو كل هذه الأنشطة الاقتصادية، إلى جانب توافرها فى الفرد نفسه - عصب الاستثمار والإقتصاد - فيثق فى نفسه وقدراته، ويثق فى الغير، ويطلب ثقتهم فيه، ويثق فى المستقبل وفى الوسط الذى يعيش فيه. فالثقة - هذا العنصر الثقافى الثمين - إنما يمثل "رأس المال الإجتماعى" الذى يمكّن المجتمعات من الخروج من مستنقع الركود. ومعجزة النمور الآسيوية تحققت لأن هذه الدول إحتفظت بثقافة الثقة والأمل فاتبعت سياسات جريئة للمنافسة الخارجية. وهى الثقافة التى مكنتها من الخروج من أزمتها العابرة، التى حاقت بها منذ سنوات قليلة، فى فترة وجيزة.

هل يعنى هذا أن المستقبل المرموق رهين بعملية إحياء روحى وفكرى وثقافى؟ نعم، على أن تؤكد على ضرورة إقتران العقل **بالضمير** فى الإنسان، باعتبار أن الضمير هو مبعث القدرة على الذات بتغلبه على الأهواء، وضبطه للعقل وصيانته للعلم والمعرفة من أن يستخدمهما للشر والفساد، وتوجيهه إياهما فى سبيل الخير والصلاح. هل هذا كلام

(١١) كتاب جديد صدر له عام ١٩٩٦ يثير جدلاً واسعاً مثلما أثار كتابه الأول "نهاية التاريخ".

مثالى، يفتتن به الشرق "الضعيف قليل الحيلة" كما يقال؟ لا أبداً. إن أى نضال يظل ناقصاً، ودون ثمار باقية، ما لم يصاحبه تبدل أساسى فى الكيان الإنسانى، يؤدى إلى بعث الضمير، وسيادة القيم الحق فى السلوك الفردى والجماعى والدولى، ويعلى التراث الحضارى الإنسانى الذى ينير البصيرة القيادية فى رؤيتها للكون وللعالم والمجتمع، ويملأها ثقة بإمكانية التغيير الإيجابى إلى الأحسن.

وهنا لابد من وقفة مع نموذج صاعد، هو النموذج الآسيوى، الذى قد تكون له السيادة يوماً ما. فهناك تغيرات ضخمة جارية فى آسيا-- فى بعض أقاليمها بالذات وعلى رأسها الصين التى من المتوقع بزوغ نجمها. ومما يدعم هذا التوقع أن القيم والأساليب والأنماط الغربية التى استمرت سيادتها لعقود طويلة بدأت تعطى مكانها للقيم الآسيوية التى أخذت تنتشر فى الغرب ذاته تدريجياً، وتجد فيه إهتماماً أكاديمياً بها. بل أن الديانات الآسيوية، كالبوذية والهندوسية وزين تجتذب الغربيين بصورة تتزايد يوماً بعد يوم، لدرجة أنه قدر أن مئتى ألف أسترالى يتحولون للبوذية[١٢] كل عام. كما تنتشر الرياضات الآسيوية والأطعمة الآسيوية فى أوروبا وأمريكا على نطاق واسع الآن. وكل هذه مؤشرات تدل على أن النموذج الآسيوى فى العالم يحمل فرصة كبيرة من الأمل فى نظام عالمى سياسى إقتصادى، وإجتماعى أيضاً. فالآسيويون مزودون بالعلم والتكنولوچيا وثورة المعلومات، ولهم حضارات تحترم آدمية الإنسان، وبإمكانهم تقديم نموذج جديد للعالم الذى عاش طوال قرنين من الزمان فى ظل حضارة يخاف عليها من طغيان المادة على روحها: نظام يتبنى "الجماعة" مقابل الفردية والأنانية والحرية الإقتصادية الهوجاء. وقد بنى تجربته على التقاليد الآسيوية التى يبرز من بينها الادخار وعبادة العمل.

فهل ياترى ستصدق نبوة المؤرخ الفرنسى چان ماريه دومنيك القائلة بأن الغرب وهو يهلل لفشل الماركسية قد غاب عن تفكيره حقيقة مؤكدة وهى أنه كان يودع فى نفس اللحظة آخر محاولة غربية لتشكيل تاريخ العالم؟!

---

(١٢) المعروف عنها أنها "صرخة السلام والتسامح والرحمة ضد تعصب الأديان الذى باعد بين الناس". فهى تدعو إلى العلو فوق فواصل الدين وحواجز الأيديولوچية السياسية والاقتصادية.

(٢) مستقبليات

- ١ -

تعلم **سان** أن التاريخ هو خلاصة التجارب الإنسانية على مدى عصور البشرية، وسجل التغيير فيها. وهو أيضاً حوار دائم بين الماضى والحاضر، وصعود متصل فى سلم التطور، بإعتباره عملية إرتقائية مستمرة، وحركة إلى الأمام لأن حركته هى حركة الفكر. فعلى امتداده تتجدد الأفكار[1]، وتتولد المعقولات الحديثة، ويتعدد الإبداع الإنسانى وإبتكاره بإقتدار مرموق. وهو يساند فى الوقت ذاته ثوابت تبلورت فى ماضيه ويدفع بالأصيل منها إلى الأمام لتثرى الثوابت الإنسانية الأساسية لتواصل حياتها، مشوار الجدة والتألق.

ومن ثوابته أن له دورات، وقاعدة لتناوب الأدوار بين الدول والمجتمعات، من صعود وهبوط، ومن نصر وانكسار، ومن ازدهار وانحسار. فإذا بمجتمعات، عند حقبة زمنية ما، تكون فى طريقها لأن تسلم راية حضارتها إلى مجتمعات أخرى غيرها، بعدما استكملت دورة الحضارة عندها الشوط حتى نهايته، واستنفذت أو كادت مخزونها من الطاقة الحضارية القادرة على دفعها إلى الأمام. فالأساس أن تستمر حركة التاريخ حتى تصل بالبشرية إلى نوع من المجتمعات تحقق للفرد كل ما كان يتمناه ويتخيله للجنس البشرى. ولأن تمنيات الإنسان تتطور، ومعها أحلامه، فالمفترض أن يواصل التاريخ حركته ودوراته.

والغفلة عن هذه المتغيرات الجارية، هى أخطر ما يصيب المجتمعات القائمة، إذ تنصرف عن التعلم من درس التاريخ الماثل أمام أعينها حياً ساخناً، والوقوف على ما يصيب المجتمعات التى تصاب "بالركود" فتعيش فى الحاضر على نفس الأفكار والقضايا التى عاشت عليها فى الماضى، دون أن تدرك أن تغير الزمن والظروف يقضى بمراجعة كل

---

(١) فالتاريخ يتأثر أساساً بتزايد المعرفة الإنسانية ونموها، حتى أنه يصعب التنبؤ بما سيحدث فى صفحاته القادمة. وإنتاج المعرفة الوفير الذى يتميز به عصرنا الحالى يغير الحياة يوماً بعد يوم، حتى بات صعباً تصور شكلها فى اليوم التالى.

ما لديها، وإعادة التفكير فيه، لتهيء لنفسها ومن تجديد مشروعها أو حلمها، منصات لإنطلاقات جديدة، أو أجنحة تحلق بها فى الزمن القادم.

ذلك أن الركون إلى الركود أو استطابته قد يحوله إلى جمود يروق للمجتمعات، بحيث ترى فى التغيير نوعاً من "خيانة الماضى" أو الكفر به، ويصبح التاريخ حينئذ حركة مرتدة إلى الخلف، وعوداً أبدياً إلى نقاط إنطلاقه الماضية، فيبدو وكأنه يدور حول نفسه دون أن يتقدم. وعند هذا يشتد الخطر، إذ تنعدم الرؤية للمستقبل، ويتبدل الخيال والحلم، أو تتآكل الرغبة القومية العامة فى النهوض والتطور[٢].

فبداية رحلتنا إلى المستقبل إذن هى وعى التاريخ الذى يعلمنا[٣] أن الأمم لا تقف فى حياتها عند حد، وأنها عرضة للتغير والتحول، وأنها تنطلق إلى الأمام بجدها وإجتهادها وتطلع أبنائها إلى المستقبل الآتى، ذلك المستقبل الذى تشترك أمم الإنسانية كلها فى صنعه، من خلال الإيمان بالتغيير والتغيير المستمر، كما يقول العالم البريطانى "زيجمونت بومان"، الذى يؤدى إلى تحسين حياة الإنسان وتجميلها، ويؤكد استقرار مجتمعاته ويدعمه، شريطة ألا يتم ذلك بشكل مفاجىء أو سريع، وأن تعطى الفرصة للقوى الطبيعية لتعمل عملها.

وللحقيقة فإن مفكرى الغرب، الذى يتردد أنه فى طريق الهبوط، ومن ورائهم صانعو السياسة والقرار، لا يقفون عند حدود الأحداث الراهنة، أو الدوران حول المشاكل القائمة، ولكنهم مشغولون بمسح الظواهر على إمتداد أفق المستقبل، والدخول فى دائرة البحث عن صياغة فكر يتعامل مع العصر القادم، بإعتبار التنبوء بالمستقبل مهمة ضرورية، وإن كانت تتطلب جهداً علمياً مركباً ومعه قدر من الإبداع والخيال. تظهر تجلياته فى

---

(٢) ولهذا يدأب المفكرون الطليعيون على التحذير من "الماضوية"، التى تقدس الماضى وتجله، فهو الأمجد والأمس هو الأجمل، بإعتبار الأمس ورجاله أفضل من الحاضر، أما الحاضر فقبيح والمستقبل غامض. وتشيع معها القدرية التى تهيمن على العقل والتواكلية التى تثبط كل جهد، وتنتفى فى ظلها المبادرة من سلوك الأفراد.

- وهناك جهود أكاديمية مصرية عربية تبذل منذ عقود قليلة لاستشراف مستقبل مصر والأمة العربية، ومنها ما صدر عن "معهد التخطيط القومى"، وعن "منتدى العالم الثالث" بالقاهرة، وإصدارات بعض كليات الجامعات للدراسات المستقبلية، وإصدارات الكتاب والمفكرين..

(٣) وإن كانت هناك مدارس تنكر على التاريخ دور "الأستاذية" هذه. فهيجل يقول إن الشىء الوحيد الذى نتعلمه من التاريخ هو ألا نتعلم منه شيئاً!.

تميـيز الأخطار والفرص المؤاتيـة، وإقتـراح صـور الحلول، وتقـديم بدائل للسيـاسـات والأعمال.

ولقد بدأ الإهتمام بالمستقبل ودراسته[٤] منذ مـا يزيد على أربعة عقـود. وقـامت له مؤسسات فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، ولحق بهما العديد من الدول فى مختلف القارات. وشهد العالم العربى عناية بالدراسات المستقبلية منذ مطلع السبعينيات، وتأسست لها مراكز منها "مركز البحوث والدراسات المستقبلية" بجامعة القاهرة. ومع أن دراسات المستقبل تراجعت بعد سقوط الاتحاد السوفيتى المفاجئ عام ١٩٨٩، لأنها، أولاً، فشلت فى التنبوء به. وثانياً، لأنها واجهت وضعاً جديداً إنهارت فيه صور الثبات التى كانت قائمة تحت القطبية الثنائية. فسرعان ما عاودت نشاطها للحاجة إلى مواجهة الأوضاع الجديدة بعقلية نقدية استشرافية، وعادت بمستوى مؤسسات كبرى معنية بالمستقبل، تتصدرها "جمعية المستقبل العالمية" ومقرها مدينة وشنطن، و"نادى روما" ومقره أكاديمية ليتشى بروما. كما إنتشر تعليم المستقبل بالمدارس والجامعات كمنهج عقلانى فى النظر إلى المستقبل، يعمل على تحديد التغييرات المستقبلية المحتملة فى الحياة الإنسانية والعالم، وتحليلها وتقييمها، وتعليم الريادات المستقبلية، وإعداد قيادات المستقبل.

وها هى الولايات المتحدة الأمريكية – وهى بعد فى المركز الأول اقتصادياً وعسكرياً

---

(٤) المستقبلية هى إرتياد وتوقع لأحداث الغد المحتملة، مع تأملها ودراستها بمنهج البحث العلمى. وهى بحق محور التطور والنهوض الإنسانيين. وتقوم على قدرة الإنسان الواعية على تنظيم الأحداث الحالية فى ضوء الخبرات السابقة والأهداف المستقبلية. وتتطور أدواتها ومداخلها من أجل مواجهة المستجدات والتحديات التى تسببها التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية/ التكنولوجية. وتظهر تجلياتها فى تميز الأخطار والفرص المؤاتية، وإقتراح مجموعة متنوعة من تصورات الحلول والمساعدة، وتقديم بدائل للسياسات والأعمال. لذلك انتشرت فى معظم دول العالم مؤسسات "دراسة المستقبل"، ظهرت فى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا فى الستينيات، ولحق بهما العديد من دول العالم فى مختلف القارات. وتتكلف صناعة التنبؤات المستقبلية الآن حوالى ٢٠٠ مليار دولار فى السنة.

ومن المعروف أنه بدأ كمبحث علمى من بين المباحث المتعددة فى العلم الإجتماعى المعاصر. وكانت له مدرستان، واحدة غربية وظيفية Functional، وثانية ماركسية نقدية، بالإضافة إلى بحوث نادى روما الشهير. ويعتبر "إلفين توفلر" من أهم كتاب المستقبليات. وهو الذى أضفى على علم المستقبل شعبية واسعة. وهذا العلم، حالياً، نتاج عمل ميدانى متميز، يشترك فيه آلاف الباحثين المتخصصين والمثقفين ورجال السياسة، الذين يجرى استطلاع آرائهم وقياس إتجهاتهم، على غرار ما يحدث فى "المشروع الألفى" الذى تديره جامعة الأمم المتحدة فى طوكيو، ويصدر تقريراً سنوياً منذ سنوات باسم "حالة المستقبل".

وسياسياً - قد بدأت منذ سنوات، فى البحث، بكل يقظة وذكاء، عن عوامل الضعف وعوامل القوة فيها، وتخطط لاتجاه التغيير لتجديد المجتمع تجديداً شاملاً، يتفق مع العصر الجديد الذى إختفى فيه الاتحاد السوفيتى. ولقد دخل كلينتون إنتخابات عام ١٩٩٢ تحت شعار "تغيير أمريكا". وعبر بفطنة عن فلسفته التجديدية بقوله: إننى أرفض أن أكون جزءاً من جيل يحتفل بموت الشيوعية فى الخارج على حساب ضياع الحلم الأمريكى فى الداخل. وأرفض أن أكون جزءاً من جيل أخفق فى التنافس فى مجال الإقتصاد العالمى. وأرفض أن أقف موقف المتفرج وأدع أطفالنا يصبحون جزءاً من أول جيل يكون أسوأ حالاً من آبائه. ولا أريد لإبنى أو لأبنائكم أن يكونوا فى بلد فى سبيله إلى التفكك. ووجدت كلماته التى تعبر عن صحوة قومية على مستوى القيادة والحزب صداها وسط شعب لا يقل وعياً بأزمة مجتمعه، أو رغبة فى صحوة حقيقية تحافظ على صدارته للعالم، وانتخب كلينتون، وخذل بوش وهو فى قمة قوته، فقد بلغت شعبيته نسبة ٩٠٪ قبل الانتخابات بعام واحد.

وكما كان الحال، أثناء الحرب الباردة، حين دأب مفكروها ومخططو استراتيجياتها العسكرية على التخطيط البعيد المدى، بدءاً بنظرية "الإحتواء"، وإنتهاءاً "بحرب النجوم"، تواصل مجموعة من ألمع المفكرين محاولاتهم للكشف عن طبيعة المرحلة التى تمر بها الإنسانية الآن، ويحاولون اختراق حجب المستقبل لرسم صورة إجمالية للمناخ العالمى فى القرن الحادى والعشرين، بناءً على فهم عميق لتيارات التغيير الكامنة فى الثقافة العالمية المعاصرة. وقد خرجوا بكم هائل من الدراسات التى ترسم خطوط التغييرات الأساسية التى سيشهدها عالم الغد على مختلف المستويات. قد يكون بعضها بإيعاز من مخططى السياسة وأصحاب القرار لتعزيز قرارات يريدون اتخاذها محلياً أو عالمياً، أو للاستهلاك المحلى. وقد يكون بعضها أيضاً بمثابة بالونات إختبار لاستطلاع الآراء والتوجهات الهامة فى العالم، أو للتأثير على إدراك متلقيه فى مجتمعات معينة. وإن كان من الواضح أن بعضها يتسم بالموضوعية والصدق إلى حد الإنذار أو التنبوء بتقهقر الغرب نفسه وقرب أفول نجمه.

ولا يتوقع المرء أن تتفق هذه الكوكبة من المفكرين والعلماء فى رؤاهم المستقبلية، خاصة وأن مناهجهم ومقترباتهم متباينة، كما أن مدارسهم الفكرية متباعدة. فبعضهم ينطلق

برؤية شاملة لحصاد القرن العشرين، ونظرة ثاقبة لمكونات المناخ الدولى والثقافى فى المستقبل. فى حين يقدم البعض الآخر رؤى جزئية للمستقبل، بناء على مجموعة من الإفتراضات يتبناها. وهناك أيضاً من ينظرون إلى المستقبل من خلال العلاقات الدولية إهتماماً منهم بمشكلات الأمن القومى وإلقاء الضوء عليها. بينما يقترب بعضهم من منظور التحليل الثقافى وعمليات التفاعل بين الثقافات وأنماط التواصل. وغيرهم من منظور فلسفة التاريخ وحركته. وظهرت نظريات متعددة، من بينها واحدة لصموئيل هنتنجتون عن "صدام الحضارات"، وأخرى لفوكوياما عن "نهاية التاريخ"[٥]، تسببتا فى ردود فعل واسعة فى العالم، إلى جانب البلبلة، وربما شعور الصدمة والإحباط، وسط شرائح عريضة من المجتمعات.

على أن المؤكد هو النجاح البعيد لهؤلاء المفكرين والعلماء فى نشر الوعى بالمستقبل بين الجماهير، وإثارة خيالاتهم بأمل أن ينسلخوا عن الماضى، ويتجاوزوا الحاضر ليدخلوا فى المستقبل فاعلين ومتفاعلين فى عملية مساندة لصياغته، وأن تتشكل لديهم ملكة التنبوء به[٦]. كما نجحوا فى إقناعهم بأن العالم، الذى يعانى الآن من حالة "سيولة" و "عدم

(٥) وهى رؤية متعددة الأبعاد تنحاز للغرب بشدة، وتعنى بين ما تعنيه نهاية تاريخ الصراع بين الشرق والغرب، وبداية تاريخ الوفاق الذى ستسود فيه الديمقراطية والرأسمالية الغربية. فما إنتهى أو تجمد عنده هو الجدل بين التيارات العظمى المتناقضة، وإنعكاساته فى الواقع الإقتصادى والإجتماعى والسياسى فى العالم كله. فبعد سقوط الاستراكية لم يعد هناك مكان - فى رأيه - لجدل جديد يحرك البشرية التى لم يبق لها إلا الإنصياع المستمر للقوى والأفكار المنتصرة التى حسمت الجدل بمعناه الفلسفى.

(٦) ويتم التنبوء من خلال عدة طرق منها التنبؤات الاستقرارية للإتجاهات، التى تفترض أن الأحداث أو التطورات التى حدثت فى الماضى سوف تستمر فى المستقبل. والتنبؤات المعيارية التى تتعلق بإنجاز وتحقيق أحداث وظروف مفضلة مطلوبة فى المستقبل. والتنبؤات التفسيرية المتعلقة بالمستقبل الممكن والمقبول، والتى تبدأ بالأحداث والظروف الراهنة، وتعالج أى بيانات تاريخية ذات صلة بالموضوع، ثم تطرح النتائج البديلة المحتملة للأحداث والظروف المستقبلية. والتنبؤات الإلهامية، والتى يشار إليها "بدلفى" حيث كان "الإله أبولو" وإعلاناته الغيبية، وتشتمل على توقعات مستقبلية للخبراء فى مجال معين. وهناك تنبؤات رجال الله المنقادين بروح الله، الخاصة بأمور إجتماعية وروحية مستقبلية، محلية وعالمية، وتشد إنتباه الجماهير عادة.

وهناك فرق بين "التنبؤ" المستقبلى و "النظر العلمى فى المستقبل" بما يتضمنه من استشراف وتشوق ورؤية. فالتنبؤ المستقبلى غير محدود بمدى زمنى معين، أما النظر العلمى فلابد أن يكون محدداً، ويقدر مداه الآن بنصف قرن مع تقدم علم الدراسة المستقبلية وتطبيقاته. وهو أيضاً يتطلب منهجاً أو مناهج، منها الاسقرائى الذى يتناول الماضى والحاضر ويستقرئ المستقبل، والمثالى الذى يتحدث طوبائياً عن يوتوبيا كما فعل توماس مور، أو عن مدينة فاضلة كما فعل الفارابى، وقبلهما كان أفلاطون.

وفى منطقتنا توجد دراسات مستقبلية لجمال حمدان وردت فى كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرر"، وأخرى لقسطنطين رزيق فى كتابه "نحو المستقبل".

يقين" ، هو على مشارف عهد جديد يوصف بالعصر الكونى أو الكوكبى Globalism، يبشر بقيم إنسانية عامة مازالت فى طور التكوين، وسيكون بمثابة حركة متدفقة لا يستطيع أحد أن يظل خارج مجالها المغنطيسى.

وتقوم هذه **الكونية** على أربع عمليات أساسية هى المنافسة بين القوى العظمى، وعولمة الإنتاج والتبادل، والتحديث بكل صوره، والإبتكار التكنولوچى. فبطل الزمان القادم هو المبتكر ذو المعرفة، ومن يمتلك المعرفة يمتلك المستقبل.

وتتجسد قوانينها فى أربعة ظواهر هى رأسمال يتحرك بغير قيود، وبشر ينتقلون بغير قيود، ومعلومات تتدفق بغير عوائق أو سدود(٧)، وحدود جغرافية لم تعد حدوداً. وهى أيضاً عملية تاريخية تشهد إنتقال المجتمع الإنسانى من عهد الدول المنفردة أو الكيانات الإقليمية، إلى عهد جديد سيشتد فيه التفاعل والتلاحم العضوى بين الدول والكيانات الإقليمية والثقافات الوطنية، ويشهد تعمق التفاعلات الاقتصادية بصورة غير مسبوقة، وتعاظم ممارسات الشركات العابرة للقارات[٨] ونشاطها الدولى الواسع. وعلو آفاق الإعلام[٩] الدولى، الذى أصبح له من الفاعلية والانتشار ما لم يكن يتوقعه أحد قبل ربع

---

(٧) وبينما كان معدل تدفق البيانات أوائل القرن العشرين ثلاثين كلمة فى الدقيقة، إرتفع إلى ٦٦ فى منتصف القرن، وإلى ١٩٢ ألف أوائل التسعينيات عبر الحسابات الآليه - وسوف يتطور إلى ٥ر١ تريليون كلمة فى العقود الأولى من القرن الحالى.

(٨) والتى قدر حجم تجارتها عام ١٩٩٦ بنصف تجارة العالم، كما يمثل إنتاجها قرابة نصف إنتاج العالم. ومن بين ٥٠٠ شركة عالمية، إجمالى ثروتها ١١٤٣٥ تريليون دولار، إحتلت شركة چنرال موترز الأمريكية صادرات القائمة بعائدات بلغت ٣٧ر١٦٨ مليار دولار (عام ١٩٩٦)، جاءت بعدها شركة فورد بعائدات ٨٩ر١٦٤ مليار دولار، وتلتها اليابانية ميتسوبا بـ ١٤١ مليار دولار، فميتسوبيشى اليابانية أيضاً بعائدات قدرها ٢ر١٤٠ ملياراً. وتملك أمريكا من هذه الشركات ١٦٢ شركة، واليابان ١٢٦ وفرنسا ٤٢ وألمانيا ٤١ وبريطانيا ٣٤ شركة. ومع نهاية القرن قفزت شركات تكنولوچيا المعلومات الأمريكية إلى المقدمة فى الأرباح والعائدات.

(٩) وقد صار لإنسان العصر اسم علمى جديد هو Homo Informaticus، نتيجه للطفرة المعلوماتية الجبارة التى يدخل بها العالم القرن الحادى والعشرين، من شبكات الإعلام الإلكترونية، وعلى رأسها الإنترنت، التى لم تعد تفصل أطرافها المسافات، مكانية كانت أو زمانية. فقد تهيأ لهذا الإنسان أن يعلم كل شئ، وأن يكون ملماً بأى حدث بمجرد حدوثه أينما وجد. وأن يتصل فوراً بأى موقع آخر فوق سطح الكوكب وأن يحصل على أى كتاب نشر، وعلى أية معلومة يريدها، وأية صحيفة فى أى مكان. كما أن "أنظمة التبادل عن بعد" تجعل العلاقة بين أى مُنتج وأى مستهلك علاقة مباشرة لا شخصية، تعتمد على الأجهزة التى تعمل من خلال الرموز والأرقام. وبمقتضى هذا فالعملية التعليمية، مثلاً، يمكن أن تستمر بدون وجود المدرس والمدرسة بشكلها التقليدى، إذ يتسنى للطالب الحصول على المعلومات مباشرة من المكتبة الرقمية وشبكات المعلومات =

قرن مضى، فتقنياته تزداد تقدماً يوماً بعد آخر، ومنتجاته المرئية، على وجه الخصوص، تتسع إنتشاراً وتؤثر على ثقافات الشعوب التى تستهلكها تأثيراً بعيد المدى.

وقد وصلت فعلاً إلى مشارف التقنين فى بعض المجالات الحيوية، وأهمها المجال الإقتصادى والتجارى، خصوصاً بعد تكوين منظمة الجات WTO، والتى ستتأثر بتطبيقها عام ٢٠٠٥ نوعية الحياة لكل شعوب العالم تأثيراً بالغ العمق(١٠).

وفى موازاة هذه التنبوءات ينهض الفكر القائل:

١ - بنهاية مرحلة الحداثة، أى أن مشروع الحداثة الغربى الذى بدأ فى أوروبا منذ عصر التنوير فى القرن ١٨، والذى صاغه مؤسسو فكر الحداثة الأوائل، على مجموعة أسس أهمها الفردية والعقلانية والاعتماد على العلوم والتكنولوچيا، وعلى معادلات أساسية كمعادلة السلطة والقانون والحقوق والواجبات، هذا المشروع قد إنتهى بل وانهار. وأنه -أبعد من ذلك - قد أفلس وأوصل الإنسانية إلى أزمة روحية وإجتماعية وإنسانية، من بين

= (الإنترنت)، فيقتصر دور المدرس على التوجيه والإرشاد. وفوق ذلك تتعاون الآن مجموعة شركات لإنتاج "سوبر كمبيوتر" يكون بمثابة دائرة معارف Encyclopedia يستطيع الإجابة عن أى سؤال إجابة مقنعة وعاقلة، واستيعاب المعلومات، وفهم ما يقال له، والترجمة من لغة إلى أخرى، إلى جانب قراءة الصحف. ومن المتوقع قريباً (عام ٢٠١٠) أن يتمكن الذكاء الصناعى من إنتاج كمبيوتر تفوق قدرته المعرفية والحسابية قدرة العقل البشرى، وتطوير روبوت مفكر أقوى بملايين المرات من أجهزة الكمبيوتر الحالية.

وبرز أيضاً اصطلاح "الأبارتهيد Apartheid" إشارة إلى التفرقة القائمة الآن - والتى ستتزايد مع الأيام - بين المتنفعين بالثورة المعلوماتية وبين "الأميين الجدد" المحرومين منها، والمنتشرين فى قطاعات واسعة فى العالم الثالث. وذلك بسبب عدم توافر "البناء التحتى" كالكهرباء والتليفون لإلحاقهم بهذه الثورة بربطهم بشبكة إنترنت. ولهذا برز اصطلاح "مشروع مارشال إلكترونى" يتعاون من خلاله المتنفعون بهذه الثورة بالمال والخبرة، لمد شبكات الكهرباء والتليفون إلى تلك المناطق حتى لا يتحول سكانها إلى كتلة بشرية "لا ضرورة لها"! وقد تعهد قادة الدول الصناعية الثمانى، فى مؤتمرهم (يوليو ٢٠٠٠) بتضييق هذه الفجوة المعلوماتية. ورصدت اليابان ١٥ مليار دولار لهذا الغرض، تصرف على مدى عشر سنوات. ومن المعلوم أن هذه الثورة المعلوماتية، التى تنهض أساساً على رقائق السليكون، مازالت فى بدايتها، وسيمتد التطور لكى تندمج فى التغيرات الجارية مع مجال الهندسة والتصنيع، والتى ستؤدى إلى تصنيع نماذج متطورة من الإنسان الآلى فى صورة آلات ذكية قادرة على إتخاذ قرارات مع ما يسمى "النانوتكنولوچى"، والتى تتضمن القدرة على التحكم فى القرارات الفردية، وأيضاً تصنيعها بصور تتيح تشكيل آلات صغيرة بالغة التركيب.

(١٠) وتثير الآن مخاوف البلاد النامية وفقراء العالم عموماً. وحاصر إجتماعاتها فى "سياتل" جمهور المتظاهرين الغاضبين ضد سياساتها المؤدية إلى زيادة فقر الفقراء وإزدياد أعدادهم فى العالم. كما تظاهرت ضدها حشود كبيرة أواخر يوليو ٢٠٠٠ فى كل من مدينتى لوس أنجيلوس وفلادليفيا الأمريكيتين، بمناسبة إنعقاد مؤتمرى الحزبين الجمهورى والديمقراطى، وطالبت بالحد من سلطتها.

مظاهرها الراهنة أزمة الدولة القومية وإفلاسها، وإندلاع الثورات العرقية، وشيوع الحركات الإنفصالية، وبروز ظواهر الإحياء الدينى فى الديانات الثلاث، إلى جانب إثارة الصراع الطبقى، والتدمير غير الواعى لكل البنى الإجتماعية والثقافية الموروثة، كمؤسسات الأسرة والعمل الحرفى الصغير، والتوسع فى الاستغلال غير المقيد لقوى العمل وموارد الطبيعة. وقد برز مصطلح "التحديث الإنعكاسى Reflexive Modernization"، الذى صاغه عالم الإجتماع الألمانى "أولريخ بيك"، بإعتباره عملية إنتقاد لحركة الحداثة تلك، مع العمل على تصحيح مسارها بتصحيح أخطائها وخطاياها العديدة، وتوجيهها إلى أهدافها العاقلة والعقلانية، بما فى ذلك تحقيق العدل الاجتماعى والسياسى، وانتشار المساواة والإخاء والحرية، مع العمل على تنمية متوازنة لثروة المجتمع مما يحافظ على كل من علاقة الإنسان بالطبيعة وحماية البيئة الطبيعية، والحفاظ على القيم العليا فى إطار حكم القانون.

٢- وإن الإنسانية الآن، وبفضل ثورة معرفية عارمة تتميز بالشفافية، هى على شفا حقبة ما بعد الحداثة، التى يُرجى أن تحكمها مبادئ مغايرة، يكون فيها إنتصار للإنسان على كل القيود التى فرضتها الدولة القومية[١١]، ومؤسساتها السياسية والثقافية والإعلامية التى حاولت توحيد أو تنميط conforming مجتمعها السياسى والإجتماعى، وتشكيل عقل الإنسان، بالإكراه والقهر، وتجاهلت الخصوصيات الثقافية[١٢]. وأن تضمن للإنسان

(١١) فى نهاية القرن الخامس عشر أسهمت المطبعة، التى إخترعها جوتنبرج، فى إنهيار سلطة البابوية على النفوس، والإمبراطورية الرومانية الجرمانية على الأجساد، وبدأت مرحلة جديدة من الإصلاح والنهضة وصعود القوميات. وبداية من منتصف القرن التاسع عشر أدت شبكات التلغراف وخطوط التليفون، ومعها السينما بداية من أوائل القرن العشرين، إلى تغييرات فى الجغرافيا السياسية للعالم، وللتركيبات الاقتصادية والاجتماعية. وقبل أن يرحل القرن العشرون تربعت الإنترنت لتشكل ثورة تكنولوجية/ معرفية ذات أبعاد أكبر كثيراً من الإختراعات السابقة.

(١٢) هناك من يرى أن التطور التكنولوجى الهائل فى مجال المعلومات والإتصالات، قد يكون على العكس له جانب سلبى على الحرية الشخصية للفرد لقدرة أجهزته على أن تقتحم العقول وتخترق الصدور لتعرف ما فى أعماق الإنسان، بحيث يصبح الإنسان مكشوفاً ومخترقاً لكل من يرصده، مما يعنى الحد وربما القضاء على حريته، فيؤدى فى نهاية المطاف إلى ظهور "إنسان نمطى" بذات ملغاة وإبداعات محدودة. فبدلاً من إتساع مساحة الحرية كما يُروّج تنكمش وتتقلص وينتهى الأمر إلى إنسان مقهور الرأى ومقمع الفكر. ومن هنا جاءت الدعوة لديمقراطية المعلومات التى تنهض فى أحد جوانبها على حماية خصوصية الأفراد، بمعنى صيانة حياتهم الخاصة وحجبها عن الآخرين. إلى جانب حقهم فى استخدام شبكات المعلومات المتاحة وبنوك البيانات لقاء مقابل معقول.

إنفتاح كافة الخيارات أمامه، فى إطار من التعددية الفكرية الطليقة التى لا يحدها أى حدود، ومن حرية العمل السياسى بآليات ليبرالية جديدة. بحيث ينشأ إنسان جديد يتوقع علماء النفس والاجتماع له أن يتسم بحب الاستطلاع الشديد، وتتولد لديه طرق جديدة لإدراك العالم من حوله وتنظيم خبراته، ونشوء طرق جديدة للتفكير لديه تتميز بالمرونة والحركة والتكاملية لتمكينه من معرفة الكثير من الأمور فى أقل وقت ممكن كما يكتسب طرقاً جديدة لإنشاء صداقات جديدة والارتباط بالناس.

٣- ويصير للمجتمع إسم جديد هو "المجتمع الشبكى أو المشبك Network Socity "[(١٣)] أو العنكبوتى، يتواصل بين عناصره بواسطة موجات الأثير التى لا تحدها قيود أو عوائق، بحكم أسلوب المشاركة فى المعلومات بل وفى الملفات أيضاً، مما يؤدى إلى بروز طرق تفكير جديدة فى إدارة المؤسسات والأسواق وتنظيم عمل الشركات الكبرى، وفى مجالات الإنتاج والأنشطة الاقتصادية والتجارية، بحيث تقاس "التنافسية" بالقدرة على سرعة الإتصال مع الآخرين. فمثلاً عبر ضغطة واحدة على لوحة المفاتيح يحول المستثمر أمواله من سوق إلى أخر. كما يؤدى إلى خلق علاقات وتحالفات دولية وإقليمية جديدة، قوامها هذه المشاركة المعلوماتية وفق قواعد معينة، منها إعادة تدوير المعلومات الدفاعية بين أطراف التحالف. وبالتالى إدارة الصراعات وتحديد أساليب معينة لمنعها فى منطقة محدودة، من خلال بناء الثقة وشفافية المعلومات المتعلقة بما تقدم عليه أى دولة لتحديث قدرتها العسكرية. أى أن تقنيات الاتصال ومعارفها وتطبيقاتها تحل محل القوة المادية المطلقة كالأسلحة وقدرات النقل. وسوف تعتمد عليها حروب المستقبل، والتى تعرف الآن بحروب "الموجة الثالثة"، بحيث يتوقف طريق الإنتصار وإلحاق الهزيمة بالعدو على شل أجهزة معلوماته ونظمه الخاصة بإصابتها بفيروسات مثلاً. كما يدور الآن

---

(١٣) إرتفع عدد العاملين فى هذا المجتمع من مليون فى مطلع التسعينيات إلى ٥٧ مليوناً فى خلال خمس سنوات، مما يدل على سرعة تطوره ونموه. وإقتصادياً، يمثل قطاع المعلوماتية حوالى ١٠٪ من إجمالى الدخل العالمى، متجاوزاً قطاع السيارات الذى يزيد عمره على قرن من الزمان. كما ظهرت طبقة من شباب المليونيرات الذين مكنتهم ثورة المعلومات من تكوين ثروات ضخمة وهم بعد شباب. ويشار إليهم بـ Bobbs وهى كلمة مكونة من كلمتى برجوازية وبوهيمية فى الإنجليزية. علماً بأن أهم مصدر للثراء فى العالم الصناعى الآن هو صناعة الالكترونيات وتكنولوجيا المعلومات. فأغنى أربعة رجال فى العالم من أهل هذه الصناعة فى الولايات المتحدة.

الحديث عن الغارات الإلكترونية التى تحدث نوعين من القتل، أحدهما ناعم يتم بإحداث التدمير النفسى للخصم، وذلك ببث صور حقيقية أو مفتعلة من شأنها القضاء على معنوياته. وافتعال "الواقع الظاهرى"، أو المتخيل صار ممكناً بفضل تقنيات ثورة الاتصال. فبإمكان التليفزيون أن يبث شريطاً عن استسلام جيش لم يستسلم، أو تدمير معسكرات ومخازن أسلحة لم تدمر. أما النوع الثانى من القتل فهو الصارم ويعتمد على الصواريخ الذكية التى تطلق باتجاه أهداف بذاتها دون طيار، وهى مزودة بجميع التعليمات اللازمة لبلوغ هدفها.

- ٢ -

وهذه التنبوءات الوردية لا ينبغى أن تصرف الأذهان عن غيرها مما يحمل إنذارات أو ينطوى على محاذير. فالنمو السكانى ودرجات النمو الحضرى يعتبران واحداً من أهم المتغيرات المستقبلية، والتى ستؤثر تأثيراً بالغاً على الأمن الداخلى والخارجى للدول. وتتوقع أغلب التنبوءات الديموجرافية أن يثبت عدد سكان العالم عند رقم بين عشرة وأحد عشر بليوناً من البشر، أى ضعف عددهم فى الحاضر(*). وهذا التضخم السكانى، وخاصة الحضرى حيث من المقدر أن يعيش نصف سكان العالم فى مدن عام ٢٠٠٥، سيولد ضغوطاً ضخمة فى البيئة العالمية، وعلى رأسها المناطق النامية، تؤدى فى جانب منها إلى تعجيل التدهور البيئى. وتخلق ندرة فى الإسكان وفى الطعام والماء فتتفاقم مشكلة الجوع، وفى العمل أيضاً فتتصاعد مشكلة البطالة. وتتسبب فى الإزدحام الخانق حيث يلتقى البشر. ويترتب على هذه النتائج الثلاثة، إذا ما تزامنت مع عوامل أخرى مثل تدهور الشرعية وقدرات وكفاءة الإدارات الحكومية وتقلص سلطات الحكومات القومية، إزدياد التململ والسخط، ومعدلات العنف والجريمة، بحيث تصبح الجريمة بالذات من أهم مصادر التهديد للمجتمع والدولة المعاصرين.

(*) ويقدر الآن بستة مليارات نسمة. وأكبر الدول من حيث السكان هى: الصين ١ر٢ مليار، الهند مليار، الولايات المتحدة ٢٧٥ مليون، أندونيسيا ٢١٢ مليوناً، البرازيل ١٧٠، باكستان ١٥١، اليابان ١٢٧، نيجيريا ١٢٣ مليوناً.

ويتشكك "بول كيندى" فى قدرة سحر التكنولوچيات[١٤] الجديدة على تغيير الكون، كما يردد كتّاب المستقبليات، وينبه للخطر الذى يحاصر الإنسانية، وإلى الفجوة القائمة بين الشمال والجنوب، والتى ستتسع أكثر فأكثر. فبينما يعانى كل من نصفى الكرة الأرضية من مشاكل متباينة، تحاصر الشمال الصناعى المتقدم وتهدد الجنوب الفقير سواءً بسواء، فإن قليلين هم الذين يدركون أن هذه المشاكل أو الآفات متصلة[١٥]، بحيث لم يعد ممكناً تصور حلول لها فى الشمال بمعزل عن الجنوب أو العكس. كما أن الأمل ضعيف فى أن يؤدى هذا الإدراك إلى التوصل إلى سياسة كونية عامة أو مشتركة. ولا يعود هذا العجز إلى نقص الإدارة الكونية، أو سوء النية فى الشمال أو التقاعس فى الجنوب وحسب، بل لأن التحدى ذاته جديد على أجهزة الشمال والجنوب.

وإذا كان كيندى يشكك فى إمكانيات التكونولوچيا، فإن العالم الإمريكى "بيل جوى" مؤسس شركة "ميكروسيستمز" يحذر من أن التطورات العلمية والتكنولوچية قد تقود إلى إنقراض الجنس البشرى بيولوچياً، أو تنتهى بالناس إلى حالة "لا إنسانية"[١٦].

---

(١٤) فالتغييرات التكنولوچية لها آثارها السلبية إلى جانب الإيجابية. فقد تؤدى إلى إنتشار مصادر جديدة للتهديد فى صورة قدرة بعض الجماعات والأشخاص على الهجوم على نظم المعلومات القومية والدولية، وهو ما حدث فعلاً بنشر ڤيروسات الكمبيوتر. أو تتيح للأفراد والمنظمات العنيفة طريقاً لتحقيق أهدافها بالتواصل والتعاون ونشر الأفكار المنحرفة عبر شبكة الإنترنت. يضاف إلى ذلك الثورة البيولوچية التى هبت فى الهندسة الوراثية، والتى تنزع لتصنيع كيانات جزء منها آلات والجزء الآخر كائنات حية. وسيكون بإمكانها فى منتصف القرن الحالى أن تخلق أشكالاً جديدة من الحياة، واستطاع العلماء فعلاً إعادة تركيب مواد چينية بين الإنسان والحيوان والنبات لتخليق أنواع جديدة من الكائنات لم توجد من قبل. ومن شأن هذه الثورة البيوتكنولوچية أن تجلب آثاراً خطيرة سياسية وإجتماعية وأخلاقية، وقد تفتح "باب الشيطان" كما يقولون، إذا ما بدأت بوادر التلاعب فى القوانين العامة للطبيعة الإنسانية، مع تجاهل النواميس الإلهية والقيم الأخلاقية.

(١٥) فالإنفجار السكانى، مشكلة الجنوب، يتسبب فى الهجرة التى تمثل مشكلة للشمال.. وهكذا. وتتمثل مشاكل الشمال فى تناقص عدد المواليد، وإرتفاع نسبة الشيخوخة، وتزايد الهجرة غير المشروعة، وتفكك نظام الأسرة، إلى جانب مشاكل المخدرات والإرهاب والأمراض والبطالة وغيرها. ومن مشاكل الجنوب تزايد السكان بمتواليات هندسية (كما توقعها روبرت مالتوس)، وتناقص الأرض الزراعية وما يصاحب هذا من مجاعات وأمراض، وحروب وتصفيات عرقية. إلى جانب تضخم الديون الخارجية وتفاقم الفقر، والأمراض، والتخلف المعرفى والتكنولوچى.

(١٦) وقد قرر "فرانسيس فوكوياما"، الكاتب الأمريكى، فى كتابه الأخير "الإنهيار العظيم" أن التكنولوچيا، وخاصة ثورة المعلومات والإتصالات، قد أدت، خلال النصف الثانى من القرن العشرين، إلى إنهيار عظيم فى القيم الإجتماعية فى المجتمع الأمريكى وغيره من المجتمعات المتقدمة، وإلى إنخفاض مستويات السلوك الأخلاقى وإلى العديد من التشوهات الإجتماعية والنفسية. (أنظر صفحة ٢٣٨، ٢٣٩ من الكتاب).

وقد سبقه "چون ليزلى" فحذر ضد الإنسياق وراء شهوة التقدم التكنولوچى التى قد تؤدى إلى إنزلاق الجنس البشرى السريع نحو هاوية الفناء والإنقراض. و "ليزلى" فيلسوف أمريكى وخبير بالعلوم الكونية والطبيعية، ويفكر بمنهجية الفيلسوف "براندون كارتر" صاحب جدلية "يوم القيامة" التى تقدر عام ٢٠٩٠ لنهاية العالم. فالسباق النووى والتجارب الفيزيائية شديدة الطموح، والسباق نحو غزو كواكب أخرى بفضل التقدم العلمى السريع، قد يجر إلى إندلاع حرب نووية، أو ثقوب هائلة فى طبقة الأوزون، أو زرع وتفشى أمراض غريبة بما تطوره الهندسة الوراثية. إلى جانب أخطار الحروب الكيماوية والبيولوچية، التى تعتبر أكثر خطورة من النووية لسهولة وقلة تكاليف إنتاجها، وأخطار الإرهاب والجريمة المنظمة، وأخطار غير معروفة مثل الإنفجارات البركانية وغزو المذنبات. فهذه أو بعضها قد يعرض البشر للإنقراض!.

ويضم "بريجنسكى" مستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق، صوته إلى جمهور المحذرين من التفاؤل الزائد والاستغراق فى الأحلام ونحن ندخل القرن الحادى والعشرين. فالقرن العشرون سبق أن ولد فى جو من الأمل، وكان المزاج عام ١٩٠٠ يتسم بالتفاؤل بصفة عامة، باعتباره بداية عصر العقل والحكمة والرشد. وكان نظام القوة الدولية يبدو مستقراً، والثورة العلمية تبشر بمستقبل أفضل للجنس البشرى، وحققت فعلاً إكتشافات وإنجازات مذهلة. ولكنه سرعان ما تحول ليصبح أكبر القرون دموية وإثارة للكراهية، وقرناً لسياسات القتل الجماعى والقسوة المتناهية، قاربت ضحاياه مائة مليون قتيل بخلاف الجرحى والمفقودين. ويضيف "تشارلز تايلور" الكاتب الأمريكى، فى دراسة صدرت عن المعهد الأمريكى للاستراتيچية العسكرية، أن الاستقطاب الأيديولوچى السياسى والإقتصادى سيستمر كما كان فى نهاية القرن العشرين، وسيستمر إنتشار الأسلحة التقليدية والكيماوية والبيولوچية، وسيزداد عدد الدول الذرية وإنتشار الأسلحة الذرية، وستصبح الموضوعات الكونية عام ٢٠١٠ أكثر تعقيداً.

هذا إلى جانب الكتابات التى تصدر فى منطقتنا، والتى تشكك فى نوايا الولايات المتحدة الأمريكية، وتشير إلى سعيها الدءوب إلى الهيمنة على العالم. وتستند فى ذلك إلى ممارساتها فى منطقتنا وموقفها من الصراع العربى الإسرائيلى، وإلى أبحاث وكتابات

متعددة تصدر فى أمريكا ذاتها، منها على سبيل المثال كتاب قديم بعنوان "جوهر الأمن" لروبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكى فى الستينيات، وآخر حديث بعنوان "الحرب القادمة" لوزير الدفاع الأسبق "كاسبر واينبرجر"(١٧). إلى جانب إستراتيجية تضمنتها وثيقة تسربت عام ١٩٩٥ تحت اسم "دليل التخطيط الدفاعى الأمريكى للبنتاجون"، وخطة صدرت عن مؤسسة كارنيجى للسلام عام ١٩٩٣، وكتاب "التقييم الاستراتيجى لعام ١٩٩٧" والذى شارك فى إعداده خبراء من وزارتى الدفاع والخارجية الأمريكيتين. وتتفق هذه الكتب وغيرها - وإن إختلفت فى مقترباتها - على أمور معينة منها تنبيه بلادها إلى مناطق التوتر فى العالم ومدى تأثيرها على مصالحها، وإلى ضرورة الإبقاء على قوتها العسكرية المتفوقة بإعتبارها القوة الأولى والوحيدة فى العالم، وعلى درجة استعدادها وتأهبها لكافة الإحتمالات، والتعامل مع كل منطقة ومع كل حالة بالطرق التى تكفل حفظ الاستقرار ودرء المعتدين، وذلك بوسائل تتراوح بين الردع العسكرى، والترويض بالدبلوماسية الهادئة، بحيث يتحقق لأمريكا الهيمنة العالمية وجعل القرن الأمريكى يمتد إلى الحادى والعشرين. وإن كان السبيل الأوثق هو أن تتحكم أمريكا فى القطاعين التكنولوجى والمعلوماتى وتسيطر عليهما فى العالم، كما تسيطر على خطط التنمية فى مختلف المجتمعات بما يعرف بأساليب "التنمية الأسيرة"، وذلك عن طريق رسمها لهذه الخطط من خلال قناة ورؤية توفرهما المراكز الأمريكية المتخصصة، بحيث تتحرك هذه المجتمعات نحو ما تتصوره أهدافها فى خطوط توفر لأمريكا إحكام سيطرتها عليها وعلى مستقبلها وحصارها لها. وإن كان الجانب الأمريكى يطلق على هذه الأساليب إستراتيجية "الهيمنة الهادفة للخير"، بإعتبار أمريكا - كما يروج ساستها - الدولة القائدة والتى لا غنى عنها والقادرة على إدارة وحل الأزمات، وأنها دولة خيِّرة تسعى لخير المجموع(١٨)،

---

(١٧) ويضم الكتاب - الذى شاركه فى تأليفه "بيتر شوزر" - خمس سيناريوهات قد تدخل أمريكا بسببها فى حروب لم تعد العدة لها، أولاها عام ١٩٩٨ وآخرها عام ٢٠٠٠، وإحداها حرب فى الخليج العربى عام ١٩٩٩ تبدأها إيران بالهجوم على دولة الإمارات! وقد أثار الكتاب قلقاً وبلبلة فى الأوساط العالمية.

(١٨) وتقول مادلين أولبريت، وزيرة خارجية أمريكا «إن قامتنا أعلى من الآخرين لذلك فنحن نرى أبعد مما يرون». ويضيف "لورانس سامرز" نائب وزير المالية، قوله إن أمريكا هى أول قوة عظمى غير استعمارية فى التاريخ! ونسى طبعاً أن الإستعمار قد تغير مفهومه كما تغيرت وسائله وأساليبه.

وهو أمر كثيراً ما تفشل فى إقناع الغير به بسبب "الإزدواجية" التى تطبقها فى تعاملاتها مع دول العالم، والتى يعرفها العالم العربى جيداً.

صحيح أنه من غير الصواب لوم الحكومة الأمريكية، أو أية حكومة أخرى فى مقامها، على سعيها إلى تحقيق مصالح شعبها وتوفير أسباب الرفاهية والأمن والاستقرار له، وضمان تقدمه وصدارته بين كافة الشعوب، طالما أن هذا بإمكانها تحقيقه. فهذه مهمة الحكومات الأساسية، وخاصة الديمقراطية منها، التى يرتبط بقاؤها فى السلطة على درجة إرضائها للذين ينتخبونها. ولكنه من غير الصواب أيضاً عدم لومها، والتنديد بها، إذا ما سعت إلى الهيمنة حباً فى الهيمنة والسيطرة، أو إذا ما حاولت تحقيق ذلك على حساب غيرها من الشعوب، وإهدارها لحقوقهم، أو حرمانهم من حق السعى لتحقيق نفس الأهداف لأنفسهم(*).

وعلى أية حال فقد بدأ تحدى[١٩] هذه الهيمنة وحيدة القطب، حتى لا تتحول "العولمة" إلى الأمركة. فأوروبا تحاول منذ وقت أن تثبت وجودها، وأن تتوازن بتكتلها وقوتها الاقتصادية وخبراتها التاريخية والسياسية والدبلوماسية، مع الثقل الأمريكى. كما أنها لا

(*) يشير بعض كتابنا إلى العولمة على أنها "أسطورة" فرضها التفوق الأمريكى الساحق، وقدراته المؤثرة سياسياً وعسكرياً وإقتصادياً وتكنولوچياً، على النخب السياسية والإقتصادية والثقافية فى الشمال والجنوب، رغم متناقضاتها وتعارضاتها وسلبياتها. ومنها إغتصاب الشرعية الدولية ومؤسساتها وآلياتها، والسيطرة على إقتصاديات الدول الفقيرة من خلال خدمة الديون وبرامج فرض الإستجابة لمتطلبات السوق العالمية على حساب متطلبات التنمية الوطنية بإشراف صندوق النقد والبنك الدوليين؛ والتخريب من خلال الحرية الفوضوية المكفولة لرأس المال الأجنبى والتميز والضمانات الفاضحة المكفولة له، وحقه فى إختراق الأسواق التى تحتكرها الدول الغنية دون إطلاق حرية إختراق العمالة لحواجز الحدود، وحرية التجارة بطريق مرورها ذى الإتجاه الواحد والذى لا فرصة فيه لمرور الضعفاء.

(١٩) وهذا فى الواقع ما تنبأ به بعض الكتاب وأساتذة العلوم السياسية من الأمريكيين، أمثال كريستوفر لين وكينيث والتز، الذين توقعوا أن يؤدى إصرار بلادهم على أن تكون القوة العظمى الوحيدة إلى تحريض دول أخرى على تحديها، والعمل على استعادة ميزان القوى الدولى فى مواجهتها، سواء منفردة أو متحالفة ومتكتلة. ولقد تنبأ هنرى كيسنجر، وزير خارجية أمريكا الأسبق، أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية واحدة ضمن عدد من القوى الكبرى المتساوية فى قيادة النظام الدولى القادم. وتضم قائمة الدول المرشحة لذلك اليابان وألمانيا والصين والإتحاد الأوروبى وروسيا حين تسترد عافيتها.

ويؤكد هذا الإتجاه الكاتب الفرنسى، بيير بيارنيه، فى كتابه بعنوان "القرن الحادى والعشرون لن يكون أمريكياً"، مشيراً إلى أن الهيمنة الأمريكية، أو الإحتكار الأمريكى للعالم، والذى تكرس فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن الماضى، هو أمر زائل لا محالة.

تخفى نفورها من محاولات الهيمنة الثقافية الأمريكية[٢٠]، خاصة عن طريق هوليوود وإنتاجها السينمائى. وقد صدر كتاب حول هذا الموضوع لأحد كبار المنتجين السينمائيين البريطانيين، هو السير "ديڤيد بوتنام"، بعنوان "حرب غير معلنة"، يحذر فيه من محاولات السينما الأمريكية القضاء على الهوية الأوروبية.

وبعدما أعلنت روسيا والصين مشاركتهما الاستراتيجية فى عام ١٩٩٦، وقع زعيما البلدين فى موسكو (أبريل ١٩٩٧) على معاهدة لخفض القوات المسلحة على الحدود المشتركة بينهما، وعلى بيان سياسى غير مسبوق فى تاريخ علاقات البلدين، أعلنا فيه صراحة رفضهما لانفراد أمريكا بسيادة العالم[٢١]، وهو ما يعنى محاولة تغيير خريطة العالم الحالية، وإعادة التوازن إلى موازين القوى فيه، ودعمه للتعددية القطبية فى قيادة العالم. وإتفاقية "الشراكة الاستراتيجية" الروسية الصينية هذه مرشحة للتوسع إلى الهند وجمهوريات آسيا الوسطى فى المستقبل، مما يدعم هذا المحور فى جهوده لإعادة "الصواب" والتوازن إلى العالم. وكان رد الفعل لهذه التحركات صدور أكثر من كتاب أمريكى، فى الآونة الأخيرة، يحذر من الصراع القادم بين أمريكا والصين، وإرتفاع الأصوات التى تنصح بعدم الاستثمار الأمريكى فى الإقتصاد الصينى.

وهناك، كما يبدو لنا، سيناريو مستقبلى من ثلاث حلقات سيفرض نفسه فى القرن الحالى:

---

(٢٠) ومن صورها ما حدث فى فرنسا مؤخراً، حين إعتدى عشرة من المزارعين النقابيين، فى مدينة "ميو" بالجنوب الفرنسى، على سلسلة مطاعم ماكدونالدز بإعتبارها رمزاً لفرض الهيمنة الثقافية الأمريكية على العالم. ويتزعم الحركة "جوزيه بوڤيه" مؤسس فدرالية المزارعين فى أوروبا. وهو مناضل صعب المراس، كان من متزعمى مظاهرات مدينة سياتل الأمريكية ضد منظمة التجارة العالمية (نوفمبر ١٩٩٩). وصدر له مؤخراً كتاب بعنوان "العالم ليس سلعة"، يشدد فيه على أهمية الزراعة والطعام الجيد، وينعت أطعمة ماكدونالدز ومثيلاتها بالأطعمة الرديئة النمطية غير الصحية، ويدعو إلى مقاطعتها.

والمعروف أن الشرارة التى أطلقت هذه الحركة هى الإجراءات العقابية التى إتخذتها الولايات المتحدة ضد وارداتها من الجبن الفرنسى "روكفور"، مما أثار مربى الأغنام وعمال مصانع الجبن. وتمثل مدينة "ميو" ومنطقتها مركزاً مهماً لإنتاج الجبن الروكفور. أى أن تعارض المصالح الرأسمالية وتضاربها قد يدفعان المضار إلى صياغة مبادئ أو قيم يقاوم بها ما يراه طغياناً أو إفتئاتاً.

(٢١) وقد زار الرئيس الفرنسى جاك شيراك الصين، عقب صدور هذا البيان بأيام قليلة، وأعلن مع الزعيم الصينى رفضهما أية محاولة للسيطرة على الشئون العالمية من جانب قوى كبرى واحدة.

١- يستمر إنفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة والسيادة، طوال الفترة الإنتقالية الحالية لعدم وجود منافس حقيقى لها، بينما يتخلق النظام العالمى الجديد فعلاً فى رحم الزمن وكوكبنا.

٢- ثم يدخل العالم فى فترة إنتقالية أخرى، من نوع آخر، خلال العقود التالية، تتميز بسقوط الأقنعة فى عملية الصراع ضد الهيمنة وحيدة القطب، وبروز أقطاب قوية تتحول إلى قوى عظمى تبحث لنفسها عن دور وهوية، وتعمل على قيام عالم متعدد القوى. وصور "صموئيل هانتنجتون" هذا الوضع بقوله إن العالم يتنقل إلى نظام «متعدد الأقطاب ذى قوى عظمى وحيدة Uni-multipolar system»، مما يعنى أن الدول لا تمضى وراء أمريكا فى كل فكرة أو خطوة أو سياسة معينة تقررها.

٣- تكتشف الأنظمة الصاعدة وغيرها خطأ حساباتها، خاصة فيما يتعلق بالصراعات بينها، حينما تتبين أنها جميعاً تواجه عدواً مميتاً مشتركاً هو العنف المنظم عابر القارات، وهو من نوعين رئيسيين:

(أ) عنف سافر من الذين يرون فى ما تحمله "الكونية/ العولمة" من متغيرات متسارعة، ثقافياً وسياسياً وإقتصادياً، وإنقلاب فى أساليب الحياة، إفتئاتاً على خصوصياتهم وأنماطهم الحياتية، وتذويباً لهوياتهم وقضاءً عليها. ويتمثل هذا العنف فى نماذج المليشيات المسلحة وحركات المتطرفين فى العالم المتقدم والنامى، وفى الغرب والشرق على حد سواء[٢٢]، وسواء لبس عباءة الدين، أو عباءة الوطنية المتشددة، والقومية والعنصرية أيضاً. أو حمل لواء قضايا "مجتمعية" كحماية البيئة وغيرها. وسوف يتيح لها التقدم المذهل فى وسائل الاتصال الكونية، كالاتصالات الإلكترونية ومنها الإنترنت، الاتصال المتبادل، وتبادل الأفكار، والعمل على تدعيم بعضها البعض وعقد التحالفات فيما بينها، بحكم ما يجمع بينها من كراهية للمجتمع الجديد، أو للسلطات المسيطرة.

---

(٢٢) ففى اليابان مئات الحركات والجماعات إشتهرت بينها جماعة "الحقيقة السامية - شينريكيو" التى أطلقت غاز الأعصاب فى محطات المترو بطوكيو. وفى الولايات المتحدة الأمريكية توجد مئات المنظمات العنصرية والمليشيات اليمينية المسلحة. إلى جانب منظمات "اليمين الجديد - والنازية" التى تنتشر فى ربوع العالم الغربى.

(ب) عنف خفى يتمثل أساساً فى عالم العصابات والجريمة المنظمة، التى تتاجر فى كل شئ من المخدر إلى العرض، إلى الأطفال والسلاح، وتعمل على تدمير كل القيم، وتغرس الفساد وتنشره إلى أبعد مدى من أجل تحقيق مآربها. وقد تمكنت فى الماضى القريب من تشكيل شبكات ضخمة عبر الدول والقارات لممارسة أنشطتها الإجرامية وكان "مانويل نوريجا"، رئيس جمهورية بنما، أحد أقطابها، وزعيم شبكة مخدرات دولية ضخمة. أما فى التسعينيات فقد مكنتها وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة من توثيق صلاتها، التى تطورت إلى تحالف استراتيجى - من خلال إجتماعات سرية عقدت لهذا الغرض -يجمعها معاً وينسق أنشطتها، بحيث أصبحت بمثابة حكومات سرية، لها مجالسها وقياداتها وقوانينها وأجهزتها من المختصين والخبراء، ولها أسطول من الطائرات النفاثة فى خدمتها. كما هيأ أن تكون لها كيانات فى كل قطر، فلم تعد مجرد عصابات مطاردة، وتقيم حول نفسها أستاراً كثيفة تخفيها تماماً عن عيون القانون، وتحمى أنشطتها من يد العدالة، يساعدها على ذلك أيضاً تغلغلها فى دوائر السلطة تحت مختلف المسميات، ولجوءها إلى مختلف الأساليب من الاستغلال إلى الابتزاز. مما سيجعلها أكبر مصدر للخطر فى عالم الغد، وهو خطر بالغ الجسامة لا يمكن مقاومته ما لم تتكاتف كل الأنظمة التى من مسئولياتها الأولى توفير الأمن لمواطنيها، ومعه أسباب الحياة الكريمة.

فمن المتوقع أن يؤدى هذا "الرعب العنفى الإجرامى" إلى ما أدى إليه "الرعب النووى"[٢٣] فى نهايات القرن الماضى، حين كف الأطراف النووية عن القيام بأى إعتداء يكون فيه تدميرهم أيضاً، وكبح جماح سياساتهم المتهورة، ودفعهم إلى إطلاق المبادرات الداعية إلى الحد من السباق النووى، ووقف التجارب النووية، وعدم إنتشار الأسلحة

(٢٣) فقد أثبتت الدراسات أنه فى حالة قيام حرب نووية سيهلك ثلث سكان العالم مباشرة، وسيهلك الباقى بعد فترة وجيزة بسبب تشبع الهواء بثانى أكسيد الكربون وغاز السيانيد السام، وتساقط الأمطار الملوثة بالإشعاع الذرى فى كل مكان والتى تصيب الأحياء بالسرطان والعقم، وتصاعد سحابة من الهباب الأسود يقدر وزنها بمائة مليون طن إلى إرتفاع ثلاثة أميال فوق سطح الأرض، فتغرق الأرض فى ظلام دامس وتتوقف عملية التمثيل الضوئى ويموت النبات، وتثبت حرارة الجو عند ٥٥ درجة مئوية مما يقضى على معظم أشكال الحياة النباتية والحيوانية، ويعقب موجة الحر موجة برد مخيف ويبدأ الشتاء النووى فيتجمد كل شئ وتتعذر الحياة تماماً.

النووية، وإلى التخلص منها[٢٤]. فيؤدى بدوره إلى التخفيف من "الغلو الهيمنى" والسباق نحو السيطرة و"التسلط الكونى"، والتحول نحو التعاون ورص الصفوف لمواجهة العنف والجريمة[٢٥] فى جبهة متحدة، فتتهيأ الفرصة لتدخل "العولمة" منعطفاً جديداً، وتكتسب معنى أعمق فيما يتعلق بجدية التعاون الدولى، والتداخل الحضارى، ونمو الاعتماد المتبادل فى مناخ من الشفافية والمصداقية.

ويتوقع المتفائلون[٢٦] أن يشهد القرن الحالى هذا التطور الإيجابى إن عاجلاً أو آجلاً. بل ويؤكدون أن الإنهيار الاجتماعى الذى تعانى منه المجتمعات المتقدمة، ويهدد بقية المجتمعات بنسب متفاوتة، ليس قضاءً مبرماً، إيماناً منهم "بالبيولوچية" البشرية التى توجد فى الإنسان نزوعاً إلى حل المشكلات الجماعية والاجتماعية، وبقدرة الإنسان الطبيعية على التنظيم الذاتى، وإقامة نظام إجتماعى ووضع نسق قيمى وأخلاقى يردان عن

---

(٢٤) ومنها إتفاقيتا ستارت ١ و٢ بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوڤيتى السابق للتخلص من أعداد من الرؤوس النووية. وإتفاقية وقف التجارب النووية؛ ومعاهدة منع إنتشار الأسلحة النووية التى دعت إليها الأمم المتحدة وبلغ عدد الدول الموقعة عليها ١٧٦ دولة فى مايو ٢٠٠٠، أثناء إنعقاد مؤتمر "مراجعة الإنتشار النووى". كما اتفقت الدول الخمس النووية على التخلص من مخزونها من الأسلحة النووية.

(٢٥) وبإمكان الأقمار الصناعية أن تلعب دوراً حاسماً فى هذه المواجهة. والأمم المتحدة من جانبها تدرس إمكان استخدامها فى رصد حركات تهريب المخدرات وكل أنواع التجارة غير المشروعة. وقد بدأت الأقمار الصناعية إلتقاط صور للأرض من الفضاء الخارجى قبل أربعين عاماً، وباتت الآن مصدر معلومات مهمة، وأصبحت ظاهرة تستحق المتابعة والدراسة لأنها تعكس الإتجاه نحو الشفافية. وإن كان خطرها كوسيلة تجسس للأقوياء سيستمر.

(٢٦) والمتفائلون هم أصحاب "مبدأ الارتقاء" بين علماء العلوم الإجتماعية والإنسانيات. وأفكارهم المتعلقة بوجود عملية إرتقاء عامة، تشمل كل تجليات الحياة المعروفة، كانت متشرة لدى ثقافات عديدة منذ زمن بعيد. فقد لاحظها مثلاً أرسطو، وسجلها عدد كبير من الفلاسفة والعلماء العرب والهنود والصينيون.. إلخ. ومازالت النظرية المتولدة عن "مبدأ الإرتقاء" أكثر النظريات استقراراً فى تفسير التحول الاجتماعى، بإعتباره المسار المؤكد للمجتمع الإنسانى بصرف النظر عما يتخلله من نتوءات وتراجعات ونكسات. فالمجتمع الإنسانى الذى يتمتع بالعقلانية والديمقراطية وحكم القانون يستطيع دائماً أن يعالج عوامل التراجع والتدهور بقدرته على كبح، أو حتى حذف العناصر السلبية سواء من طبيعة التكوين الإجتماعى للمجتمعات، أو التكوين النفسى للأفراد.

ويدعم السيد المسيح هذا التوجه المتفائل بقوله «... أتيت لتكون لهم حياة وليكن لهم أفضل» (يو ١٠ : ١٠). فإرساليته المجيدة هى من أجل "الإرتقاء" بالإنسان، ومن أجل خلاصه المتكامل.

أما "الواقعيون" فصورة العالم عندهم تتميز بعنف وبتحولات تكنولوچية هائلة، وفوضى إقتصادية، وأخطار بيئية مميتة، وتطفح أعراضها جميعاً على جسده فى صورة مزيد من الفقر، ومزيد من إنهيار سلطة الدولة وعجزها، ومزيد من تفشى نزعات التطرف والأصولية والعنصرية.

مجتمعاته عادية الإنهيار المطبق. فالمجتمعات فى رأيهم تتحرك "بندولياً" من جانب إلى آخر، قد يكون نقيضه، وتستقر فى النهاية فى نقطة الوسط، أى حالة التوازن والإتزان. وما من مجتمع، مهما إنقلب رأساً على عقب، إلا ويتجه فى نهاية المطاف إلى ناموس جديد، ناموس يعيد الأوضاع إلى النسق السليم-- إلى التوازن القيمى والسلام الاجتماعى. فمثله مثل الفرد، أى فرد كان، جل مسعاه هو تحقيق سلامه الداخلى، الذى هو حالة من التوازن الباطنى التى تضع حداً لكل ما يعتمل فى صدره من صراع أو شبهة صراع. فمجتمع الثورة الفرنسية إنقلب على كل ما كان قائماً، ثم إنقلب على نفسه عدة مرات، وأغرق نفسه فى الدماء والوحل، إلى أن وصل إلى حالة الإفاقة والوعى الراجح، وأسس منظومة جديدة إجتماعية وسياسية وقيمية صارت إطاراً لمجتمعات وثورات كثيرة.

ويدللون على تفاؤلهم بأن ظاهرة "الإنهيار العظيم"، كما أطلق عليها علماء الإجتماع والسياسة، قد بدأت فى التراجع عموماً فى نهايات القرن الماضى. فتدنت معدلات الزيادة فى الجريمة والطلاق والممارسات غير المشروعة بنسب ملحوظة، قدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية، مثلاً، بـ ١٥٪. كما ظهرت برامج إذاعية كثيرة يشارك فيها الجمهور، وتؤكد رغبته فى العودة إلى قبول المسئولية عن الأطفال والأسرة، وتقديره لأهمية الزواج، والتخلى عن الجرى وراء الرغبات الشخصية، ونبذه لمبدأ "كل واحد لنفسه فقط". وخرجت مسيرات المليون من الملونين، ومن جماعة "المحافظون على الوعد" المسيحية، وآخرها مسيرة المليون أم/ إمرأة فى وشنطن (مايو ٢٠٠٠) ضد العنف وحرية حيازة الأسلحة الصغيرة.

ولو تحققت تصورات المتفائلين هذه، وساد العالم مناخ صحى، فقد يصير بالإمكان كبح جماح الرأسمالية والاستفادة من آليات السوق لجميع شرائح المجتمع العالمى، وتتحقق التنمية المستدامة التى تضمن الأمن للجميع: للفقراء ليجدوا حاجتهم، وللأغنياء لحماية أنفسهم من هجرات الفقراء. كما تحقق توازناً بين النمو السكانى المتسارع والموارد. وتصبح العولمة والثورة المعلوماتية لصالح الجميع فعلاً، ولخير ورفاهية المجتمع الإنسانى ككل. وتخضع الهندسة الوراثية للمعايير الأخلاقية الصارمة لتواصل عملها لخير البشرية

فى نطاق الحدود الآمنة . ويصبح العالم أكثر قدرة على مواجهة مشاكل القرن وتحدياته بدءاً بالمياه[٢٧] وإنتهاءً بالإرهاب والجريمة .

ويتردد أيضاً أن التكنولوجيا الرقمية ستجلب الخلاص وليس الإنشقاق للبشرية ، فهى ستقرب بين الدولة والشعب ، وتخلق درجة عالية من الشفافية ، وتدعم الديمقراطية .

وقد دخل العالم عصر الإقتصاد الرقمى Digital Economy فى التسعينيات . وهو إقتصاد تتلاحم فيه قدرة الحاسبات مع نظم الاتصالات المتقدمة لتغيير هيكلة الأسواق . كما تربط شبكات المعلومات ، التى لا تعرف الحدود المكانية والزمانية ، البشر ومؤسساتهم .

وتواصل التكنولوجيا الرقمية تطورها السريع وإنتشارها الواسع ، وهى الآن متاحة لمن يريد ، وتسهم بفاعلية فى تنمية الإعتماد المتبادل . وأصبحت شبكة الإنترنت ، بشكل خاص ، قوة تجارية أكثر حرية[٢٨] . وهى قادرة على أن تفجر طاقات الإبداع على صعيد المبادرة التجارية داخل الملايين من الفقراء ومنهم الشباب ، وتدفع النمو الإقتصادى[٢٩] . وهى دائبة على التوسع فلا تمر دقيقة دون ظهور موقع جديد على الإنترنت . وتتجه إلى توسيع وتعميق الخدمات[٣٠] التى تقدمها للناس لتصبح خدمات ذكية ، قائمة على بلايين

---

(٢٧) حدد تقرير المشروع الألفى لجامعة الأمم المتحدة فى طوكيو ، لعام ١٩٩٩ ، خمسة عشرة تحدياً كونياً تأتى على رأسها مشكلة المياه ، إذ من المتوقع أن يعانى العالم عام ٢٠٢٥ نقصاً حاداً فى المياه الصالحة للشرب ، وستمتد المشكلة إلى عالم الأغنياء فى أمريكا الشمالية وغيرها . ومشاكل تتعلق بتحقيق التنمية المستدامة لكل البشر ، والتوازن بين السكان والموارد وتوفير الطاقة النظيفة . وقضايا تتصل بأخلاقيات السوق والعولمة والثورة المعلوماتية والهندسة الوراثية . وتحديات حول السيطرة على الأرض ، جديدها وقديمها ، ومواجهة الصراعات العرقية ، والإرهاب . ووضع القواعد لترشيد عملية صنع القرار ، وترشيد الثورات العلمية والتكنولوجية لتحسين الأوضاع الراهنة .

(٢٨) بلغ حجم التجارة الإلكترونية فى العالم حوالى ٧٤ مليار دولار عام ١٩٩٨ ، ومن المتوقع أن يصل الرقم إلى أكثر من تريليون (مليون مليار) دولار بحلول عام ٢٠٠٣ . وتأتى الولايات المتحدة الأمريكية فى المقدمة تليها أستراليا وكندا والدول الإسكندنافية . وتلقى هذه التجارة فى أمريكا كل التشجيع والدعم ، حيث تعتبر تجارة حرة ، تعفى معاملاتها من أى ضرائب أو رسوم .

(٢٩) ويتناقض هذا مع ما ساد حين دخل الإقتصاد الموجه نسيج القرن الماضى ، مؤكداً على المزايا المفترضة فى التخطيط المركزى والمشاريع المملوكة للدولة ، إذ أشاع الفقر وعمقه ، ومعه الركود والكساد .

(٣٠) فهى تستخدم فى شتى مجالات الحياة ، كالتسويق والبيع والشراء ، وحجز الطائرات والفنادق والسينما والمسرح ، والاستشارات الطبية ، ومعاملات البورصة والبنوك ، حتى أن بعض البنوك ، فى عدد من دول العالم ، ستقوم بإغلاق بعض فروعها . كما تستخدم فى التعليم والمحاضرات والإمتحانات ، وفى الحملات الإنتخابية والتصويت ، الذى جربه الحزب الجمهورى مؤخراً فى ألاسكا بنجاح .

من البيانات المتفرقة، التى يتم تجميعها وتحديثها باستمرار من مصادر وقواعد بيانات شتى، ثم تحويلها إلى معلومات، ثم إلى معرفة وقرارات وتوصيات ونصائح فى شتى مجالات الحياة اليومية، يقوم الحاسب فى المنزل والسيارة والمكتب وفى جيب الچاكيت بتلقيها حول صاحبه ويبلغه بها ليتصرف على أساسها طوال اليوم والأسبوع والشهر والسنة. فتقضى على المشكلات المزمنة التى تضغط على المواطن صباح مساء كالمرور والصحة والتعليم وغيرها، وتوفر الكثير من الوقت والجهد الضائعين، والكثير من الأموال[٣١].

والإنترنت، إلى جانب ذلك، فى سبيلها إلى أن تنشئ واقعاً جديداً لا سابقة له فى تاريخ البشرية، ببروز ما يمكن وصفه بنوع من العقل الجماعى البشرى، إذ صار بإمكان أى مفكر أن يستفيد بكل ما أنتجه غيره من المفكرين، بكل سرعة وبكل حرية. خاصة وأنه الآن يمكن حساب ملايين العمليات الحسابية فى ثوان معدودة[٣٢]، وأصبح الإنسان قادراً على أن يتوقع وأن يكتشف، وأن يستشرف ويتنبأ بالاحتمالات المختلفة فى عالم شديد التعقيد، وفى أنظمة مركبة شديدة التشابك، وأن يكتشف الحلول المناسبة للمشكلات العادية.

ويواصل الكمبيوتر نفسه "نموه العقلى" فذكاءه يتضاعف مرة كل ١٨ شهراً فى الوقت الراهن وستتناقص هذه الفترة على مدى الزمن. فقوته، حسب قانون "مورو"، تتضاعف بمقتضى متوالية هندسية، لتصبح مليون مرة عام ٢٠٠٢، أى بعد ست وخمسين سنة منذ أن صنع أول كمبيوتر. وهو مرشح لأن يتطور، ومعه الإلكترونيات عموماً، بشكل يفوق تعقيد العقل البشرى، ويدخل معه فى منافسة حادة، مما سيحفز الإنسان على تطوير قدراته الذهنية والعقلية، ليصبح جنساً متفوقاً نتيجة لتحسين چيناته، على حد قول "لى سيلڤر" عالم الچيولوچيا بجامعة برنستون الأمريكية. ولقد توصل العلماء البريطانيون

---

(٣١) تقدر الدراسات الأمريكية أن هناك ما لا يقل عن ٣٠ مليار ساعة عمل مهدرة سنوياً داخل الولايات المتحدة فى المواصلات وزحام المرور، وبطء أساليب العمل التقليدية فى المرافق المختلفة. وتتوقع هذه الدراسة إمكانية توفير ٣٠ مليار دولار إذا ما تم تطبيق مفاهيم ثورة الذكاء بالكامل فى هذه المجالات، توجه للاستثمار فى شركات المرافق المعلوماتية لإعداد قواعد بيانات وسيناريوهات ذكية فى مجالات أخرى كالصحة والتعليم والتأمين والبنوك وغيرها.

(٣٢) وهناك شركة يابانية طورت كمبيوتر يستطيع إنجاز ٤٠ مليار عملية حسابية فى الثانية الواحدة.

فعلاً إلى فك شفرة مادة DNA، أو الحامض النووى فى الكروموزوم (٢٢ يناير ٢٠٠٠). وأعلن باحثون أمريكيون أنهم على وشك "خلق" الحياة نفسها. وتنبأ لهم العالم "إدوين فارمر" أنهم سيكتشفون ويوجدون أشكالاً جديدة من الحياة مع منتصف هذا القرن!.

وبعد ثلاثة عشر عاماً من الأبحاث العلمية الجادة، التى قام بها ١١٠٠ عالم من ١٨ دولة، برئاسة العالم الأمريكى "فرانسيس كوليتز"، وبليونين من الدولارات، تمت المرحلة الأولى من مشروع "الچينوم" البشرى، وتمثل ٩٠٪ من الخريطة الوراثية البشرية. وهى خريطة متكاملة لتركيب چينات الإنسان الوراثية، والتى ستستكمل عام ٢٠٠٣، لتكون أعظم خريطة أنتجتها البشرية.

والحمض النووى نفسه تم إكتشافه جزئياً عام ١٩٥٣، على يدى ثلاثة علماء، أحدهم أمريكى هو چيمس واطسون، وبريطانيان هما فرنسيس كريك وموريس ويكتبس. أما فكرة الخريطة فقد أثارها عام ١٩٨٤ العالم البيولوچى دوبرت سينهايمر.

والمقصود بـ "الچينوم" هو حل الشفرة الكيماوية لكل الحمض النووى الموجود فى الكائن الحى، والذى يتضمن چيناته الأربعين ألفاً. والحمض موجود على شكل خيطين مجدولين فى نواة كل خلية من الخلايا الموجودة فى كل إنسان.

وهدفه الأساسى تتبع كل حرف من حروف الشفرة الوراثية للإنسان، وفك أسراره ومعرفة ما ينطوى عليه من رسائل بيولوچية، من أجل الوصول إلى معرفة طبية كاملة بالتركيبة المعقدة للإنسان. وستساهم المرحلة التى تمت فى كشف النقاب عن المزيد من أسرار الشفرة، والمساعدة فى التشخيص المبكر للسرطان وأمراض القلب وغيرها، وللأمراض الوراثية، والتى يصل عددها مجتمعة إلى ٥٠٠ مرض، وللوقاية منها أيضاً. كما ستساعد، بحلول عام ٢٠١٥ على إعداد دواء مناسب لأى شخص بعينه. وبعد عشر سنوات أخرى سيتمكن الأطباء من تصحيح العيوب فى الچينات الوراثية نفسها لتجنب بعض الأمراض، وللوقاية من الأمراض المحتمل الإصابة بها قبل ظهورها. ويضيف استنساخ الأجنة البشرية، الذى صرحت به الحكومة البريطانية وأقره مجلس العموم مؤخراً، أملاً فى علاج الأمراض المستعصية التى يتطلب علاجها استبدال الأنسجة. ويتدعم هذا الأمل بقرب إنتاج القلوب البشرية باستخدام خلايا المريض نفسه.

ولهذا سيكون على إنسان المستقبل أن يحمل، إلى جانب ما يحمله من بطاقات ووثائق، بطاقة جديدة غاية فى الأهمية هى البطاقة الچينية، التى سيرجع إليها أى طبيب يقوم على علاجه، لاكتشاف الخلية المريضة المسئولة عن مرضه وعلاجها أو استئصالها.

فلم يعد الأمر متروكاً للعرافين وقارئى الكف الذين يدعون قراءة "خط الحياة" ويتنبأون بطول الحياة أو قصرها، وصحتها أو مرضها. بل يقوم على العلم والمعرفة التى تتزايد بصورة مذهلة، وأصبحت قاطرة كل التطورات والفتوحات والمستجدات لعالم المستقبل.

ومن جانب آخر، فإن الإنسان الآلى[٣٣]، أو الروبوت، مرشح أيضاً للتطوير الهائل باستخدام الذكاء الصناعى، بحيث يكون قادراً على إنجاز الكثير من وظائف الإنسان العادى. ومن المتوقع بحلول عام ٢٠٢٠ أن تكون بعض الشركات بلا موظفين بشريين[*]. وأن يعمل الروبوت على متن الطائرات العملاقة، التى يتوقع "إيان بيرسون"، عالم المستقبليات، أن يتسع بعضها لألف راكب، وبها غرف معيشة وأماكن لممارسة رياضة العدو!

ويبدو أن منافسة الإنسان الآلى للإنسان البشرى ستستمر وتتزايد مع الأيام، حتى يزداد إنتشارهم ويتواجدون فى كل مكان، ويقومون بكل ما يمكن أن يؤديه البشر، بما فى ذلك الخروج للفضاء الخارجى، وبصورة أسهل لأنهم لا يتأثرون بحالة إنعدام الوزن. وقد بدأ الآن زرع شذرات "نانومترية" لزيادة كفاءة المخ عندهم، ليكونوا قادرين على التفكير بمستوى أعلى من المستوى الإنسانى ألوف المرات، عن طريق حاسباتهم ذاتية التطور، والتى تحاكى الشبكة العصبونية في المخ البشرى.

---

(٣٣) ومن أنباء تطويره أن علماء أمريكيين تمكنوا من تصميم "إنسان" جديد يحصل على الطاقة من أكل اللحوم، وأطلقوا عليه اسم "تشوتشو Chew - Chew". أى (امضغ امضغ). وفى جامعة ماساتشوستس الأمريكية طور العلماء إنساناً آلياً يمكنه تصميم وتصنيع أجهزة الروبوت بنفسه ودون تدخل من الإنسان تقريباً، وذلك بعد برمجة عقله على عملية التصميم والإنتاج، مما يمهد لإنتاج إنسان آلى رخيص الثمن.

(*) بل إن نظام التوظف بمرتبات محددة ومكاتب ثابتة مرشح للاختفاء، ليحل محله العمل "بالقطعة" أو بالإنتاج، كلما دعت حاجة المؤسسات والشركات إلى ذلك. مما يمكّن المتخصصين والفنيين المهرة من العمل لأكثر من جهة، وفى أكثر من مجال، موفراً لهم حرية الحركة وزيادة الدخل.

فأى مصير يخبئه هؤلاء الآليون للبشرية؟ تطور ورفاهية، أم تدمير وإنقراض؟ على أن المؤكد هو أن يستمر سكان العالم من البشر فى التضاعف كل أربعين سنة. ويتنبأ لهم العالم البريطانى، ستيف هوكنج، أن يعانوا من إزدحام حاد وأزمة مكان على كوكبهم مما يدفع بعضهم إلى العيش على كوكب آخر قد يكون المريخ، بعدما يتعلمون كيف يعيشون فى مستعمرات فضائية!

إن العالم يتغير بصورة مذهلة وبوتيرة متسارعة، ولا أحد يستطيع بدقة التنبوء بما سيكون عليه بعد سنوات قليلة. والمؤكد أن أشكالاً من الحياة وأسلوبها وأنماطها، التى توارثناها جيلاً بعد جيل، ستتغير وقد تختفى تماماً، بما فى ذلك المؤسسات وأنظمة الحكم، وأساليب التعليم وغيرها، بحيث لا تبقى المدارس والجامعات والمستشفيات والبنوك ومراكز الخدمات المتعددة بصورها الحالية. وقد تصيب الثورة، التى أصابت التجارة، الصناعة والزراعة، فتتغير أنماطها المألوفة.

والمعرفة هى المصدر الرئيسى لهذا التغيير المذهل. وهى ذاتها تتعاظم نمواً وإنتشاراً، حتى بات كوكبنا مرشحاً لأن يمتلئ منها «كما تغطى المياه البحر» كما تنبأ إشعياء النبى (إش١١ : ٩). فهل ياترى ستمثل مصدر شفاء وخلاص للعالم، بالمفهوم الروحى والأدبى والاجتماعى، فيكون القرن الحادى والعشرون قرن **"التوبة"** والرجوع إلى الله كما يتمنى المؤمنون؟ أم ستكون مصدراً للغرور والشطط؟ فخطر العلم يرقد فى أنه **ينفخ** ضعاف النفوس، كما يقول القديس بولس (١كو ٨ : ١٠)، ويتحول على أيديهم إلى أداة تهلكة وتدمير، فيتجه العالم إلى أن «تنحل فيه العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها»، كما تنبأ بطرس الرسول (٢بط ٣ : ١٠).

إن المتفائلين يفسرون إشارات الكتب المقدسة عن **نهاية العالم** بأنها نهاية **مرحلة** فى حياة العالم كما ألفها الناس واستقرت فى أذهانهم، وقيام مرحلة جديدة بثوابت وقيم جديدة. و«دور يمضى ودور يجئ والأرض قائمة إلى الأبد» كما يقول سليمان الملك (جا١ : ٤). وتكون بمثابة حلقة فى سلسلة حلقات تجديدها، أو غسلها كما حدث أيام نوح، ولكن بدون طوفان. باعتبار أن التغيير سنة إلهية، يثابر الله على إحداثه، إذ يرسل روحه «فَتُخْلَق. وتجدد وجه الأرض»، كما يقول داود النبى (مز ١٠٤ : ٣٠). فيحرق

الزوان وكل ما لا ينفع الناس، ويختفى كل غثيث. فتكون النار للتطهير وليست للقضاء والتدمير. فالخليقة تحت وطأة الخطية والفساد «تئن وتتمخض معاً» (رو ٨ : ٢٢) حتى يأتيها منقذ يتسربل بالرجاء «فتعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد الله» (رو ٨ : ٢١).

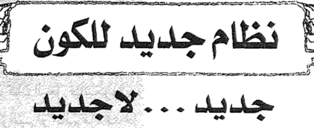
ومهما تكن التنبؤات، أو شطحات الخيال العلمى، فواجب المؤمن أن ينقاد بحقائق كتابية تزيده يقيناً وإيماناً فى قدرة الله، وبالتالى تعمق سلامه وتدعم رجاءه:

١ - «ليس تحت الشمس جديد. إن وجد شئ يقال عنه أنظر. هذا جديد. فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا» (جا ١ : ٩و١٠). فالعلم **يكتشف** ولكنه لا يخلق أو يوجد. وهو كصانع ماهر يشكّل مما هو موجود فعلاً ما نراه أو نتصوره جديداً. ألم تقم ثورة المعلومات والاتصالات على عنصر السليكون المتوافر فى الرمال الرخيصة التى تغطى وجه الأرض؟.

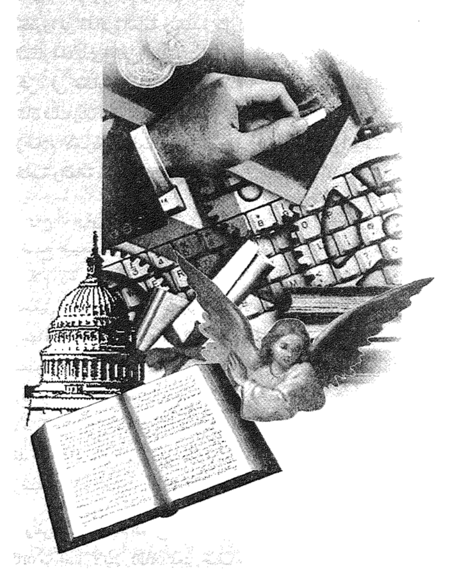
٢- إن الله هو مصدر المعرفة والخلق معاً. فهو «الفاعل عظائم لا تفحص وعجائب لا تعد» (أى ٥ : ٩)، «عظائم لا تحصى وعجائب لا ندركها» (أى ٣٧ : ٥). ويقول عن ذاته «أفعل عجائب لم تخلق فى كل الأرض» (خر ٣٤ : ١٠). يصفها أيوب «عجائب فوقى لم أعرفها» (أى ٤٢ : ٣). وهو يلهم الإنسان ويسخره، ومعه قوى الطبيعة، فى إبداع هذه العظائم، كل منها بدقة وفى أوانها، ووفق جدوله الزمنى، ولهدف أعلى. ومن أجل خير الإنسان فهو ***محب البشر***.

٣- والله القادر على كل شئ، والذى يخلق ويبدع منذ الأزل، لن يتوقف عن الخلق والإبداع، «فكلما شاء صنع» (مز ١١٥ : ٣). وكما أكد السيد المسيح «أبى يعمل حتى الآن وأنا أعمل» (يو ٥ : ١٧).

٤- وحسناً نفعل باندماجنا فى آلة الخلق الإلهية التى لا تتوقف، فاعلين ومتفاعلين، منتجين ومبدعين «فكل ذكى يعمل بالمعرفة» (أم ١٣ : ١٦). ومن «يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطية له» (يع ٤ : ١٧).


نظام جديد للكون


جديد ... لاجديد



- ١ -

لا تغيب عن بال سان كلمات مجيدة يعرفها العالم كله ويتناقلها مثل «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، و«ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». وكثيراً ما تقفز إلى ذهنه عبارة إيليا النبى القوية «حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه». والتاريخ حافل بعبارات وشعارات محظوظة، يطلقها حاكم أو زعيم أو عالم ما، تدخل فى مفردات الناس، يرددونها دون ملل، وتظل محفورة فى الذاكرة العامة وتخلد، مثل العبارة القديمة «حتى أنت يا بروتس»، والمعاصرة «الستار الحديدى» التى أطلقها تشرشل عن النظام الشيوعى. وحديثاً أطلق الرئيس السابق بوش، فى خطابه عن حال الأمة عام ١٩٩١، دعوته لإنشاء "النظام العالمى الجديد". وكان ذلك إبّان أزمة الخليج، واستعداداته لانتخابات ولايته الثانية. وسرعان ما تلقفها الإعلام الأمريكى والعالمى، وأذاعها فى أركان الأرض، وصارت من يومها حديث الخاصة والعامة، ومادة كتابات ودراسات لا حصر لها.

ومع أن بوش بدا وكأنه يبشر "بشئ جديد" سماه "النظام"، فهو لم يكلف نفسه عناء توضيح طبيعة هذه البشرى وأبعادها، وآثارها على الجنس البشرى، الذى يتلهف إلى السلام ورغد العيش. كما لم يحدد إلا القليل من علامات تحقيقها، ووسائل هذا التحقيق. والساسة عموماً مولعون بهذا الأسلوب من إطلاق الشعارات المبهمة، التى لها بريقها، والتى تفسر بألف تفسير، وتعنى أشياء مختلفة لكل فريق من الناس. وهو تكتيك مقصود يهدف إلى إرضاء تطلعات وخيالات قطاعات عريضة من الشعب، أو الشعوب، دون الإلتزام بشئ محدد. ومع أن البشرى قُصد بها أن تمس وتراً حساساً عند الشعب الأمريكى، عن عظمة أمريكا وسيادتها للعالم دون منازع، بعد سقوط الإتحاد السوڤيتى، فقد صارت ترنيمة العالم تتردد صباح مساء، حتى بدأ الملل يتسرب إلى الناس، ومعه حالة مرضية تدعى Mille-phobia أو عقدة الألفية.

وتُقرأ عبارة النظام العالمى الجديد فى الإنجليزية The New World Order. والكلمة order من أصل لاتينى ordo بمعنى صف مستقيم straight row، وسياق منتظم regular series. وأصلها فى الأوروبى - الهندى ar بمعنى مناسب أو لائق fit. ومن بين معانيها

الكثيرة: مخطط ثابت أو محدد، وحالة من السلام والصفاء. فهل ياترى ما تردد عن هذا النظام، وتلقفته أركان العالم الأربعة بالدرس والتحليل، ومن القبول والتهليل إلى الرفض والعويل، يحمل فى طياته شيئاً من معانى الثبات والاتساق، والتحديد والوضوح، ومن السلام والصفاء؟!.

إن الدعوة إلى نظام جديد تعنى أنه كان هناك نظام قديم، آن أوانه أن يحمل عصاه ويرحل. فهل كان هو نفسه ينطوى على أى من المعانى الجميلة المستوحاة من كلمة order الإنجليزية؟ من واقع الحال، وببساطة ريفية، كان العالم أشبه "بمقطف" يحمله من أذنيه إثنان، هما الإتحاد السوڤيتى والولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكونا على وفاق أو إتفاق قط، فكل منهما يجذب "المقطف" فى إتجاه، مما جعل محتواه دائم الارتجاج و"الدوخة"، كما أدى إلى تناثر بعضه، وتهشم البعض الآخر. وساد القلق والارتباك على الكل. وظل التجاذب عدة عقود حتى تمزق "المقطف" فى أكثر من موضع. وسقط الكثير من محتواه فى الطرقات. وفجأة سقط أحد حامليه فى حفرة بالطريق الدولى السريع، فرقد "المقطف" على الأرض، ومضى الحمّال الثانى فى جره، لأنه لم يتعود على حمله وحده، ولا يُعرف إن كان هذا بإمكانه، وإن إدعى القدرة على ذلك.

وسارع "الحمال الوحيد"، عام ١٩٩٢، فأصدر مشروعاً مبدئياً لخططه المستقبلية - والعسكرية بالذات - تحدث فيه عن العالم "ذى القطبية الواحدة"، وفيه إحياء لأفكار روبرت ماكنمارا، وزير دفاعه أثناء حرب ڤيتنام، والتى ضمنها فى كتابه "جوهر الأمن". والهدف الأول للمشروع هو «منع ظهور منافس» جديد، يحمل "المقطف" معه، سواء على نفس أرض الإتحاد السوڤيتى السابق أو فى أى مكان آخر. أى منع أى قوة "معادية" من السيطرة على منطقة تملك من الموارد ما يمكنها من تشكيل قوة عالمية. وذلك حفاظاً على مصالح الشعب الأمريكى ومصالح أمريكا الحيوية فى العالم. فهل يعنى هذا أن تستمر عملية "جر المقطف" بأذن واحدة؟ مما يعنى استمرار "مرمطة المقطف" وما يحتويه؟!.

من الملاحظ **أولاً**، أن هذا الوضع الذى يتسم بالقطبية الأحادية قد أدى فعلاً، خلال، العقد الأخير إلى درجات متنوعة من التوتر والجدال بل والصراع، نجمت أساساً عن

التناقض الذى تولد عن سقوط النظام الدولى الثنائى القطبية، مع بقاء مؤسساته ومبادئه، الكائنة فى مواد ميثاق المنظمة الدولية، تحكم العلاقات والتفاعلات الدولية ومستجداتها، فى الوقت الذى جرى فيه فعلاً تغيير توزيع الأدوار والقدرات لصالح الدول التى كسبت الحرب الباردة، وعلى رأسها الولايات المتحدة. فهذه الأخيرة ترى الآن أن مؤسسات ومبادئ النظام الذى هوى إنما تمثل قيوداً شديدة على حركتها وعلى سعيها إلى قيام نظام دولى جديد، يعبر عن مبادئها وقيمها، وبالطبع مصالحها. وأخذت تساند مبدأ "حق التدخل الإنسانى وترقية قيم الديمقراطية"، والذى يتعارض مع المبدأ القديم الخاص بالسيادة وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول المستقلة ذات السيادة. وساعدتها أحداث العقد الأخير، فى يوغسلافيا السابقة وأزمة الخليج وكسوفا وتيمور الشرقية وغيرها، على تجسيد هذا المبدأ وفرضه على أرض الواقع. وبدأ أيضاً يشيع مفهوم "الأمن الإنسانى" والذى ينصرف إلى ضمان حق الفرد فى التمتع بالتحرر من الخوف ومن الفقر. وهو مبدأ يعطى المجتمع الدولى حق التحرك لمنع الصراعات التى تهدد أمن الإنسان داخل الدولة نفسها لعجزها عن تحقيقه.

ومن الملاحظ **ثانياً**، أن الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها تدور فيها أفكار كثيرة[1]، بعضها متضارب، مما لا يساعد على أن تكون يدها واثقة وهى "تجر المقطف"، أو عيناها ثابتتان تحتفظان بخط مستقيم غير متعرج فى طريق سيرها. فبوش حين وجه دعوته (١٩٩١) للقيادة الأمريكية كى تقنن نظاماً دولياً جديداً، ظهر بين الفكرين السياسيين من رفض الصيغة التى طرحها بوش، مع أنه لم يطرح غير شعار أو إكليشيه. والواقع إن الزعماء والمثقفين والسياسيين والمنظرين كانوا منهمكين، منذ نهاية الحرب الباردة عام ١٩٨٩، فى مناقشات ودراسات تستهدف توضيح الرؤية المستقبلية، ورسم خطوط البدائل الاستراتيچية لسياسات البلاد الخارجية على وجه الخصوص. ودار جدل، ومايزال، بين دعاة الإنعزالية ودعاة الدور الدولى الأمريكى. وهو جدل ليس جديداً، بل يعود إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، أى عمره يقترب من ثلاثة أرباع القرن. وهو أيضاً إمتداد للمناخ الجغرافى والإنكفاء السياسى والاجتماعى اللذين سيطرا على البلاد بعد

---

(١) ولعل أهمها محاولة الولايات المتحدة التعرف على هوية التهديدات الجديدة والمقبلة وتحديدها، والتى قد تهدد مصالحها الحيوية وأمنها القومى، وما يتردد التعبير عنه الآن بأن أمريكا «تبحث عن عدو».

حرب الاستقلال (١٧٦٣-١٧٨٢). فالبلاد "قارة" واسعة، يفصلها عن العالم القديم محيطان عظيمان، ومواردها ضخمة تكاد تغنيها عن العالم الخارجى.

ومؤيدو العزلة[٢] الآن يريدون الإهتمام بالبيت من الداخل، خاصة وأنهم يعتقدون أن البلاد ونظام الحكم يمران بحالة الأزمة. ويشفقون فى الوقت نفسه على بلادهم من الالتزامات التى يفرضها عليها دورها الدولى. فانفرادها بصياغة خريطة العالم السياسية سيسحب من رصيد قوتها، وقد يستنزفها بعد عقود قليلة. ويحذر بعضهم من الإنجذاب وراء "الإغراء الإمبريالى" - كما يقول روبرت توكر وديفيد هندركسون، فى كتاب نشره معهد الشئون الدولية الأمريكى - فتحملها أوهام "الإمبراطورية" إلى التورط كما تورطت غيرها من الإمبراطوريات السابقة، فحصدت الثمار المرة. ومن المعروف أن هذه الصورة الإمبريالية، بالذات، هى التى تخيف العالم اليوم - وخاصة العالم الثالث - من أمريكا. ومن جانبه يطالب چورج ويجل[٣] بلاده بأن تركّز سياستها على مبادئ تقوم على الأخلاق، بحيث لا تكون المبادئ الأخلاقية، فى عالم السياسة، لها طبيعة المراسم وحسب، أو مجرد بريق دبلوماسى، دون أن تنسحب على صميم الممارسة الفعلية.

وهناك، إلى جانب الانعزاليين، "الواقعيون" الذين لا يرون إمكانية قيام نظام عالمى جديد من أساسه. لأن أى نظام لابد أن يعكس الطبيعة البشرية[٤] للفرد، والطبيعة البشرية لا تتغير. فكيف يتأتى إنبثاق نظام جديد من طبيعة لا تتغير - لا تتجدد؟! ولعلهم متأثرون فى تفكيرهم هذا بالمفهوم الدينى الذى يؤكد أن «الجميع زاغوا وفسدوا معاً. ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد» (الرسالة إلى أهل رومية ٣ : ١٢). وإن كان چورج ويجل يرد على مفهومهم هذا بالتأكيد على قوتين إنسانيتين جديرتين بالإعتبار، أولاهما، "الرغبة

---

(٢) وهو تيار يعود أصلاً إلى تقليد أو موروث أمريكى قديم، عن الآباء المؤسسين، يدعو إلى عدم التورط فى النزاعات الداخلية فى قارات أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية، والإبتعاد عن أوروبا (القرن ١٨ و١٩) باضطراباتها السياسية. ومما يجدر ذكره أن آخر استطلاعات الرأى العام (٢٠٠٠) أظهرت أن الأمريكيين الآن ليسوا إنعزاليين، وأنهم ميالون لدور عالمى، على أنهم حذرون ويريدون معرفة متطلبات هذا الدور وتكلفته، وما يعود به عليهم من نفع.

(٣) فى كتابه : US Foreign Policy in the 1990 s: Idealism without Illusion.

(٤) كانت الطبيعة البشرية وماهيتها موضوع جدل بين الفلاسفة فى عصر التنوير. فمثلاً "هوبز" كان يراها «حرب الجميع ضد الجميع»، بينما رأت رومانسية "روسو" الإنسان نقياً طيباً، تفسده البيئة كما يفسده الإجبار والقسر.

فى التغيير " أى تغيير الوضع القائم، بإعتبارها قوة محركة فى عالم اليوم، تستطيع بشحنتها وقوة دفعها إحداث تحول تاريخى فى المسارين السياسى والإجتماعى وغيرهما. وثانيتهما، تتعلق "بالأفكار"، سواء كانت صائبة أو خاطئة، بإعتبارها أقوى تأثيراً مما يتصور الكثيرون فى صنع التاريخ. فأفكار هتلر العنصرية، عن تفوق الجنس الألمانى (الآرى)، مثلاً، هى التى كانت وراء إشعال الحرب العالمية الثانية. بل إن أفكار كاتب سوفيتى، هو ألكسندر سولزنتسين - الذى لجأ إلى الولايات المتحدة فيما بعد - حول طبيعة الديكتاتورية والشمولية السوفيتية، قد ساعدت على تبديد أسطورة أن الشيوعية لا يمكن دفنها.

ويرى كاتب أمريكى آخر، هو توماس كون[٥]، أن السعى إلى إقامة نظام جديد للعالم هو فى الواقع أمر متكرر ودورى، إذ توجد لحظات تاريخية يتم خلالها إعادة بناء إطار العلاقات الدولية، تعقبها فترات تعمل فيها الدول فى ظل الإطار الذى تم وضعه إلى أن ينهار ويتوجب إعادة تكوينه[٦]. وهذا ما يذهب إليه كاتب فرنسى مرموق، هو چان فرنسوا لويتار، الذى يسجل فى كتابه "المجتمع اللاإنسانى" إن هناك دورات من الحداثة وما بعد الحداثة يمر بها العالم من حقبة إلى أخرى، أى دون التقيد بعصر أو زمن بعينه، أو بإقليم أو شعب بحد ذاته.

---

(٥) وفى كتابه The Structure of Scientific Revolution ردد أن المعرفة لا تنمو بطريقة مضطردة تراكمية ولكنها تنمو من خلال فترات من الثورات العلمية التى تعقبها فترات زمنية ممتدة يقتصر التقدم العلمى خلالها على حل القضايا الفكرية فى حدود الإطار الذى قدمته تلك الثورة.

(٦) ولعل حرب الخليج الثانية (عام ١٩٩١) كانت واحدة من هذه اللحظات، حين تضافرت معظم قوى العالم للدفاع عما سمى بالشرعية الدولية، وحق دولة صغيرة فى الإستقلال والسلام. فبعد ما تحقق النصر بشّر الرئيس الأمريكى بوش بإقتراب مولد نظام عالمى جديد. وفى عام ١٨١٥، بعد هزيمة نابليون، وعقد مؤتمر ڤينا للمنتصرين، ووضع تسوية شاملة هى الأولى من نوعها فى العصر الحديث، إنبثق نظام دولى جديد استمر قرابة قرن لم يشهد خلاله العالم إلا مناوشات حتى عام ١٩١٤ حين إندلعت الحرب العالمية الأولى، التى أشعل شرارتها شاب صربى متطرف اغتال ولى عهد النمسا. وأذّن عام ١٩٤٥ بقيام نظام عالمى جديد حين إجتمع المتصرون ووضعوا خريطة جديدة ونسيجاً جديداً للعالم، يسلم رأيته الآن لنظام "العولمة" حسب رأى توماس فريدمان الكاتب الأمريكى.

- ٢ -

ويعتقد **سان** أن الوحيد بين البشر الذى وقف ونادى بعالم جديد، وليس نظاماً فقط، وكان يعى ما يقول ويتوقع بإيمان قيامه، هو نوح عليه السلام. كان مضمون رؤيته أن عالماً جديداً فى سبيله للتشكيل، ولن يتحقق ذلك إلا إذا سقط "العالم" القائم وإنهار، لأن الفساد قد ضربه «من أسفل القدم إلى الرأس» (إش ١ : ٥). وفعلاً جاء الطوفان غامراً كاسحاً[٧]، غسل القديم كله. وظل الماء ينهمر ويرتفع فوق سطح الأرض حتى تطهرت، وتهيأت فعلاً لنظام جديد، أو هكذا بدت، بعد ما ابتلع الطوفان كل رؤوس الفساد، وكل منشآتهم، وما ترتب على آثامهم وأفعالهم الدنيئة. ولما انحسر الماء، استقر الفلك على اليابسة الجدديدة المطهرة، ونزل إليها الرعيل الذى نجا بإيمانه فى النظام القادم الذى يؤسسه الله. ودشن نوح العهد الجديد بإقامة مذبح أصعد عليه المحرقات «فتنسم الرب رائحة الرضا» (تك ٨ : ٢١).

ومع أن الحمامة التى أطلقها نوح عادت إليه «بورقة زيتون خضراء فى فمها» علامة للسلام، مع الطبيعة بالذات، ومع الأرض مصدر الرزق والخير، وصارت رمزاً للسلام على مر الأجيال فى التراث الإنسانى، فواضح أن الأمل فى عالم جديد فعلاً، ونظام جديد يقوم على البر، لم يدم طويلاً. فقد بدأ نوح حياته الجديدة «فلاحاً وغرس كرماً»، وجاء اليوم الذى شرب فيه خمراً «فسكر وتعرّى»، وأساء إبنه "كنعان" التصرف **فلعنه**[٨]، وهكذا عادت اللعنة إلى الأرض الجديدة من باب خلفى، باب لم يكن متوقعاً.

فإذا فهمنا لب رسالة نوح على أنه لا مفر من القضاء على الشر ومصادره، وعلى مرتكبيه وكافة ثماره، إذا أريد قيام عالم جديد صحى ومتعقل، فمعنى ذلك أنه لا مفر من أن يتكرر الطوفان كعملية تنظيف وتطهير دورية، للتخفيف من أدران العالم ومفاسده، وإعطاء فرصة دورية ليصير للأرض وجه مشرق تطالع به السماء دون خجل.

---

(٧) نسب العالم الجيولوجى النمساوى، الكسندر تولمان، حدوث الطوفان إلى تساقط بقايا نيازك، جاءت من المشترى، فى المحيطات فارتفعت المياه وأغرقت الأرض إلا قمم الجبال. وقد حدث هذا منذ إثنا عشر ألف سنة، وتشهد عليه مادة الكربون-١٤ الإشعاعية فى كثير من الحفريات النباتية والحيوانية. ومن جانب آخر، أكد فريق من علماء الحفريات (سبتمبر ٢٠٠٠) اكتشاف منشئات بشرية فى منطقة البحر الأسود، منها ألواح خشبية وبقايا من هياكل للسفن، تشير فى رأيهم إلى الفيضان الذى حدث أيام نوح.

(٨) أنظر الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

ولكن الرواية التوراتية تعلن أن الله أقام ميثاقاً مع البشرية، من خلال نوح وذريته، جاء فيه «ها أنا أقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم ... فلا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان. ولا يكون طوفان ليخرب الأرض» (تك ٩ : ١٠ و١١). وتضيف التوراة أن الرب قال «لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان **لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته**» (تك ٨ : ٢١، إش ٥٤ : ٩).

ويحظى هذا الميثاق بتفسيرين على الأقل: أحدهما، يمثله المتفائلون الذين يرون فيه غنى رحمة الله وحبه للإنسان، ذلك الحب الذى يسعى لأن يبقى على الإنسان، وعلى الأرض أيضاً، ويترك الزوان والحنطة «ينميان كلاهما معاً إلى الحصاد» (مت ١٣ : ٣٠)، أى إلى يوم الدينونة الأخيرة، بحيث تتاح للإنسان وللأرض فرص كافية للخلاص والنجاة، قد يفوزان بها أو لا يفوزان، ولكنها من حقهما بفضل نعمة الله، الذى يعمل دائماً على تهيئتها على لسان أنبيائه ورسله، أمثال نوح ولكن بدون طوفان، فيتسنى لزنابق الحقل البيضاء الرائعة الحسن أن تنمو وسط الوحل، ليظهر، من خلال هذا التناقض، وجه الله وحقه ورحمته. وحسب المفهوم المسيحى، جاءت فعلاً فرصة ثمينة خالدة، هى بمثابة ختام فرص النعمة والرحمة، وذلك بمجئ السيد المسيح المخلص. ووضحها بولس الرسول بقوله «إذاً إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل صار جديداً» (٢كو ٥ : ١٧-١٩). ويربط بطرس الرسول بينها وبين الطوفان «أيام نوح إذ كان الفلك يبنى الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء. الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية. لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح» (١بط ٣ : ٢٠ و٢١).

وينضم إلى جماعة المتفائلين[٩] الفلاسفة والمفكرون الذين كتبوا عن "المدينة

(٩) تعتنق الديانات والفلسفات الآسيوية مبدأ إعتبار العالم جميلاً فى جوهره. وأن ما يبدو فيه من شر أو فساد لا ينبغى أخذه على محمل الجد، لأن العالم الذى يبدأ من العدم أو الفراغ - كما فى عقيدة الزين Zen - سوف يسعى بنفسه، وعبر الإنسان، إلى التكامل، إذا استطاع الإنسان أن يكتشف "جمال" هذا العالم وجمال نفسه. فمسئولية الإنسان تطالبه بإعطاء الوجود معنى، وتحويل المعنى إلى هدف.

وتقول البوذية إن كل ما فى الوجود هو تعبير عن اللاهوت. ولا تؤمن الهندوسية فى وجود وحى خاص. فالإنسان يصل إلى حالة تنفتح فيها الأذن لتلقّى موسيقى السماء.

ولا تتضمن معتقدات هذه الديانات فكر الكتب السماوية عن سقوط الإنسان أو اللعنة التى صدرت ضد الطبيعة. فالوحدة والإنسجام قائمان بين الخليقة وموجدها - وحدة جمال وإبداع.

الفاضلة" ، كتبوا عنها فى كل اللغات، وفى كل العصور، من أفلاطون إلى الفارابى، إلى توماس مور، إلى چيوفانى كامباتيلا الإيطالى الذى كتب عن "مدينة الشمس" ، وهو فى السجن الذى ألقى فيه عام ١٥٥٢م بتهمة الهرطقة، وبالتحديد لأن له قريناً من الجن يعلمه الحكمة، فغزر علمه رغم عدم دخوله مدارس! وقد قال فيها إنها مدينة فاضلة، يحكمها رجل حكيم ورع، يعاونه أمراء الحكمة والحب والقوة. وهى مدينة تخلو من المتاعب والمصاعب. هواؤها نقى، وماؤها نقى. ليس بها عاطل. فالكل يعمل، ويعمل لأجل سعادته ولأجل سعادة الجميع(١٠).

أما التفسير الثانى فيمثله المتشائمون الذين لا يرون أملاً فى الخلاص، للإنسان وللأرض، ولو حل بها ألف طوفان. فالشر فى الأرض سرطان لا خلاص منه، ولا أمل فى القضاء عليه. وينسب فصيل منهم تأصيله إلى الاستبداد والقهر اللذين تنشرهما الطغمات الحاكمة(١١)، التى تعتبر الأفراد مجرد خلايا فى "دولتهم" ، ولا وجود لهم خارجها. والدولة هى "إرادتهم" التى اصطبغت بأهوائهم وفكرهم المتعسف وأنانيتهم الضيقة، فيتفشى الظلم والعسف والاغتصاب، وهى رزايا تتوالد وتتكاثر كالميكروبات، ويقع الفرد ضحية بائسة لها. وديستويفسكى الذى عانى من هذا الظلم، وصرف سنوات سجيناً منفياً فى سيبريا، استطاع أن يعرى هذا الاستبداد الباطش، بما كشف عنه، فى روايته "بيت الموتى" من جوانب "القوة والجمال" ، التى تنطوى عليها نفوس زملائه المسجونين "من عتاة المجرمين" ، فهم شباب وقوة ومواهب عظيمة(*)، تضيع هباءً بين جدران السجون التى أقامها الطغاة، الذين هم الأحق بأن يكونوا فى غياهبها. وهو فى ذلك يتفق مع چان چاك روسو الذى يرى أن الإنسان الطبيعى إنسان نقى طيب – فى أعماقه صالح – ولكن تفسده البيئة، ويفسده الإجبار والقسر.

---

(١٠) قارن سفر الرؤيا ٢١ : ١٠-٢٢ : ٥.

(١١) وهو ما كان سائداً فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادى. وسائد الآن فى كثير من أقطار العالم.

(*) ذكرت الأخبار (فبراير ٢٠٠٠) أن وزيرة الثقافة اليونانية اضطرت إلى القيام بجولة فى السجون لتوزيع جوائز المسابقات الأدبية والفنية التى نظمتها مجلة "إيفوس" الأدبية، بعد أن اكتشفت الوزيرة أن معظم الفائزين فى هذه المسابقات يقضون عقوبات خلف الأسوار لأسباب مختلفة. ودعت فى كلمة لها إلى التضامن مع العالم الذى يعيش خلف الأسوار... ذلك لأنه ملئ بالمشاعر الإنسانية المؤثرة والحساسة!

وهؤلاء "المتشائمون" يرون أن باب النجاة للمجتمع الإنسانى يتمثل فى القضاء على أسطورة الطغاة البلهاء هذه. فالناس، كل الناس، قد ولدوا أحراراً ليعيشوا أحراراً، فى جو من الحرية والمساواة وتكافوء الفرص. وقد قويت دعوتهم هذه بعد الحرب العالمية الثانية، التى كانت قمة المأساة الإنسانية. وبرزت من خلالها الفلسفة الوجودية، التى تؤكد أهمية الفرد، وأنه يأتى قبل الدولة، بل إنه أعظم من الدولة. وأنه ينبغى أن يكون حراً، تتوفر له كرامة الوجود، وتصان آدميته ليكون من المبدعين.

وتشدّد هذا التوجه التشاؤمى، وبلغ قمته فى مدرسة "العبث" ومسارحها، التى تؤكد أن انتظار البشرية للخلاص من نفسها، والنجاة من منحدر الهاوية - هاوية التشاؤم واليأس وضياع الأمل فى اليوم والغد - هو إنتظار عقيم، لأنه لا خلاص، ولا مخلص فى الطريق. وهذا ما عبر عنه صموئيل بيكيت فى رائعته "فى إنتظار جودو". وهى مسرحية تقوم على محاورة بين إثنين، استولى عليهما القرف والملل، فى جو خانق من الانتظار والترقب الذى لا ينتهى، لظهور "جودو" الذى يُفترض أنه سيضع حداً لمعاناتهما. وهو موقف يصدق عليه قول إشعياء النبى «حبلنا تلوينا كأننا ولدنا ريحاً. لم نصنع خلاصاً فى الأرض ولم يسقط سكان المسكونة» (إش ٢٦ : ١٨)!.

وللمتشائمين عذرهم. فمع أن العالم يتطور فعلاً، فيما يتعلق بأدوات الحياة وتحسينها، على أساس المقولة إن هناك خطاً صاعداً مستمراً للإرتقاء المدنى فى مختلف مجالات الحياة: فى العلوم والطب والهندسة والفنون، وفى العلوم السياسية، وفى مسائل حقوق الإنسان، والتطور الديمقراطى، وغير ذلك، فإن الطبيعة البشرية باقية كما هى، بنزوعها المستمر نحو الأسوأ والأردأ. وهى فى تطورها المريض تستلهم عناصر التقدم والتمدن، التى ينتجها الذكاء الإنسانى، لتنويع صور الفساد، وتوسيع نطاقه، ولصنع أدوات أكثر فتكاً وترويعاً، وانتهاج أساليب أكثر دناءة وشراهة[١٢].

---

(١٢) ومما قاله كتابنا فى تصويرها: «قد تطورت كل الأدوات. أدوات الحياة والانتقال والموت - ولكن الإنسان لم يتطور. فهو القاتل الجشع الحسود الحقود، المتعطش إلى الدم والذهب والجنس والسلطة. المثل القديم يقول الإنسان ذئب لأخيه الإنسان. ومن هنا قامت كل أنواع الحروب: دينية، عرقية، واستقلالاً وانفصالاً، وتجارة مخدرات. وإذا لم تكن حروباً منظمة فهى حروب عصابات عندها أسلحة متطورة. (أنيس منصور).

- لقد فجر الإنسان الذرة، ومشى على القمر، وأرسل أقماره إلى المريخ. ونقل قلوب الموتى إلى الأحياء. =

ولعل أقوى مدعاة للتشاؤم واليأس، تلك الصورة المتكررة لتحويل ما يفترض أن يكون باباً للخلاص للبشرية وللأرض ذاتها، إلى أسباب للتهلكة والخراب(*)، بتأثير المنطق المعوج الذى يدفع الإنسان إلى تبديد الفرص المؤاتية، وكلما «أنبت له الزمان قناة، ركّب المرء فى القناة سناناً» محولاً خضرة الحياة إلى بلقع الموت. فالدين وكتبه المقدسة، تتحول فى أيدى القلة - قلة عقيمة التفكير، ماكرة وقادرة - لتكون منطلقاً للفرقة والتحزب وإشعال الحروب. حتى باتت كل حروب كوكبنا "مقدسة". أى وجد لها مريدوها ومشعلوها أسباباً مقدسة. فقدسوا الأرض، وتراب الأرض، والدماء التى ترويها، والأدوات الجهنمية التى تسفك هذه الدماء. وألبسوا الإرهاب[١٣] لباس الدين

= ومع ذلك لم يتقدم شبراً واحداً فى إنسانيته وأخلاقه، بل هبط تحت خط الصفر الإنسانى، وتدنى إلى ما تحت مستوى الخنازير. وظهر فى نوعنا الإنسانى رجال يملكون الملايين ويشترون الأطفال ليستعملوهم فى قضاء لذاتهم الشاذة ثم يقتلونهم بدون أدنى رحمة (د. مصطفى محمود).

- تلوث الإنسان، وإنحرفت مكوناته، وتألبت عليه غرائزه وشهواته وأنانياته. وأصبحت نفسه ينبوعاً للآثام تزداد كميتها ونوعيتها كل يوم (نيافة الأنبا موسى).

- والفيلسوف الإجتماعى الإنجليزى توماس هيوز، له تفسيره الخاص للطبيعة البشرية، إذا يراها طبيعة شريرة لا تعرف الراحة فى الحصول على القوة. ويدفعها الخوف والتنافس لتحقيق ذاتها بكافة السبل.

(*) ومثال ذلك ما يحدث الآن، فى عصر المعارف والمعلوماتية، والتكنولوچيا الذكية، إذ إنتشرت قرصنة من نوع جديد هى تخريب الكمبيوتر والإنترنت، بنشر "الڤيروسات" التى تدمر مخزونها من المعلومات، أو تشويهها وتحريفها، مما يتسبب فى إرتباكات وأخطار جسيمة وخسائر فادحة.

(١٣) أثبتت الدراسات التى قامت بها كوكبة من أساتذة التاريخ والسياسة والإجتماع فى مصر، بتكليف من المجلس الأعلى للثقافة، أن الإرهاب تاريخ قديم، وأنه ما من عصر إلا وشهد هذه الظاهرة المقيتة، وعانى منها على مستوى الدولة والمجتمع، إبتداءً من العصر الفرعونى، ومروراً بالعصر الإسلامى الوسيط، وإنتهاءً بالعصر الحديث، سواء فى مصر أو فى الإمبراطوريات القديمة والحديثة. على أن الجديد فى الحركات الإرهابية الحديثة - وهو ما يميزها عن الحركات الإرهابية القديمة - هو توجيه ضرباتها العشوائية الجبانة إلى مدنيين عزل وأبرياء، بغرض التهويل من أعمالها والضغط على خصومها. ومن سوء الحظ أن التقدم التكنولوچى قد هيأ لجماعات الإرهاب قوة تدميرية جبارة لم تكن تتوافر إلا للحكومات والجيوش وقوات الأمن. قارن أسلحة اليوم بالخناجر المسمومة، مثلاً، التى استعملتها جماعة النزارية (العصر الإسلامى الوسيط) فى قتل غرمائها. وتنكروا فى زى الصوفية، وإرتدوا مسوح الرهبان، وتخفوا فى زى الجنود، للوصول إلى أهدافهم. وكانوا يعتبرون أنفسهم أمة مميزة صاحبة رسالة بينما العالم حولها دار حرب وكفر يجب قتال أهله حتى يقبلوا هذه الرسالة.

- وهناك دراسة حديثة تقول إن العنف عرف طريقه إلى الشرق الأوسط منذ إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. وأن العنف السياسى بين جماعات الإسلام السياسى والمجتمع المدنى فى مصر، بدأ من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وتركيزاً منذ بدء حكم الرئيس الراحل السادات، وتحديداً من عام ١٩٧٧، وهو عام الطلاق بين هذه الجماعات وبين النظام الذى كان يحتضنها.

- ويمكن القول إنه فى أغلب بلاد العالم قد حلت الجريمة محل الحروب بين الدول. وصارت الجريمة ومعها حركات التمرد السياسى أهم مصادر التهديد للدولة المعاصرة، والتى من مظاهرها أيضاً شيوع العنف فى المدن.

الفضفاض، وجعلوا منه دعوة مفتوحة للغدر وإزهاق النفس، من أجل "تطهير الأرض"، وكأنها طوفانات صغيرة بدون نوح وفكره المقدس. فالتقوا فى أساليبهم وأفعالهم مع عتاة الجريمة المنظمة و"مافيا" اللصوصية والمخدرات والدعارة.

وهناك موقفان للسيد المسيح يتأكد من خلالهما عجز الطبيعة البشرية - بدون النعمة الإلهية - عن أن تنسجم مع العوامل والمؤثرات السامية التى تسعى إلى تغيير نمط الحياة على كوكبنا:

- «ولما كان فى أورشليم فى عيد الفصح آمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التى صنع. ولكن يسوع **لم يأتمنهم** على نفسه لأنه كان يعرف الجميع. ولأنه لم يكن محتاجاً أن يشهد أحد عن الإنسان لأنه علم ما كان فى الإنسان» (يو ٢ : ٢٣-٢٥). أى كما قالت التوراة «كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم» (تك ٦ : ٥).

- فى معرض تأكيده أن الله ينصف مختاريه الصارخين إليه، قال «ولكن متى جاء إبن الإنسان ألعله يجد الإيمان على الأرض» (لو ١٨ : ٨). والإيمان هو عطية الله (أف٢ : ٨)، وهو الذى يعلى من شأن القوى النفسية العليا، ليعطى التوازن فى الإنسان مع الجسد الهيولى وغرائزه. وغيابه يعنى فقدان هذا التوازن.

ويستكمل بولس الرسول الصورة فيقول لتلميذه الأثير عنده، تيموثاوس، «ولكن إعلم هذا أنه فى الأيام الأخيرة ستأتى أزمنة صعبة. لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم محبين للمال متعظمين مستكبرين غير طائعين لوالديهم غير شاكرين دنسين. بلا حنو بلا رضى ثالبين عديمى النزاهة شرسين غير محبين للصلاح. خائنين مقتحمين متصلفين محبين للذات دون محبة الله. لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها» (٢تى٣ : ١-٥). ويضيف الرسول يهوذا قوله «فى الزمان الأخير سيكون قوم مستهزئون سالكين بحسب شهواتهم وفجورهم. هؤلاء هم المعتزلون بأنفسهم نفسانيون لا روح لهم» (يه ١٨). ويتفق هذا مع ما يقوله كتّابنا عن عصرنا الحاضر «العصر الذى فقد فيه الإنسان روحه، فلم يعد قادراً على أن يحب أو يفرح أو يحلم ... ولا نظن أن البشر كانوا نهمين فى عصر مضى كما هم نهمون الآن، متهافتون على إشباع غرائزهم الدنيا، يلوثون

ضمائرهم، ولا يغسلون حتى أيديهم. يقتلون الأشجار، ويسممون الأنهار، ويجعلون بينهم وبين السماء سدوداً... ويسود قحط روحى ترد عليه الطبيعة بقحط مثله[١٤].

ويقول فيه كاتب آخر " العالم يتحول بالتدريج، وبطريقة شيطانية خبيثة، إلى عالم من البيع والشراء والتسويق والتربح، والجرى وراء المكاسب والعائد والإثراء السريع، دون أى إعتبار لأديان أو أخلاق أو مبادئ أو مثل عليا. وبدون أفق للشبع، وبدون حد للقناعة. النفوس تحولت إلى جوع أكّال إلى المادة. تحجرت القلوب وضمرت العواطف، واختفى النبل وضاع الحب ومات الخيال. الإنسان أصبح أكثر قسوة، وجرائم اليوم أصبحت أكثر وحشية وأكثر غلظة بما لا يقاس بجرائم الأمس. حدث هذا التحول لإنسان اليوم ببطء ودون أن يدرى. وبينما هو يتصور أنه يتقدم ويتحضر.

ويتأمل **"سان"** هذا الوضع المأساوى بأسى ويتساءل: كيف يمكن إذن إصلاح العالم والطبيعة البشرية على هذا النحو من العجز والتدهور؟ وكيف يسوغ الحديث عن نظام عالمى جديد سواء فى الحاضر أو المستقبل؟ إن الذين يحاولون الإصلاح، إن صدقت نواياهم، يتجهون عادة صوب "طبيعة الإنسان" يريدون تغييرها أو ترويضها، باعتبار هذا هو المفتاح الحقيقى للتغيير والتطوير. فتصدمهم حقيقة سافرة تدعوهم أن يبدأوا أولاً بأنفسهم، مما يستدعيهم أن يواجهوا ذواتهم، وهى مواجهة ساخنة سرعان ما تقنعهم بأن أقصى ما يمكنهم إنجازه هو مجرد تغيير "المناخ" العام، بأمل أن تذبل الأشواك وتموت، أو

---

(١٤) توجد صورة رسمت لمجتمع الإنسان، منذ قرابة ألفى عام، تنطبق على إنسان اليوم بقدر ما إنطبقت على إنسان ما قبل الميلاد: لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله بل حمقوا فى أفكارهم وأظلم قلبهم الغبى. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء. وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى والطيور والدواب والزحافات... لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان. لأن إناثهم استبدلن الاستعمال الطبيعى بالذى على خلاف الطبيعة. وكذلك الذكور أيضاً... فاعلين الفحشاء ذكوراً بذكور... مملوئين من كل إثم وزنا وشر وطمع وخبث مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وسوءاً. نمامين مفترين مبغضين لله ثالبين متعظمين مبتدعين شروراً غير طائعين للوالدين. بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة. الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل يُسرّون بالذين يعملون (رسالة بولس إلى أهل روميه ١: ٢١-٣٢).

وما يردده رجال الدين والأخلاقيون عن "وثنيات جديدة" هى فى الواقع ليست جديدة. فرحْم العالم ولود منذ بدايته، ومواليده تتماثل فى القبح من جيل إلى جيل. الاختلاف فى "التوصيف"، سواء فى المفردات والمسميات أو ألوان التصوير.

تنحسر قليلاً، لتفسح المجال للورود الحمر والزنابق البيض أن تتقافز إلى السطح، واهبة مسحة أو لمسة من الجمال المفقود.

- ٣ -

وواقع الحال، أن ما جرى ويجرى فى كوكبنا، منذ أزمنة سحيقة، هو مجرد **عمليات تجميل متناثرة**، للتخفيف من التشوه والقبح اللذين تفرزهما الطبيعة البشرية دون هوادة. والذين قاموا ويقومون بهذه العملية الفذة أناس ملهمون، لديهم الملكة الذهنية القادرة على الخيال. فالتخيل هو "تلسكوب" فى أعماق الزمن يمكنهم من استنباط ما لا يرى مما يرى. وقد جعلت منهم إلهاماتهم هامات وقمماً فى مسيرة الإنسانية. ودورهم - مثل الأنبياء الذين "عاينوا" الله، والعلماء والفلاسفة الذين يسعون وراء أسرار الحياة والكون - هو الريادة بالفكر، بالقلم، بالفرشاة، بالنغم، وبفك رموز المضامين الجوهرية المودعة فى عمق إنسانية الإنسان، التى تحتفظ بها قبساً من نور مهندس الكون ومبدعه. وهم لا يكفون عن إبتكار أدوات لمزيد من المعرفة، ولمزيد من الابتكارات، ولمزيد من السبل لتجميل الحياة. وداروين يقول إنه على الرغم من أن كوكب الأرض يدور حول نفسه فى مدارات ثابتة منضبطة، وفقاً لقوانين الجاذبية لنيوتن، فإننا نحن البشر نخرج من جلودنا ونتطور. وهذا التطور النبيل هو الذى يخفف من قبح ما يجرى فى العالم، ويضيف بعضاً من ملامح الجمال.

ومنذ دخل إنسان العصر الحجرى القديم (٣٠٠٠٠ سنة ق.م) الكهوف يمارس فنه البدائى، يرسم على جدرانها رسوماته وتشكيلاته، فى إفريقيا وأوروبا[١٥]، وخيوط الجمال تمتد دقيقة رقيقة، محتفظة بمسيرتها الحثيثة، رغم المواجهات الحادة عند المنعطفات التاريخية الصعبة، حيث يتربص بها القبح ليقطع أوصالها.

وهى، مثلاً، حين حلت بمصر القديمة جعلت من المصرى "الفنان الرائد" صانع

---

(١٥) وأيضاً فى أسيا (التبت) وأمريكا اللاتينية، وعمرها ثلاثون ألف سنة. وترتبط بطقوس الصيد. ورغم بدائيتها (بساطة أدواتها وخاماتها) فهى إبداع إنسانى، وتعبير عن ملكات جمالية خبيئة توحى بسلطان الجمال وحيويته.

الجمال. فأقام على سطح كوكبه، أجمل ما بُنى، وأجمل ما نُحت، وأجمل ما رُسم ونقش، وأبدع ما لُوّن بألوان مبهرة، تتناغم مع كل عناصر التشكيل، كأنها ترتيلة سماوية، ومازالت تحتفظ بروعتها رغم مرور آلاف السنين. وملأ أرضه معابد وأبهاء ومسلات لم يضاهها شئ حتى اليوم فى عظمتها، وفى عمق ما إنطوت عليه من فلسفة وأسرار. والذين يدّعون أنه جاء من "كوكب" آخر يشرفونه لأن واحة الجمال التى أوجدها هى "بدعة أو فلتة" فى عالم قبيح. وعبرت حكمته وعلمه وفلسفته إلى أرض اليونان، مع ما جاءها من ربوع آسيا، فوجدت فى المدينة/ الدولة، وفى ديمقراطية الحكم والحوار المفتوح، فرصتها لتزدهر وتبدع قمماً فى الفكر والفلسفة، بقامات سقراط وأفلاطون وأرسطو، هى بمثابة منارات عالم اليوم والغد، ولآلئ فى جيد عالم مبتذل.

وجاء بوذا وكونفوشيوس وأمثالهما فانطلق شعاع من الجمال، نسكاً وحكمة ولمسة إنسانية. وجاءت اليهودية بالناموس والأنبياء، والمسيحية بالحب والفداء، والإسلام بالسماحة والإخاء، فانتشرت جزر الجمال كحصون تصد عن الكون عاديات القبح، وإن كانت ثلاثتها لم تسلم من غدره ومحاولات تسيده، فالمسيحية، مثلاً، كان من الجميل فيها إنطلاقتها بالبساطة وفكر التحرر الروحى ودعوة للتأمل فى المصير الأبدى، فغزت دون سلاح، وسبحت ضد تيار القوى الزمنية، إلى أن ركب موجتها، فى القرن الرابع، ملك له تطلعاته السلطوية، فأفسد من مناخ براءتها وعفويتها، وقلص من مسافات إبتعاد مؤسساتها التقليدى عن الدنيوية، وعمّا فى السياسة وشهوات السلطة من مأساوية. ومن ثم قامت فيها سلطات تشبهت بالأمراء والنبلاء والأباطرة، وتدثرت بعباءاتهم وطيالسهم وموشياتهم، وحملت صولجاناتهم، فكان ما كان مما سجل عن باباوية القرون الوسطى وغيرها.

وكانت الرهبنة ثم الصوفية، بجوهرهما ونسقهما، بمثابة احتجاج على كل ما يقبح الحياة التى أبدعها الله. ودعوة مساندة للجمال ومشايعة له، فى أطر التجرد من الذات والهوى، والإصرار على العطاء حتى المنتهى.

وإنبثقت ومضات جمالية فى الأندلس والمشرق العربى، شعراً وفناً ومعماراً وعلوماً، بينما غمة العصور الوسطى سائدة فى أوروبا. وإنتشرت نفحات المبدعين، أمثال ابن رشد

وابن سينا والفارابى وابن خلدون والحلاج، فبددت بعضاً من لفحات القبح التى عصفت مع غزوات المغول والتتار والفرنجة.

وعندما أمسك دافنشى وأنجلو بالفرشاة يخطان الألوان على الجدران واللوحات، إنفتحت كوة من البهاء، وصدحت موسيقى هندل وموزارت وبيتهوفن وڤانجر ومن جاء بعدهم أمثال شوبان وفردى، فتعانقت مع الألوان، وترنح القبح حيثما كان. وإنطلقت طاقات من نور العلم والفلسفة والشعر، حملت مشاعلها كوكبة من العلماء، من جاليليو إلى أينشتين، مروراً بنيوتن وداروين وباستير، وإديسون الذى أنار مدننا وبيوتنا وعقولنا أيضاً، ومئات غيرهم من الفرسان. ومن الفلاسفة والأدباء والشعراء، من الكسندر بوشكين فى الشرق الأوروبى إلى شكسبير فى الغرب، مروراً بدانتى وڤولتير وغيرهما. وامتدت أيدى بعضهم إلى تراث اليونان والرومان تعيد نشره، أو تحاول النسج على منواله. وخرج الرواد والشجعان يكتشفون الأراضى النائية والقارات المجهولة، وحصلوا من المعارف والخبرات ما لم يسبقهم إليها غيرهم. وقامت الثورات ضد الطغيان والاستبداد، من أجل الإنسان المغبون، فاتسعت قليلاً مساحات العدل والنبالة. وبدأ القرن العشرون بآمال عريضة فى أن يتألق الجمال، ويحاصر القبح فى زوايا النسيان. ومتى كانت الآمال تكفى لتحقيق مثل هذا النصر العزيز؟!.

إن صانعى الجمال ومفجرى الإبداع هم صمامات الأمن لكوننا المتأرجح، وهم بصيص الأمل لنجاته حتى لا يسقط من حالق. وهم مشاعل نوره فى ليله الحالك، ومعهم سحابة مضيئة من شهود الإيمان، وحراسه وحفظته فى كل عصر ودين، الذين أكدوا وتأكدوا أن «الإيمان هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى.. وأن العالمين أتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يرى مما هو ظاهر... عذبوا ولم يقبلوا النجاة لكى ينالوا قيامة أفضل.. تجربوا فى هزء وجَلْد ثم فى قيود أيضاً وحبس.. رُجموا نُشروا.. طافوا مكروبين مذلين. وهم **لم يكن العالم مستحقاً لهم**[١٦]. وأنى للعالم أن يستحقهم؟!».

(١٦) من رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين (عب ١١: ١ و٢ و٣٥-٣٨).

همومهم لا حصر لها، تحملها قلوبهم المرهفة، تنحصر كلها حول التفكير فى مصير الإنسان، والعمل على إنقاذ الإنسانية وقيمها. هم الصوت الصارخ فى برية الإفتراس والوحشية. وهم نوح يبنى الفلك لتحتمى فيه الإنسانية. وهم دعاة البر يشجعون على التوبة، ويحذرون من نهاية عالمهم بإنحلال عناصره وتفكك قوائمه. وهم فلاسفة يصرخون «إعرف نفسك» - إبدأ بنفسك. وهم فنانون تمتد أيديهم إلى "مادة" الكون، يحاولون إبداع وعى جديد، وعى لامخلوق، ينطلق به العالم نحو النجاة.

يؤرقهم ما تراه عيونهم من إنحدار القيم الإنسانية، بأسرع مما تدعيه الحضارة من "صعود مستمر" نحو ما يقال من التقدم والتمدن. وما تشاهده من إنهيار مجتمعات بأكملها تحت سيطرة الجريمة والجريمة المنظمة والابتزاز والإرهاب والمخدرات والنخاسة الجديدة، وما إلى ذلك من بشائع ظن الإنسان يوماً أنها سقطت وواراها التراب.

ويقلقهم ما يتردد عن "نظام عالمى جديد"، كنوع من خداع النفس، أو عجز عن إدراك حقائق الواقع. فأى جديد ينتظر عالماً إنقلبت فيه الموازين والمعايير، يدب فى أعضائه شلل وئيد من المخاوف والهواجس التى يثيرها الانفلات الرهيب، الذى يتفشى فى كل أوصاله، ويهدد كل ما يعتد به من منجزاته؟!.

إنه عالم "بوكاسا" - وأمثاله - الذى كان "نفراً" فى الجيش الفرنسى أيام الاحتلال، ثم استولى على الحكم فى بلاده عام ١٩٦٦، وأعلن نفسه إمبراطوراً لإمبراطورية صحراوية (١٩٧٥) فى حفل باذخ كلف بلاده الجائعة ربع ميزانيتها السنوية. وكان أعظم أعماله أكل لحوم أعدائه(١٧) من البشر، يضعها فى الثلاجات تحت الطلب! وعاصره فذ آخر فى يوغنده هو عيدى أمين، الذى كان يأكل أكباد ضحاياه بعد قتلهم، وبلغ عدد من قتلهم أثناء حكمه حوالى ثلثمائة ألف من أبناء وطنه. وهناك ثالث لهم هو "موبوتو" الذى تربع فوق السلطة فى زائير لأكثر من ثلاثة عقود، بدد خلالها ثرواتها، وخرب عمداً بنيتها

---

(١٧) وفى ليبريا، بإفريقيا أيضاً، وقف "صموئيل دو"، رئيسها الأسبق، فى ميدان عام إكتظ بجماهير غفيرة وهو يمضغ بين شفتيه قطعة من لحم الجنرال "توماس" بعد ما إغتاله لتدبيره إنقلاباً فاشلاً ضده. وكان "دو" مجرد جندى صف أمى، إغتال الرئيس "تولبت" فى غرفة نومه عام ١٩٨٠. وجاء دوره فاغتيل عام ١٩٩٠، وإنفتح الباب لتأكل القبائل الليبيرية لحوم بعضها ويدفع الشعب البائس الثمن باهظاً.

التحتية ليقطع أوصال بلاده ويشلها عن التحرك ضده، وعمم الخوف والفقر فيها وأثكل الأمهات. أما فى آسيا فيكفيها "بول بوت"، زعيم "الخمير الحمر" فى كمبوديا، ومن كبار سفاحى العالم حديثاً الذى أباد ثلاثة ملايين كمبودى باسم الاشتراكية خلال سنوات حكمه الخمس (١٩٧٥-١٩٧٩)، مقتفياً آثار "ستالين" الذى قيل إنه أعدم أكثر من ٢٥ مليون مواطن سوڤيتى.

وهو عالم إنحدر إلى الدرك الأسفل باغتياله براءة الأطفال، ليهئ لنفسه مستقبلاً أكثر سواداً وتعاسة. فقد كشفت الشبكة السرية الكبيرة لاستغلال الأطفال فى أعمال منافية للآداب، فى بلچيكا (أغسطس ١٩٩٦)، عن مأساة ضخمة فى العالم، ظهرت أبعادها فى المؤتمر الخاص الذى عقد فى السويد برعاية اليونيسيف، والذى قدر عدد الأطفال الذين يعملون بالدعارة فى العالم بمليون طفل سنوياً، ثلثهم من آسيا، وتبدأ أعمارهم من ثلاث سنوات ولا تزيد على خمسة عشر. وقد إنكشف سر هذه الشبكة البلچيكية مصادفة، عقب إختفاء عدد كبير من البنات القصّر خلال فترة قصيرة. وقد ضمت فى عضويتها شخصيات بلچيكية بارزة.

إنه عالم يسمح لحفنة من الأغنياء عددهم ٣٥٨ ملياردير اً أن يتحكموا فى ثروة تعادل ثروة ٤٥٪ من سكانه (٣ر٢ مليار نسمة) مجتمعين[١٨]. ويترك الرأسمالية، التى قيل إنها خرجت للتو منتصرة، تتوحش وتنبش أظافرها فى جسم الطبقات الفقيرة، وتصدر من التشريعات ما يؤدى إلى تقليص ميزانيات الضمان الإجتماعى والصحى والمساعدات الاجتماعية التى يستفيد منها الفقراء، حتى يزدادوا فقراً وبؤساً، وهم فى الكتب السماوية "أحباب الله". وبينما يستحوز ٢٠٪ من سكانه الأعلى دخلاً على ٧ر٨٢٪ من الناتج الإجمالى العالمى، يقتسم الباقى بمقدار ١٤٪ للأقل دخلاً ونسبتهم ٤٠٪ من السكان، و٣ر٣٪ للأفقر دخلاً ويمثلون ٤٠٪ أخرى. ومن عجب أن الفرق بين دخل شريحة الأكثر غنى فى العالم وشريحة الأكثر فقراً بلغ ٣١ مرة عام ١٩٦٠، ولكنه قفز ليصبح ٨٣ مرة عام ١٩٩٨. أى أن النظم والسياسات القائمة تؤدى إلى أن يزداد الأغنياء ثراءً ويزداد الفقراء فقراً وتعاسة.

---

(١٨) تضم دول مجلس التعاون الخليجى ١٨٥ ألف مليونير يبلغ مجموع ثرواتهم حوالى ٧١٨ بليون دولار.

وهو عالم لا يختلج فيه عصب وهو يطالع الإحصائيات اليومية التى تقول إن أكثر من مليار من سكانه (١ر١ مليار) يعيشون تحت خط الفقر[١٩]، ويتزايدون[٢٠] فى إفريقيا ليصلوا إلى ثلث سكانها مع بداية القرن الحالى. وأن هناك أكثر من ثمانمئة مليون جوعى. مع أن تقارير الأمم المتحدة تقول إن العالم يملك الموارد والمال والمعرفة والتكنولوچيا لاستئصال الفقر ولإطعام ١٢ مليار نسمة، ولكنه يفتقر إلى الحنكة السياسية. والذى لم تقله هو إفتقاره إلى الأخلاق والقيم الإنسانية، وإلى ضرورة تجاوزه حافز الربح، و"**أنسنة**" آليات الرأسمالية. فرغم هذا الفقر الموثق رسمياً نجد مثلاً مؤسسات السوبرماركت فى الدول الأوروبية تستغل مزارعى العالم الثالث، فتعلن منظمة كرستيان آيد Christian Aid أن عائدات عشرة منها فى بريطانيا تعادل دخل أفقر ٣٥ دولة فى العالم. ومع علمها بأن المزارعين الذين تتعامل معهم يعيشون فى ظروف إنسانية قاسية، فهى تضغط عليهم وتستغلهم لتحصل على منتجاتهم بأبخس الأثمان، لتبيعها فى بلادها بأعلى الأسعار، لتحقق أفحش الأرباح. وهو نفس الأسلوب الذى تتبعه الصناعات الكبيرة مع المواد الأولية التى تستوردها من العالم الثالث (عالم الجنوب)، وما ترتكبه الشركات الكبرى عابرة القارات.

هذا إلى جانب الخلل السافر فى علاقات التبادل بين الشمال والجنوب. ففى عام ١٩٩٠، مثلاً، دفعت الدول النامية ٧ر٥٤ بليون دولار أمريكى فوائد على قروض مستحقة السداد للدول الغنية التى لم تتجاوز معوناتها التى قدمتها لهذه الدول النامية ٣ر٤٥ بليون دولار.

---

(١٩) فى تقرير لمنظمة "أوكسفام" الخيرية البريطانية، صدر عام ١٩٩١، جاء أن طفلاً صغيراً يموت كل ٢٤ ثانية فى العالم بسبب الفقر، وأن ١٤٠ ألف طفل دون الخامسة يموتون من الجوع والمرض كل ثلاثة أيام. وفى تقرير حديث للأمم المتحدة يُنتظر أن يصاب مليار طفل بأنواع مختلفة من الإعاقة بسبب سوء التغذية خلال العقدين القادمين، وهو ما يعد أمراً غير أخلاقى فى عالم يتصف بالوفرة.

(٢٠) يتوقع تقرير صدر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية أن يقع نصف سكان العالم فريسة للفقر المدقع عام ٢٠٠٠، وأن يتفشى الفقر بين مختلف الطبقات وفى جميع أنحاء العالم. ومن عجب أن عدد الفقراء فى بلد متقدم كفرنسا يقدر الآن بأكثر من مليون نسمة، ويتوقع زيادته بمعدل ٥٪ سنوياً. كما أن ثلث أطفال بريطانيا يعانون الفقر، ويعيش ٢٠٪ منهم فى أسر يعانى أفرادها البطالة. ويبلغ عدد الذين يعيشون تحت خط الفقر فى الإتحاد الأوروبى خمسين مليوناً، بينما عددهم فى الولايات المتحدة الأمريكية ثلاثون مليوناً.
وعموماً الفقير غائب وإحتياجاته مهملة للغاية. فالمنتدى الدولى للصحة، مثلاً، يقول إن ما يخص أمراض الفقراء من الإنفاق السنوى على أبحاث الصحة هو ١٠٪ فقط من ٥٦ بليون دولار، تذهب بقيتها على الأبحاث الخاصة بأمراض الأغنياء

وعموماً هناك سبعة أسباب تتحمل حكومات الدول النامية مسئولية ثلاثة منها هى: إنعدام الديمقراطية، وتجاهل البيئة وإهدارها، وتجدد الصراعات العسكرية. أما الأسباب الأربعة الأخرى فهى من نصيب الدول المتقدمة وهى: الديون التى يستحيل سدادها، والشروط التجارية المقيدة، والإفراط فى استهلاك الموارد الطبيعية، وسياسة المساعدات غير المتوازنة، إلى جانب سوء معاملتها للبيئة أيضاً.

وهو عالم لا تحركه إلا وهنا صور القتل الجماعى، بسبب التعصب الدينى أو العرقى أو السياسى: آلاف فى البوسنة والهرسك وبعدهما كوسوفا، ومئات الألوف فى رواندا وبروندى، إلى جانب ما يقع من ضحايا فى أوطان أخرى مثل الصومال وأفغانستان وليبريا وسيراليون وغيرهما. ففى السنوات العشرة (١٩٨٩-١٩٩٨) إنفجر ٦١ نزاعاً مسلحاً كان منها ٥٨ نزاعاً أهلياً داخلياً بين الشعب الواحد.

وهنا تبرز قضية السلاح حيث لا تطبق المبادئ الأخلاقية على مورده ومستورده على حد سواء. وهذه القضية بالذات تؤرق الضمير الإنسانى الحى، لأن المستورد، فى أغلب الأحيان، فقير يحتاج إلى رغيف الخبز، ولكن تجاره وسماسرته واسعو الحيل فى خلق حاجته إليه، أو إغرائه به لإغراقه فيه من أجل أرباحهم الفاحشة. والولايات المتحدة وإنجلترا، مثلاً، اللتان تتحدثان عن الديمقراطية، لا تكفان عن تزويد أعداء الديمقراطية بأدوات القمع، وتشجعان الدول النامية على إهدار مواردها المحدودة على شراء الأسلحة لتكون ضحاياها من أبنائها المدنيين الأبرياء. فمنذ ١٩٩٠ وحتى ١٩٩٦ تم تحويل ما قيمته ١١٥ بليون دولار من الأسلحة إلى البلدان النامية، أى بمتوسط ٢٣ بليون دولار سنوياً، باعت الدول الصناعية المتقدمة ما يزيد على ٩٠٪ منها.

وهو عالم من المفارقات: هناك مفارقات فى التطور العلمى والتقنى بين شعوب وشعوب. وبين التطور التقنى وتطور الأفكار والنظم. وبين التطور التقنى والتطور الخلقى. وبين مطامح الشعوب وقدراتها. وبين الشمال والجنوب، وبين الجنوب والجنوب، وبين الشرق والغرب. والمحاولات الجادة المخلصة لتقليص هذه المفارقات محدودة، من جانب القادرين ومن جانب المحتاجين على حد سواء.

وهو عالم يتستر على النفاق، فتنتشر إزدواجية المعايير والكيل بمكيالين، فى ميادين

حيوية مثل حقوق الإنسان وتطبيقات القانون. تستوى فى ذلك الدول المتقدمة الكبيرة أو الصغيرة والنامية، حيث تعانى الأقليات، أو المهاجرون من ثقافات أخرى، أو السكان الأصليون كالهنود الحمر والأبورجين واللابز وغيرهم. وهناك مثلاً من يُهدر دمه إذا إرتد عن دينه، فإذا إرتد جاره عن دينه أقيمت الأفراح. وقد تُقتل فتاة لأنها تزوجت من غير دينها، فإذا فعلت ذلك أخرى - قد تكون زميلة لها - صارت من المحظوظات. والمسلسل طويل ومفزع من صور نفى "الآخر" أو استبعاده، أو إهدار حقوقه، أو حتى القضاء عليه. وهو مسلسل مرشح للاستمرار لوجود أزمة "هوية" فى جميع المجتمعات المعاصرة على الإطلاق، سواء كانت متقدمة أو نامية، قد تؤدى إلى تفتيت المجتمعات، وتقسيم الدول إلى طوائف شتى. كما أن تعبيراتها الثقافية قد تؤدى إلى شيوع الفكر المتطرف وما ينجم عنه من إرهاب يضاعف من مآسى "الآخر". مما حدا بالبعض إلى التهكم من تعبير "القرية الكونية"، التى تحول إليها العالم، بإعتبار أنه، فى الواقع، فى طريقه لأن يصبح "غابة" قوامها التخلف والردة السلفية والتقوقع ليصبح مجالاً لصراع الأقليات والعرقيات.

وهو قد أرسى ثوابت النظام الإقتصادى العالمى الحالى فى إتفاقية "برتن وود"، فى نهاية الحرب العالمية الثانية، لتفادى الأزمات التى تصيب الكبار، على غرار أزمة الثلاثينيات الطاحنة (الكساد الكبير)، التى مهدت لظهور النازية وإشتعال الحرب العالمية الثانية. فأنشئ صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، وجرى التوحيد بين الإقتصاديات الكبرى. وكانت النتيجة أن العالم الفقير إزداد فقراً وتخلفاً. وها هو يعاود التمهيد لنظام جديد بإعادة الهيكلة، والتخصيصية، وحرية التجارة والاستثمار العالمى، والعولمة، وتقليص دور الدولة فى "القرية الكبيرة"، وإنفراد قوى السوق، وإزالة الدعم والحماية. ويُخاف أن تكون هذه الترتيبات لصالح أقوى الإقتصاديات وأغنى الدول فى العالم، لا للصالح العام. ومما يدعم هذا الخوف أن نمو التجارة فى الحقبة الراهنة ذهب النصيب الأكبر من مكاسبه للدول الصناعية الكبرى، بنسبة مائة إلى خمسة. فعندما بلغت حصته ٢٦٢ بليون دولار كان نصيب الدول المنخفضة الدخل ١٣ بليون دولار فقط.

والثابت أن الفاشية والشيوعية كانتا نتاج فشل الديمقراطية الليبرالية فى أن تحقق التوقعات منها، مما أدى إلى الفقر والبطالة. والخوف أن يقود أى نظام عالمى جديد، تدق

الأجراس له من الآن، إلى فوضى عالمية مماثلة، مما يؤكد، مرة أخرى، أن الذى يدفع الثمن، عند كل تغيير أو دورة فى التاريخ، هو الفقير والمهمش.

وها هو الإرهاب[٢١] وبلاء المخدرات[٢٢] تحاصرانه بعنف، وتشهدان على المدى الذى تردى إليه. لأنهما فى واقع الحال بمثابة عرضان للمشاكل التى أوقع نفسه فيها، مثل تزايد الفقر وعدم المساواة، واستمرار الحرمان من الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان الأساسية، واستشراء الفساد، والإساءة البالغة إلى البيئة.

ثم إنه عالم دأب على خنق الضمير الحى فى أى "سقراط"، وإسكات صوت دعاة السلام، وأنصار إنسانية الإنسان. ويكفينا، مثلا معاصراً، ماحل بأمير المفكرين وعميد فلاسفة العصر، وداعية الحرية والعدل، برتراند راسل، الذى خرج إلى طرقات لندن يقول «لا للحرب»، فاتهموه بالخيانة والعمالة. وحاكموه فيما بعد، وزجوا به فى السجن لمدة ستة شهور، عام ١٩١٨، لأنه كتب مقالاً يحذر فيه بلاده من كارثة استمرار الحرب.

- ٤ -

العولمة

إن الجديد فى موضوع "العولمة"، كما يبدو، هو الكلمة ذاتها التى نُحتت حديثاً، والتى لا أظن أنها موجودة فى معاجمنا المعهودة. فهى مصدر/ مفعول مطلق صيغ من الفعل "عولم" على وزن "فوعل"، والذى اشتق من إسم هو "العالم" على غير المألوف النحوى. وهو فعل إرادى قصدى، ينطوى على معنى "فوقى" أحادى الإتجاه، وهو العمل على جعل شئ ما عالمياً، أى على مستوى العالم كله، بحيث ينتقل من الحيز

---

(٢١) استطاع العنف والتهور أن يسرقا اللذات البريئة التى كان الناس يتمتعون بها. ضاعت مثلاً متعة السفر، وضاعت متعة الذهاب إلى مدرجات الرياضة. ففى استفتاء أجرى فى ريودى جانيرو، بالبرازيل بلاد كرة القدم الذهبية، أكد ٧٠٪ من سكانها خوفهم من الذهاب إلى الملاعب لمتابعة المباريات خوفاً من العنف الذى ينفجر من جانب مشجعى الفرق.

(٢٢) قدرت منظمة الأمم المتحدة عائدات ١٩٩٥ من صناعة المخدرات بـ ٤٠٠٠ مليار دولار، وهو ما يمثل حوالى عشر إجمالى الصادرات العالمية، ويجعلها فى المركز الثانى فى التجارة العالمية بعد صناعة البترول. وتشير الدلائل إلى تزايد ملحوظ فى استهلاك المخدرات، وأن عشر سكان الكرة الأرضية يتعاطونها بإنتظام.

المحدود إلى اللامحدود، وينتشر فى كل الإتجاهات، متجاوزاً كافة "الحدود الجغرافية" الحقيقية والوهمية. أما كلمة "العولمية" فيمكن استعمالها لتشير إلى الأيدولوچية أو العقيدة ذاتها، وإلى نسق العولمة الفكرى وماهيتها، وتاريخها، بإعتبارها نظرية أو حركة. وهى تقابل "العالمية". وبينما تدل العالمية، من واقعها التاريخى، على تفتح الثقافات المختلفة على العالم، مع إحترام الآخر وحق الإختلاف، فإن العولمة مازالت غير واضحة، وإن كانت الشكوك قد أحاطت بها.

ولقد صك الباحث الكندى "مارشال ماكلوهان" فى الثمانينيات، اسم "القرية الكونية" إشارة إلى العالم الذى إنكمش وصار صغيرا بتأثير ثورة الإتصالات التى مكنت الإنسان من الطواف فى أرجائه المختلفة بالضغط على بعض الأزرار. وجرى تداول كلمتى "الكوكبية" و"الكونية" تأكيداً لهذا التطور العالمى الجديد، وإن توارت الأخيرة أو كادت بإعتبار كونها تضخيماً مبالغاً لكوكبنا. ثم ظهرت كلمة العولمة فى أدبياتنا، خاصة فى النصف الثانى من عقد التسعينيات، نقلاً عن الغرب كترجمة حرفية للإنجليزية Globalization(*)، والتى راج استعمالها أثناء حملة كلينتون فى إنتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٢، وبرزت كبشارة بعصر جديد من النهضة والقوة للولايات المتحدة يؤهلها لقيادة العالم.

والعولمية بمعنى ربط أجزاء العالم بعضها ببعض، وزيادة الاعتماد المتبادل بينها، ليست عملية جديدة، فقد حاولتها الإمبراطوريات على مدى التاريخ. وبدأتها الإمبراطورية الرومانية بمدخل سليم وهو بناء الطرق المعبدة الجيدة فى طول الإمبراطورية وعرضها، وهو ما كان يمثل "العالم" المعروف وقتها. إلى جانب ما نشرته من تراث ثقافى وتشريعى فى أوروبا وحول البحر المتوسط. ونفذتها الإمبراطورية البريطانية المترامية بوعى حين اهتمت بالطرق المائية وبنت أسطولين ضخمين، أحدهما تجارى والآخر حربى، وإن كان الهدف الأساسى هو التوسع الاستعمارى، واستغلال مصادر المواد الأولية، والوصول إلى الأسواق.

(*) وهى صياغة حديثة من Globe، من الأصل اللاتينى Globus بمعنى كرة. ومنها Global أى عالمى، وGlobalism وتعنى سياسة أو نظرة بإتساع العالم.

والعولمية، أو بالأحرى العالمية، بمعنى نشر الفكر عبر الحدود ليصل أنحاء المعمورة، عرفتها المسيحية وإعتبرت ذلك من صميم رسالتها[٢٣]. والسيد المسيح نفسه أمر تلاميذه «إذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر ١٦ : ١٥). وتُنعت الكنيسة المسيحية بلفظ "الكاثوليكية" وهى من اليونانية k atholikos (kat = completely; holos = whole)، بمعنى كل الخليقة all universe .

وكانت للقديس أوغسطينوس أفكار تصب فى المسكونية، أو العولمية بلغة اليوم. وكانت إقامة كومنولث مسيحى هى الفكرة المركزية التى ضمنها كتابه "مدينة الله The City of God".

وجاء الإسلام أيضاً برسالة عالمية، وخرجت كتائبه، سواء كانوا من الفاتحين أو الدعاة، لنشر القرآن الكريم وفكر التوحيد الذى جاء به.

والعولمية كمفهوم فلسفى وجدانى إنما تقرب حقيقة وحدة الإنسانية ووحدة المصير، وتؤكد أن خلاصها فى وحدتها، وشفائها أيضاً. بإعتبار أن المرض هو إختلالات فى الجسد تؤدى إلى عدم تماسكه وإنفصام دورته وإهتزاز وحدته. ولعل هذا هو المفهوم الذى إنطوى عليه فكر القديس أوغسطينوس المسكونى.

والعولمية بمعنى توحيد المعايير والتحديدات والمواصفات والأنظمة وتنميطها فى مجالات معينة بدول العالم كله، تقوم به منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتعددة مثل اليونسكو، ومنظمة الصحة WHO ومنظمة التغذية FAO وغيرها، وسبقتها إلى ذلك عصبة الأمم.

ومنذ ظهر الإنسان على كوكبه وهو يتحرك ويهاجر فى أرجائه بغية إكتشافه والتعرف على سكانه. ويطور وسائل إنتقاله لاختصار المسافات وتوفير الوقت. فصنع المحرك

---

(٢٣) ويتضمن سفر أعمال الرسل قصة عمل "الروح القدس" وموهبة "التكلم بألسنة" كى يفهم الناس الرسالة كل بلغته: «إجتمع الجمهور وتحيروا لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته.. فرتيون وعيلاميون.. واليهود وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحى ليبية والرومانيون.. كريتيون وعرب» (أع٢ : ٥-١١).

البخارى، ومحرك الإحتراق الداخلى والمحرك النفاث، واخترع التلغراف والتليفون والتلكس والفاكس والراديو والترانزستور والتليفزيون، وإنتهى الآن إلى الإتصال اليكترونى بالكمبيوتر والإنترنت والبريد الإلكترونى. ومع كل إختراع جديد تتقارب أقطار كوكبه وشعوبها، وينكمش الكوكب ويصغر. ومكنته ثورة الاتصالات الحديثة من أن يطوف بأرجائه المختلفة بمجرد الضغط على بعض الأزرار وهو مسترخ فى بيته. وهكذا تغير عنده مفهوم الزمان والمكان، بل واتسعت أمامه مصادر المعرفة ووسائل إنتقالها، وسبل الحصول عليها، فتداعت حواجز الجهل والتغييب، وتسارع تفاعل حضاراته وتداخلها، وتقاربت ثقافاته. وساهمت صناعاته العسكرية ذاتها فى تغيير المفاهيم الاستراتيجية، وبددت مثلاً وهم الحدود الجغرافية الثابتة والتى لا يمكن إختراقها. فقد بنت فرنسا خط ماچينو الحصين، بعد الحرب العالمية الأولى، وإطمأنت خلفه حتى فوجئت بالمدافع الألمانية الضخمة بعيدة المدى تلغى الخط وتحوله إلى سراب. أما المقاتلات وقاذفات القنابل والصواريخ فقد جعلت السماوات مفتوحة أمام الجميع.

والطب والدواء كانا فى الواقع من طلائع العولمية. والإسبرين بالذات غزا بقاع العالم منذ عقود عدة، واستقر فى بيوت وجيوب الناس فى مختلف الأصقاع، يعرفونه بالاسم ويعرفون سحره ضد الصداع وغيره من الآلام الخفيفة.

وبرزت قضايا البيئة خلال العقود الثلاثة الأخيرة، واحتلت مكاناً بارزاً فى أدبياته وإهتماماته وهمومه. ودُقت نواقيس الإنذار فى كل الأرجاء تنبه إلى الأخطار التى تهدد بيئة الإنسان الطبيعية: ماءه وهواءه وتربة أرضه ونباته وحيوانه، والبشرية بأسرها. وارتفعت الأصوات تؤكد أن ما يحدث فى بقعة من العالم إنما يؤثر تأثيراً مباشراً وغير مباشر على بقية بقاعه. فالكوكب وحدة طبيعية واحدة، كيان واحد، والبشر أسرة واحدة. وهكذا استقرت صورة العالم الواحد فى الذهن الجمعى البشرى. لم يعد الإنسان مرتبطاً بواقعه المحلى وحسب، ولم يعد يستطيع ذلك لو أراد. لقد صار عالمياً أو "تعولم"، وبات لزاماً عليه أن ينفتح على كل العالم، وأن يأخذ العالم كله فى أعطافه، وأن يحلق كالنسر فى كل آفاقه، فعلاً لا مجازاً، خصوصاً بعد ما غزا الفضاء ونزل على القمر، وبات خياله معلقاً بالكواكب ومجرات الكون.

فالعولمية إذن ليست بدعة أو شيئاً جديداً. إنها نتاج تطور تاريخى تراكمى و "عملية" تاريخية مستمرة، لم تتوقف ولن تتوقف، وليس بإمكان أحد التحكم فيها. فهى أشبه بالتيارات البحرية المعروفة، الدافئة والباردة، أو تيارات الهواء النفاث فى طبقات الجو العليا بتأثيراتها الضخمة على مناخات الكرة الأرضية. وما هو حادث الآن إنما يمثل إحدى محطات قطارها الذى يواصل مسيرته الدائمة نحو آفاق بعيدة، بعضها مرئى الآن، وأما أغلبها فمجهول. وهى تمثل اليوم مرحلة من مراحل التحول الحضارى للبشرية، يشار إليها بعصر ما بعد الصناعة، أو ما بعد الحداثة، أو الحضارة الرابعة بإعتبارها تمثل عصر المعلومات. ويُنظر إليها أيضاً على أنها مرحلة من مراحل تطور النظام الرأسمالى، تشغل الآن مثلث الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية واليابان، وتتميز بتطور الإنتاج المرتبط بثورة الإلكترونيات والمعلومات.

والجديد فيها هو فى الدرجة، ومدى تسارع ظواهرها، التى تهدر حول الجميع فى قوة إعصار، فى عالم يقول فيه أحد كتابنا: قد اتسعت سماؤه بغير حدود، دون نظام للمراقبة والتوجيه يحدد المسارات، ويوجه الحركة، ويحول قدر ما هو ممكن دون صدامات محققة بين كتل بشرية وحضارية تتدافع فى قلق.

ولا يتوقع المرء أن يصيب التطور الذى يصاحبها مختلف أجزاء المعمورة بالنسبة أو الدرجة نفسها، أو فى وقت واحد. فهناك قطاعات تعيشها وقطاعات أخرى لا تكاد تعرف عنها شيئاً. هناك فائزون وهناك خاسرون مهمشون، غالبون ومغلوبون. هناك من أخذوا بها على غرة وإعتبروها تطوراً فجائياً يصعب التكيف معه، وهناك من يعتبرونها مرحلة طبيعية تسارعت خطاها بتنامى قوى الإبداع الإنسانى الذى لا يتوقف. ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى:

(١) التفاوت فى مدى الوعى ومستويات المعرفة وروح المبادرة. فالدول المتقدمة التى تعيشها وتحمل لواءها تتحلى بطاقات من الوعى، وتملك وسائل المعرفة. فالولايات المتحدة الأمريكية تنفق سنوياً على البحث العلمى ١٧٩ مليار دولار، واليابان ١٣٣ ملياراً، وألمانيا ٥٥ ملياراً وفرنسا ٣٦ ملياراً وبريطانيا ٢٢ ملياراً.

(٢) وتعود أيضاً إلى مدى القدرة على التفاعل الإيجابى مع التحديات المترتبة مع

العولمية ذاتها - التفاعل معها برؤية واقعية تقوم على تشخيص موضوعى نقدى لها بإعتبارها ظاهرة وحركة تاريخية. وبصورة عملية تنطلق من حساب دقيق للتكلفة والعائد بإعتبارها تنطوى على فرص ومكاسب، وعلى مخاطر وخسائر أيضاً. وبرؤية مبدئية تسترشد بقيم المجتمع ومصالحه الجوهرية، آخذة فى الإعتبار الهوية الثقافية، إلى جانب العدالة الإجتماعية، والأمن القومى، ومركّزة على التطور الديمقراطى والكفاءة الإقتصادية.

وحين إنطلقت "العولمة" بالذات تلقفها الجزء "المتلقى" من العالم وفهمها على أن الدول المتقدمة تريد أو تتعمد أن "تعولم" رؤاها وفكرها وأنماطها على بلاده. فيدها هى العليا. وصاحب المعرفة "سيِّد" بما يملكه من معرفة. ورأى فيها أيضاً "غزوا" من نوع جديد يسعى لتسييد الحضارة الغربية، أبطاله ونجومه، أو "طابوره الخامس"، هى الشركات الصناعية الكبرى متعددة الجنسية[٢٤]، وشركات التسويق والإعلان، ومراكز البحوث والمال، ورجال الإعلام، والمخابرات أيضاً. وهم يسعون جميعاً لكسب المواطن العادى كمستهلك أولاً، وكموال وداعية ثانياً، سواء بالإقناع أو بالخداع، ومن ثم يصير خاضعاً لهم ولعبة فى يدهم، ويفقد حرية تقرير مصيره.

والواقع أن "البذرة" الأولى لثورة المعلومات والإتصالات، والتى صارت ركيزة التوجه نحو العولمية، كانت بذرة طيبة خيرة. وكان هدفها فعلاً "عولمة" العالم عن طريق تماسكه وتشابك أفكاره ومصالحه وطموحاته، من خلال ربطه بوسائل إتصال تهيء السبل لقيام مجتمعات مفتوحة ومنفتحة، تتواصل مع بعضها، وتشكل مجتمعاً عالمياً يتميز بالشفافية. وهذه البذرة كانت عبارة عن أول نموذج للحاسب الآلى (الكمبيوتر)، تم إعداده أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، ليؤدى تلك المهمة الإجتماعية الرئيسية فى مجتمع الاتصالات، بواسطة العالم "فون نويمان"، أحد المؤسسين لعلم "السبرانية Cybernation"، ودعاة الشفافية بين الشعوب من خلال فتح قنوات الاتصال بينها.

وتطورت هذه "البذرة" إلى شبكات إتصال اليكترونية رقمية Digital ضخمة، تربط

---

(٢٤) المعروف منها خمسمائة شركة إرتفعت أصولها على إمتداد دول العالم إلى ٢ر٣٢ تريليون دولار عام ١٩٩٥، مقابل ٩ر٣٠ تريليون عام ١٩٩٤. وبلغت أرباحها ٤ر٣٢٣ بليون دولار عام ١٩٩٥.

البشر ومؤسساتهم، بصورة لا تعرف الحدود المكانية والزمانية. فكانت بمثابة محطة مهمة فى عملية "تعولم" العالم، دخل بها العالم فى التسعينيات عصر الإقتصاد الرقمى الذى تتلاحم فيه قدرة الحاسبات مع نظم الاتصالات المتقدمة لتعيد هيكلة الأسواق و "برمجة" المستهلكين باتساع العالم.

وصار الباب مفتوحاً "للشاطر" ليستفيد من هذه الشطحة الكبرى. والشاطر شاطر لأنه نهّاز للفرص، يسعى وراءها بكل يقظة، ويخلقها أحياناً إن عزّت. وكان العالم المتقدم، أو الرأسمالى، مستعداً كما ذكرنا. وسارعت نخبه السياسية والإقتصادية إلى تسخير هذه الإمكانات الهائلة والحدود المفتوحة لخدمة أغراضها ومصالحها. والعالم - إذا ما نحينا المثاليات جانباً - ما هو إلا سوق كبيرة، وآليات السوق كما ثبت عمياء دائمة. والناس منهمكون فى عمليات تبادل من كل نوع لا تنتهى. فكل مادة وكل خدمة لها سوق لا تهدأ فيها عمليات البيع والشراء. كان هذا من قديم الزمان وسيستمر حتى يشاء الله. حتى الشعر كان له سوق عرف "بسوق عكاظ". وأعمال الخير المنسوبة لله لها سوق يطلق عليها "السوق الخيرى". بل إن المتطاولين على الدين وعلى أصحابه يرمونهم بأنهم منهمكون فى عمليات مبادلة السيئات بالحسنات والفانيات بالباقيات. فالوازع أو الهدف هو ربح شأن كل ألوان التجارة!.

وقد أحل الله البيع والشراء كنشاط إنسانى لا يمكن أن يتوقف. وأحل الربح "الحلال" أيضاً بإعتباره المحفز الطبيعى لمباشرة هذا النشاط الذى لا يمكن أن يستمر فيه خاسر إلا إذا كان قد خسر عقله. فمن المؤكد أنه إذا إنتفى الحافز وراء الربح تعطل الاقتصاد، وتوقف التدافع البشرى الذى هو سنة الحياة، وتراجع النمو، وتضاءلت فرص العمل.

كان العالم حتى عام ١٩٨٩ ينقسم إلى كتلتين متصارعتين. وكانت "العولمة" كحبة فول من شقين أو "فلقتين" عاجزة عن عبور الحواجز. ثم جاءت لحظة حاسمة غير متوقعة فى تاريخ العالم: سقط سور برلين عام ١٩٨٩، وتفكك الإتحاد السوفيتى عام ١٩٩١، وإنهار بعده معظم الكتلة الشيوعية. ودُقت الطبول للكتلة التى لم تسقط، وإعتبرت نفسها الرابح، بل والرابح إلى المنتهى. ودخلت "العولمة" مرحلة جديدة إذ إندمجت "فلقتاها"، وصار الحديث عن عالم واحد حديثاً معقولاً ومنطقياً، وإنتشرت معها ألوية

"الرأسمالية" المتصرة. وإتسعت أسواقها، وبدأت تفرض ناموسها ومنطقها فى كافة الأنحاء. فالسوق كما ذكرنا هى المحور وبؤرة النشاط الإنسانى التجارى/ الإقتصادى. وبريطانيا العظمى كان يشار إليها باعتبارها "إمبراطورية الدكاكين". والولايات المتحدة الأمريكية كانت التجارة شاغلها الأكبر منذ استقلالها وقيام كيانها. والذى يدرس سوقها الداخلى يكتشف بسهولة كم هى إبتكارية تنافسية إلى أبعد الحدود، ولا مكان للشفقة أو الرحمة فيها. والإفلاس الناجز هو النهاية الحتمية لمن يعجز عن المنافسة أو يفشل فيها. وكانت مثل إنجلترا يشار إليها "بدولة الدكاكين"، أى دكاكين البقالة والنوفوتيه الصغيرة. ثم نشطت فيها حركة فتح "المينى ماركت" بعد الحربين العالميتين، وبدأت سلسلة "السوبر ماركت"، "وسوبر السوبر". وبدأت الدكاكين الصغيرة تتساقط كأوراق الخريف. وفى الخمسينيات كان الكاتب فى "أيوا سيتى" بولاية "أيوا" ولمس معاناة "الدكان الصغير". كان يعتمد فى نشاطه المحدود على الفتح ساعات الصباح الباكر وساعات الليل المتأخرة حين يكون "السوبر ماركت" مغلقاً، فلما صار يفتح طوال الساعات الأربع والعشرين، إختفت الدكاكين الصغيرة وأصحابها كالفئران المذعورة. وهذه هى الصورة التى ستحل بالعالم وأسواقه لو فتحت أمام المنافسة الحرة بدون قيود. ولقد استعدت الشركات والمصارف الأمريكية والأوروبية واليابانية لهذه المرحلة فعلاً، وهى قطاع خاص بالغ النشاط حريص على عدم تدخل الدولة فى الاقتصاد. وتكونت بالاندماج[٢٥] "السوبر مصارف" و"السوبر شركات" متعددة الجنسية، والتى يملك أسهمها مساهمون بامتداد الكرة الأرضية، وتنتج وتبيع فى أكثر من دولة، مستفيدة مما تملكه من عناصر القوى المعرفية والتكنولوچية والإقتصادية، إلى جانب عنصر السبق والمبادرة، إذ كانت ساهرة تدرس وتخطط وتعمل كالنحل، وغيرها يغط فى النوم.

فالعولمة بدايةً برزت فى مجال الاقتصاد، وكنتاج للثورة العلمية والتكنولوچية، ولثورة الاتصالات والمعلومات الهائلة، والتى مثلت نقلة جديدة لتطوير الرأسمالية العالمية، فى مرحلة ما بعد الثورة الصناعية التى ميزت القرنين السابقين. وامتدت أيضاً إلى السياسة والثقافة والإعلام. فالإقتصاد يحتاج، إلى جانب الأسواق، وجود أنظمة سياسية

(٢٥) فى الربع الأول من عام ١٩٩٩ تمت فى العالم الغربى واليابان ٢٥٠ عملية إندماج قيمتها ٤١١ مليار دولار. وفى اليابان كونت ثلاثة مصارف شركة قابضة عملاقة رأس مالها ١٤٢ مليار دولار.

ديمقراطية تحقق الشفافية والرقابة والمحاسبة، وأنظمة إدارية حديثة تضمن الكفاءة والفاعلية واللامركزية، وإلى ثقافة تستند إلى اللبرالية الفكرية، وإحترام الحريات الفردية، وإحترام حقوق الإنسان، وإنتشار قيم التعددية والتسامح والمساواة وقبول الآخر.

وتشير الكتابات والتقارير إلى أن عملية العولمة تسير الآن بخطى سريعة فى كافة المجالات والإتجاهات ويتوقع لها تقرير الأمم المتحدة الإنمائى أن تصل عام ٢٠٠٥ إلى أعماق مهمة، بعد دخول إتفاقية التجارة العالمية حيز التنفيذ. وتبارت الأقلام فى الغرب والشرق وفى منطقتنا، على مدى الأعوام الأخيرة، فى الكتابة عنها، بين مؤيد ومناهض، ومغرد وناعق، ويعرض الجدول التالى خلاصة مركزة لمجمل الأفكار المتداولة عنها:

توصيف عام	توصيف مناقض، ومناهض	ملاحظات عامة
- عولمية المعلومات نمط جديد للتطور والسيطرة والسلطة يعتمد على المعرفة العلمية المتقدمة، والاستخدام الأمثل للمعلومات المتوفرة بوتيرة سريعة، وفرت شبكة تواصل تحتية وفوقية، ربطت كل البشر فى دائرة واحدة مغلقة، أتاحت التفاعل والتداول، وضبط إيقاع الحركة فيما بينهم، وستحدث ثورة معرفية لا سابقة لها فى تاريخ الإنسانية، ستنتج من خلال شبكات الإنترنت وغيرها ديموقراطية فى مجال المعرفة لم يعرفها الباحثون والمثقفون من قبل. - المعلومات ذاتها تراكمية وتؤدى إلى اليقينية. وزيادة المعرفة تمكن من اتخاذ قرارات أكثر، وتساعد على اختيار	- العولمة هى الوافد الجديد الذى فرضته حركة العصر بمستجداتها التى تواكبت مع ثورة المعلومات، والذى بات هاجس البشرية الأكبر وكأنه القدر المحتوم. فهى متهمة بالجشع وعدم العدالة، تدمّر القيم التقليدية والدين والأخلاق فى سبيل تحقيق الربح، وسيكون ضحاياها بالبلايين من الفقراء والمهمشين. - إن المتحكمين فى الإقتصاد المعولم يتصرفون بصورة استعلائية أحادية، متجاهلين الرأى العالمى ومنظماته، ومغفلين الآثار الجانبية البشعة للعولمة وآلياتها. مكتفين بما حققته لهم ثورة المعلومات والاتصالات من الانفراد بالسلطة العالمية من خلال التحكم فى آليات السوق وقوانينها. - العولمة تسير فعلاً بخطى سريعة ولكنها غير عادلة فى أنحاء العالم المختلفة. ومعظم العالم غير مشارك فيها. وتتجه حتى الآن إلى تركيز القوة فى أيد محدودة تتحكم فى أقدار	- إن ثورة المعلومات وشبكة الإتصالات هذه هى التى مكنت المعارضين للعولمة من تنظيم أنفسهم وإعداد برامجهم، ومكنتهم من تجميع حشودهم فى مظاهرات ضد العولمة فى سياتل ودافوس ووشنطن وغيرها، وزودتهم بالمعلومات والبيانات التى ساعدتهم على الإحتجاج بموضوعية وجلاء، مما يسفر عن "دور ثورى" كامن فيها. - وتشكل رأى عام عالمى ضد مساوئ ومظالم العولمة، وإنحيازاً للفقراء والمهمشين، عبر عن نفسه بالمظاهرات العارمة فى سياتل الأمريكية، ودافوس السويسرية،

أكثرها فاعلية. وتعتبر صناعة القرار هى الملك المتوج لعصر العولمة. وتعتمد الآن على قدرات العقول الذكية العملاقة المزودة بتكنولوچيات الحاسبات الفائقة وبركان المعلومات المتفجر دوماً.

- العولمة الاقتصادية تعنى تحرير التجارة الخارجية، وتشجيع تدفقات رؤوس الأموال على المستوى العالمى. والتكيف مع التطور الهائل فى تكنولوچيا المعلومات. وتشكيل عالم واحد بلا حدود. فالسلعة الواحدة، مثلاً، يشارك فى إنتاج مكوناتها عشرات من الشركات من عشرات البلاد، وصارت تنتمى إلى العالم كله. ويشار إلى هذا بـ "المصنع العالمى" الذى تتوزع أقسامه على إمتداد المعمورة.

- وستكون الترياق الشافى من كل داء، العالم. وهم يحتكرون ٨٢٪ من تجارة العالم فى حين لا يمثلون أكثر من ٢٠٪ من سكان العالم.

- إنها تؤدى إلى تهميش الفقراء إلى حدود بعيدة، ويسميها "تشيودوفيسكى" عولمة الفقر. فهناك أربعة بلايين من البشر يواجهون "الإبادة الإقتصادية". فى حين أدت عملية التكييف الهيكلى لاقتصاديات العالم الثالث إلى تمكين أقلية إجتماعية متميزة، فى الجنوب والشرق والشمال من دوله، من تجميع مقادير هائلة من الثروة على حساب أغلبية السكان.

- إنها تهدف إلى تحويل العالم إلى قرية واحدة. ولكن للأسف سكانها يمثلون ٢٠٪ من القادرين المستثمرين و٨٠٪ من الفقراء. وتطبق فيها هندسة إجتماعية هدفها القضاء على مؤسسات التماسك الإجتماعى، وتشكل أولويات الدول فى غير إتجاه الطبقات الشعبية والخدمات العامة

وبانجوك بتايلاند، وهاڤانا بكوبا، وواشنطن ولندن، كما قامت مظاهرات ضخمة مناهضة فى معظم عواصم العالم أثناء عيد أول مايو ٢٠٠٠. وتؤكد الدوائر العالمية الآن، وعلى رأسها مجموعة الـ ١٥ ومجموعة الـ ٧٠ و"الاونكاد"، ومنتدى التعاون الاقتصادى لآسيا والباسفك (أبيك)، تؤكد على ضرورة مشاركة الدول الفقيرة فى وضع القواعد والمعايير وإتخاذ القرارات التى تحدد مصير البشرية، وإجراء ترتيبات أكثر شمولية وشفافية تهدف إلى أن تتمتع جميع الأطراف بفوائد العولمة. كما أن هناك دعوة لوقفة شاملة من أجل تقويم كشف الحساب الكامل

ولكل أزمات الاقتصاد الدولى، والذى سيجلب السعادة والهدوء. - والواضح أن آلياتها وأدواتها تمكنها من تصحيح مسارها، وتصويب أخطائها، والتخفيف من نواتجها غير المرغوبة. وظهرت فعلاً مؤشرات تشجع على هذا الأمل.	الأساسية التى تهم محدودى الدخل مثل التعليم والصحة والإسكان الشعبى. - الجريمة المنظمة كانت أسبق المجالات إلى العولمة. ويشير "فيليب إدجلهارد" إلى الوجه الخفى لها، والذى حصره فى اقتصاد غير صريح-- إقتصاد إجرامى، يتمثل فى عوائد الأموال عن النشاطات غير المشروعة وغسيل الأموال، والتهرب من الضرائب والذى ستسهله السوق الإلكترونية "الإنترنتية" التى يتوقع أن يصل حجم تجارتها إلى ألف مليار دولار خلال السنوات الثلاث القادمة.	لخسائر وأرباح الخطوات السابقة ونتائجها المؤكدة الدافعة لتهميش الدول النامية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.
- ستؤدى إلى توسيع المنظور الإنسانى وتقارب الثقافات. فثقافة العولمة (وليست عولمة الثقافة) تبقى على الخصوصيات الثقافية، بينما تسعى إلى إيجاد حد أدنى من المشترك الثقافى العالمى. على أساس أنه يستحيل إقتلاع الثقافات أو استبدالها.	- إنها الشر ذاته لأنها تود القضاء على الخصوصية الثقافية للشعوب. وهى فى الواقع أمركة بمعنى الهيمنة الثقافية الأمريكية، ثقافة مستهلك عالمية الطابع. وقد فرضت نفسها فرضاً فى مختلف أوجه الحياة. - إنها قدر مكتوب يسوقنا إلى طريق المجهول، وبيده قوى عاتية أطلقت من عقالها. إنها فرض نمط معين من السلوك من جانب الدول الغربية على الدول الأخرى. إنها استعمار جديد.	- الحضارات والثقافات منذ القدم تتفاعل وتتجاذب وتتداخل وتتفاعل كل تطور فى وسائل المعرفة، بدءاً بالمطبعة والكتاب، مروراً بالسينما، وإنتهاءاً بالإنترنت، يساعد على سرعة وتعميق هذا التفاعل، وزيادة درجات التجانس. ومع أن "الهامبورجر" ينظر إليه كأحد رموز الثقافة الأمريكية فقد أثبت باحث أسبانى حديثاً أن أصله أندلسى. لقد سيطر الإستعمار

- إنها تضع البشرية على أرضية مشتركة تتسع عاماً بعد عام. وتنمى الاعتماد المتبادل بين الدول. وتشجع على الإنفتاح السياسى الديمقراطى، واتساع مساحة الديمقراطية لأنها تخفف من قبضة الأنظمة الاستبدادية على الشعوب، إذ بات من العسير على أى نظام أن يغلق الأبواب والنوافذ على شعبه. وتحقق للإنسان إنتصاراً على كل القيود التى فرضتها الدولة القومية ومؤسساتها السياسية والثقافية التى حاولت تشكيل عقل الإنسان بالإكراه والقهر - وهى أيضاً ستعمل على تقوية السلطات الحاكمة لما ستحصل من خلالها على وسائل المعرفة والمعلومات. ومن شأن هذا تدعيم سيادة الدولة.	- إنها عصابة صهيونية تحرك العالم من البيت الأبيض. وتدفع بأمريكا وبالعالم إلى هوة من الدمار الشامل. - إلغاء المسافات زمانياً ومكانياً أنشأ نوعاً آخر من أوجه التوتر والصدام. فالتمايزات والخلافات بين الأطراف تزداد وضوحاً كلما زادت الأطراف تقارباً. فالعولمة تولد مزيداً من التباعد داخل حيز أصغر حجماً، وتتجه بالعالم إلى إنقسام من نوع جديد. - ثم أنها أفرزت تأثيرات على المفهوم التقليدى لسيادة الدولة من شأنه أن يتراجع دورها باستمرار خاصة فى الاقتصاد. وأضعفت صلاحياتها السياسية وزعزعت مركزها مما أدى إلى بروز طموحات للأقليات منشؤها مشاعر دفينة شتى بالانسلاخ والإحباط. أى أنها تهدد الروابط السياسية والاجتماعية داخل الدولة القومية، مع تذويب فكرة الوطن والمواطنة، والقضاء على الخصوصية القومية والهوية الوطنية.	على منطقتنا عقوداً طويلة من الزمن، ورغم قوته وبطشه عجز عن تغيير سلوكياتنا أو قيمنا. إن حصانتنا ومناعتنا ينبعان من ذواتنا وإيماننا بقدْرنا وما نعتز به من قيم وتقاليد. - المفروض أن يؤدى المزيد من التقارب بين الناس إلى مزيد من التعارف والتفاهم. أما أنه يؤدى إلى العكس فهذه قضية لا تلام عليها العولمة التى أدت إلى إكتشاف إختلالات أو أدواء فى التركيبات الإجتماعية لم تعد تنفع فيها المسكنات المعتادة. والأجهزة الطبية الحديثة التى تكتشف ما كان مجهولاً من أمراض وعلل لا تلام على ذلك بل تحتل مكانة خاصة لدورها الرائد.

والمسرح العولمى عامر بالمتناقضات التى تعرقل تطور الأوضاع نحو نوع من العدالة والمساواة، وبناء الثقة بين اللاعبين جميعاً.

فالدول المتقدمة نفسها مختلفة فيما بينها حول مصالحها وحصتها من السوق العالمية والأرباح. الولايات المتحدة الأمريكية متهمة بأنها تتبع سياسة ضيقة الأهداف لمصالحها الخاصة ضد بقية العالم، لأنها تريد نصوصاً تحمى صناعتها ضد سياسة الإغراق فى عدد من الصناعات مثل الصلب والمنسوجات من أجل حماية الوظائف والعمالة الأمريكية.

والاتحاد الأوروبى من جانبه يعارض السياسة الزراعية الأمريكية، وخصوصاً المعالجة بالهندسة والوراثية، كما أنه لا يريد التخلى عن دعم المزارعين والصادرات الزراعية الأوروبية. واليابان مهتمة بحماية إنتاجها السمكى. ويقدر الدعم الذى تقدمه الدول الصناعية الكبرى لحاصلاتها الزراعية بـ ٣٦٠ بليون دولار سنوياً.

وقد ثبت أن عمليات التجسس الاقتصادى على أشده بينها. فأمريكا تمارسه على سعة من خلال شبكة التنصت المعروفة باسم "إيشيلون". وتملك شركات بريطانية شبكة من محطات التجسس غير المشروعة، منتشرة فى كل دول العالم، لجمع المعلومات التجارية والصناعية والعسكرية. وتملك فرنسا شبكة عالمية لأقمار التجسس باسم "ڤرنشسيلون" ولألمانيا شبكتها أيضاً. بل إن أوروبا الغربية، من أسبانيا إلى الدنمرك غارقة فى بحر من محطات التجسس غير المشروعة بالأقمار الصناعية.

ويعود فشل المؤتمر الوزارى الثالث لمنظمة التجارة العالمية، بسياتل الأمريكية، العام الماضى، إلى هذه الخلافات العميقة، وغيرها من القضايا الحرجة مثل مستويات العمالة والبيئة والاستثمار والمنافسة. بل إن المنظمات التى تظاهرت وحاولت تعطيل أعمال المؤتمر تضيف الكثير من صور الخلاف الكائن وسط شعوب اللاعبين الكبار أيضاً. فقد كان بينها من يمثلون منظمات يمينية محافظة ومنظمات زراعية واتحادات عمالية، أمريكية بالأساس، تظاهروا ضد العولمة لأنها تحمّل بلادهم تكلفة لا مبرر لها، وتفرض عليها إلتزامات تتعارض مع سيادتها الوطنية! وهى مخاوف تشاركهم فيها أصوات داخل الإدارة الأمريكية ذاتها. وتظاهروا ضد الشركات الكبرى متعددة الجنسية لإنتاجها سلعاً فى الخارج بتكلفة أقل، ولا تراعى المواصفات البيئية والصحة السليمة، وتبيعها فى أمريكا

وغيرها من الدول المتقدمة بأسعار تنافسية تؤثر على الصناعات المحلية وعلى فرص العمل المتاحة لعمالها(*). مما يعنى أنهم تظاهروا ضمناً ضد الدول النامية التى تعتبرها منظمات البيئة "بؤرة قذار".

والدول النامية، من جانبها، غاضبة بسبب ما تعانيه من الآثار السلبية للعولمة التى أدت إلى تفشى الفقر والبطالة التى يقدّر حجمها بمليار متعطل. وهى لا تخفى سخطها على العولمة ومروجيها فى بلاد الشمال المتقدم، والتى تفرض أجندة الأولويات التى تلائمها، ودون إعتبار للحقوق والقضايا التى تهم غيرها من الدول. وأعلنت فى إجتماع سياتل، من خلال تجمعاتها القارية، رفضها البات الموافقة على ما يتم التوصل إليه من قرارات دون مشاركتها فى إعدادها وصياغتها. ودافعت عن مصالحها أقلية من المنظمات التى تظاهرت فى سياتل ووشنطن، وطالبت، بين ما طالبت به، إسقاط الديون لأنها تثقل كاهل البلاد الأكثر فقراً.

ومما يثير شكوكها وحفيظتها، فى آن واحد، هو أنها التزمت بتنفيذ الإلتزامات المقررة عليها، والمرتبطة بإتفاقيات دورة أوروجواى، رغم نتائجها السلبية على واقعها الإقتصادى والتنموى والإجتماعى والسياسى. فى حين يؤكد الواقع عدم التزام الدول المتقدمة بكل تعهداتها المنصوص عليها فى ذات الإتفاقيات، أو بتعهداتها العلنية التى قدمتها لها - للدول النامية - فى ختام دورة أوروجواى لضمان موافقتها النهائية، والتى حققتها فعلاً فى إجتماعات مراكش عام ١٩٩٤. وبينما تضغط على الدول النامية من أجل المزيد من فتح أسواقها وإزالة مختلف القيود، والمزيد من التحرر، تصر هى على بقاء القيود التجارية التى تعوق النفاذ الحر لصادرات الدول النامية لأسواقها، وترفع فى وجهها مختلف الأسلحة، مثل سلاح "قوانين مكافحة الإغراق" وغيره.

وتسعى الدول النامية إلى تجميع صفوفها، من خلال مجموعة الـ ١٥، ومنتدى التعاون

(*) ذكر تقرير صحفى أن الذين تظاهروا فى سياتل هم أهل سياتل نفسها. فقد خرجت خمسون ألف أسرة بأزواجهم وأولادهم فى مظاهرة سلمية للتعبير عن مخاوفهم مما ستجلبه عليهم العولمة والشركات الكبرى، التى تسعى وراء تعظيم الربح وحسب. فقد أغلقت الشركات البحرية أبوابها فى مدينتهم وإنتقلت إلى أمريكا الوسطى، وراء الأجور المنخفضة والميزات الضريبية. وتتجه شركة البوينج نفس الإتجاه. أما الشغب فقد أحدثه قرابة ٢٠٠ فوضوى جاءوا إلى المدينة لهذا الغرض من الجنوب.

الإقتصادى لآسيا والباسفيك (أبيك) وجبهة السبعين، وإلى إتخاذ موقف محدد إزاء النظام الإقتصادى العالمى. وهى فعلاً بحاجة إلى رؤية واضحة، وتنسيق متماسك فيما بينها، وإرادة صلبة كى تحقق أهدافها من خلال ما تقدمه "العولمة" ذاتها من إمكانات. وإن كانت مشاكلها الحادة داخلية تتصل بغياب الديمقراطية والشفافية، وتفشى الفساد، وضعف القانون، واستحواز الأقلية من النخبة الحاكمة على معظم المكاسب وحرمان الأغلبية منها، إلى جانب الصراعات والحروب الأهلية.

ومما يحسب للعولمة أن بإمكان خصومها أو الرافضين لها أن يواجهوها بنفس أدواتها المعلوماتية والاتصالية. بل صار بإمكان كل صاحب قضية أن يقدمها بنفسه إلى الآخرين فى جميع أرجاء الكوكب، وأن يدافع عنها إلى أبعد مدى من خلال مواقع الإنترنت التى هى متاحة للجميع[٢٦]. وأكثر من ذلك، صار بإمكانه معرفة كيف يفكر الآخرون، وكيف يرون العالم، مما يساعده على تنسيق خطواته وتدعيم دفاعه.

وستبقى العولمة فى قفص الاتهام، حتى فى أمريكا نفسها، إلى أن يتبلور ويتجسد للعالم نظام جديد، يتردد أنه فى دور التكوين، وأنها هى ذاتها بصدد أن تقرر شكله باعتبارها عملية تاريخية تطورية وتنطوى على إمكانيات هائلة، تهئ المناخ الملائم لإحداث تغييرات قد تكون جذرية، تتواءم مع المستجدات العالمية، وتوفر الطاقة اللازمة لدفع المجتمع الإنسانى نحو مرحلة جديدة فى سلسلة تطوره المستمر.

على أن الملامح المتداولة لهذا النظام المرتقب، أو بعضها، يدعو للقلق، فهو مثلاً يرفع الأفكار والنظريات حول إقتصاديات السوق، وحرية التجارة، وخيار المستهلك، والكفاءة الاقتصادية إلى مستوى الديانة. وهذه الديانة أو الأيدولوچية تُصوَّر أيضاً على أنها إعادة تعبئة وتغليف وتصدير أمريكى لأفكار غربية قديمة سادت فى القرن السابع عشر الميلادى فى أوروبا، روج لها أنصار المذهب الفردى الحر المرسل، والمنادون بأن الحرية فضيلة، والمجتمع الفاضل بالتالى هو المجتمع الحر، والعالم الحر بلا حدود ولا عوائق ولا

---

(٢٦) فى مقاله المنشور بجريدة الأهرام (٢/ ٥/ ٢٠٠٠)، تحت عنوان "لسنا بلا حيلة"، أشار الأستاذ فهمى هويدى إلى الوجه الإيجابى "للإلكترون" وما يهيئه للعرب والمسلمين من إمكانات غير محدودة لعرض قضاياهم ونشر دعوتهم، وتوثيق صلاتهم ببعضهم بعضاً.

قيود، وشعارهم "دعه يعمل . . دعه يمر" . وتقوم على فرضها، كما يتردد، الشركات العملاقة عابرة الجنسية، والتى يُعتقد أنها ستسير العالم فى يوم من الأيام[٢٧] .

ويُشار إلى "منظمة التجارة العالمية[*]" باعتبارها آلية النظام القادم الأولى والأقوى. وأنها أصبحت جنين حكومة عالمية سوف يتمركز عليها هذا النظام. وتقول عنها مجلة "الايكونومست" الإنجليزية إنها أول هيئة عالمية ذات دستور مبنى على قواعد التجارة، فى حين أن كل دستور آخر مبنى على سيادة الشعوب والدول. وكل دستور هدفه حماية الحياة فوق الربح. بينما دستورها يحمى الربح فوق حقوق الحياة للإنسان والكائنات الأخرى. وهو منحنى خطر يجعل من النظام المرتقب كياناً دافعه الحقيقى والوحيد التوسع فى الإنتاج وتعظيم المكاسب والأرباح فوق أى إعتبار إنسانى إجتماعى أو بيئى آخر، وهدفه السيطرة بكافة صورها مع تركيز القوة فى أيد محدودة.

وهذه الصورة التى تُنعت بـ "الوجه القبيح" للعولمة، تعود بنا إلى ما ردده **"سان"** فى بداية هذا الفصل عن الطبيعة البشرية وعجزها عن التغير أو التخلص من أنانيتها، وقدرتها على إفشال أسمى الأنظمة. ومن هنا تتجدد الدعوة إلى "روحنة التجارة"، وذلك بضخ المفاهيم والقيم الروحية السامية فى شرايينها، وفى عروق المشتغلين بها. فالقديس يعقوب يتساءل شاجباً «هلم الآن أيها القائلون نذهب اليوم أو غداً إلى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح. أنتم الذين لا تعرفون أمر الغد. لأنه ما هى حياتكم. إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل. عوض أن تقولوا إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك» (رسالة يعقوب ٤ : ١٣-١٥). أى أن المطلوب هنا هو إعطاء الله ومشيئته مكانهما فى شئون التجارة كغيرها من الأنشطة والعبادات.

ويربط القديس بولس بين التجارة الرابحة وبين التقوى والقناعة (١تى ٦ : ٦)، اللذين هما من السلوكيات السامية التى تشرّف رجال الأعمال وتجمّل تجارتهم، كما يمثلان دروعاً

---

(٢٧) وهذا تصور يقلق الكثيرين. ويتردد سؤال مفاده «هل يمكن أن نجد أنفسنا ذات يوم مواطنين تابعين لشركة متعددة الجنسيات بدلاً من التبعية لدولة ما كما هو معهود؟!». وهذه الشركات تنمو - كما يقال - بطريقة وبائية، وتسعى إلى مزيد من القوة والثروة، وتمثل تهديداً جديداً بغير اللجوء إلى القوة العسكرية.

(*) يقال عنها إنها أصبحت فى أذهان المقاومين للعولمة مرادفة لصورة "دراكولا" التى تثير الرعب فى النفوس.

واقية ضد ما يحل من عواقب وخيمة بمن لا يتحلون بهما، والذين يخاطبهم القديس يعقوب بقوله «قد كنزتم فى الأيام الأخيرة. هوذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المبخوسة منكم (أى اشتروها بثمن بخس) تصرخ وصياح الحصادين قد دخل إلى أذنى رب الجنود»، وينذرهم بما ينتظرهم بقوله «ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة. غناكم قد تهرأ وثيابكم قد أكلها الغث. ذهبكم وفضتكم قد صدئا وصدأهما يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كالنار» (رسالة يعقوب ٥ : ١-٤). فالإكتناز والاستغلال والظلم عواقبها وخيمة. لهذا ينصحنا السيد المسيح بالتصرف، بحكمة وإيثار، فى المال - مال الظلم - «فنصنع به أصدقاء» عن طريق مساعدة الآخرين والتخفيف عنهم. وجاءت نصيحته هذه فى واحد من أمثاله ذات المضمون الإنسانى والاجتماعى[٢٨].

وتقدم قصة مدينة "صور" الفينيقية القديمة نفسها كنموذج لعالم المال والأعمال. ففى العصر القديم إزدهرت كمركز تجارى ضخم فى شرقى البحر المتوسط. وأشار إليها إشعياء النبى بقوله «صور المتوجة (متجرة الأمم)، التى تجارها رؤساء. متسببوها موقرو الأرض» (إش ٢٣ : ٨). ولكنها إتهمت بلسان النبى حزقيال الذى خاطبها قائلاً:

نجست مقادسك بكثرة آثامك بظلم تجارتك

بنفوس الناس وبآنية النحاس أقاموا تجارتك

وبكثرة تجارتك ملأوا جوفك ظلماً فأخطأت

ويسجل تاريخها أن نبوخذ نصر البابلى هاجمها وخربها، وسبى شعبها أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وعانت سبعة عقود فى السبى والتشرد، تطهرت خلالها، وعادت تمارس حياتها ونشاطها بمفهوم جديد يتسم بالإنسانية والغيرية، يصفه إشعياء النبى بقوله «تكون تجارتها وأجرتها قدساً للرب. لا تُخزن ولا تُكنز بل تكون تجارتها للمقيمين أمام الرب..» (إش ٢٣ : ١٨).

وإذا كانت «رأس الحكمة هى مخافة الرب» فإن سيطرتها فى شئون المال والتجارة هى "عين" الحكمة، ومصدر الخير الذى يعم على الجميع.

(٢٨) أنظر الإنجيل حسب لوقا الإنجيلى إصحاح ١٦ : ١-١٣.

- ٥ -

النظامان الأساسيان

ينبه **سان** إلى أن الحديث عن النظام العالمى الجديد لا ينبغى أن ينسينا أو يلهينا عن نظامين يتقدمان على كل ما عداهما . فهما نظامان أساسيان راسخان يتحكمان فى الكون ، ويرتبطان ببعضهما إرتباط المخلوق بالخالق . إنهما النظام البيئى والنظام السمائى/ الإلهى .

النظام البيئى

لقد خلق الله كل مقومات النظام البيئى وأبدع التنوع فيه (تك ١ : ١١ , ٢٠ , ٢٤ , ٢٥) لخير الإنسان ، وسخر كل ظواهر الكون الطبيعية ليستفيد منها[٢٩] . فالشمس تلقى صرراً من الطاقة لا عدد لها ، يتلقفها النبات ويحولها إلى خير ونماء . والمسافة بينها وبين كوكبنا محسوبة بدقة ، فأى إقتراب منها أو إبتعاد عنها ، ولو قليلاً ، يقضى على الحياة فيه . والحديد فى باطنه مسئول عن وجود المجال المغنطيسى ، الذى يلفه بارتفاع ألوف الكيلومترات ، ولولاه لجفت المياه منه ، وهى المياه التى تجلبها الأمطار ، والتى تقدر بأربعمائة ألف كيلومتر مربع كل عام .

ووضع الله الميزان فى طبيعة الكون بمختلف منظوماته . ويتصف هذا الميزان البيئى بدقته ، وبتوافر توازن ديناميكى فيه يضمن تصحيح كل إختلال . وسمح الله للإنسان بالتدخل فيه بمقدار ، فيعيد تشكيله أو تغييره بما يفيد به مجتمعاته . وهو ما دأب عليه منذ فجر تاريخه ، مثل استئناس الحيوانات واستغلال التربة فى الزراعة ، وحديثاً تنسيخ النبات والحيوان بفوائده الإقتصادية الملموسة . والله لم يخلق شيئاً عبثاً وإنما خلق كل شئ بمقدار وله رسالته وحكمته ، ومن واجبنا إحترامه . ووضع الإنسان فى قلب الكون كجزء من

---

(٢٩) بعد دراسات وأبحاث مكثفة أجراها العلماء على مدى ١٥ عاماً ، قدرت الموارد الطبيعية التى تمنحها الكرة الأرضية سنوياً لسكانها بالمجان بما يعادل أربعة وثلاثين تريليون (ألف مليار) دولار . وتمثل هذه الموارد سبع عشر فئة منها الماء والتربة والمياه الجوفية ، والهواء والمناخ ، والمناظر الطبيعية الخلابة لما لها من قيمة معنوية . ولا تدخل فى هذا الرقم الضخم قيمة السلع التى ينتجها الإنسان .

المنظومة الشاملة. ووهبه العقل، الذى هو مفخرة إلهية بكل المقاييس، وزوده بالقدرة والطموح المحسوب من أجل التعرف على نواميسه التى أودعها فى الكون من أجل خيره وتقدمه.

ومع ذلك فقد عانى النظام البيئى من إهمال الإنسان له منذ ظهوره على كوكب الأرض، أو على الأقل لم يفهمه جيداً، فلم يعرف كيف يتعامل معه بحكمة. وكلما ازدادت معارفه، وتطورت أدواته وتقنياته، زادت إساءاته له. وظل على هذا المنوال إلى أن اكتشف أنه نظام دقيق محكم، يحمل فى طياته عقاب من يخالفه أو يتهدده، أو يربك توازناته. وبدأ يحصد فعلاً نتيجة إنتهاكاته، فى أنهاره وبحاره وبحيراته، وفى غاباته ومراعيه وزراعاته، بعدما تعرضت الطبيعة - كما يقول آل جور - لهجوم شرس من الحضارة الصناعية(٣٠).

والعلم الذى يدرس الكائنات الحية وعلاقاتها بالبيئة "إيكولوچيا" علم جديد، وقد نحت إسمه عالم البيولوچيا "إرنست هيتشل" عام ١٨٦٩، ويتكون من كلمتين "eco" وتعنى فى اليونانية (oiko) بيتا، وlogy بمعنى علم. وشهد علم البيئة وقضايا البيئة إهتماماً واسعاً فى العالم المتقدم منذ قرابة ثلاثين عاماً. ومشكلة البيئة نشأت أساساً من نظرة الإنسان إلى الأرض بإعتبارها مجموعة من الموارد لا تزيد قيمتها الذاتية عما تحققه من منافع مباشرة. وهى نظرة قصيرة المدى لا ترى تأثير أفعاله على الأجيال التالية. وإذا كانت المهمة الصعبة الآن هى إعادة التوازن الإيكولوچى لعالمنا، فإن الأصعب هو استعادة التوازن داخل الإنسان نفسه كى يعود إلى صوابه، ويعمل على كبح جماح شهية حضارته النهمة للموارد، سعياً إلى إعادة التوازن بينها وبين بنية الأرض الهشة.

وتعود الإكتشافات الأولى للأخطار البيئية إلى الخمسينيات، حين لوحظ فى إنجلترا موت الطيور كالحمام وغيره. وظهر كتاب بعنوان "الربيع الصامت - Silent Spring" لعالمة الأحياء "روث كارسون Carson"، كتبته بلغة شاعرية عن ظاهرة موت الطيور،

---

(٣٠) فى آخر تقرير يصدره معهد "وورلد ووتش World Watch"، بواشنطن، أظهر أن الحكومات الغربية تنفق ٥٠٠ مليار دولار سنوياً فى مشروعات تؤدى إلى تدمير المحيطات والغلاف الجوى والتربة، و٣٠٠ مليار دولار على مشروعات تشجع على الزراعة والرعى بشكل يزيد من استهلاك واستنزاف التربة.
- والإعتداء على الأرض متواصل. ففى إفريقيا وحدها لحق التعدى بما يقدر بـ ٢٣ر١ مليار فدان، وغاباتها هى الأكثر إستنزافاً فى العالم.

وأرجعتها إلى السموم التى تسرى فى الماء والهواء، من استعمال الكيماويات الصناعية، كمبيدات للحشرات والأعشاب، والتى تتسبب فى إنخفاض نسبة الكالسيوم، مما يؤدى إلى ليونة قشر البيض الذى تضعه الطيور، فيتكسر حينما ترقد عليه الأنثى ويفسد.

وأجريت، فى الثمانينيات، دراسات بمنطقة البحيرات العظمى بالولايات المتحدة الأمريكية، لاكتشاف أسباب موت السمك وضعف إنتاجه. وظهرت النتائج فى كتاب بعنوان "مستقبلنا المسلوب Our Stolen Future"، تؤكد أن السبب هو الكيماويات الصناعية، التى تذوب فى الماء وتنتقل فى الجو، وتؤدى إلى إضعاف ذكور السمك عن إنتاج مادة التلقيح السليمة والكافية للتوالد. مما يعنى أن أنواعاً من الأحياء المائية قد تختفى فى المستقبل، الأمر الذى يهدد مستقبل الإنسان ذاته، طالما أن حياته مرتبطة بهذه الكائنات كمصدر لطعامه.

ولقد إكتشف العلماء الأمريكيون، أيضاً، زيادة ملحوظة فى عدد الضفادع المصابة بتشوهات خلقية، مثل وجود أرجل زائدة فى بعضها، وعين واحدة غريبة الشكل فى البعض الآخر. وأكد العلماء أن هذه الظاهرة تعد مؤشراً قوياً على إختلال البيئة، وإرتفاع نسبة التلوث وخاصة بالمعادن الثقيلة فى المياه. وهى نذير بخطر لم يتحدد بعد على صحة البشر.

والنتائج الخطيرة المترتبة على إخلال الإنسان بمسئوليته تجاه بيئته الطبيعة هى فى الواقع بمثابة قصاص[٣١] عادل على عدم أمانته. فمنذ البدء برز التلازم بين خطاياه وإخفاقات الطبيعة، التى هى مجاله الحيوى، ومصدر إحتياجاته الأساسية:

- فبعد جريمة قاين جاءه الحكم «متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها» (تك ٤ ١٢).
- وتنذر الشريعة الموسوية من تسوء أعماله بقولها «تكون سماؤك التى فوق رأسك نحاساً والأرض التى تحتك حديداً. ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل عليك من السماء حتى تهلك... وجميع أشجار وأثمار أرضك تكون للصرصر (الحشرات الطنانة)» (تث ٢٨ : ٢٣، ٢٤، ٤٢).

---

(٣١) وجاء رأى "ملكى" يناصر الطبيعة حين علق الأمير تشارلز، ولى عهد إنجلترا، على مرض جنون البقر بإعتباره «يمثل إنتقاماً للطبيعة من الجنس البشرى الذى إنتهك قوانينها».

وفى القرآن الكريم: وإذ تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد (سورة البقرة ٢٠٤).

- وينذر إشعياء النبى شعبه المرتد بفشل إنتاجية الأرض «لأن عشرة فدادين كرم تصنع بثاً واحداً وحومر بذار يصنع أيفة» (إش ٥ : ١٠)[٣٢].
- ويكرر هوشع النبى الإنذار «لذلك تنوح الأرض ويذبل كل من يسكن فيها مع حيوان البرية وطيور السماء وأسماك البحر أيضاً تنتزع» (هو ٤ : ٣).

وتتبدل الصورة تماماً لمن يخشون الله من عباده، ويؤدون الأمانة، ومنها بداهة الحفاظ على البيئة وإحترامها. فيقول الوعد الإلهى «أعطى مطركم فى حينه وتعطى الأرض غلتها وتعطى أشجار الحقل أثمارها. ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع» (لا ٢٦ : ٣-٥). (قارن يوئيل ٢ : ٢١-٢٣).

فالإنسان هو العالم الصغير microcosm فى الكون الكبير cosmos، وهو تاج الخليقة، وقد مُنح سلطان على الطبيعة وتوكيل عليها، وهو ما يفرض عليه أن يساهم فى تعظيم التناغم والإنسجام والجمال فى العالم الطبيعى. وهو عندما يكون فى وحدة راسخة مع خالق الكون، فإنه يفرز شذاً ورونقاً وبهاء محققاً الكمال فى محيطه.

وكل الكتب السماوية، وكتب الديانات الأخرى، من بوذية وكونفوشية وهندوسية وزين وتاوية وزردشية، وديانات إفريقية وهنود حمر، تتضمن وصايا قوية وصريحة[٣٣] تحض الإنسان على احترام قوانين الطبيعة، وكل أعضاء الخليقة فى العالم الطبيعى من نبات[٣٤] وحيوان وطير، وكل ما فيه من ماء وتربة وحجر ورمل وغيره. بحيث لا يسىء

---

(٣٢) "البث" مكيال للسوائل يسع نحو سبعة وعشرين كيلوجراماً. و"الحومر" مكيال للحبوب يسع نحو مائتين وسبعين كيلو جراماً. مما يعنى أن إنتاج الأرض يعادل عشر ما يبذر فيها من بذور.

(٣٣) لدرجة أن التوراة تنبه المحارب الذى يقتحم مدينة «لا تتلف شجرها بوضع فأس عليه. إنك منه تأكل. فلا تقطعه» (تث ٢٠ : ١٩). وحتى "التلمود" ينصح قائلاً" «إن كانت فى يدك شتلة زرع، وسمعت من يقول لك هوذا قد جاء المسيا، إزرع الشتلة أولاً، ثم إذهب بعدها لتحية المسيا».

(٣٤) بل ومراعاة إحساسه أيضاً، فقد ثبت أنه يتمتع بحواس السمع واللمس والتذوق، ويتكلم وله ذاكرة. وهذا ما أظهرته أحدث الدراسات العلمية التى أجريت فى جامعة جلاسجو بأسكتلنده مؤخراً، وأعلنه البروفسور مالكوم ويلكنز أستاذ علم النبات بالجامعة. ولقد قدست الديانات القديمة النبات، ونسبت إليه قدرات وطاقات، وأحاطته بتقديس وشعائر خاصة. ففى إفريقيا كانت بعض القبائل تزرع شجرة أمام البيت بمثابة تليفون تتصل من خلاله بالكائن الأعلى. وفى جنوب الهند كانت طائفة البراهما تزوج الإبن الأكبر إلى شجرة لكى يتاح لأخواته الزواج قبله. وبوذا هبطت عليه الاستنارة وهو يتأمل تحت شجرة "البو".

استعماله[٣٥] أو يبدده، كما فعل الآن بغاباته ومراعيه ومجارى مياهه وتربة أرضه، وبغيرها من مصادر ثروته الطبيعية.

وظاهرة تدمير الغابات، التى هى بمثابة الرئة للبيئة، ومسطحات الخضرة (الغطاء الحرجى) عموماً، فوق سطح الأرض كانت ومازالت من أقوى معاول هدم النظام البيئى، خاصة بعد التطور الحضارى وإختراع آلات الحضارة الحديثة التى تعتمد على الطاقة غير النظيفة المتولدة من الفحم والبترول والغاز الطبيعى، والتى تطلق كميات هائلة من غاز ثانى أوكسيد الكربون فى الجو، تقوم الأشجار وسائر النباتات بسحبه من الغلاف الجوى وإحلال الأوكسچين مكانه. ويعنى تدميرها السريع حرمان الأرض من التخلص من هذه الغازات السامة التى يؤدى تركيزها فى الجو إلى إرتفاع فى درجة حرارة الأرض، وما يتبع ذلك من تقلبات متطرفة فى الطقس، وتغيرات مناخية خطيرة تقود إلى الجفاف وتصحر الأرض الزراعية[٣٦]. وتقدر الخسائر الناجمة عن التصحر وحده فى العالم بنحو ٤٢ بليون دولاراً سنوياً، وهو يهدد حياة مليار شخص يتوزعون على أكثر من مائة دولة إفريقية وآسيوية[٣٧]. وتؤكد التقارير الخاصة بحالة الغابات فى العالم بأنها مهددة بالزوال بسبب ظاهرة "الأحترار"، بما فى ذلك الغابات الصنوبرية فى كندا ونيو إنجلاند ونيويورك

---

(٣٥) فى ألمانيا، فى العصور الوسطى، كان الإعدام عقوبة أى شخص يتلف شجرة. وألمانيا هى البلاد التى بدأت فيها طقوس شجرة عيد الميلاد.

(٣٦) فالتلوث يزداد، والجفاف ينتشر، والغلاف الجوى يتمزق ويتهتك، وثقب الأوزون يتسع بصورة خطيرة وتعاظم تآكله فى الآونة الأخيرة. والأرض كلها مهددة بالتصحر والتملح، وبالغرق فى الشتاء النووى والأمطار الحمضية، إلى جانب الخطر المحدق باليابسة من جراء ذوبان الجليد فى القطب الشمالى. وقد بلغ التأثير الخطر "عنان السماء". فقد أعلنت جامعة "كمبردج" البريطانية رسمياً (سبتمبر ١٩٩٨) أن السماء فعلاً بدأت تنطبق على الأرض، حيث أوضحت دراسة لهيئة البحوث القطبية بالجامعة أن طبقات الجو العليا هبطت بما يعادل خمسة أميال عما كانت عليه عام ١٩٥٨، وذلك بعد تحليل المعلومات عن موجات الراديو وتردداتها، إذ أنها أصبحت تأخذ وقتاً أقل للعودة إلى الأرض عن ذى قبل، مما يعنى هبوطاً فى طبقات الجو العليا التى تبدأ على بعد ٢٥ ميلاً تقريباً من سطح الأرض وتمتد لأكثر من ٢٥٠ ميلاً. والتفسير العلمى المتاح لهذه الظاهرة هو إرتفاع درجة حرارة الأرض وإرتفاع حرارة الطبقات السفلى للجو مما يؤدى إلى إنخفاض ملحوظ فى ضغطها الجوى. ومع أن الدراسة أوضحت أن الأمر لم يصل بعد لدرجة الخطورة فإنه بمثابة مؤشر تحذيرى لما يلحقه الإنسان من أضرار بالأرض.

(٣٧) ويشير آخر تقرير صدر عن "اليوم العالمى لمكافحة التصحر والجفاف" إلى إتساع نطاق تهديد التصحر وإجتياحه أماكن كثيرة من العالم خلال شتاء وربيع ٢٠٠٠، وبات يهدد كل قارات العالم تقريباً. أما الصندوق العالمى للطبيعة فيحذر من أن ثلث البيئة الصالحة للحياة على سطح الأرض مهدد وقد يختفى نهائياً مع نهاية القرن الحالى. كما حذر من إختفاء ٧٠٪ من البيئة الصالحة لحياة الحيوان والنبات فى الدول الاسكندنافية وروسيا.

بالولايات المتحدة. كما أن عملية إزالتها مستمرة وبمعدلات عالية، إذ يُزال سنوياً ما يزيد على أحد عشرة مليون هكتار. ومن هنا تتردد مقولة مفادها أن إنتحار كوكبنا ببطء أصبح مسألة مؤكدة.

وفوق ذلك تشير الإتجاهات الحديثة، فى متابعة وتحليل الصراعات الدولية والأهلية، أن العوامل البيئية، وليست الاختلافات العرقية أو الدينية، هى السبب الحقيقى والمباشر فى العديد مما وقع منها بالفعل، وما ينتظر نشوبه فى المستقبل. وقد توصل معهد "وورلد وُتش" فى وشنطن، بالولايات المتحدة، إلى هذه النتائج بعد ما تابع أكثر من ثلاثين صراعاً يندرج معظمها تحت فئة الحروب الأهلية. فهى فى الواقع تدور حول الموارد الأساسية والثروات الطبيعية كالمرعى والأرض الزراعية والمياه، والتى يؤدى إختلال النظام البيئى إلى تقلصها أو ندرتها، بينما يتزايد عدد السكان بمعدلات عالية تبلغ حد الإنفجار فى مناطق عدة. والمياه بالذات، كما تردد التنبؤات، ستكون قلتها سبباً من الأسباب الرئيسية وراء نزاعات المستقبل المحلية والإقليمية.

من هنا يتضح أنه لا يمكن قيام نظام عالمى جديد لا يأخذ فى حسابه النظام البيئى. ولو أنصف الذين يروجون له لأعطوه إسماً آخر أكثر واقعية، وهو عصر التوبة واسترحام البيئة الطبيعية، أو عصر فض الإشتباك العدوانى على البيئة. ولعل هذا ما أراد فعلاً أن يقوله "مؤتمر الأرض" الذى إنعقد فى ريودى جانيرو عام ١٩٩٥. فالتخريب الذى أصابها فى عالم الشمال (الغربى والشرقى) فى غمار الثورة الصناعية، والثورة العلمية والتكنولوچية الراهنة، وفى عالم الجنوب بالجهل والتخلف، بلغ صراخه عنان السماء ومزق الأوزون وضاعف تآكل طبقته. وصار مطلوباً إعادة صياغة علم الإجتماع بالكامل، وذلك بإعادة النظر فى العلاقة بين الإنسان والطبيعة، لتقوم على أساس من الإحترام الكامل، بل والتقديس أيضاً[٣٨]. وينسحب هذا بالمثل على العلوم الطبيعية بشكل عام، وخاصة علوم البيولوچيا، وبالذات علم الوراثة أو الهندسة الوراثية، بحيث يخضع للقواعد الأخلاقية

---

(٣٨) فى عام ١٨٥٢ أرادت حكومة الولايات المتحدة شراء أراض فى ولاية وشنطن لتوطين المهاجرين عليها. فرد عليها "سياتل Chief Seattle"، زعيم الهنود الحمر: إن الأنهار إخوتنا والأرض أمنا. كل الجبال وروائح نباتها وزهرها وثمرها، وأنسامها، هى منا ولنا. إلهنا هو إلهكم، والأرض ثمينة عنده، وأى إضرار بها ينطوى على إحتقار للخالق.

المتعارف عليها، ويتجنب العبث بالطبيعة وبالترتيب الزمانى والبيولوچى للمخلوقات، إتقاءاً للأخطار[٣٩] التى قد تترتب على هذا العبث. ولعل نجاح علماء الهندسة الوراثية فى أسكتلنده فى تنسيخ النعجة "دوللى" من خلية ضرع نعجة بالغة ينبه إلى ما يمكن أن يتطور إليه الأمر من تنسيخ إنسان بنفس الطريقة، وما قد يترتب على ذلك من فوضى إجتماعية وأخلاقية. وإن كان وصول الإنسان إلى القدرة على تركيب المادة الحية، وعلى التحكم بعناصر الشخصية، سوف يلقى بضوء جديد على مفهوم النفحة الإلهية فى الكائن الإنسانى نفسه، ويفسر بشكل أوضح معنى أن الله خلق آدم على «صورته ومثاله». والحق إن العالم على أعتاب فتوحات مذهلة فى علم البيولوچيا لخير الإنسانية، خاصة فى مجال الطب[٤٠] والإقتصاد، مما سيجعل المعلومات البيولوچية أو الوراثية وتطبيقاتها العجيبة سيدة العقود القادمة التى سوف تشهد ما يعرف بالثورة العلمية الرابعة. والمخ البشرى هو أهم مجال دراساتها الآن، بإعتباره مركز التفكير والحب والخوف والسعادة والشفاء أيضاً. كما يتوالى إكتشاف مراكز جديدة فيه، وآخرها ما يعرف باسم مركز اللذة، والذى أدى إلى إنشاء علم له نموذج إرشادى جديد عن طبيعة الأمراض النفسية وسبل علاجها.

ومنذ أن دقت نواقيس الخطر، فى العقود الأخيرة، والأصوات ترتفع بضرورة إنقاذ الأرض، والمؤتمرات والمحاولات والإقتراحات والمشروعات تتوالى لتحقيق هذا الهدف[*]

---

(٣٩) ومن هذه الأخطار ما صوره فيلم Jurasic Garden، فيلم الديناصورات المفزعة التى خرجت نتيجة للعبث بقوانين الوراثة البيولوچية.

(٤٠) حديثاً أعلن عالمان من جامعة هارفارد، هما "أنتونى عطا الله وداريو فاروزا"، عن نجاحهما فى إنتاج الأعضاء البديلة للحيوانات باستخدام الخلايا الحية نفسها لهذه الحيوانات فيما يعد بداية الطريق لتصنيع قطع غيار "آدمية" فى المستقبل القريب. وفى إنجلترا أجرى استنساخ خمسة خنازير لتكون مصدر أعضاء بديلة للمرضى من البشر. وخطا العلماء فى أمريكا خطوة أبعد إذ بدأوا إجراءات عملية لاستنساخ أعضاء بشرية كقطع غيار من الأجنة. وأكدوا فى دراسة نشرت فى أكتوبر ٢٠٠٠ إمكان تطويع الجنين المستنسخ ليتحول إلى مجرد عضو مثل المخ أو الكبد أو البنكرياس.

(*) ومن أحدثها نظرية "حرث البحر" للبروفسور الكيميائى الأمريكى "مايكل ماركلز"، وهو يعنى بذلك زراعة محيطات العالم بنوع من الطحالب البحرية المعروفة باسم (بلانكتون) وهى طحالب دقيقة جداً عالية التكاثر يتغذى عليها السمك، بينما تعتمد هى فى تغذيتها على الكربون بإمتصاصه من ماء البحر ومن مخلفات السفن ومن الشمس. ويمكنها بذلك تنظيف البحر تماماً من الكربون والمركبات النتروچينية المسممة مما يؤدى إلى أن يصبح الكون نظيفاً. ونقطة الضعف فى هذه النظرية هو أن زيادة حجم الطحالب عن العادى قد تؤدى إلى الإخلال بالتوازن الطبيعى للحياة البحرية وما يترتب على ذلك من نتائج قد لا تكون طيبة.

المركزى. ومن بينها ما إقترحه آل جور، نائب الرئيس الأمريكى، بإقامة "مشروع مارشال" لإنقاذ البيئة، على غرار مشروع مارشال الذى نُفذ عام ١٩٤٧، لإعادة إعمار وتأهيل أوروبا الغربية، بعد الخراب الذى حل بها خلال الحرب العالمية الثانية. وهو مشروع يتطلب رؤوس أموال ضخمة، وتضافر جهود كل الحكومات والشعوب والمنظمات الأهلية، حتى يحقق النجاح الذى صادفه المشروع الأول. وهناك إقتراح وجيه جداً يدعو إلى تخصيص جزء من الأموال التى تنفق على التسليح وتوجيهها إلى مثل هذا المشروع الحيوى. ويقدر ما يصرف على التسليح سنوياً، على مستوى العالم، بحوالى ٨٠٠ بليون دولار. وهو مبلغ ضخم لو وُجّه بعضه أو جله لإنقاذ البيئة لأدى إلى تحسين أحوالها.

على أن الأهم هو التوسع فى تنفيذ برامج التوعية والتثقيف البيئى بحيث تدخل فى كل وسائل الإعلام وفى كل المناهج التعليمية[٤١] بكافة مراحلها، وفى نصوص دساتير الأمم وتشريعاتها، وفى برامج المنظمات القومية والعالمية على إختلاف أنواعها وطبيعتها. وإعداد كتاب مرجعى عن البيئة كدستور لكافة الشعوب، تكون له منزلة التقديس، بإعتبار النظام البيئى نظاماً إلهياً.

ومن أجل محو الأمية البيئية علينا أن نبدأ بالطفل من الآن لتكوين إتجاهات خاصة به نحو بيئته، ليس بالإعتماد على التلقين العقيم، بل بتمكينه من التعرف على المشاكل البيئية وتلمسها عن قرب - على الطبيعة - بتنظيم الدراسات الميدانية والزيارات للمحميات الطبيعية والحياة البرية وما شاكلها، له ولغيره من المواطنين، حتى يكون "شرطى" البيئة هو المواطن نفسه.

---

(٤١) إختار دعاة حماية البيئة فى العالم مؤخراً شبكة الإنترنت لشن حملة تستمر ثلاث سنوات تحت اسم "مشروع سفينة نوح الثانية"، وهدفها الحفاظ على الحياة البرية، وإنقاذ ملايين الحيوانات والنباتات من طوفان التلوث وتدهور الأوضاع البيئية مع بداية هذا القرن.

النظام السمائى

يقول داود النبى «لأن للرب الملك[٤٢] وهو المتسلط على الأمم» (مزمور ٢٢ : ٢٨). وهو الموجود أبداً وأزلاً والمنزه عن العدمية، وهو متعال ومتجاوز، «الإله الذى خلق[٤٣] العالم وكل ما فيه، هذا هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى. ولا يُخدم بأيادى الناس كأنه محتاج إلى شئ. إذ هو يعطى الجميع حياة ونفساً وكل شئ. وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحتّم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم. لكى يطلبوا الله لعلهم يلتمسونه فيجدوه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد»[٤٤]. وهو أقرب إلينا من حبل الوريد[٤٥]. وهو الحاكم الساهر «لا تأخذه سنة ولا نوم» الذى يسوس الكون بالحكمة والعدل «الرب قد ملك لبس الجلا. لبس القدرة[٤٦]. العدل والحق قاعدة كرسيه» (مز ٩٣ : ١ ،

(٤٢) إنه مُلك عظيم، لم نحط إلى الآن إلا بذرّة صغيرة منه إسمها الأرض، هبأة تافهة تدور حول الشمس فى مجموعة كوكبية شمسية، فى مجرة فيها ألف مليون شمس بكواكبها، بين مائة ألف مليون مجرة مماثلة، فى كل مجرة مائة ألف مليون شمس. ملك شاسع رهيب يدوخ الناظر وهو ينظر إليه.

(٤٣) - فى القرآن الكريم: خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون (سورة النحل : ٢).
- وفى الهندوسية: من صدر الحكمة المقدسة أخرج العالم. وهو يسكن فى نواميسه فى أعلى وأسفل.
- وفى التراث الفرعونى القديم: أنت الفريد فى ذاته، الخالق لكل كائن، الواحد الأحد، خالق كل موجود. خالق الأعشاب للماشية. وخالق شجرة الحياة لبنى الإنسان. سلام عليك يا من خلقت كل ذلك، أنت صاح بينما كل الناس تنام.
- الحق سبق خلق الكون، ومستمر فى وظيفته فى قيادة عملية الخلق والإبداع. ويعمل من خلال قوانين طبيعية وأخلاقية وروحية معينة، وهى التى تحكم الكوزموس.

(٤٤) سفر أعمال الرسل ص ١٦.

(٤٥) وعند السيخ: إنه يقيم معك كما يسكن الشذى فى الزهرة، وأنت تعرف داخل نفسك.
وفى الهندوسية: إنه بعيد، أبعد من كل ما هو بعيد، ومع ذلك فهو قريب.. يسكن داخل قلب المخلوق الواعى.

(٤٦) وفى عالم الفلك شهادة عظمى لقدرة الخالق الذى خلق كل شئ بقدر، وتأكيد لنظامه السمائى. فقد تأكد علماء الفلك أن الجاذبية وقوانينها ليست المسئولة وحدها عن حركات دوران الكواكب حول النجوم. فهناك قوة قاهرة وإرادة قادرة فوق الكون، تهيمن على كل شئ فيه، جعلت الكواكب تدور حول الشموس فى مدارتها المحددة لها، فى نظام بالغ الدقة والإتقان، تساوى فيه قوة جذب الشمس للكواكب الدائرة حولها مع قوة الطرد المركزى له. ولقد سبق أن كتب "نيوتن" رسالة إلى أحد العلماء يقول فيها إنه لا يصدق أن الجاذبية كامنة فى المادة وفطرية وجوهرية بالنسبة لها، لدرجة أن جسماً يؤثر فى جسم آخر على بعد منه ومن خلال فراغ، بدون وساطة شئ غير مادى.
ويقول العالم النمساوى، د. لورنتس، إن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يكون من رجال الدين الكبار أو الفلكيين العظام ليعرف عظمة الله. إن مراقبة أوزة واحدة تكفيه. ولقد راقب الأوز ولاحظ تصرفه فى حالة المرض وكيف أنه يميل إلى الإمتناع عن الحركة، وعن بذل أى مجهود، وعن التعرض للهواء. وحين تمرض الأنثى يبعد الذكر عنها ويبعد عنها صغارها، ويمنعها بالقوة من تناول الطعام، ويمتنع هو عنه، ولا يسمح بالأكل إلا إذا ضمن أنه صالح لها. وتساءل لورنتس: من علمه كل هذا؟.

٨٩ : ١٤، ٩ : ٧-٨). بل هو الحقيقة العظمى المطلقة، ومصدر الحق. وكما قال القديس أوغسطينوس، إذا استطعنا أن نؤسس أن الحق موجود فيتوجب وجود الله.

ويشير "توينبى: المؤرخ الكبير، إلى الوحى الإلهى، موضحاً أن هناك تياراً كونياً خفياً يربط كل الأطراف معاً، ويحرك التاريخ الإنسانى، كما يمده بالمعنى حينما يسعى المجتمع إلى التواصل مع مضمون هذا الوحى وتجسيده. ويذهب "ڤولتير" إلى ما هو أبعد حين يصور العالم كآلة تعمل وفق قوانين حتمية - قوانين طبيعية تتفق مع العقل، وإلهية وأزلية فى آن واحد - تفعل فعلها المنتظر دائماً أبداً، دون أن تتحول أو تتبدل. فالتاريخ عنده مقدمات لها نتائج، تصبح بدورها مقدمات وهكذا أبد الدهر. وهو كما يبدو كان متأثراً بفكر اللاهوتى كورنليوس چانس الذى كان يؤمن بالجبرية، وأن الإنسان رغم فساده بالطبيعة لا يمكنه أن يقاوم نعمة الله. ويضيف "ليبنتس" أن كل ما يحدث فى الكون، حتى ما لا يكون مفهوماً أو معقولاً إنما هو مظهر لحكمة إلهية[٤٧] غامضة لا نستطيع أن نحيط بجميع أطرافها، ولا يمكننا أن ندرك مقاصدها الحقيقية بعقولنا القاصرة. وكما قال بولس الرسول «يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء... لأن منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد. (رو ١١ : ٣٣، ٣٦).

ولقد صور أفلاطون سقراط، فى محاوراته، على أنه كان يستمع إلى هاتف باطنى يتلقى منه ما يشبه الوحى السماوى، وأنه كان يعتقد أنه مكلف برسالة إلهية عليه أن يبلغها للناس حول الأخلاق والفضيلة والخير والطبيعة الإلهية. وينسجم مع هذا التصور ما كان يؤمن به "ماكس فيبر" الفيلسوف الألمانى، من ضرورة قيام إطار مرجعى معرفى وأخلاقى متكامل ومتماسك، يكتسب تكامله فى عقيدة دينية ثابتة حول الخالق.

---

(٤٧) - ناموس الرب كامل يرد نفسى. شهادات الرب صادقة تصير الجاهل حكيماً (مز ١٩ : ٧).
- فى الديانة الكونفوشية: قدرة القوى الروحية جد نشيطة فى الكون.. إنها كائنة فى كل شئ، ولا شئ يهرب من فعلها. لا يوجد مكان فى أعلى السموات من فوق، ولا فى أعماق الماء من تحت، يخلو من الناموس.
- وفى الهندوسية: أنا نواة كل مخلوق لأنه بدونى لا يمكن أن يوجد شئ. حيثما تجد قدرة أو جمالاً أو قوة روحية، تأكد أن هذه كلها إنبثقت من شرارة من جوهر ذاتى.
- وفى أمثال سليمان الحكيم، تقول الحكمة: الرب قنانى أول طريقه من قبْل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مسحت منذ البدء أوائل الأرض... كنتُ عنده صانعاً وكنت كل يوم لذته فَرِحةً دائماً قدامه.

ولقد حظى هذا التفسير الدينى للتاريخ بتقدير واسع، قبل القرن التاسع عشر، أى فى رحلة ما قبل الحداثة. فارتمى الناس فى أحضان الروحانيات، كما قال "چون ديوى"، إعتقاداً منهم أنها توصلهم إلى اليقين. وكانوا يؤمنون أن الله يمسك بيده أمور الحياة والكون، وأنه يعمل بحكمة كى يتقدم العالم، ويستمر فى التقدم نحو الكمال، ونحو الإكتمال الأبدى. أى أن الرؤية كانت منطلقة من الإيمان بالخالق، وترى وجود تناغم بين الخلق.

ولكن التطور الذى طرأ على العلم والتكنولوچيا، وخاصة فى القرن العشرين، أى فى مرحلة الحداثة كما يشار إليها، حوّل فكر الإنسان، فتعلق إيمانه بالعلم وبمنجزاته، وصار له بمثابة إلهه الجديد القادر على حل كل المشاكل، وتوفير التقدم الذى يصبو إليه. وسادت العلمانية تحكمّ العقل وحده، وتعلى من شأن المادة والمحسوس[٤٨]. بهرته الكهرباء والطائرات وما لحق ذلك من مخترعات، وإنتهى به الأمر إلى "تحييد" الدين، وكأنه عاد ليردد فى قلبه، ما سبق أن ردده بعض الرجال فى أورشليم، فى زمن الإنحدار الدينى «إن الرب لا يحسن ولا يسئ» (صف ١ : ١٢)! أو ما تجاسر "نيتشه" على إعلانه من أن الله "مات".

وفجأة ظهرت الإنتكاسات وتآكلت قدرة النموذج الحضارى "الحداثى" على التصدى للعديد من المشكلات المعاصرة، وأخذت الشكوك تحيط به. وإكتشف الإنسان أنه لم يجد ما كان يسعى إليه من أمن وأمان وسلام داخلى. فالأمراض التى ظن أنه قُضى عليها عادت، وبصورة أكثر استشراءً، وبأنواع وأسماء جديدة كأنما لتنتقم منه. والفقر الذى كان بسبيله للقضاء عليه، أو لحصره وتقليصه، أو هكذا تنبأت قمة "كوبنهاجن" بالدنمرك، التى عقدت حول هذا الموضوع عام ١٩٩٥، استشرى مع بداية القرن الجديد، وتفاقمت مآسيه، وتضاعفت أعداد الفقراء. والعنف ونوازع القسوة والبطش، التى تصور - فى

---

(٤٨) وهذه ظاهرة يصورها بعض الكتّاب على أنها "تضخم عضلة العقل" عند الذهنيين من التنويريين، ومن لف لفهم، الذين يمارسون حياتهم من خلال إعلاء قيمة التنظير العقلانى الصرف، والتفكير التجريدى الرمزى، بحيث تضخمت هذه الأداة المصقولة - العقل - فحلت محل كلية الوجود، بإعتبار أن الوجود أشمل من مجرد العقل، وأن دوائره ممتدة إلى الإيمان بالغيب حتى وجه الله.

مطلع القرن العشرين – أن التقدم العلمى والعقلانى والفلسفى سيقضى عليها، تعاظمت وتضخمت صورها البشعة قبل أن يرحل القرن. وسيطر عليه خوف غامض من العنف. حتى بات يظن أنه ميكروب ينتقل إليه من الجو أو من البيئة، أو بالعدوى بين الناس، ويصعب الوقاية منه أو التحصن ضده[٤٩]. واليوم يأخذ إكتشافه المتأخر هذا بعداً عميقاً من القلق، مع دخول الألف الميلادية الثالثة، إذ يداخله خوف – بحكم تراثاته الدينية – من أن تواكبها نهاية العالم نفسه[٥٠]، وهو على ما هو عليه من الحيرة والإرتباك وعدم الاستعداد.

هل يعنى هذا أن إنسان اليوم يتمزق فى عالم يبشر بالجديد حالة كونه يتهرأ ويتفكك؟ وهل يعنى أنه يواجه فعلاً أزمة إختيار روحى، بين أن يختار الله أو يفضّل "البعل"؟ وأن استفحال الشر المعاصر هو محاولة شيطانية لإجهاض هذه البداية ليقظة روحية؟.

يشير المفكرون إلى المرحلة الإنسانية الحالية بإعتبارها مرحلة "ما بعد الحداثة"، وهى تتسم باستيضاحات عن العلمانية وعن الدين، وعن إمكانية الجمع بينهما، أو عقد مصالحة بينهما، ومحاولة وضع العقل فى مكانه الصحيح دون أوهام فى سحره أو إعجازه،

---

(٤٩) لدرجة أن إنسان اليوم أصبح يجد لذة فى تتبع ومشاهدة صوره على الشاشة الكبيرة والصغيرة، وفى قراءة مادته. حتى أن العقدين الأخيرين شهدا كمّاً هائلاً من أفلام وقصص العنف. كأنه صار جزءاً مستتراً من الإنسان أو فيه، يتغذى على هذه النوعية من الإنتاج. أو لعله من تخوفه منه – العنف – ورهبته من سلطانه يحاول التعرف عليه والتأقلم معه، من خلال ما يتصوره عنه. وما تصوره الأفلام والكتابات الأدبية عن طبيعته وصوره.

(٥٠) عند الفواصل التاريخية هذه يتجدد تفسير النبوات القديمة، فتقوى عند المسيحيين الدعوة عن نهاية العالم ومجئ السيد المسيح. ويُذكر أن الواعظ الأمريكى المشهور وليم ميللر حدد عام ١٨٤٣ موعداً لنهاية العالم ومجئ المسيح، وكان له أتباعه عُرفوا بالمللرين. وفى أواخر القرن التاسع عشر أعلنت جماعة مسيحية أمريكية باسم كريستيان ساينس (ومؤسستها مارى بيكر إدى) عن مجئ السيد المسيح وحددت له سنة معينة. وعندما قامت الحرب العالمية الثانية إنطلقت التفسيرات تشبه "هتلر" بالنبى الكذاب، و"موسلينى" بالوحش الخارج من البحر، كما جاء فى سفر الرؤيا، مدللة على قرب نهاية العالم. وفى كوريا الجنوبية استعدت جماعة مسيحية لنهاية العالم (١٩٩٣) وإنتهت إلى إنتحار العديد من أفرادها، عندما لم يتحقق فى الموعد الذى حددته. والآن يتطير الغربيون من عام ٢٠٠٠ بإعتباره بداية الألفية الثالثة، ونهاية العالم، إستناداً إلى ما جاء فى سفر الرؤيا أيضاً. لدرجة أن مجلة رصينة مثل "الإيكونومست" البريطانية خصصت موضوعها الرئيسى (يناير ١٩٩٧) عن "هواجس القيامة" على عتبة الألفية الثالثة. وكل هذا نوع من الرجم بالغيب، خاصة وأن السيد المسيح قال للرسل «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الله فى سلطانه» (أع ١ : ٧).

وتمكين القيم الروحية من العودة إلى نسيج الحياة[٥١]. أى أن هناك عملية مراجعة كاملة لكل ما ساد فى ما يعرف بمرحلة الحداثة من أفكار وفلسفات وتوجهات، وشطحات أيضاً. يدعم ذلك ما يظهر الآن من مصنفات لفلاسفة عصريين يكتبون عن الإفلاس الروحى، أو القحط الروحى السائد، الذى يكاد يجفف مظاهر الصحة النفسية والذهنية فى إنسان العصر، وينصحون بضرورة التوقف عن "نفى الله"، أو تجاهل القيم الروحية التى لا يستطيع الإنسان العيش بدونها. أى أنها دعوة للرجوع إلى الأصول، إلى الجذور، إلى الينابيع الحية التى تفيض من أعماق حب الله، وهى أمور بدأت جماهير عريضة من الناس، فى مختلف المجتمعات، تفكر فيها بصوت مرتفع.

فإذا صدق هذا، وترسخت حقاً أقدام هذه المرحلة - اليقظة - الحساسة، عُدّ فعلاً تحولاً ضخماً "ألفياً"[٥٢]، وبات العالم مشرفاً على قيام نظام جديد New Order، يأخذ فيه "النظام السمائى The Godly Order" موقفه ومكانته.

والنظام السمائى واضح ومحدد فى دعوته، التى ينادى فيها:

---

(٥١) ظهرت فى أمريكا، فى الفترة الأخيرة، موجة قوية نحو البساطة Simplicity. فالناس بعدما وقعوا فى مصيدة الحياة التى عقدتها التكنولوچيا الحديثة، يحاولون التخلص والتحرر والهروب إلى حياة أبسط: إلى أجهزة أقل، وملابس أبسط وطعام طبيعى، وإلى حياة الريف إن أمكنهم. وفى هذا ما يشير إلى حاجتهم إلى المعنويات والروحيات. كما أن فى الصين الآن دعوة قوية إلى يقظة روحية، وإلى الإنعتاق من تيار المادية الذى واكب إقتصاد السوق، وإلى الأخلاقيات الكونفوشية السامية (حركة الكونج فو).

- وهناك من يقول إن «الإلحاد إستحالة بيولوچية»، بإعتبار الخلية، كما أكدت علوم الوراثة الحديثة، كائناً حياً له قوانينه الخاصة وإرادته الخاصة، وذاكرته المتميزة، وقدرته على الاستيعاب بل وعلى القتل والإنتحار. ومن أجل حياتها تسعى للحفاظ على التوازن مع كل دوائر الوجود التى تمتد إلى الإيمان بالغيب حتى وجه الله، وحين يتصالح الإنسان على خلاياه ويحذو حذوها يصبح إنساناً مؤمناً مثله مثل خلاياه.

(٥٢) ويشير "الألفى" هنا إلى ما تردده بعض الطوائف المسيحية من أن السيد المسيح عند مجيئه ثانية سيملك على العالم مدة ألف عام، يُربط خلالها الشيطان، ويسود العدل والسلام الكامل فيما يعتبر عهداً ذهبياً للبشرية. وكان چون نيلسون، عالم الدين البريطانى، من أقوى دعاة "الألفية" فى القرن ١٩، وتروج لأفكاره بعض الطوائف الإنجيلية فى أمريكا.

أما الألفية Millenarism فى مفهومها العام فهى التى تتنبأ بأن تشهد البشرية حدثاً ما يحول مجرى تاريخها فى نهاية كل ألف من السنين. ويذكر أن المفهوم الألفى بدأ مع اليهود فى القرن السادس قبل الميلاد حين جرى سبيهم فى بابل فى نهاية الألف حسب التقويم اليهودى. وكانوا يتوقعون مجئ المسيح فى نهاية الألف التالية، فلما جاء مبكراً، أى بعد ستة قرون فقط، رفضوا قبوله. وتغلغل المفهوم اليهودى عن "الألفية" فى العقائد الشعبية المسيحية والإسلامية على السواء. ويذكر أن "نوسترا داموس" الطبيب الفرنسى اليهودى الأصل تنبأ بأن حضارة جديدة ستبدأ فى القرن الأول من الألف الثالثة الميلادية، ينتهى بها التاريخ وتقوم القيامة.

١- بإقامة **مذبح الله**، داخل النفس والبيت ووسط المجتمع. وهو ليس مذبحاً لتقديم الذبائح والمحرقات فقد مضى عهدها لغير رجعة، بل كما قال بولس الرسول «فأطلب إليكم... أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله **عبادتكم العقلية**. ولا تشاكلوا هذا الدهر بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة» (رو ١٢ : ٢ , ٢). أى عبادة تأملية واعية عميقة، لا هى ميكانيكية، أو مظهرية سطحية يعتبرها الله مجرد «ضجة» (عا ٥ : ٢٤). ولا هى إنفعالية عاطفية بدون عمق معنوى وجدانى، أو بدون إيمان، بل عبادة بالروح والحق.

٢- كما يدعو بنفس القوة والوضوح بلسان إشعياء النبى «إغتسلوا تنقوا إعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى (الرب) كفوا عن فعل الشر. تعلموا فعل الخير. **اطلبوا الحق** انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة» (إش ١ : ١٦ , ١٧)، «إحفظوا الحق اجروا العدل» (إش ٥٦ : ١٠). أى إقامة صرح العدل والرحمة فى المجتمع الإنسانى.

وهنا تبرز مسئولية «الدين» - أو الجوهر النقى للدين الذى فيه المستقبل السعيد، كما يقول الشيخ محمد عبده - فى مدى استجابته إلى هذا التحول، فى مرحلة ما بعد الحداثة. وصور هذه الاستجابة. وهو مدعو الآن - وأكثر من أى وقت مضى لإنقاذ كوكبنا - إلى الإستجابة الإيجابية والعقلانية، من أجل إشباع هذا الشوق الذى يبديه الإنسان اليوم لما هو للروح ولله، وإلى قيادته قيادة مستنيرة فى دروب العدل والرحمة والحب. وأن يبدأ - وفى الحال - فى التبرؤ من كل صور الاستعدائية أو الاستفزازية أو العدوانية أو إثارة الصراعات. وأن يتوقف عن النرجسية والتمحور حول المصالح الضيقة والأنانية، حتى صار "عالة" على المجتمعات، وعلة إنقساماتها وتشرذمها وغربتها، كما يروج بهذا خصومه.

والدين قبل كل شىء، كما يقول الصالحون، وسطية واعتدال، ومحبة ومودة، وسلام، ودعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلة بالتى هى أحسن، وتعليم بالقدوة والعمل الصالح لكل الناس. والله ذاته يهدى بلطف ويعلم بلطف، فيأتى هديه وعلمه من خلال إرادتنا وحريتنا، ولا إكراه منه علينا فى إيمان أو عقيدة.

ولقد إتفقت الشرائع السمائية، وشرائع الديانات التقليدية، على أن جوهر الإنسان

واحد. فالناس وحدة متماسكة مهما إختلفت ألوانهم وأصولهم العرقية «كلكم من آدم وآدم من تراب»[٥٣]، «وصنع - الله - من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض». كما إتفقت على وحدة الرسالة السماوية التي جاء بها الوحي على مراحل على لسان الأنبياء والرسل.

والشرائع السماوية تؤكد أنها مصدر لكل القيم والأخلاق، وتصر على ضرورة المحافظة على الأمن وعدم الإخلال به، وتحقيق التضامن تحت مظلة العدل والسلام. كما تبشر بأن "الدين"[٥٤] هو طريق خلاص البشرية. هو دواء لكافة أدوائها، وسبيل صحتها وعافيتها. ومستقبلها السعيد مرهون بالعودة إلى جوهره النقي. وعالم اليوم المريض لا يكفي في علاجه طبيب واحد. لابد له من "كونصولتو". والدين في ذاته لا يحول دون ذلك. ليس عقبة. إنما المسألة في أيدي رجالاته وقياداته، ومدى وعيهم لضرورة التجمع معاً، أو الإتحاد - ليس بالاستيعاب أو الإبتلاع أو الإلغاء - بل بالاعتراف والاحترام

(٥٣) «وقد كرمنا بني آدم»، وبنو آدم هم كل سلالته. ويدعو إلى مكارم الأخلاق مع الجميع مسلمين وغير مسلمين «ولا يجرمنكم شنآن قوم ألا تعدلوا. أعدلوا هو أقرب للتقوى».

(٥٤) وكلمة دين religion هي من أصل لاتيني leg بمعنى تتَبَّع أو ملاحظة إتصالات سابقة، أو من lig أي يرتبط، بمعنى علاقة أو إتصال بين المخلوق البشري وبين من وما هو خارج نطاق البشر. وعن الدين "البدائي" يقول "فريزر" إنه استعطاف أو استرضاء القوى الأقوى من الإنسان، والتي تسيطر على مساره ومصيره. ويجمع مؤرخو الأديان على إختلاف مشاربهم أنه ليست هناك أمة في التاريخ عاشت ثم مضت دون أن يكون لها تصور بشكل من الأشكال عن الدين والألوهية والمصير. وفي مفهومنا نعتقد أن النزعة الدينية أصيلة وفطرية في الإنسان، وتتواءم مع طبيعته. وأن جحود هذه النزعة شذوذ في الطبيعة الإنسانية، كما أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون إيمان.

- وعلى الذين يهاجمون "العلمنة"، التي هي دعوة إلى الإيمان بالإنسان وعقله، ويشار إليها أيضاً "بالدنيوية"، والتي فتحت الطريق إلى تهميش الأديان وإقصاء مرجعيتها، مما فتح الباب بدوره للإنفلات الأخلاقي، وإلى تعظيم دور الجسد والجنس، فبرزت الإنحرافات من كل لون، وإنتشرت وثنيات جديدة، وآلهة من صنع البشر ترضي نزوعهم إلى المحرمات، كما تجاسرت العبادة الإبليسية على السفور وتحدي المجتمعات - عليهم أولاً أن يحاسبوا "الدين". أو بالأحرى "مفهوم المتدينين للدين"، ورجاله وإنقساماته وصراعاته، وأنانياته، والقدوات العقيمة التي يقدمها، والتي فتحت الأبواب مشرعة للنفور منه، والخروج عليه إلى ما يدعونه بمتاهات الضلال. وللعلم، فكل هذه الإنحرافات والإختراعات الشريرة قديمة قدم الإنسان. والجديد المطلوب، والذي يتمناه المخلصون، هو شجاعة كبرى تدفعنا وتحفزنا على غربلة الثقافات من كل ما يشوبها من خرافات وخزعبلات، ومن كل ما يفرق ويقسم، أو ينفي الآخر، لتقوم وحدة إنسانية تتأسس على كل ما هو جوهري وحيوي من أجل خلاصها وسلامها.

المتبادلين[٥٥]. ومدى تقديرهم لفاعلية "الكونصولتو"، وحكمة تعدد[٥٦] الآراء في التشخيص والعلاج، وتعدد الأصوات المرشدة والباعثة على الأمل والرجاء، بدلاً من تعددها في الاستهجان والتحقير والتكذيب والتكفير. فمثل هذه المهاترات للأسف هي التي شجعت وتشجع كل الذين يهاجمون "الدين" بكل مسمياته وطبقاته، فيتجرأ، مثلاً، أستاذ للقانون بجامعة هارفارد الأمريكية "بول فرويند" ليقول إن "الدين" جسم عظيم من الأكاذيب المؤدية مع ذلك إلى الحقيقة المطلقة، أما العلم فهو جسم عظيم من الحقائق المؤدية إلى الأكذوبة الكبرى.

إن العلاج الطبيعي، مثلاً، يقوم على تنوع من التمارين الرياضية، التي يجمعها عادة "الچيمنازيوم". فلماذا لا يكون هناك "چيمنازيوم" روحي، يكون فيه لكل دين مركز عامر بأدواته ووسائطه، يدخله الناس، كل الناس، من أجل الاستشفاء وسكينة النفس. وشعب مصر يقدم مثلاً رائعاً. فهناك مسيحيون يلجأون إلى مقامات وأضرحة رجال الله الصالحين، ومسلمون يلجأون إلى القديسين في كنائسهم وأديرتهم، في طلب الرحمة أو الشفاء أو الإنقاذ وقضاء الحاجات. وبهذه التلقائية والبساطة المشبّعة بالإيمان إنما يؤكدون وحدة الوجود، ووحدة جوهر الإيمان، وأن وراء جدران المعابد مهما تنوعت إلهاً واحداً تجب طاعته والتعلق برحمته وسماحته وقدرته، يجب على الذي "يأتي إليه" أن «يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه» (عب ١١ : ٦).

(٥٥) «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين». «وإن جادلوا فقل الله أعلم بما تعلمون، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون».

(٥٦) في المؤتمر الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الذي عقد في القاهرة مؤخراً، وكانت قضية المناقشة "الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري" قال د. مراد هوفمان، السفير الألماني السابق: إن التدين الحقيقي هو الذي يؤكد على قيمة التسامح "Tolerance"، وأن الدعوة إلى التسامح تقع على عاتق كل من المسجد والكنيسة. وأضاف أنه وجد في القرآن شيئاً غير عادي، يتميز به الإسلام، وهو الإشارة إلى التعددية الدينية والتعددية الحضارية «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..» فالقرآن الكريم يعطي الديانات الأخرى ضماناً دستورياً. ومن ثم فليس الهدف هو تحويل العالم إلى عالم إسلامي، وإنما إلى عالم يؤمن بالله وحده لا شريك له. والصراع القادم، في رأيه، ليس بين أصحاب الديانات الثلاث، بل بين الأقلية التي تؤمن بالله، وأسلمت قلبها إليه، والأكثرية التي لا تستريح لفكرة الله - أي الناس الذين تنحصر عندهم الحقيقة في حواسهم الخمسة، والذين يرون أن الدين خرافات أو خداع للنفس. وأكد أن هناك الكثير من المجالات التي يمكن أن يتعاون فيها المسلمون والمسيحيون، وفي مقدمتها الحفاظ على السلام في العالم، والتعاون في مواجهة القضايا التي تهدد البشرية، مثل مشكلات المخدرات، والتفكك الأسري، والحفاظ على البيئة. وتحقيق التفاهم بين أتباع الأديان. وهو التفاهم الذي دعا إليه مؤتمر للأمم المتحدة (سبتمبر ٢٠٠٠)، الأول من نوعه، وحضره أكثر من ألف زعيم ديني.

لقد حدث فى أمريكا، عام ١٩٩٥، شئ رائع. مليون من السود، المسلمين والمسيحيين، قاموا بمسيرة بقيادة الإسلامى فاراكان (أو فارحان)، من أجل كرامة ومستقبل الرجل الأسود. وتأسست المسيرة على مبدأ فلسفى قديم: إعرف نفسك. "لمّ" نفسك. إنقذ نفسك. لقد هزت المسيرة الجرارة مدن أمريكا وعاصمتها. ولكنها هزت بالأكثر، بوحدتها وتضامنها وصدقها، ضمير الإنسان الأسود ووجدانه، وأيقظته. وفى خلال سنة من قيام المظاهرة تحققت نتائج باهرة: أثبتت الإحصائيات الرسمية إنخفاض الجرائم فى نيويورك، وتراجع فى تجارة المخدرات، وإمتلاء الكنائس والمراكز الإسلامية بالشباب.

ويمكن أن يحدث ما هو أروع حين تتم ترجمة "الدين" فى كل أرجاء الأرض، وفى مظاهرة حاشدة من كل شعوبها، إلى «حب الخير وعمل الخير وتقديس الخير» لكل الناس. وإلى دعوة جسورة شجاعة مؤمنة تدعو إلى هدم الحواجز المصطنعة، وأسوار الكراهة والتنابذ، لتقوم مكانها أرضية مشتركة راسخة تتأسس على وحدة الإنسانية، ووحدة الإنسان نفسه وتكامله فى "الآخر"، وعلى التعددية التى إرتضاها الله لبشريته، بإعتبار أن أحداً لا يحتكر وحده الحكمة أو الحقيقة، ولا يستطيع أن يدعى ذلك.

عندئذ تتوقف المتاجرة بالدين، والمزايدة به، ويتحول من سيف يقتل إلى مبضع فى يد نطاسى ماهر يشفى ويحيى. وتلتقى الثقافات كلقاء العشق الأول. يدور فيه حوار الهمس المحبب، وتتداخل تداخل زواج الحب، ليثمر منطق الفهم والتفاهم. وعندئذ يولد فعلاً وحقاً "النظام العالمى الجديد" عالم متعدد المراكز يجمع فى إطاره جميع الدوائر الحضارية والمناطق الثقافية والقوميات. ويهتف إشعياء النبى، حيث هو، هتاف الفرح والانتصار، وقد لاحت إرهاصات تحقيق نبوته[٥٧] عن عالم تخلص من بذور الريبة والشك والخوف الغريزى، ومن الهيمنة والاستبداد، "وتعولم" بالحب والثقة:

فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى والعجل والشبل والمسمن معاً وصبى صغير يسوقها.

---

(٥٧) سفر إشعياء ص ١١: ٦-٩.

والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معاً والأسد كالبقر يأكل تبناً.

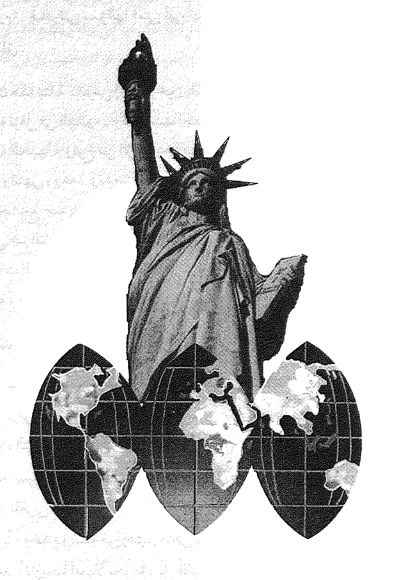
ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على حجر الأفعوان.

لا يسوؤون ولا يفسدون. لأن الأرض تمتلئ من معرفة[٥٨] الرب كما تغطى المياه البحر.

(٥٨) والمعرفة واحدة من المفاتيح المهمة للحياة السوية الغنية. وهذه حقيقة فلسفية قديمة تتجدد على مر الأيام. ويعتبرها "كارل بوبر" - الذى يحتل مركز أعظم فلاسفة القرن العشرين عند البعض - الطريق إلى "عالم أفضل". فالإنسان عنده يتحرر بقدر ما يعرف، ويعرف بقدر ما يفكر وبقدر ما يتعلم من أخطائه، إقتناعاً منه بأهمية النقد الذاتى، وضرورة الإعتراف بالخطأ، مما يفسح المجال لإزدهار قيمة إنسانية عظمى هى "التسامح" الذى يحملنا فعلاً وحقاً إلى عالم أفضل.

ومما يجدر معرفته أن كلمة "السر" للخلاص الفردى والمجتمعى هى **"التوازن"**، نتعلمه من الخالق الذى صنع الكون بميزان وبمنتهى الحكمة والإتقان: توازن روحى يتمثل فى التناغم مع نظام الكون الأعظم، يتجسد فى توازن داخل الإنسان بين قواه الروحية والمعنوية وقواه المادية، مما يعنى الإعتراف بالنواميس الإلهية التى لها حق السيطرة على الكون وعلى الإنسان. وتوازن **إجتماعى إنسانى** بين "الأنا" و"الآخر"، يعنى الإعتراف بالغير - بحقه، بفضله، بضرورة التعاون معه والتعايش إلى جانبه. وتوازن **حضارى** بمعنى الإعتراف بكل الحضارات، وإحترامها، والتنسيق معها من أجل التوافق، بل والتفاعل والتداخل أيضاً. وتوازن بين **الدين والعلم** لدرجة التعاون والتلاحم. فالعالم أينشتاين يرى أن العلم دون دين هو علم أعرج كسيح، ودين دون علم هو دين ضال أعمى. فكلا المسيرتين الدينية والعلمية تلتزمان بقيم إنسانية وروحية لا حياة لأى مجتمع بدونها. وأخيراً توازن بين القوى والمصالح والإتجاهات والمعتقدات ليقوم عالم مثالى كما صوره المفكر المصرى "فرح أنطون" فى روايته "الدين والعلم والمال".

شرطي الكون



- ١ -

لما سافر **سان** إلى الولايات المتحدة الأمريكية أول مرة، كتب إلى صديقه علاّم يقول: كانت صدمتى بنيويورك بالغة. كل شئ بالغ الضخامة والدقة. والناس كالأرقام تتحرك وتتصرف فى سرعة فائقة. اللمسة الإنسانية غائبة. والمادية صارخة خانقة. حتى أنى صرخت على مسمع من رفيقتى الأمريكية السمراء «هذه حضارة قاسية لن تدوم». فبادرتنى بسؤالها «متى تجئ نهايتها فى رأيك؟». فقلت «قريباً جداً». فشهقت ولم تعلق.

كان هذا بمثابة كابوس إختفى حين بلغتُ مدينتى الجامعية فى الغرب الأوسط. المدينة صغيرة ترفل فى الهدوء. وقد كست الخضرة أرجاءها، وشاعت فيها الإبتسامة الرقيقة، والدعة المحببة، ونوع من الإلفة يخفف حدة الغربة. تبددت صدمة نيويورك. وسكن القلب وانتهى روعه. وندمت على ما أصابنى من تشنج فتسرعت فى الحكم من أول لقاء مع مجتمع جديد. ورويداً إكتشفت أن الأرض هى الأرض، والبلدان هى البلدان، والناس هم الناس. الفروق أغلبها سطحية كلون الجلد. والسلوكيات وصور التعبير عن مكنونات النفس وحاجات الجسد، تتراوح بين الرقة والفجاجة، والتورية والصراحة القاسية، والنبالة والخسة.

وبعدها بشهور كتب **لعلام** تقريراً مطولاً عن أمريكا استهله بقوله:

تتسم العلاقات العربية الأمريكية، رغم تاريخها الطويل نسبياً، بالافتقار إلى القدر المعقول من الفهم المتبادل. وتتأثر سلباً بالصور النمطية والمسبقة على الجانبين. وهى الصورة التى تشكلت فى مخيلة كل طرف عن الآخر عبر سنوات طويلة، حتى صارت راسخة عميقة الجذور، مما يتطلب جهداً مركزاً ومتعمداً طويل الأجل لتفكيكها. فأمريكا، بالنسبة للعربى، تبدو وكأنها "كيان مبهم" بسبب ما يواجهه منها من هجوم مستمر، سلماً أو حرباً، وعدم وضعه فى إعتبارها فى سياستها البراجماتية. رغم أن العرب لم يحملوا يوماً عداءً تاريخياً أصيلاً نحوها، بل ظلوا دائماً حريصين على إقامة علاقات أفضل معها. وإذا راجعنا صحفنا العربية، وكتباً لكتّاب أمثال فيليب حتى ومصطفى أمين وغيرهما،

خلال قرن كامل، أى من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، لوجدنا أن كتابنا كانوا يرون فى أمريكا الحلم المثالى بما فيها من سمات الحرية والديمقراطية التى عرفناها من تاريخها. ولم يتغير الوضع إلا بعد ظهور القضية الفلسطينية وقيام إسرائيل، إذ تراكمت المشاكل، وتعقدت التصورات، وتعاظم ما يشعر به العرب من إحباطات وخيبة أمل فى سياستها لإقتناعهم أنها تأخذ بأسلوب الكيل بمكيالين.

وهذا "الكيان المبهم"، الذى أصابنا بما يعرف بداء "الفوبيا الأمريكية"، والذى نسعى لأن نكون له شريكاً استراتيجياً، وأن يكون لنا شريكاً حقيقياً فى بناء وتقدم التكنولوچيا فى بلادنا، نرتبط به فى مصالح مشتركة مباشرة وغير مباشرة لمركزه المهيمن فى العالم. وهى هيمنة يقول عنها إنها «هادفة للخير»، وتركز سياساته الخارجية[١] على الاحتفاظ بها. وقد بلغ هذا المركز، كما يعلن ساسته، بفضل نمو القوة المادية والصناعية، واستقرار نظامه السياسى الداخلى، وتأييد مواطنيه الشديد لنظام حكمه وإعتباره يتفوق على غيره فى العالم.

ويعترف العالم اليوم لهذا "الكيان" الأمريكى بأنه القوة العظمى الوحيدة فى الوضع الجديد، وبكونه اللاعب الرئيسى فى النظام الإقتصادى العالمى، وهو أيضاً الراعى الرئيسى لعملية السلام فى الشرق الأوسط. وبينما يراه بعضنا مصدر الخير ومفتاح مسيرة السلام والمستقبل، يرى البعض الآخر أنه يمثل الهيمنة والعدمية والتردى الحضارى[٢]. ومع أن دوره فى العالم قد يكون مكروهاً، فأوساط كثيرة تراه مرغوباً لضبط التوازنات

---

(١) يُذكر أن هذه السياسات تم إرساؤها، عموماً، فى فترتين أساسيتين: (أ) فترة الآباء المؤسسين (وشنطن ولنكلن).
(ب) فترة رئاسة كل من روزفلت وترومان وكندى. وبدءاً من الخمسينيات ظهر ما سماه "دوايت أيزنهاور" بالمجمع "الصناعى العسكرى" الذى يضم مجموعة من المؤسسات والعاملين فى السياسة الخارجية، كالعلماء والخبراء والأساتذة ورجال الفكر.

وعلى العموم هناك ثوابت تستند إليها سياسة البلاد الخارجية هى مزيج من تقاليد قديمة وأخرى حديثة وهى: مركزية الموقف الداخلى الذى يتقدم على إرتباطاتها الخارجية، وحماية الحرية فيه بإعتبارها "أرض الميعاد". والتوسعية التى تقوم على تدعيم نفوذها فى العالم الجديد بمقتضى "مبدأ مونرو"، وعلى التوسع التجارى بمستوى العالم. والإمبريالية "الخيرة" التى تهتدى "بمبادى ويلسون"، وبمفهوم الليبرالية العالمية ونشر الحرية وتحسين العالم، وتلجأ إلى سياسة "الإحتواء" ضد من تعتبرهم معوقين لهذه التوجهات.

(٢) وهذا أيضاً بعض مما ردده الكاتب الفرنسى المعروف "روچيه جارودى" فى كتابه "الولايات المتحدة.. طليعة الإنهيار".

الأمنية فى أوروبا وآسيا وبقية العالم. ومع ذلك فنحن نتقاعس عن فهمه[٣]. فلا توجد مثلاً أقسام فى جامعاتنا أو معهد[٤] متخصص لدراسة الولايات المتحدة وقارتها أمريكا الشمالية على غرار ما هو موجود فى معظم الدول المهمة، والتى تقدر أهمية فهم أطراف علاقاتها، وخاصة من له أهمية كالطرف الأمريكى. فمثل هذه المراكز موجودة فى الصين والهند وأمريكا الجنوبية التى تنتمى إلى عالمنا الثالث، وأيضاً فى روسيا، وبلدان العالم الأول كإنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان.

وأهم أهداف الدراسة المطلوبة هو "فهم" الولايات المتحدة فهماً متعمقاً، يعتمد على المعلومات الدقيقة. وهو ما يتطلب تعرفاً منهجياً على التاريخ الأمريكى، والمجتمع الأمريكى، والثقافة الأمريكية، ونظام الحكم فيها ككل بآلياته وفعالياته، وتفاعلات السياسة الداخلية التى هى المفتاح الحقيقى لصنع السياسة الخارجية، بحيث يصبح فى الإمكان معرفة المفاتيح الحقيقية للعبة السياسية داخل أمريكا معرفة صحيحة. ذلك أن الوضع الراهن للدراسات الأمريكية فى مصر والعالم العربى، إلى جانب محدوديتها، فهى قلّما تركز على الأوضاع الداخلية فى الولايات المتحدة، مع أن القضايا الداخلية تمثل قلب إهتمامات السياسيين والقيادات الحزبية، أو على مؤسسة صنع القرار بها وكيفية صياغته، مما يؤدى عادة إلى الاعتماد على الإعلام الأمريكى نفسه، أو على مصادر

---

(٣) وتحت عنوان "فهم أمريكا.. مهمة وطنية" سجلت الكاتبة أننا نتناول قضايا الدور الأمريكى ونحن أسرى «مجموعة من الإنطباعات والصور النمطية المفرطة فى الإيجابية أو السلبية... والمتابع لخطابنا عبر العقود القليلة الماضية، يلمس مجموعة من الملامح التى ظلت تميزه، فهو قائم فى أغلب الأحيان على درجة عالية من التبسيط والتعميم، تصاحبها عادة شحنة إنفعالية واضحة». وأوضحت أن عدم نجاحنا يعود إلى «التركيز المطلق على السياسة الأمريكية دون أى إهتمام بآليات صنع هذه السياسة... أى كيفية صياغتها أصلاً ومن أين جاءت؟ ولماذا؟ مع أن النظام السياسى الأمريكى يتسم بخصوصية فريدة تميزه عن النظم الديمقراطية الأخرى، وبالذات فى آليات صنع السياسة». (الأهرام ٢٤/ ٣/ ٢٠٠٠ ص١٠).

- مما يتردد أن الأمريكيين من أصول عربية (٤ ملايين) هم الأقلية الوحيدة فى الولايات المتحدة التى لا تتمتع بالحماية الكافية، أو بوزن مؤثر فى مجريات الأمور، وذلك، كما يقال، لأنهم لم ينجحوا فى تنظيم أنفسهم على نحو فعّال داخل البلاد. والمعهد العربى الأمريكى فى وشنطن بميزانية هزيلة، حوالى ١٫٢ مليون دولار، ولا يحظى بإهتمام القيادات العربية الزائرة.

(٤) من الأمور المشجعة أن ندوة "العرب والأمريكيون: صورة الواحد فى منظور الآخر" التى عقدت فى أصيلة بالمغرب (أغسطس ١٩٩٦)، تمخض عنها إنشاء مركز عربى للدراسات الأمريكية فى أصيلة. وقد دعا مؤخراً (سبتمبر ٢٠٠٠) وزير خارجيتنا إلى إنشاء معهد مصرى دراسى بحثى للعلاقات المصرية - الأمريكية. تكون مهمته رصد وتحليل وتحديد أطر وآفاق العلاقات، وتخريج طلبة مصريين وأمريكيين لمواصلة هذه المهمة.

أمريكية لمعرفة ما يدور هناك، فنصل إلى معلومات إنتقائية ومنقوصة، مما يفرغ هذه الدراسات من قيمة الموضوعية والعلمية الصحيحة.

* * *

والذى يدرس الولايات المتحدة الأمريكية - **يا علام** - إنما يدرس قارة كاملة[٥] قائمة بذاتها. كما أنه يدرس تاريخ أمة "ثائرة" عانت من الاستيطان والاستعمار البريطانى[٦]، وخاضت ضده معارك استمرت عقدين من الزمان (١٧٦٣-١٧٨٢)، أعلنت خلالها استقلالها (١٣ مستعمرة/ ولاية) فى ٤ يوليو ١٧٧٦، وانتخبت عام ١٧٧٩ چورچ وشنطن كأول رئيس لها. وبلغت ذروتها فى الحرب الثورية التى دارت رحاها فى الأعوام ١٧٧٥-١٨٧٣، وعرفت بالثورة الأمريكية[٧] American Revolution، لاستكمال استقلالها عن بريطانيا، وقد عرفت أيضاً بحرب الاستقلال الأولى لأن حرباً ثانية إندلعت بينهما ودامت سنوات ١٨١٢-١٨١٥. وهى لهذا تعتبر قريبة من وجدان الأمم التى خاضت صراعاً ساخناً دامياً أو سلمياً، ضد نفس المحتل مثلنا فى مصر وفى الهند.

ولم تمض أربعة عقود على هذا الاستقلال حتى إندلعت حرب أهلية ضروس، أشعلها قانون حقوق الفرد وواجباته الذى صدر فى ١٨٤٧، ودارت رحاها بين الشمال The Union، مناضلاً من أجل قضية تحرير العبيد، ضد الجنوب The Confederacy، استمرت أعوام ١٨٦١-١٨٦٥، وانتهت بهزيمة الجنوب، وبجراح عميقة فى المجتمع

---

(٥) تمتد من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى، بين كندا والمكسيك، وتبلغ مساحتها ٣٦١٥٢١١ ميلاً مربعاً (٩ ملايين كيلو متر مربع)، بما فيها ألاسكا وجزر هواى. وينسب الاسم إلى ثلاثة مصادر: سلسلة جبال فى نيكاراجوا Ammerique استعمله المستكشفون الأول للأراضى الجديدة؛ اسم عند الهنود الحمر Americ بمنطقة البحر الكاريبى؛ بحار إيطالى يدعى Americus / Amerigo.

(٦) وكان هناك الاستعمار الأسبانى، ودارت الحرب الأمريكية الأسبانية عام ١٨٩٨.

(٧) الكاتب الإنجليزى المعروف "توماس باين"، فيلسوف الثورة الفرنسية، ومؤلف كتاب "حقوق الإنسان" الذى كان نابليون يضعه تحت مخدته عندما ينام، أهدى كتابه هذا إلى "چورچ وشنطن"، أول رئيس للولايات المتحدة، بدافع من ثوريته وعقيدته الديمقراطية، وسجل فى إهدائه: «إنى أقدم هذا البحث القصير دفاعاً عن أسس الحرية التى أقمتها. وإنى لأدعو أن تصبح حقوق الإنسان منتشرة فى العالم كله كما تريد، وأن تسعد برؤية العالم الجديد يعيد الحياة للقديم». ومن المعروف أنه ساعد الرئيس جفرسون فى كتابة "إعلان الاستقلال".

الأمريكى، صورها أدباء الحقبة وما بعدها، بالدموع والدم، على غرار Gone With the Winds، الرواية اليتيمة لمؤلفتها مرجريت ميتشيل، والفيلم الضخم الذى صورها.

وقام إتحاد فدرالى تزايدت ولاياته حتى أصبحت الآن ٥١ ولاية. فمنذ حرب الاستقلال وساستها يعتبرون توسيع رقعة البلاد داخلياً، فيما بين المحيطين، حقاً مشروعاً ليس هناك ما يدعو للخجل منه. ويعتمد الإتحاد فى أسلوب إدارته على مركزية الإطار العام لسياسة الإتحاد، ولا مركزية الحكم المحلى على مستوى الولايات، وعلى إدارة قوية متمرسة تركتز على صفوة متخصصة متميزة من أبناء المجتمع وممن يتم جذبهم من الخارج، والالتزام بتطبيق الديمقراطية وتحقيق العدالة بين الجميع.

وإتجه المجتمع، بعد الحرب الأهلية، إلى الأفكار السياسية الليبرالية وإعتناقها. ويشير إليه المؤرخ الأمريكى أرثر شليزينجر بالمجتمع الأول والثورى. وهى الأفكار التى استعان بها فرانكلين روزفلت، الرئيس الثانى والثلاثين (١٩٣٣-١٩٤٥)، فى برنامجه المعروف "السياسة الجديدة (الخطة/ الصفقة) The New Deal، حين إنحاز إلى العمال لإنقاذهم من البطالة والفقر أثناء أزمة الكساد الكبير The Great Depression، فى الثلاثينيات، فتحول المجتمع الأمريكى إلى "مجتمع ديمقراطى إجتماعى"، يؤمن بضرورة وجود حكومة كبيرة وقوية ترعى عملية التوسع الإقتصادى المتواصل (أو ما يعرف الآن بالتنمية المستدامة)، الذى يقوم على رأس المال لصالح المجتمع ككل، محققاً بذلك فكر فلاسفة الليبرالية[٨] الأوائل، أمثال بنتام وستيوارت مل وهيوم، الذى يتحدث عن تحقيق أكبر نفع للمجتمع لأكبر عدد من الناس، من خلال إطلاق حق العمل والتملك والاستثمار والربح للأفراد تحت رعاية دولة دستورية[٩].

والدستور نفسه جاءت ولادته بعد حرب الاستقلال الأولى، إذ إنعقد المؤتمر

---

(٨) ودعوتهم للفردية والحرية الإقتصادية والمنافسة الحرة وحرية العمل، والمساواة وإلغاء الإمتيازات والفوارق الطبقية. والتأكيد على حرية الضمير، وحرية العقيدة والفكر والتعبير والمناقشة، وحرية الإجتماع. وحرية الفرد فى إختيار ما يوافق ذوقه، وتكييف حياته على ما يحب ويرضى، مادام لا يتعرض للآخرين بأذى.

(٩) وهى السياسة التى صار لها منتقدون وخصوم كثيرون من اليمين، وخاصة كونجرس ١٩٩٤-١٩٩٨ بأغلبيته الجمهورية التى تطالب بحكومة أصغر وميزانية أقل، وتخفيض الخدمات والمساعدات الإجتماعية، والإقلال من الإعتماد على الحكومة.

الدستورى العام فى ١٧٨٧ ، وإجتمع أول "كونجرس" فى سبتمبر ١٧٨٩ ، ووافق على قانون الحقوق، وإعلان الإستقلال، وصُمم الدستور فى صورة زاهية الألوان. وضمنه المؤسسون الأوائل مبدأ التوازن والضوابط - أو ما يعرف بالنظام الثلاثى للرقابة والتوازن[١٠] - كأساس لنظام حكم البلاد، ويقوم على عدم الإنفراد بالسلطة، لأن السلطة تفسد، والسلطة المطلقة تفسد فساداً مطلقاً. وللتأكد من عدم تحول الرئيس إلى ملك. وبينما يعطى النظام الرئاسى كلاً من رئيس الجمهورية والكونجرس سلطات واسعة تتميز باستقلالية الواحد تجاه الآخر لحد كبير، فإن أحدهما لا يستغنى عن الآخر فى نفس الوقت. وهى علاقة يشبهها البعض بالزواج الكاثوليكى، إذ يعيشان معاً دون طلاق[١١].

وقد خلق الدستور نظاماً بطيئاً معقداً للفحص والتمحيص والمراجعة ورعاية التوازنات، بقصد تحقيق التهدئة والتأنى فى عمليات الحكم والإدارة، لتجنب التسرع الأهوج فى إتخاذ القرارات، أو تبنّى المواقف المرتجلة غير المدروسة. وبهذا تأخذ الديمقراطية وقتها فى تحقيق الصالح العام[١٢]. ومن هنا برز التقييم القائل إنها دولة منظّمة، مؤسسة على الإدارة المستنيرة للناس. تسوسها حكومة مصالحة وتسويات، أى حلول وسطى، واسترضاء للأطراف المعنية. تأخذ القرارات فى ظلها الوقت الكافى لتنضج فيه، من خلال المناقشات بالمذاكرة والمداولة. ثم يجرى تنفيذها فقط حين تصبح ناضجة ومهيأة لذلك. ولهذا يثور أحياناً تخوف من الصحافة وتداخلاتها لما قد تخلقه من قوة دفع تؤدى إلى "التسرع والتعجل" الذى يقضى على ما يتوخاه النظام من التريث الحكيم.

---

(١٠) يرى الفيلسوف الغربى "بوليت" أن الحكومة التى يتحقق فيها التوازن والرقابة بين مؤسساتها السياسية، وتعادل الطبقات الإجتماعية - وهى ما يشار إليها بالحكومة المختلطة - تنجو عادة من حتمية الفساد والإنهيار، الذى يعتبره بوليب أمراً حتمياً وقانوناً ثابتاً بالنسبة للحكومات غير المختلطة.

(١١) يلاحظ أنه لا يوجد فى الدستور أية إشارة على الإطلاق لصلاحيات الوزارة ككيان جماعى، ولا الوزراء على نحو فردى. كل ما ينص عليه الدستور هو أنه يحق للرئيس أن يطلب رأى أحد الوزراء فى مجال إختصاصه وهو رأى غير ملزم. ولا يوجد ما يلزم الرئيس بالإلتقاء بشكل دورى بالوزارة ككل، أو ما يلزمه - وهو رأس السلطة التنفيذية - بأن يجعل الوزارة هى مصدر القرارات فى كل مجال. فقد يجعل فريق مستشاريه فى البيت الأبيض مصدر القرارات الكبرى. مما يفتح الباب لوجود صراع علنى أو مكتوم بين الوزارات المختلفة، أو بينها وبين البيت الأبيض، أو بين هذه المؤسسات جميعاً والكونجرس. وهو صراع مرغوب للإقلال من شبهة الفساد أو الإنفراد بالسلطة.

(١٢) الصيغة الديمقراطية للنظم الغربية لا تسمح بإتخاذ قرار ما دون أن يحظى بالتأييد فى أوساط الرأى العام.

ويكفل الدستور للمواطن الأمريكى التمتع بكافة حقوق وواجبات المواطنة دون النظر إلى أصوله العرقية . كما يضمن له حق الوصول السهل للنظام الشرعى للبلاد ، وحقه المتساوى فى المشاركة فيه . ويضمن له سهولة الوصول إلى ساحات القضاء ، وفرصاً متكافئة لمقاضاة أعلى المستويات ، والتمتع بقوة القانون(١٣) بكل وزنه وفعاليته ، بحيث يتأكد أنه جزء لا يتجزأ من النظام نفسه ، فيتعزز بذلك النظام .

ومع بداية القرن العشرين ، ساد مبدأ " النسبية الثقافية " توجهات السياسة الاجتماعية للولايات المتحدة ، وهو مبدأ لا يقبل فكرة تدرج الثقافات على سلم السمو أو الانحطاط . فكل ثقافة إنسانية مهما كانت درجة تطورها وإختلافها مع الثقافة الغربية ، لها الحق فى الوجود الشرعى وإحترام الآخرين لها ، وظل هذا المبدأ(١٤) الأساس المحورى للتيار اللبرالى المناهض للعنصرية . واستطاع أن يقوض ، إلى حد كبير ، عنصرية القرن التاسع عشر .

وبعدما انتقلت الولايات المتحدة ، فى القرن التاسع عشر ، من دولة زراعية تجارية إلى دولة صناعية كبرى ، خرجت من عزلتها(*) التى كانت تنتهجها ، وأطلت على العالم أثناء الحرب العالمية الأولى ، فرجحت كفة الحلفاء وتحقق لهم النصر . ولدى إعلانه الحرب على ألمانيا ، قال رئيسها " وودرو ولسون " «إن شعب وحكومة الولايات المتحدة سيشتركون مع غيرهم من الأمم المتحضرة فى العالم لضمان استمرار السلام . وإنى أتحدث بقدر أكبر من

---

(١٣) يؤسس القانون فى أحوال كثيرة على السوابق Precedents ، أى الأحكام السابقة التى أصدرتها المحاكم ، والتى لا يعرفها غير المحامين . ومن هنا برزت قوتهم ، وتشبيههم بالكهنة المصريين القدماء الذين مثلوا المصدر الوحيد والأصيل لتفسير علوم السحر والتنجيم . ولا عجب أن أذكى الطلبة هم الذين ينصرفون إلى دراسة القانون . ويشكلون بعد تخرجهم طبقة وحدهم لها سمات من الارستقراطية ، وتشكل - كما يعتقد - أقوى توازن بالنسبة للديمقراطية ، بإعتبارهم يخدمون الصالح العام ، متجاوزين المصالح الشخصية ومصالح الأفراد .

(١٤) ويُتهم هذا المبدأ ، الآن ، بأنه يمنع اللبراليين أصحابه من الاعتراف بالإنهيار الحضارى ، على المستوى القومى ، الذى تأثر به السود الفقراء أكثر من غيرهم ، ويتجسد فى شكل معدلات الجريمة المرتفعة ، وتقبّل ما هو غير مشروع وكأنه شئ طبيعى ، وازدياد الإعتماد على الحكومة ، وإزدراء قيم الإنضباط وتمدن السلوك .

(*) ولكنها كانت محتفظة بنشاطها فى المحيط الهادى ونصف الكرة الغربى بإعتبارها منطقة نفوذها ومصالحها . وكانت حكومات أمريكا الجنوبية والوسطى تنعت "بحكومات الموز" لسهولة سقوطها كلما ضغطت عليها الولايات المتحدة ، بما فى ذلك الحد من واردات الموز منها . وفى عام ١٨٢٣ صدر مبدأ "مونرو" وبمقتضاه إعتبرت أمريكا أى تدخل من جانب أى دولة أوروبية فى شئون دول الأمريكتين ، أو زيادة ممتلكاتها فيها ، عملاً غير ودى بالنسبة لها .

الشجاعة والثقة لأنه من الواضح لكل فرد أنه لا يوجد فى هذا الوعد ما يتناقض مع تقاليدنا وسياستنا كأمة. وإنما يمثل فى الواقع كل ما فعلته ونتدافع عنه». ولما إنتهت الحرب خرج بمبدأ تقرير المصير الذى صار صيغة مقررة فى السياسة العالمية، وتقليداً ثابتاً للسياسة الأمريكية - كما يتردد - فى نشر رسالة الحرية والليبرالية فى العالم.

واستُدرجت، أو لعلها استدرجت نفسها للدخول فى الحرب العالمية الثانية، بعد تردد، وقضت مع حلفائها على المحور الثلاثى (١٩٤٥/ ١٩٤٦). وناصرت صيغة قيام منظمة الأمم المتحدة لترث عصبة الأمم التى ناصرتها أيضاً بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى. وانتصف القرن العشرون أو كاد وقد اقتنصت لنفسها هالتين، الأولى باعتبارها زعيمة العالم الحر وحارسة السلام العالمى. والثانية باعتبارها "الأمة التى لم تخسر حرباً"، وهذه أحد عناصر عقدة التفوق عند الأمريكى، وفى كل ما هو أمريكى، والذى مهد لما يردده ساستها اليوم، خاصة بعد سقوط الإتحاد السوڤيتى، من أن بلادهم هى قائدة العالم، وأقوى قوة على وجه الأرض، والنموذج الديمقراطى الذى يجب أن يتحذى به الجميع فى كل أركان الدنيا!.

وبعد نهاية الحرب، تمثَّل وجهها المشرق فى البرنامج المكارثى فى اليابان، ومشروع مارشال فى أوروبا، اللذين مولتهما لإعادة إعمار ما خربته الحرب فى هذه البلاد، وإنهاض إقتصادياتها حتى صارت الآن نداً لها. ووقتها حاربت الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية، خاصة فى إيطاليا وفرنسا، مشروع مارشال دون هوادة. وتصدرت جريدة L'Huminitée الفرنسية هذه الحرب، باعتبار المشروع مؤامرة إمبريالية للهيمنة على شعوب غرب أوروبا.

أما الأمريكى "القبيح The Ugly American" - رواية لمؤلف أمريكى - فقد أطل أيضاً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، متمثلاً فى سعى بلاده لوراثة الإمبراطوريات القديمة، وخاصة الإنجليزية والفرنسية، وبدأ ما يعرف بالقرن الأمريكى. فتورطت تدريجياً فى مستنقع السياسات الإستعمارية والإمبراطورية. وهى الرغبة المحمومة التى أوحلتها فى حرب ڤيتنام، أقذر وأغبى الحروب الحديثة. وقد دفعها زهو الإنتصار إلى هذه الطريق السيئة السمعة، ومعه عقلية "التاجر" أو "البراجماتى" إذ أرادت كما يبدو أن تكسب من

وراء دخولها الحرب، وتعوض ما تحملته من تضحيات ونفقات. فاجتمعت لها السلطة والثروة، وهما من أخطر وأقوى "المسكرات" التى تطيح بالرأس، والتى لا ينطفئ التعطش إليها. وكما ورثت حرب ڤيتنام وعقدتها، ورثت إسرائيل وما نكبت به العالم العربى، ففتحت الباب لسوء الفهم وتعقيد المواقف بينها وبين الشعوب العربية.

- ٢ -

والتعرف على العوامل التى شكلت مكونات الشخصية الأمريكية تساعد ولاشك على فهم أمريكا ونمط التفكير الأمريكى. وكأى بلد آخر فى العالم، قد لعبت الجغرافيا والتاريخ دوراً بارزاً فى هذه التركيبة. والجغرافيا هنا تتميز بالضخامة والتنوع الفريد. فالمساحة شاسعة تقترب من أربعة ملايين ميل مربع، وتكوينات السطح تبرز فى ضخامة جبالها الإلتوائية، حديثها وقديمها، بتركيباتها الچيولوچية وتشكيلاتها المبهرة، وهضابها، وسهولها، وشبكة أنهارها المتشعبة. وعلى النقيض من أوروبا وآسيا، فتضاريسها تمتد باتجاه شمال - جنوب، الأمر الذى جعل آثار عصر الجليد الأخير قوية وممتدة فيها. كما يفتح البلاد لتقلبات جوية حادة تتسم بالتذبذب الشديد. فهى أرض معركة مستمرة لكتل هوائية لا تقف فى وجهها حواجز طبيعية، هى القطبية الباردة، والمدارية الدافئة، بحيث لا يستغرب أن يكون شهر ديسمبر أدفأ من أبريل وبدون ثلوج، وهو ما يسمى بالصيف الهندى، ولا يتناسب وتقاليد عيد الكريسماس. بينما تتساقط الثلوج جنوباً على مشارف خليج المكسيك فى الربيع. أما حوض نهر المسيسبى العظيم فهو مصيدة لعاصفة شديدة التدمير تعرف باسم تورنادو. ومن شأن هذه الصعوبات المناخية أن تخلق نوعاً من التعاطف والتلاحم بين سكان المناطق التى تسود فيها.

ويضيف تنوع الفلورا والفونا، والمحاصيل الزراعية والمنتجات البستانية المتعددة، والثروة المعدنية ومصادر الطاقة الهائلة بواعث قوية لخلق شعور قومى بالاكتفاء الذاتى، الذى دعم بدوره، مع إمتداد المحيطين الأطلنطى والهادى حدوداً شرقية وغربية، توجهات العزلة وسياساتها. فمما قاله نيكسون عن شعبه «إن الأمريكيين مازالوا منطوين تماماً على أنفسهم، ميالين إلى المثالية إلى حد بالغ» وهى أيضاً نفس الأوضاع الجغرافية التى أُوجدت

روح التفاخر والتضخيم . فكل شئ كبير وعظيم فى أمريكا ، حتى التافه ، ولدرجة المغالطة أحياناً . فالمسيسيبى مثلاً هو أطول وأعظم نهر فى العالم - أما نهر النيل والأمازون فهما فى الظل . وهى بالمثل وسّعت آفاق الخيال الأمريكى ، وساعدت على خلق ما يعرف " بالحلم الأمريكى " ، الذى تبنى عليه الأحزاب السياسية والتنظيمات الرأسمالية استراتيجياتها لإنجاح برامجها وكسب الرأى العام إلى جانبها - لا يملّون الحديث عنه ، وتضخيمه ، ونفخ الحياة فيه كلما بهت أو وهن ، أو هزته بعض حقائق الحياة الصعبة .

ويتميز تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية عن منافستها أوروبا ، وعن العالم القديم كله ، بكونها أمة حديثة العهد ، ودولة صغيرة السن شابة . إحتفلت بعيد استقلالها وقيام كيانها القومى المئوى الثانى منذ سنوات قليلة . وهى بمقياس العالم القديم تبدو بدون حضارة[١٥] . وهى بالتأكيد لا تملك حضارة عريقة تضاهى ما لأصغر دولة فى أوروبا . فهى نشأت دون جذور تاريخية عريقة بحكم حداثة عمرها ، وجرى تخطيطها كالمدن الجديدة . ليس فيها الشوارع الضيقة والحوارى المتعرجة ، والمبانى العتيقة والآثار القديمة ، التى تحمل عبق الماضى وعطر الأزمنة الغابرة . ولا تسمع فيها أهازيج الشعوب التى توارت منذ الزمن البعيد ، ولا حكمتهم ولا أساطيرهم . والقليل الذى كان مع شعوبها الأصليين من الهنود

---

(١٥) لما زار "توكفيل" وزميله ، الفرنسيان ، أمريكا عام ١٨٤٣ ، لدراسة أحوال السجون ، وجالا فى ربوعها ، ضمناً تقريرهما ملاحظات قاسية عن الأمريكى ، و "تخلفه" الحضارى سواء فى نوعية طعامه ، وآداب مائدته ، أو أسلوب حديثه . كما علقا على الشخصيات "الباهتة" التى يضمها برلمانه . أما وشنطن ، عاصمته ، فهى "صحراء" بشوارعها المتربة ، ومبانيها البسيطة التى لا تتجاوز أصابع اليد فى عددها . والمعروف أن "توكفيل" صار وزيراً لخارجية بلاده فيما بعد .

وفى هذا الصدد يكتب أحد كتابنا : ها نحن أمام مجتمع من المهاجرين متعدد العناصر ، لا يمثل على وجه التحديد مجتمعاً قومياً ، أى أمة ثابتة شأن أمم الشرق أو أوروبا . ولكنه يتميز بالسعى إلى توسيع رقعة حدوده دوماً ، كما أشار "توريز" إلى ذلك . وكذا فهو مجتمع لم يعرف الاحتلال ولم تقذف مدنه ، ولم يُعان الخسائر فى الأرواح التى عرفتها جميع أنحاء المعمورة . إننا حقيقة أمام ظاهرة متفردة لا تعرف حدود نفسها بسهولة ، وتتصرف فى معظم الأحيان بأسلوب توسعى لا يدرك خصوصية الحضارات والثقافات والأمم فى عالمنا .

(*) عشتُ فى الولايات المتحدة ستين فى الخمسينات . كانت الحياة بسيطة ، والناس أكثر ثقة ، لدرجة أن غالبية البيوت فى معظم مدن الغرب الأوسط ، حيث عشت ، لم تكن تغلق أبوابها بالمفتاح . وكان المرء يسير آمناً فى شوارع نيويورك بعد منتصف الليل . ثم عشت ستين فى الستينيات ، ولاحظت كيف ضعفت ثقة الناس وتغيرت المعاملات نوعاً ما . أما فى التسعينيات ، فكان التغيير مفزعاً فعلاً ولم تعد شوارع المدن الكبيرة آمنة حتى فى النهار . وقد قرأت كتاباً سياحياً لمؤلف أمريكى يحذر الناس من زيارة نيوأورليتز ، فى الجنوب ، وضرورة الحذر الشديد عند السير فى شوارعها ، خاصة الجانبية منها ، ليلاً أو نهاراً ! .

الحمر تبدد مع مطاردات البندقية والمدفع. ومن هنا إنتشرت "أدبيات" التندر بالضحالة الأمريكية، وسطحيتها و"خفّتها" التاريخية، فى أوروبا وفى الشرق أيضاً. ومازالت أوروبا تهاجم مثالب الثقافة الأمريكية، وتنتقدها وتصفها بالسطحية والتضارب، وبأنها بلا جذور، وأن طبيعة المجتمع الأمريكى تحتفى بالمخاطرة والجديد أياً كانت قيمته. وإن كانت الجرأة والمغامرة الأمريكية هذه هى التى تولد الأفكار الجديدة الجسورة. ويتكلم "روچيه جارودى". المفكر الفرنسى، دائماً عن إنهيار الفن فى أمريكا وتحوله إلى سلعة، فالفنون التشكيلية سخيفة وساذجة، والموسيقى صاخبة، والسينما تقوم على العنف والدم والجنس. ويضيف النقاد أن الأمريكيين لم يلقوا بالاً إلى الأدب الأوروبى فى البداية، ولم يظهر بينهم أديب بارز أو شاعر فى القرن التاسع عشر، ربما بسبب إنهماكهم فى مسائل الحياة وأمورها المادية، ومعها قضايا الحرية. وإن كان القرن العشرون شهد كتّاباً كباراً أمثال الروائى وليم فوكنر (١٨٩٧-١٩٦٢). وأرنست هيمنجواى (١٨٩٩-١٩٦١)، والشاعر عزرا باوند (١٨٨٥-١٩٧٢)، والكاتب الروائى تنسى وليامز، كما قدمت السينما فى النصف الأخير منه عدداً من الأفكار التى تثير جدلاً واسعاً الآن.

ولاشك أن الأمريكى يعانى من "عقدة حضارية" مستقرة فى وجدانه. فهو يعرف أنه - فى قارته - لم يسلك الدروب القديمة، ولم يرسم على جدران العصور الخوالى رسماً ولم ينقش نقشاً. وهى عقدة تدفعه بالأكثر إلى التفاخر والتباهى bragging، وتضخيم كل ما له أو عنده، وإغراق الآخرين مما يملكه. ولقد شاهدت أوروبا هذا اللون من الإسراف الفائق الحد فى الحرب العالمية الثانية، حين كانت أمريكا تصب إمدادات لا حصر لها، من السلاح والمؤن، وخاصة المؤن التى كانت تعانى أوروبا من شحها. فيبدو "صغر شأنها" أمام هذا المدد الذى لا ينقطع من أفخر الطعام والملبس والأجهزة لجنودها. وهو ما قد يرضى الغرور الأمريكى. وعموماً يلام الأمريكيون الأوائل على الإسراف فى استعمال الموارد الطبيعية، لدرجة القول إنه كان يقطع شجرة إذا ما احتاج إلى عود كبريت. ولا يعنى هذا أنه لا يعرف الإقتصاد الشخصى، فهو بأصوله العرقية (الاتنية) يعرف الإقتصاد والتقتير فى حياته إلى حد البخل أحياناً. ويقال عنه إنه يستفيد من الأساليب المصرفية الحديثة كالشيك وبطاقة الإئتمان، حتى لا يحتفظ بنقود سائلة فى جيبه قد يبعثرها هنا وهناك.

وبعد إكتشافها صارت أمريكا مقصداً للهاربين من أوروبا، وملاذاً لهم من وجه محاكم التفتيش والاضطهاد الدينى الذى شاع بعد حركة الإصلاح الدينى اللوثرية فى القرن السادس عشر، وانتشار المذاهب البروتستانتية. وحملت السفينة Speedwell، التى إنطلقت من "دلفت هاڤن" بهولنده، طليعة المهاجرين (الحجاج Pilgrims). ولكنها أصيبت بثقب واضطرت للعودة، وإنتقل ركابها إلى الباخرة "ماى فلاور"، التى كانت إنضمت إليها، والتى وصلت الساحل الأمريكى عام ١٦٢٠. واستقر ركابها فى "بليموث" حيث أنشأوا مستعمرتهم. وبعد ذلك بعشر سنوات استقرت أفواج من البيوريتان Puritans (دعاة النقاوة) على خليج ماساشوستس، بنيو إنجلند، وبنوا مستعمرتهم[١٦] عام ١٦٣٩ (دمرها الإنجليز أثناء حرب الاستقلال)، وتزايد عددهم حتى بلغ عشرة آلاف عام ١٧٧٦.

ثم توالى وصول "الحجاج" بأعداد أكبر. وإنتشروا على الساحل الشرقى، ومنه إلى الغرب الأوسط والجنوب حيث استقر چون وسلى، أحد كبار المبشرين الإنجيليين Evangelicals، أواخر القرن السابع عشر فى ولاية چورچيا. ووصل آخرون إلى ولاية كنتاكى عام ١٨٠١. ولما امتدت أمريكا إلى المحيط الهادى غرباً، بحلول عام ١٨١٦، بعد إنتصار الجنرال چاكسون عند نيوأورلينز، إتجهت قوافلهم إلى الجبال الغربية[*].

وقامت بينهم نهضات روحية تواصلت حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وهو

---

(١٦) وفى عام ١٦٨٢ أنشأ وليم بن، العضو بجمعية الأصدقاء Friends، المعروفين بالكويكرز فى إنجلترا، مدينة فيلادلفيا على الساحل الأمريكى الشرقى، لتكون ملجأ أو مرسى لأتباع الشيع الدينية من المنشقين، واسم المدينة مشتق من اليونانية بمعنى "الحب والأخوة".

(*) وكان "المورمون" على رأس الذين إتجهوا غرباً، واستقر أغلبهم فى ولاية "يوتاه". وهم الجماعة التى أعلنت صراحة أن أمريكا هى "أرض الميعاد"، وأنها توجهت إليها بمقتضى دعوة إلهية وردت فى كتابها "كتاب المورمون"، الذى يتضمن قصة شعب أمريكى قديم كتبها أحد أنبيائهم ويدعى "مورمون" وترجمه "چوزيف سميث" مؤسس كنيسة الجماعة فى أمريكا عام ١٨٣٠، وتعرف باسم "كنيسة يسوع المسيح لقديسى الأيام الحاضرة". وعموماً تتفق مختلف المذاهب على أن أمريكا تمثل "جزيرة للخلاص" وملاذاً للحرية الدينية، و"أرض ميعاد" استقبلتهم ورحبت بهم وآوتهم عندما جاءوها شراذم مضطهدة هاربة.
وعبارة "أرض الميعاد"، كما يشير الفكر الدينى الأمريكى، هى تعبير مجازى لا صلة له بالمفهوم العبرى الضيق. كما لا ينطوى على المفهوم العنصرى الذى يدور حول كون اليهود الشعب المختار. فالأمريكى عموماً يستعمل مفردات التميز والإختيار كتعبير للشكر لله الذى أتى به من مختلف الأصقاع والجنسيات إلى وطنه الجديد الذى يعتز به. وإن كان هذا لا ينفى أن بعض الطوائف الجديدة التى تمزج بين الدين والسياسة تستعمل هذه المفردات كشعارات ذات مضمون قومى سياسى، مما يترجمها البعض، من خارج أمريكا، كدليل على عنصريتها وصليبيتها.

فترة النمو السريع للكنيسة، والتى اشتهرت بالإجتماعات الجماهيرية الكبيرة التى كانت تعقد فى الخيام فى أغلب الأحيان. وتركزت رسالتها على تأصيل الفكر الدينى والتمسك بالفضائل مع الارتباط القومى، وعلى حماية المجتمعات الجديدة من إنتشار الإلحاد والإنحلال الخلقى الذى واكب الثورة الفرنسية، وتطهيرها مما وُصف بالإنحطاط والبربرية.

ومما يجدر ذكره أن حركة الإصلاح الدينى (البروتستانتى/ الإحتجاجى)، بفروعها التى تشعبت إليها، تصدت لعدة تيارات من بينها تيار "التنوير"، الذى ركز على العقل والتجربة وفلسفات كانط وديكارت وفرانسيس بيكون، فى مواجهة الوحى والإيمان، وذلك بهدف إحياء الفكر الدينى و"إعادة" الله إلى مقامه فى الحلبة الإنسانية. وتركز مفهومها الدينى والعقيدى على أولوية "نعمة الله"، سواء فى لاهوتها الخلاصى أو الفلسفة المعرفية (إبيستمولوچى Epistemology). وينسب إلى لوثر قوله إن العقل قد تخطى الوحى، ويركز على النشاط البشرى بدلاً من التركيز على النعمة الإلهية، ويبنى بغطرسة "برج بابل" للوصول إلى السماء، بدلاً من أن يتواضع ويتقبل الخلاص بالإيمان.

ولقد دارت فى أمريكا، خلال القرن ١٩، معركة كان الإنجيل مركزها، وكانت المعركة ذاتها من أجل أمريكا، ومن أجل قيامها كأمة مسيحية، متمسكة بأهداب الدين وبالحياة المسيحية الحقة، المتجددة بعمل النعمة والمتمتعة بالخلاص الإلهى. وسادت الحركة الإنجيلية Evangelism على الدين والثقافة والتعليم العالى بالبلاد لتبحّر قادتها فى مجالات المعرفة كالفن والعلوم وعلم النفس والأخلاق وغيرها، إلى جانب اللاهوت والفلسفة. وبرز فصيل من "الأصوليين Fundamentalists"، أوائل القرن العشرين، يتمسكون بالتعليم المسيحى التقليدى، ويتشددون بالنسبة لتفسير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً.

ولم يمض وقت طويل حتى كانت كل المذاهب المسيحية الأوروبية، من كاثوليك وبروتستانت وأورثوذكس[١٧]، قد تمركزت فى أرض الحرية الجديدة، ولها كنائسها

(١٧) وصلت الكنيسة المصرية هناك أواخر الخمسينيات/ أوائل الستينيات. وصار لها العديد من الكنائس والمدارس اللاهوتية.

ومؤسساتها . وفى خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تضامنت جميعها فى التأكيد على التوجه الروحى للشعب، وتمكين سلطان الله الذى يحفظ المجتمع ضد الفساد، ويديم النقاوة والهدوء للوطن . فالدين هو ضامن الفضيلة والحرية . وقد سجل "توكفيل" الفرنسى (عام ١٨٤٣) ما لاحظه من روح الدين وروح الحرية وإتحادهما معاً فى حكم البلاد، وروح المساواة التى تعامل بها الحكومة كافة المذاهب المسيحية .

ولقد ساعد هذا المناخ على حرية "الإبتداع" الدينى، فظهرت مئات[١٨] المذاهب بتعاليم متباعدة، وأحياناً متناقضة، ومنها ما لا صلة له بالمسيحية الأولى . ومن أمثلتها

---

(١٨) بلغ عددها ٤٥٠ مذهباً عام ١٨٣٤، مما أذهل "توكفيل" الفرنسى الذى إعتاد على وجود كنيسة واحدة فى بلاده .

- وللمزيد عن هذه المذاهب راجع كتابنا "فلسطين لمن" ص ٤٥-٤٨ .
- وقد تأثر بعض كتّابنا بما تردده هذه المذاهب، التى تنسب نفسها إلى المسيحية، من تعاليم ودعايات تتداخل فى المفاهيم والشعارات التى تروجها الصهيونية، وما تردده مراكز القوى والتنظيمات المسيحية الأمريكية المتسيسة، التى تخندقت مع إسرائيل بدعوى التصدى للمد الإسلامى وللعنف المنسوب إليه . ويكتبون تحت هذا التأثير عن "تهويد المسيحية"، وعن "المسيح اليهودى" بإعتبار هذا هو صلب المسيحية الآن . ويرددون أن حركة الإصلاح الدينى (القرن ١٦) هى "بعث عبرى" أو يهودى . دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة الدراسة المتعمقة، أو الرجوع إلى أهل الإختصاص ليتأكدوا من صحة ما وصلوا إليه من قناعات أو أحكام .

ومن المسلم به فى مجتمع العلميين أن الموضوعية تأبى إسقاط ما يعتقده بعض الناس على عقيدة مجتمعهم كله .
أو ما يروج له تيار مسيحى أمريكى معين على بقية مجتمعات المسيحيين فى أمريكا وبلاد العالم الأخرى .
فالمسيحية فى صميم وجودها لا يصح أن "تشوه" بأن ينسب إليها ما تردده مذاهب لا تحمل غير إسمها .
والإسلام نفسه يواجه طوائف ومنظمات تحمل اسمه وتدعى بترويج تعاليمه وممارساته والإسلام منها براء .
ولنا هذه الملاحظات :

١- إن مسألة "التهويد" ظهرت فى فجر المسيحية حين حاول اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية الإحتفاظ بالممارسات الموسوية أو الناموسية . كما حاولوا أن يفرضوا على الأمميين (غير اليهود) الذين تحولوا إلى المسيحية أن يلتزموا بمتطلبات ناموس موسى - أى يتهودوا أولاً - كى تكتمل مسيحيتهم . وقد وقف رسل المسيح ضد هذا التيار بكل الحزم وقضوا عليه فى حينه (أنظر سفر أعمال الرسل ص ١٥ . روميه ص ٣، ٤ . غل ص٣) .
٢- يشكل العهد القديم جزءاً من الكتاب المقدس الذى قننته المجامع المسيحية الأولى بإعتباره كلام الله واستشهد السيد المسيح فى تعاليمه بآيات وأحداث منه . كما يتضمن رموزاً ونبوات لا حصر لها عنه . وقد دخل فى دراسات وقراءات وعبادات الكنيسة منذ البداية بإعتباره كلمة الله دون أن يشكّل "تهويداً" لها . «فكل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ والتقويم والتأديب الذى فى البر» (٢تى ٣ : ١٦) .
٣- إن تعاليم وإهتمامات حركة الإصلاح الدينى مسجلة أعلاه . وهى أبعد ما تكون عن التهود والتهويد . والمعروف أنها ركزت على الإنجيل بإعتباره كلمة الحياة وبشارة الخلاص، وعلى السيد المسيح ونعمته بإعتباره المخلص . وليس فى هذا أية شبهة من "العبرية" .
٤- إن تغير الأوضاع بالنسبة لليهود فى أوروبا كان من ثمار عصر "التنوير"، الذى ساهم فيه يهود من أصحاب الفكر والعلم والفن . إذ تفجرت دعوات الحرية والمساواة وتقرير المصير، وإحترام الإنسان ونصرة =

المورمون، وشهود يهوه، واليونتاريان أو التوحيديون، والسبتيون والأدفنتست، وغيرها. أما تيار الفكر البروتستانتى الرئيسى The Main Stream فقد ظلت له السيادة على النظام السياسى والاجتماعى فى البلاد. كما أصبحت البروتستانتية، بتوجهها البيوريتانى وتشددها العقيدى والسلوكى، التيار المسيحى الأساسى، وحاضنة الرأسمالية الأمريكية. وطبعت على الدولار عبارة "نثق فى الله In God We Trust" لتؤكد سيطرة الضمير الدينى الذى إنقاد به وجدان الآباء المؤسسين Founding Fathers كما أرسيت على "نظريتها الأخلاقية" الشخصية والطباع الوطنية، من حيث تكريس الدعوة إلى الاجتهاد والإنتاجية، والاقتصاد فى النفقات، والإحسان، وتدعيم الكنيسة، وتنمية الإنسان لمواهبه وثروته، وضرورة أن تخدم الأوطان الرب. وهى قواعد أوروبية المنبع، وجرى نشرها على جانبى الأطلنطى بواسطة شخصيات مرموقة مثل دانيل ديفوى وبنچامين فرانكلين. وكانت نيوإنجلند بالذات مركز الثقل لهذا الفكر البيوريتانى، واحتفظت لنفسها بصورة مثالية قبل الثورة وبعدها.

وهى ذاتها التى تمثل الآن اليمين(١٩) فى المجالين السياسى والإجماعى، ومصدراً للفكر الراديكالى، وإن كانت الليبرالية تمسكت بمركزها الحيادى من الدين، وبعلمانيتها، ونأت

= الشعوب المقهورة، ومنها اليهود إذ صارت لهم قضية إنسانية إحتضنها دعاة التنوير، فتراجعت موجات إضطهادهم ورذلهم، وبدأوا يتبوأون مكانات إجتماعية وسياسية جديدة عليهم. والفضل للتنوير الذى إنفتحت عليه الكنيسة عموماً، وخاصة على دعوته الإنسانية، وإن تحفظت بشدة على توجهاته الخاصة بإحلال "العقل" محل الله، وقاومها علماء البروتستانتية بقوة، تمسكاً منهم بالله وبإنجيله.

٥- إن ما تضمنه الكتاب المقدس من نبوات أو إشارات عن **محاولات** اليهود للعودة وبناء هيكلهم، هى بمثابة تنبؤات "تاريخية" لأحداث قادمة. ولا يمكن تحميلها بأى معنى أو مدلول آخر، كأنها إرادة إلهية. وحدوثها بصورة ما إنما يدل على صدق كلمة الله وصحة الرؤى المقدسة، بصرف النظر عن إتفاقها أو عدم إتفاقها مع إرادة الله ومقاصده.

وعلى العكس، فالمحتوى الإنجيلى، والسياق النبوى فى العهد القديم، يؤكدان أن اليهودية بشعائرها وممارساتها، وهيكلها بالذات، قد سقطت وإلى الأبد. والسيد المسيح قالها صراحة «هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» (مت ٢٣ :٣٨). والذين يقولون بغير ذلك إنما ينفخون فى رماد لا جمر فيه، ويسبحون ضد التيار. وإذا كانت الآله السياسية الأمريكية تدعم الكيان الإسرائيلى، بكل القوى بما فيها النبوات والكتابات المقدسة وخلق الأساطير، من أجل حماية مصالحها فى منطقتنا الحيوية الاستراتيجية، فلا ينبغى أن يكون هذا على حساب المسيحية وقدسيتها.

(١٩) يضم الآن الإئتلاف المسيحى بزعامة القس بات روبرتسون، الذى جرى ترشيحه للإنتخابات التمهيدية للحزب الجمهورى فى إنتخابات الرئاسة عام ١٩٨٨، ومجلس أبحاث العائلة برئاسة جارى بوير الذى جرى ترشيحه أيضاً عام ٢٠٠٠، ومنظمة التركيز على العائلة برئاسة چيمس دوبسون، ومنظمة شباب المسيح بزعامة بيلى =

بالدستور بعيداً عنه(*)، حتى أنه ينص على عدم سؤال أحد عن دينه وأفكاره وإنتماءاته السياسية، كما يمنع تدريس الدين أو الصلاة فى مدارس الدولة والولايات. وباءت بالفشل محاولات اليمين، وأحدثها أيام ريجان، لتعديل الدستور ليسمح بالصلاة فى المدارس إختيارياً. ومع ذلك فشعبها مقتنع بأن بلاده أكثر البلاد تديناً فى التاريخ[٢٠]. وهذا ما قاله كليتون أيضاً فى المناظرة الرئاسية الثانية التى عقدت فى أكتوبر قبل إنتخابات ١٩٩٦.

وهذا التيار البروتستانتى الأبيض هو الذى قاد حركة متشددة لتحريم الخمور، استمرت حوالى قرناً من الزمان، لاعتقاده الراسخ أنها تؤدى إلى السكر وما يتبعه من تهديد للقانون والنظام. وكانت أولى محاولات التحريم فى ولاية "ماين" بنيوإنجلند عام ١٨٢٩. بدأ إختيارياً على مستوى مقاطعاتها، ثم إجبارياً عام ١٨٤٦. وانضمت إليها إثنا عشرة ولاية

= جراهام، ومنظمة الأغلبية الأخلاقية بقيادة القس چيرى فالويل، وغيرها من المراكز البحثية المحافظة مثل "هيريتج Heritage" والكونجرس الحر، ورؤساء الشبكات الدينية التليفزيونية. واستحوذ هذا اليمين الآن على قرابة ٢٥٪ من القاعدة التصويتية فى البلاد. و"البيوريتان Puritans" (ومعناها المتطهرون) فئة متشددة من البروتستانت الإنجليز (القرنان ١٧ و١٨) غالت فى دعوتها لإصلاح الكنيسة الإنجليزية، وتطهيرها من الطقوس والمعتقدات الكاثوليكية.

- ومن صور التشدد اللافتة للنظر أن دارون ودراساته البيولوچية ونظرياته تعانى هجوماً متواصلاً. فمثلاً، فى عام ١٩٢٥ قُدم مدرس إبتدائى، بمدينة دايتون (ولاية تنسى)، للمحاكمة بتهمة الإلحاد والزندقة، لأنه قرأ على تلاميذه فصلاً من كتاب "النشوء والإرتقاء" لدارون، وهوما يخالف الإنجيل. وإشتهرت المحاكمة باسم "محاكمة القرد". ورافقتها مظاهرات غاضبة من جماهير المتشددين التى كانت تطالب بتحريم تدريس دارون للصغار، وتدعو إلى إنقاذ المدارس من الخطية. وإنتهت المحاكمة بالبراءة، بعد سنوات طويلة ووصولها إلى الإستئناف. وقد كتب مؤلفان مشهوران هما "چيروم لورنس، وروبرت لى"، مسرحية حول هذه القضية بعنوان "ميراث الريح"، عام ١٩٥٠، دافعا فيها عن العقل بإعتباره تاج الإنسان، وهو الموهبة الكبرى التى منحها الله للإنسان، ووظيفته التفكير، ومن حقه الحرية فى أداء وظيفته هذه التى خصه الله بها.

- وفى عام ١٩٨١ حاولت ولاية أركنساس، عن طريق المحاكم، إثبات أن الله خلق الأرض فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع.

(*) ففصل الكنيسة عن الدولة أمر مطلق. وقد أكده كيندى الكاثوليكى لدى إنتخابه رئيساً لطمأنة الشعب.

(٢٠) تشير الإحصائيات إلى هبوط حاد بين الكاثوليك منذ أواسط الستينيات. كما ترى أكثرية بين الجمهور الأمريكى أن الدين يفقد تأثيره المعهود فى الحياة الأمريكية. ومع ذلك فالإعتقادات الدينية الشخصية، وتقبل المبادئ الدينية العديدة، مازال قوياً بصورة غير عادية. فـ ٩٠٪ من الأمريكيين يقررون إنهم يعتقدون فى الله، و٨٥٪ يعتبرون الكتاب المقدس هو كلمة الله، بينما يعتقد ٧٠٪ فى حياة أخرى بعد الموت، ويعتبر حوالى ٤٠٪ أنفسهم من المتظمين فى الذهاب إلى الكنيسة. كما تتسم خطب رؤساء الجمهورية بتوجه دينى متشدد، خاصة عندما يشيرون إلى رسالة أمريكا فى العالم. وكانت خطابات "لوثر كنج" تشير إلى الينابيع العظيمة للديمقراطية التى حُفرت إلى أعماق بعيدة بفضل الآباء المؤسسين، وتوجهاتهم وكتاباتهم البروتستانتية المقدسة.

خلال عقدين من الزمان. ثم تناقص إلى ثلاثة عام ١٨٨٠. وعادت حركة التحريم لتشتد وتستمر قوية فى معظم الولايات حتى عام ١٩١٧، وبعد الحرب العالمية الأولى عُدِّلت المادة "١٨" من الدستور، وصار التحريم شريعة قومية ملزمة من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٣[٢١] حين أقر الجميع بفشله، وإن بقيت بعض الولايات حتى الآن تطبقه إختيارياً، ولا تسمح بغير البيرة فى باراتها ومطاعمها ومحلاتها، وتعرف بالولايات الجافة Dry States.

ولم يكن جميع المهاجرين من المتدينين، بل تعددت مشاربهم وخلفياتهم[٢٢]، فمنهم المغامرون والراغبون فى تحسين أحوالهم الإجتماعية، ومنهم الهاربون من الديون، أو المحكوم عليهم قضائياً. ثم جاء الحرفيون والتجار، والمزارعون الذين أنشأوا زراعات واسعة فى الجنوب، وفى المناطق الغربية خاصة الذين من أصول ألمانية وأسكتلندية وأيرلندية. وكانوا جميعاً من الرواد الذين إتجهوا نحو الاستقلالية الفردية، ومناصرة الكسب الفردى[٢٣]. وسعوا منذ البداية إلى تحدى سلطات "الإحتلال" بسبب ذكرياتهم الأليمة عن الاستبداد الأوروبى، وإلى تأكيد حق جميع الناس فى حكم أنفسهم.

---

(٢١) كان عقاب المخالف غرامة مقدارها ألف دولار وستة شهور سجناً. وأدى التحريم إلى قيام صراع بين الريف والحضر. وبين البروتستانت ضد الكاثوليك واليهود. كما أدى إلى زيادة الرغبة والولع بشرب الخمر، فتداولها الناس سراً رغم رداءة نوعها. وبدأت جرائم التهريب، واتسع نطاقه من جزر "البهامس"، وصارت له أساطيل، وتكونت له العصابات القوية التى قسمت البلاد إلى مناطق نفوذ بينها، وعرف نشاطها باسم Boot-legging، وبرز إتحادها باسم المافيا Mafia (مصطلح صقلّى يعنى موقفاً عدائياً من القانون والحكومة). ولمعت أسماء مثل Johnie Torrio, Al Capone. ولما إنتهى التحريم كانت المافيا قد فرضت نفسها على المجتمع، وبدأت تفرز ألواناً جديدة من الإجرام. وإتسع نطاق الإنحراف والخروج على القانون بين شرائح من الشعب، وتوطد إعتيادهما، وهكذا يمكن إعتبار عقد العشرينيات من القرن العشرين تاريخ ميلاد الجريمة المنظمة.

(٢٢) كتب عنهم "توكفيل" عام ١٨٣٤ الفرنسى أنهم مغامرون يتسمون ببرود المزاج وحدته فى آن واحد، يفعل الواحد منهم كل شئ ببرود. يتاجر فى كل شئ دون إهتمام بالأخلاقيات أو تعاليم الدين. وهم غزاة لأصقاع جديدة شبه مجهولة، ويعانون شظف العيش بكل شجاعة وصبر وإصرار، من أجل تكوين ثروة، هى بمثابة هدفهم الوحيد. وتنبأ توكفيل لهذا "الشعب البدوى" الرحال الذى لم تحل دون تنقله أية حواجز، من أنهار وقفار وبرارى حتى بلغ ساحل المحيط الهادى، أن يبنى مجتمعاً جديداً له حضارة إنسانية رائدة.

(٢٣) والمعروف أن الأمريكى فى وقت فراغه - والذى يعتبره الوقت الشخصى الخاص به - قد يقوم بأعمال التجارة والمقاولات والصفقات وما إليها، ينجزها خارج الرقابة وبعيداً عن تحصيل الضرائب، دون أن يعتبر ذلك إنتهاكاً للقانون أو من باب الغش والإحتيال، أو منافياً للقوانين التى تحاول تنظيم السلوك الشخصى والخاص. تأسيساً على أن وقت إتمامها هو وقته الخاص الذى يحق له فيه أن يعمل ما يراه لتحسين أوضاعه المادية. ولهذا تزداد هذه الأنشطة فى الظروف الصعبة والأزمات.

فاستطاعوا مع الوقت تحطيم القيود البريطانية، وثاروا عليها، وحاربوا حروب الاستقلال وإنتصروا فيها، وأطاحوا بالسلطة الملكية لتحل محلها عبارة "نحن الشعب" . ولا جدال فى أن الفكر الدينى قد لعب دوراً مهماً فى دفعهم نحو الاستقلال، إذ أشعلت القواعد السلوكية، التى أصرت عليها الحركات البيوريتانية، الحماس فى هيكل التنظيمات السياسية الوليدة ضد كل ما كان متفشياً فى زمن المستعمرات من كسل وتواكل وعربدة وخمر وجنس. كما لعبت هذه المبادئ الأخلاقية، عن طريق الحوارات والنقاش، دوراً رئيسياً فى تشكيل الفكر القومى المناهض للمستعمر، والداعى للاستقلال، وإلى النجاة من "مذهب المتعة" الذى كانت تدين به الأرستقراطية الفاسدة الغارقة فى الملذات والمنتشرة فى أوروبا.

وكان على هؤلاء المهاجرين، فى نفس الوقت، أن يذللوا جبالاً من العقبات الطبيعية والبيئية والنفسية قبل أن يجدوا لأنفسهم مقراً ومستقراً. كان عليهم مثلاً أن يواجهوا السكان من الهنود الحمر وبلطاتهم وسهامهم المسمومة، بالحيلة والسياسة أحياناً، وبالسلاح[٢٤] أحياناً كثيرة، فباد منهم كثيرون، وحوصر من تبقى فى مناطق منعزلة أخذت تنكمش وتضيق حتى أصبحت اليوم مجرد معازل. ومع أن هذه المواجهات غير المتكافئة، بسبب السلاح النارى الحديث فى أيدى الرواد، قد خلقت "عقدة ذنب" استقرت فى الوعى الأمريكى واللاوعية على السواء، فقد ظهر أدب الرواد وأفلام الغرب الأمريكى (وتعرف أيضاً بأفلام وروايات الهنود الحمر) التى تصور أحداث تلك الحقبة وكأنها تؤرخ لها، وتحاول أيضاً التخفيف من مآسيها، أو تبرير ما حدث، أو ربما التكفير عنه كما تعددت محاولات إحياء الفلسفة الهندية و"الروحانية" الهندية، كجزء من التراث الوطنى، والتى لم تفهمها أو تقدرها العقلية الوافدة، التى كان همها إنتزاع الأرض و"اللقمة" لنفسها، وسلكت طريق الإبادة الجماعية عند الضرورة.

---

(٢٤) فى ذلك الوقت كانت سرعة المهاجر فى سحب مسدسه وإطلاقه هى التى تضمن له الحياة. وكان طبيعياً أن يأخذ استعمال القوة مكانته، وأن يصبح إقتناء السلاح وتكديسه غاية. وهذا كما يبدو ما ورثه الأجيال المتعاقبة حتى الوقت الراهن، حين صار بإمكان صبى من دخول محل للأسلحة لشراء ما يريده، دون أن يستوقفه أحد ليسأله لماذا يشتريه! ومن هنا تفشى العنف بين الصغار، يقتلون بعضهم بعضاً قتلاً عشوائياً عبثياً بالسلاح الصغير، فبلغ عدد قتلاهم ٤٢٢٣ طفلاً فى عام ١٩٩٧ وحده. فما زرعه الآباء من عنف يحصده الأحفاد. وهذا ما دفع مليون أم أمريكية من التظاهر، فى العاصمة وشنطن وحدها، ضد العنف وحيازة الأسلحة، فى عيد الأم عام ٢٠٠٠.

وفى السهول الشاسعة، حيث إنتشرت مهنة الرعى، ظهرت بين الرواد شخصية "راعى البقر Cowboy"، وهى الشخصية التى تحاول هوليوود إبقاءها حية فى الذاكرة الأمريكية كجزء من الفولكلور، ومعها تقاليدها وسلاحها السريع الطلقات، تستعمله فى حماية نفسها وقطعانها، وضد العصابات والمغتصبين وسارقى المواشى، أو للاستحواز على المراعى. ومعها شخصية "الشريف"، وقانون "القبيلة". وحياة الصالونات - الحانات - والغانيات والمغامرات والمؤامرات التى لا تنتهى. ومقالب رجال الدين "المزيفين" وإحتيالهم لجمع المال. وصورة راعى البقر Cowboy من الصور التى التصقت بالشخصية الأمريكية إلى الوقت الراهن، خاصة فى أذهان العالم الخارجى، غالباً بتأثير أفلام ومسلسلات هوليوود، وتستخدم كصورة كاريكاترية لتمثل النزق أو التهور "العضلاتى" الأمريكى فى السياسة وغيرها.

ومن حياة الرواد - والمهاجرين عموماً - التى كرست ميول "الاستقلال والفردية" تشكلت قيمة "الاعتماد على النفس"، إعتماداً يكاد يكون مطلقاً فى أمور الحياة الشخصية والعامة. وهى القيمة التى تدفع الآباء إلى تشجيع أبنائهم على الاستقلال والاعتماد على الذات فى سن مبكرة جداً. وشكلت أيضاً "العصامية"، والعصامى الأمريكى الذى يصنع نفسه ومستقبله بجهده وعرقه، وبخياله ونزوعه إلى الإبتكار. وروس بيرو، الذى نافس على الرئاسة الأمريكية (١٩٩٦)، للمرة الثانية، يقدم أقوى نموذج معاصر للعصامى الأمريكى. فقد بدأ نشاطه فى السوق عام ١٩٥٧ كمندوب مبيعات فى شركة لتصنيع الكمبيوتر، وتركها ليؤسس شركة خاصة به، بدأها بمبلغ ألف دولار إقترضه من زوجته. ولم يكد يحل عام ١٩٦٩ حتى كانت شركة جنرال موتورز تعرض عليه شراء شركته بمبلغ مليارين وربع المليار من الدولارات. وهذا نجاح لرجل متعلم وشريف لا يتحقق إلا فى مجتمع مفتوح، قوى بنظامه وقوانينه، يهئ الفرص ويقدم التشجيع. وهو نفسه النظام الذى مكّن "كلنتون"، يتيم الأب وإبن الممرضة، أن يصبح رئيساً للبلاد، وقبله كان رئيس آخر، هو ليندون چونسون، الذى بدأ حياته مزارعاً، وبائعاً متجولاً يبيع جوارب الرجال.

والقدرة على القفز من قاع المجتمع إلى قمته يمثل جوهر **الحلم الأمريكى**[٢٥]، الذى يراود دائماً عقل الأمريكى العادى وقلبه، وتدور حوله الأدبيات والفنون كى يبقى حياً فى فكر الفرد وعقل الأمة، وقادراً دائماً على تحفيزها لأن تكون دائماً فى الطليعة. والذين كانوا نكرات ثم حققوا حلمهم يقولون إن تطلعاتهم كانت تتمحور حول ألا يضطر أولادهم أن يعملوا ويعيشوا كما عملوا وعاشوا فى البدايات. مما يعنى أنه سيأتى وقت لن يوجد فيه من يقوم بالأعمال القذرة غير المرغوبة dirty (odd) jobs، ومن ثم يتوقف الحلم. وهذا مما يدعو إلى فتح باب الهجرة ليدخل "حالمون" جدد. وهكذا تستمر حمّى الحلم.

وهذه القيمة - العصامية - تدفع الأمريكى إلى التعجب من العاجزين عن تحقيق ذواتهم وطموحاتهم، إلى حد إحتقار المتقاعسين. وهى التى تدفع اليمين الأمريكى إلى التهجم على الحكومة الفدرالية "الكبيرة"، بعد الـNew Deal، وسياساتها التى شجعت "الكسالى" على استغلال أموال المساعدات الحكومية والضمان الإجتماعى. والمطالبة بتغييرات حادة فى سياسات حكومة "الرفاهة الاجتماعية" وتكافؤ الفرص. فتكافؤ الفرص، فى مفهومه، هو خروج الجميع إلى سوق العمل، حيث الفرص المتساوية للتنافس، متسلحين بالمعرفة والمهارة والإصرار، دون التزام مسبق بالنتائج، وإلا كانت صيغة شيوعية. والمأثور عن الرئيس نيكسون قوله «إعطه فرصة متساوية فهذا من حقه، ولكنه قد يصل إلى نتيجة تختلف عن غيره، لأن الناس يختلفون فى مواهبهم وإمكانياتهم العلمية وغيرها.

ومما يقال الآن إن "دولة الرفاهة الإجتماعية" هذه، وسياسات حكومتها الخاطئة، هى أحد أسباب ظاهرة "الإنهيار الإجتماعى العظيم". فالتسهيلات والمعونات التى تقدمها برامجها تقف بقوة - كما يدعى المحافظون - وراء الخلل والاضطراب الإجتماعى. فمثلاً

---

(٢٥) ومعنى مصطلح "الحلم الأمريكى" فى الواقع، عبارة عن شخص فقير، قد يكون مهاجراً جديداً، لكنه يملك التصميم والإرادة على أن يبنى نفسه فى وطنه الجديد، وأن يصبح صاحب مال ومنصب وتجارة. ومع أن إحتمال الفشل والنجاح وارد، فيظل المناخ العام مشجعاً على بقاء الحلم حياً. ومثلاً لقد نجح المهاجرون الصينيون بجهدهم وعرقهم فى إقامة منطقة "وادى السيليكون Silicon Valley" الشهيرة للإلكترونيات. وفى المقابل هناك ثلاثون مليوناً من الأمريكيين يعيشون تحت خط الفقر. بينما يهدد العنف الإجرامى الآمنين فى المدارس والشوارع وغيرها، فيكاد الحلم أن يصير كابوساً.

استهدف البرنامج مساعدة السيدات الفقيرات، فى إطار ما سُمى بمعونات ما بعد الكساد للأسر ذات الأطفال، وقُدمت معونات للأمهات الوحيدات اللائى يعشن مع أطفالهن بدون زواج، مما شجع الرجال على التهرب من مسئولياتهم الأسرية، كما شجع على البطالة. إلى جانب أنه بدا وكأنه عقاب للسيدات المتزوجات اللائى يعشن مع أزواجهن وأطفالهن فى إطار الأسرة المستقرة. وقد تم إلغاء هذا البرنامج من قانون إصلاح الرعاية الإجتماعية عام ١٩٩٦.

ومع أن للأمريكى ميلاً أو تذوقاً غريزياً للحرية[٢٦]، فالحرية فى الواقع ليست الهدف الرئيسى والمستمر لرغبته المعتملة فى صدره، بل إنها المساواة - المساواة السياسية والاقتصادية والإجتماعية - التى يشعر نحوها بحب أبدى، ويفضّل الموت على أن يفقدها. فهى التى تعطيه الشجاعة والجرأة على مواجهة أى إنسان أو سلطة مهما علت. كما أنها توحى إليه بفكرة لا نهائية لكمال الإنسان. وفكرة الكمال هذه، أو بالأحرى العمل على التحسين المستمر واللانهائى للظروف والحياة الإجتماعية والمعيشية، فكرة مسيطرة وتمتد إلى كافة الجوانب. ومن ذلك كان إهتمامهم بالمعاقين ذهنياً وبدنياً، فصدر قانون عام ١٩٧٣ يضمن لهم حقهم فى حياة كريمة[٢٧].

على أن تقديس الأمريكى للحرية يتجسد - كما يقول بعض علماء الإجتماع - فى حبه

---

(٢٦) أعطى "الأباء المؤسسون" قيمة للحرية كهدف ووسيلة. وإعتقدوا أن الحرية هى سر السعادة، وأن الشجاعة سر الحرية. وإعتبروا حرية التفكير والتعبير وسيلة لا يمكن الاستغناء عنها لاكتشاف ونشر الحقائق السياسية، حتى فى وقت الأزمة وغيرها.

ويقول كتابنا إن الحرية فى أمريكا هى كلمة السر.. هى شفرة الحياة.. هى اللحام اللاصق المتين الذى يجمع شتات أكثر من ١٥٠ جنسية مهاجرة من كل أطراف الدنيا. فالأمريكى حر يفعل ما يشاء بشرط أن يتحمل نتيجة حريته، وألا يقيّد حرية الآخرين. ففى ظل الحرية تصبح الإختلافات ميزة وليست عيباً، وتكون التناقضات مصدراً لإثراء الحياة.

ترى إلى أى حد ترعى أمريكا هذه الحرية فى بلاد الخارج مثلما ترعاها فى داخل بلادها؟!.

(٢٧) وكان صدوره خطوة رائدة فى هذا المضمار الإنسانى. وقبل صدوره كان هناك نشاط عملى على الساحة، بدأته شقيقة الرئيس الراحل جون كيندى، وهى أيونيس كيندى شرايفر. فقد أسست أول مركز لرعاية المعاقين ذهنياً وبدنياً على مستوى العالم، فى وشنطن عام ١٩٦٨، تحول بعد سنوات قليلة إلى مؤسسة دولية، لها فروعها المنتشرة فى كل أنحاء العالم. وأمكن من خلالها تغيير الصورة التى كان المجتمع ينظر بها للشخص المعاق بشئ من الخجل، أو بإعتباره كارثة ليس لها حل، إلى تقبله ومساعدته كى يحيا حياة عادية. وصارت الدول المتحضرة الآن تتبارى فى توفير كل وسائل التعليم والتدريب، والراحة والمتعة أيضاً، حتى أصبحت لهم أولمبياد رياضية خاصة بهم.

للتحرك والتنقل والرحيل، وإحساسه بأنه حر يستطيع أن يعيش حيثما يريد[٢٨]. وساعده على تحقيق ذلك إتساع بلاده المترامية الأطراف، مع تنوعها الجغرافى والطبيعى الرائع. وجاء إختراع السيارة أواخر القرن التاسع عشر، وإنتاجها الضخم أوائل القرن العشرين، فحولت الأمريكى إلى "بدوى" عصرى دائب الحركة، كما أثرت فعلاً على إيقاع الحراك الاجتماعى فى البلاد، وغيرت عدداً من القيم الإجتماعية والسلوكيات العامة، وخلخلت الأسرة وأضعفت الالتزام الأسرى كما تشير الدراسات.

وتوجد اليوم أساطيل من الشاحنات العملاقة، التى تعمل بين الولايات، لتؤكد طبيعة الشعب المترحلة كالبدو. فهى تقوم بنقل شركات بكاملها، بمكاتبها وأجهزتها وموظفيها، وأحياناً مصانعها، إلى مناطق وولايات أخرى، سعياً وراء طقس أفضل، أو عمالة أرخص، أو إعفاءات ضريبية أعلى، أو سوق أوسع[٢٩]. أو ربما من أجل التغيير وحسب. فمثلاً فقدت نيويورك مليونين من سكانها خلال عقد الثمانينيات وحده (١٩٧١-١٩٨٠) نتيجة لهذه التنقلات.

وحتى "الجنوب The South" الذى كان مركز الأرستقراطية الأمريكية، التى خرج منها رجال الثورة والعظماء وألمع القيادات، ومقر الجنتلمانية الأوروبية، وسيطرة الاسترقاق وعجرفة السادة، قد تغير لما يتميز به المجتمع من سرعة الحركة والتنقل. فقد تركه الكثيرون من أهله وحل محلهم الشماليون، فقُهرت أفكار الاسترقاق والتميز العرقى، ولم يبق منها الآن إلا بعض المواعظ الكنسية والخطب والعبارات الرومانسية التى تتغنى بماض ولىّ ولن يعود.

والتنافس "قيمة" مقدسة أخرى. والمجتمع الأمريكى مجتمع تنافسى للغاية. فالتربية

(٢٨) وقد برزت فى العقود الأخيرة ظاهرة "المجتمعات المغلقة" بأسوارها وبواباتها. الأغنياء يقيمونها فى الريف رغبة فى الراحة والهدوء وسعياً وراء الترف. والفقراء يقيمونها داخل المدن خوفاً على حياتهم وهرباً من الجريمة والمجرمين. وباتت أمريكا تبدو وكأنها قلعة مترامية الأطراف.

(٢٩) وتلجأ الشركات التى تعمل عبر الولايات الأمريكية، والدولية، إلى التهديد بنقل نشاطها من ولاية ما إلى ولاية أخرى، بهدف الضغط على سلطات الولاية ولىّ ذراعها من أجل الحصول على إمتيازات معينة. فإنتقالها يعنى خسائر للولاية فى الضرائب والوظائف وغيرها. ويشار إلى قوة الشركات الصناعية بـ "الاستقراطية الصناعية".

تنقاد بمبدأين هما "إن لم تكن رابحاً فأنت خاسر" و"ما لم تحسّن عملك إلى حد الكمال فأنت لا شئ"[٣٠]. وهو أيضاً فى صميم النظام التعليمى. فمثلاً يُؤسس تقييم عمل الطالب وتقدير درجاته فى الإمتحانات والمسابقات بأنواعها على نظام المنحنى البيانى (Curve)، الذى توضع عليه الدرجة العليا والدرجة الدنيا للطالبين الأول والأخير، ومن ثم يتقرر من يحق لهم التقييم من A إلى F (الرسوب). فليست هناك نسبة مئوية ثابتة تحدد من هو الأول ومن هو الأخير، إذ أن هذا يتقرر من خلال جهد الطلبة وتنافسهم مع (أو ضد) بعضهم البعض[٣١]. والذى عاش وعمل فى أمريكا يعرف تأثير هذه الروح التنافسية فى دوائر العمل، التى لا تلتزم إلا بمبدأ الكفاءة المتناهية والتميز فى الإحتفاظ بالموظف أو العامل. والتى قد تتسبب فى الفصل التعسفى أو الاستغناء المفاجئ، فردياً كان أو جماعياً. ومما يزيد من حجم مآس كهذه رغبة المؤسسات والشركات فى مضاعفة أرباحها عن طريق الدمج وتقليص العمالة.

ويبدو أن هذه التنافسية الشديدة كانت من العوامل التى أدت إلى سيطرة "التخصص" الأكاديمى الشديد فى أمريكا، أى تخصص الباحثين والمفكرين فى فرع محدد من أحد العلوم، مما قد يحرمهم من الإلمام الكافى بباقى فروع هذا العلم، ناهيك عن بقية العلوم. فباتت الريادة العلمية منعقدة لجيل من المتخصصين الذين لا يعرفون سوى فرع واحد من العلم، أو تخصص واحد من ذلك الفرع. مع أن النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر بدأت على أيدى رجال "موسوعيين". ومع أن هدف التخصص كان المزيد من الكفاءة، إلا أنه بمضّى الوقت تعددت مجالات التخصص وضاقت إهتماماتها إلى الحد الذى إنقطعت فيه الصلة بين الفروع المختلفة فى نفس مجال التخصص، وهى الصلة التى تمكّن من النظرة الشمولية للعالم. ومن هنا شاعت الصورة العامة عن سطحية الإنسان الأمريكى وأحياناً سذاجته[٣٢].

---

(٣٠) If you are not a winner you are a loser. Unless you are perfect at what you do you are nothing.

(٣١) وقد عانى الكاتب شخصيا من هذا. فحين كان يحصل على درجة ٨٠٪ تُقيم بـ C (أى متوسط). ولما كان يوفق فى الحصول على أعلى درَجة وتكون مرتفعة كان يُهاجم من بعض طلبة المجموعة بإعتباره He pulled the curve فانخفض مستوى تقديراتهم.

(٣٢) ومثال على ذلك، فى رأيى، هو ما صدر عن السناتور "دول" مرشح الرئاسة عن الحزب الجمهورى (١٩٩٦) أثناء حملته الإنتخابية وقوله "عندما أكون رئيساً فسوف يعرف كل رجل وكل إمرأة فى قواتنا المسلحة أن الرئيس هو القائد الأعلى، وليس "بطرس غالى" أو أى أمين عام للأمم المتحدة.

وهذا المزيج القيمى، المؤلف من الاعتماد على النفس والثقة فى النفس والعصامية والمنافسة، يصبغ الحياة الأمريكية، ويسرّع خطاها إلى حد الركض. فإيقاع الحياة، سواء فى الشارع أو مكان العمل أو البيت يسير على وتيرة بسرعة الصاروخ. فالكل يسعى إلى أن يكون فى المقدمة، وأن يكون الرابح، فلامحل للتسيب أو التهاون، ولا مكان للمترهلين. والأمريكى يتعامل مع "الآخر" بمقتضى هذه الأسس، التى يشار إليها بالبراجماتية أو النفعية، كما تتأثر بها قرارات وسياسات بلاده الداخلية والخارجية، التى تفسر "بالعجرفة" من غير القادر على فهمها، أو مجاراتها. ولا يشاطره الأمريكى على أى حال هذا التفسير. فهو يندفع على "سجيته"[٣٣] بمفهوم التسابق حتى النفس الأخير ليكون الأول أو الأفضل، فإذا بلغ ما يريد لا يتواضع به، بل قد تأخذه فرحة الطفل الذى حصل على لعبته المفضلة، ويزهو ويتفاخر به، وقد يندفع فى مدح الذات و "الطنطنة" بما أحرز، فيوصف تصرفه بالعنجهية[٣٤]. وهذه المبالغات السلوكية "المراهقة" لا تمر دون تعليقات قاسية من رجال الفكر وعلمى الإجتماع والنفس والإعلام الحر اليقظ[٣٥].

---

(٣٣) وسجيته هذه كثيراً ما تفزع الأجانب وخاصة الشرقيين. ففى مدرجات الجامعات يدخل الطلبة والطالبات بما يحلو لهم ولهن من لبس (ومن هن الحافيات فى الصيف). والجالسون فى الصفوف الأولى لا يتحرجون من وضع أقدامهم على طاولة الأستاذ، وفى مقابل وجهه مباشرة. وقد يخاطب أحدهم أستاذه وهو فى هذا الوضع، وحين يجيبه يبدو وكأنه يخاطب حذاءه! ويعود ذلك، فى جانب منه، إلى إتجاه تربية الطفل نحو تشجيعه على الإنطلاق والتعبير عن نفسه ورغباته دون قيود Inhibitions حتى لا "يتعقد".

(٣٤) وما حدث فى أولمبياد أطلنطا ١٩٩٦ ونقلته وسائل إعلامنا يعطى صورة لهذا التفاخر والافتتان بالذات، الذى دأب على الهتاف المستمر «لقد إنتصرنا لقد إنتصرنا. عاشت الولايات المتحدة». كان هذا مألوفاً، ومفهوماً إلى حداً ما، أيام الحرب الباردة والمنافسة الشديدة بين المعسكرين. أما الآن فبات ممجوجاً.

(٣٥) وفى مقال نشرته جريدة "إنترناشونال هيرالد تريبيون"، تعليقاً على الألعاب الأولمبية بأطلنطا أيضاً" حقاً إن الألعاب الأولمبية تدور فى أمريكا، ولكن هل يعنى هذا أن تكون الألعاب كلها حول أمريكا؟! فقد ساء كاتب المقال تركيز الحماس الجماهيرى ورفع الأعلام على أمريكا وأبطالها، كأنها هى وحدها فى الساحة، كما ساءته التعليقات الجارحة على البلدان الأخرى التى تتنافس مع الولايات المتحدة على عدد الميداليات، فى نغمة عنصرية الطابع، متناسين واجب الضيافة والروح الرياضية الصحيحة.

- ٣ -

ومن صفحات التاريخ الأمريكى الفارقة قصة وصول زنوج إفريقيا إلى الجنوب الأمريكى عبيداً للعمل فى زراعات الدخان وقصب السكر والفول السودانى، وفى حقول القطن بالذات. وقد نشطت هذه التجارة المرذولة واتسعت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، حتى أن الاسم Slave Ship صار من الأسماء الدارجة، كما سمى ساحل إفريقيا الغربى والڤولتا، بـ Slave Coast حيث قامت موانئ تجميع وتصدير الرقيق إلى أمريكا. وبرز اسم Slave States، حيث كان الرق قانونياً قبل الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥)، وهى ولايات ألاباما وإركنساس وديلاور وفلوريدا وچورچيا وكنتاكى ولويزيانا ومسيسيبى وتنسى وتكساس وماريلاند، وفرچينا التى أُقيمت فيها مزارع لتربية العبيد للتجارة والتصدير.

وقد وصل أول فوج منهم إلى ميناء جيمستاون عام ١٦١٩ على ظهر باخرة هولندية. ومع أن مجيئهم أنعش إقتصاد الجنوب الأمريكى، وضخم ثروات الإقطاعيين، خاصة بعد إزدهار زراعة القطن إثر إكتشاف "إيلى وتنى" لدولاب حلج القطن عام ١٧٩٣، إلا أنه أضاف صفحة سوداء إلى سجل التاريخ الأمريكى. ولعله كان عقاباً على الجرائم التى ارتكبت فى حق قبائل الهنود الحمر. وقد تسببت قضيتهم فى إندلاع الحرب الأهلية الدموية التى إستمرت قرابة خمس سنوات، وفى خلق "عقدة ذنب" قومى، وإشكالية كبرى فى الحياة السياسية والإجتماعية الأمريكية-- قضية ملتهبة، ومصدر أرق وقلق، ونقطة ضعف فى هيبة وهيلمان هذه الدولة "الأعظم"، التى تُتهم عادة بإهدار حقوق السود فى أراضيها(*). وتتعاون عوامل عدة، من جانب البيض والسود على حد سواء، على تهميشهم وإفقارهم، وإرتفاع نسبة البطالة بينهم، ومعدلات الجريمة بألوانها، حتى

(*) إكتشف المؤرخ الأمريكى "إدوارد هونالنج" منذ وقت قريب، أن العبيد هم الذين بنوا البيت الأبيض والكابيتول منذ قرنين عندما بنى الرئيس وشنطن العاصمة الأمريكية. وقد إستعمل معهم الكرباج وأعطاهم ستات (ملاليم) مقابل عملهم الضخم، ومات المئات منهم تحت الأنقاض. وقد إقترح عدد من رجال الكونجرس البيض والسود إقامة نصب تذكارى للسود تكريماً لهم ومسحاً للعار. وأقيم فعلاً هذا النصب فى نيويورك، فى مكان حيث وجدت مقبرة جماعية لهم ظهرت عند الحفر لإقامة عمارة جديدة. وأزيح الستار عنه فى أكتوبر ٢٠٠٠، إعترافاً بـ "إنسانية العبد"، وتعبيراً عن المصالحة وتضميد الجراح!.

باتوا بمثابة الفرس الأسود الذى يجر عربة الحضارة الأمريكية نحو منحدر خطر. وقضيتهم، إنسانياً، تُعتبر التحدى الأكبر للشعب الأمريكى وللمسيحية الأمريكية.

ومن المأثور عن الرئيس چون آدامز (١٨٢٥-١٨٢٩) أنه أشار إلى حقيقتين كان لهما تأثيرهما الكبير على الشخصية القومية الأمريكية: ففى الشمال توجد المبادئ السياسية والدينية لمؤسسى إقليم نيو إنجلند (البيوريتان). وفى الجنوب تسود النخاسة، التى إعتبرها بلاءً عظيماً إبتليت به أمريكا، وجذر المشاكل والقلاقل فى الحاضر، ومصدر الشكوك والمخاوف بالنسبة للمستقبل. وهذا ما نبه إليه "توكفيل"، منذ قرن ونصف، بقوله إن أكبر شر يتهدد مستقبل أمريكا هو وجود السود على أراضيها، وأنه من مصلحة السود والبيض إما أن يندمجوا تماماً أو يفترقوا تماماً.

ومع أن الموجة المثالية الثورية، التى كانت ملائمة لحقوق الزنوج، إنكسرت فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، تحت ضغط عوامل إقتصادية، وبسبب التحيز العميق للبيض، فمما يقال الآن هو إن الأمريكيين تخلصوا من **قوانين** التعصب ببطء، حتى إنتهوا منها أخيراً بعد قرابة قرن ونصف، وظهرت مكانها قوانين جديدة، وبرامج ولوائح وقواعد أخرى متحررة. وإلى جانبها تغير بطئ فى نمط العلاقات بين العنصرين، فمثلاً الزيجات المختلطة تتزايد نسبياً، إذ قفزت من ستين ألفاً فى السبعينيات إلى ١٦٦ ألفاً فى الثمانينيات. ويعترف الرئيس نيكسون أن الأمريكيين كانوا من أصحاب التعصب الجنسى والتفرقة العنصرية، ولكن التعصب الآن إنكشف، ولا يستطيع أحد أن يتكلم عن السود كما كان يتكلم عنهم قبلاً.

وتظل العلاقات العنصرية مصدر توترات عميقة فى المجتمع الأمريكى، وإنفجارات من وقت لآخر، وكانت هى أخطر القضايا التى شهدتها البلاد خلال عام ١٩٩٦[٣٦]. مما حدا بالرئيس كلينتون إلى التشديد على مسألة الوحدة الوطنية، فى إحتفال تنصيبه

(٣٦) خاصة أثناء محاكمة "چيمس سيمسون"، لاعب الكرة الأسود المعروف، الذى إتهم بقتل زوجته البيضاء وعشيقها. ولذلك كان الحماس الذى أبداه الأمريكيون تجاه "كولن باول"، الزنجى الأصل، عندما تردد عن عزمه على ترشيح نفسه للرئاسة، وإمكانية نجاحه حسب استطلاعات الرأى، بمثابة نقطة مضيئة وسط العتمة العنصرية.

(٢٠/ ١/ ١٩٩٧)، وإعتبار كونها حجر الزاوية التى يبنى عليها صَرح رئاسته الثانية، ووعده بالعمل على إزالة آثار التفرقة العنصرية سواء فى المعاملات والمعايشة وتكافؤ الفرص، أو فى سرائر القلوب وما تكنه النفوس[٣٧].

ومن شأن الهجرة إلى الولايات المتحدة، الشرعية وغير الشرعية، واستمرارها بمعدلات مرتفعة، ومن مختلف الأجناس، أن تعقّد الخريطة الأثنية/ العرقية للبلاد. فالرئيس كلينتون، فى مناظرته الرئاسية الثانية، أعلن أن فى بلاده «أناساً موزعين على مائة وخمسين جماعة عرقية وعنصرية مختلفة»[٣٨]، أى أنها عالم مصغر من البشر. ويرى البعض فى هذا التنوع العرقى مصدراً لثراء الأمة، ويعتبر تدفق الهجرة[*] هذا دليلاً على أن "الحلم الأمريكى" مازال حياً، ومغرياً للعالم الخارجى، وأن قيم المساواة والفرص المتكافئة مازالت تميز المجتمع الأمريكى عن غيره من المجتمعات.

وفى إطار الحرية، ومعها العدل والفرص المتكافئة، يعمل المجتمع على صهر أو

---

(٣٧) ودعا فى خطاب له فى "سان دييجو" بكاليفورنيا (يونيو ١٩٩٧) إلى بدء حملة تستمر عاماً تركز على عدد من البرامج الرامية إلى ضمان فرص متساوية لجميع الأقليات فى مجالى التعليم والوظائف. كما دعا إلى مشاركة الأمريكيين فى حوار غير معلن حول العلاقات بين الأجناس فى الوقت الحالى، إستعداداً ليوم تصبح فيه خالية من أية أغلبية عرقية أو عنصرية. وقد شكل فعلاً لجنة من سبع شخصيات من أجل العمل على فتح هذا الحوار. وأشار إلى أهمية التغيير الذى يبدأ من تعليم الأبناء الحب والترابط بكل الناس، وإحترام بيوت العبادة، من كنائس ومساجد ومعابد، حتى يصبح الاستمتاع بالتعددية فى الحضارات والأجناس واللغات مصدراً لقوة أمريكا.

وقد كشفت دراسة أجراها أخيراً "المؤتمر الوطنى للمجتمع والعدالة" عن أن العنصرية لاتزال حقيقة الحياة اليومية الأمريكية، وأن السود الأكثر تعرضاً لها. وكانت نتيجة الدراسة/ الاستطلاع عبر الهاتف، لعينة تمثل سكان الولايات المتحدة: بلغت نسبة الذين قالوا إنهم عوملوا معاملة غير عادلة بسبب اللون: ٤٢٪ سود؛ ٣٠٪ أصول آسيوية؛ ١٦٪ أسبانية؛ ١٣٪ بيض. فالمجتمع مازال "هرمى" التركيب من جهة الوظائف وغيرها: الوظائف العليا للبيض، فالأقل للسود، ثم الهاسبنيك، فالآسيويون والبقية. وقد إعترف تقرير قدمته وزارة الخارجية الأمريكية إلى لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة (أكتوبر ٢٠٠٠) أن التمييز العنصرى مازال متفشياً فى المجتمع الأمريكى رغم مرور عشرات السنين على صدور قوانين حظره.

وعموماً المستقر فى الذهن العام أن إعلان حقوق الإنسان "لم يوضع لزنوج أمريكا". تماماً كما سبق لـ "چون فيرى" رئيس حكومة فرنسا أن قال عام ١٨٨٢ «إن إعلان حقوق الإنسان لم يوضع لسكان إفريقيا السود»!.

(٣٨) يتوقع مكتب الإحصاء الأمريكى أن يصل تعداد سكان البلاد ٤٠٠ مليون عام ٢٠٥٠، يشكل غالبيتهم ذوو الأصول الإسبانية والإفريقية والآسيوية. تكون حصة الإسبان ٢٥٪ (أى ١٠٠ مليون)، والسود ١٢٫٥٪، والآسيون والهنود الأمريكيون، والخلاسيون قرابة ١٥٪، والباقى للبيض أى حوالى ٤٨٪ بينما تبلغ الآن ٧٠٪.

(*) بينما يؤكد جانب من الأمريكيين ضرورة استمرار تدفق المهاجرين لأنهم سر شباب أمريكا ومكمن تجدد حيويتها، تتعالى الآن أصوات كثيرة داخل المجتمع الأمريكى مطالبة بالحد من أعداد المهاجرين حماية للمجتمع.

"تنميط" هذا الخليط، خاصة من خلال السلطات الفدرالية. فالطرق والمبانى تُقام حسب مواصفات فدرالية موحدة فى طول البلاد، كما تخضع الأطعمة والمشروبات والأدوية، والعديد من الأنشطة الإجتماعية والثقافية، لتنظيمات وقياسات فدرالية واحدة. بل إن الفدرالية هى التى فرضت المساواة العنصرية **بقوة القانون**. وقد شاهد الكثيرون من الذين زاروا الولايات المتحدة، فى منتصف القرن التاسع عشر، كيف يختلط الأمريكيون ويمتزجون، فيغدون أكثر تماثلاً وتشابهاً، بحيث أصبحت الفوارق التى خلفتها فيما بينهم عوامل المناخ والأصل العرقى والنظم والمؤسسات أقل إختلافاً، وصاروا هم أكثر التصاقاً وإندماجاً. وتنبأوا[٣٩] لهم أن يصيروا جميعاً فى المستقبل أمريكين خالصين فى صيغة أمريكية واحدة. ولعل هذا من الأسباب التى تجعل المرء، حين يقابل أمريكا عادياً average، يشعر وكأنه قابل كل الأمريكيين-- نفس اللكنة عموماً، والإشارات، والتطلعات والفلسفة العامة. كما يجده صورة حية لإنسان يشتعل بالرغبات، وله تطلعاته ومشروعاته، وذو نزعة مغامرة عموماً. يتوق إلى التجديد والاستحداث والإبتكار، خاصة وأنه يعلم أن هذا هو مفتاح نجاحه فى مجتمع شديد التنافس. مما جعل المجتمع الأمريكى غارقاً فى المستحدثات فى مختلف فنون الحياة. وجعل أهم ما يميز الواحد عن الآخر هو القدرة على اكتشاف الطرق الجديدة لتكوين الثروات، بإعتبارها من أهم نقاط تحديد هويته الشخصية ومعها أولوياته وأبواب صرفه على الخدمات والمتطلبات، وإشباع الرغبات والأذواق. وعموماً هناك سعى عام حثيث وراء المال، ووراء الظفر بأسلوب الحياة الأوفق والأسهل والأمتع. فالذوق بالنسبة للرفاهية المادية ليس قاصراً دائماً على فريق من المجتمع دون آخر، بل هو حس عام، فالكل مشغول بالإهتمام - بطريقته - بأبسط إحتياجات البدن، وأقل مناعم الحياة.

ورغم ذلك فهناك من المفكرين من يتخوفون من أن "تنصهر" عملية صهر المجتمع نفسها فتعجز عن تحقيق هدفها الأصلى، مثلما يفقد الملح ملوحته ويمسى غير صالح لشئ.

---

(٣٩) وتنبأ "توكفيل" أنهم حين يصيرون أمة من ١٥٠ مليوناً سيكون كل واحد منهم مساوياً للآخر، بل وينتسبون لنفس الأسرة، ولديهم نفس وجهة الإنتقال وبرنامج الرحلة، ونفس المذاق الحضارى." ويتنقل فيما بينهم تيار الفكر وفق أنماط وأشكال متماثلة. كان هذا التنبؤ عام ١٨٤٣، فإلى أى حد ياترى تحقق وقد بتنا فى القرن الحادى والعشرين؟!.

ويتصدرهم أصحاب التيار البروتستانتى المتشدد الذى يعتقد أن القيم والمبادئ الدينية والسياسية، لمؤسسى إقليم نيوإنجلند من البوريتان، قد إهتزت من كثرة الزغل الأخلاقى والقيمى الذى تسرب إليها. واشتطت بعض الفصائل فى التعبير عن غضبها على الأوضاع، وكونت مؤخراً ميليشيات(٤٠) تهدد بالعنف ضد الحكومة الفدرالية، وضد ما يخالفها من مؤسسات. ولديها قائمة طويلة من المطالب، من بينها وقف الهجرة، وحرمان المهاجرين من كافة المساعدات، وطرد المهاجرين غير الشرعيين. وينسب إليها تفجير المبنى الفدرالى فى أوكلاهوما ستى عام ١٩٩٦، وقنبلة أطلنطا التى إنفجرت أثناء الألعاب الأولمبية.

وهذه التوجهات العنفية تختلف تماماً عن التيارات الشبابية التى ظهرت فى الخمسينيات والستينيات، ودُعيت بأسماء مختلفة منها "الهيبيز Hippies"(٤١) و"البتنيكس Beatniks"(٤٢). وكانت مسالمة، وضد الحروب، وضد التقاليد الجامدة، وضد التنميطية conformity التى يفرضها المجتمع. وتعتبر من إفرازات الحرب العالمية وقنبلتها الذرية. فقد إنتصرت الديمقراطية على النازية والفاشية وعم الفرح. ولكن سرعان ما استولى الخوف على المجتمع بسبب القنبلة الذرية والسلاح الذرى. كما استولت عليه الحيرة حين سمحت قلعة الديمقراطية بإشاعة الإرهاب الفكرى، ونصبت مثيلاً "لمحاكم التفتيش" للمفكرين والأدباء والفنانين فى الخمسينيات (١٩٥٠-١٩٥٤)، والتى عُرفت بالحقبة

---

(٤٠) وأحدثها منظمة تطلق على نفسها اسم "جيش الله" - ربما على غرار "حزب الله" الشيعى - قامت بتفجير قنابل فى عيادة للإجهاض فى أطلانطا أيضاً، ثم فى ناد للشواذ الجنسيين. وهددت بشن حرب شاملة ضد الحكومة الفدرالية، ومنظمات السود، فى خطابات أرسَلتها بالبريد إلى عدد من وكالات الأنباء. وهناك جماعات عديدة أخرى بأسماء مثل "الوطن الآرى"، "مالكو السلام فى أمريكا"، و"الوطنيون المسيحيون" وعقدت إجتماعاً عام ١٩٩٢ بولاية كولورادو، وضعت إستراتيجية هدفها محاربة النظام العالمى الجديد، وتكوين جمهورية مسيحية أصولية فى البلاد. وشكلت ميليشيات عسكرية منتشرة فى الولايات، وإن كان أكثرها تنظيماً فى المناطق من متشيجان إلى مونتانا، الولاية التى تدعو ميليشياتها إلى إستقلالها عن الإتحاد، كالحال فى ولاية تكساس. وحتى حركة "الأرض أولاً" البيئية قد تحولت إلى العنف.

(٤١) حركة فى الستينيات لشباب تغرب عن مجتمعه التقليدى إلى المعميات ومخدرات الهلوسة والحياة الجماعية، والفن الطبيعى وغيرها.

(٤٢) مجموعات شباب الخمسينيات التى تمردت على الإتجاهات التقليدية فى اللبس والطعام وغيرهما.

- بينما شهدت الستينيات الثورة على التقاليد، سادت عقدى السبعينيات والثمانينيات الروح الفردية الذاتية وأولوية جمع المال. وجاءت التسعينيات بموجات الإرهاب والعنف.

المكارثيـة نسـبـة إلى السـناتور چوزيف ريموند مكارثى الذى ترأس أعـمـال اللجنة التى تشكلت بالكونجرس باسم "لجنة التحقيق فى النشاط المعادى لأمريكا" - أى الشيوعية - والتى أوقـعت الرعب فى قلوب الكتـاب والمفكرين وأصـحـاب الآراء، وقطعت أرزاق الناس، لدرجـة أن أسـمـاء الكتـاب الحـقيـقيـين لبـعض الأفلام المهـمـة، مثل "وُلد حـراً" و "ميراث الريح"، والتى أنتجت فى الفترة من ١٩٥٢-١٩٧١، قد حذفت لأنهم كانوا ضـمن القـائمة السـوداء، التى تضم الكتـاب المنتمين للحـزب الشيوعى الذى تأسس عام ١٩٣٤. وأدت المبالغة فى معاداة الشيوعية والخوف من الخطر الأحمر (الشيـوعى) إلى تخلى السلطات عن المبادئ التاريخية للعدالة والواجب، وانتشرت الحملات ضد المثقفين والمنشقين طوال الفترة من ١٩٤٩ إلى منتصف الخمسينيات، ورافقتها عمليات إغتيال، إلى جانب التخلص من الكفاءات والفعاليات المؤثرة بالرفت وبالنقل وبالتشتيت الجزافى.

أمـا مـا أفرزته الحـرب الڤيـتنامـيـة من خـوف وحـيرة وشـك وتقـزز فقـد أشـاع الروح الإنفصالية والتمرد الثقافى بين الشباب، وظهر معها مسرح العبث ليعبر عن كل هذا. وكـان من رواده كتـاب أمثـال يوجين يونسكو صـاحـب مـسـرحـتى "الكراسى" و "المغنية الصلعاء"، وصموئيل بيكيت صاحب مسرحية "فى إنتظار جودو".

ونشبت الحرب الباردة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، فقضت على الكثير من القيم، ودعمت سلوكيات الإنتهازية والأنانية والجسدانية، فأخرجت بدورها أردأ ما فى البشر. وطبـقت المقولة الميكيافيلية حرفياً وهى «الغـاية تبرر الوسيلة». ولجـأ أطرافهـا إلى أدنأ الأساليب الوحشية، المجافية للإنسانية والمعايير الأخلاقية، فى صراعهم الخفى والعلنى ضـد بعضـهم البـعض. وتضـخـمت ضـحـاياها من أفراد وشـعـوب. وارتبطت الولايات المتحدة "راعية الحقوق الإنسانية" بأنظمة حكم إعتمدت فى إستمرارها على مص دماء شـعوبها وإبادة المعارضـة[٤٣]. وأخـفت هى عن شـعـبهـا الكثيـر من أعـمـالهـا القـذرة، بل

---

(٤٣) وعموماً يوجه الأجانب إنتقادات شديدة للسياسة الخارجية الأمريكية المعاصرة بإعتبارها تفتقر إلى الاستمرارية والقدرة على التنبؤ بالأحداث، أو وجود خطة استراتيجية مستقرة، إلى جانب التنديد بأنها تتخبط دون هدف من أزمة إلى أخرى. ويقال فى ذلك إنه نظراً لحداثة عمر الدولة فإن الإدارات الأمريكية لا تملك الخبرة أو الحنكة السياسية التى توافرت لدول عريقة أخرى مثل إنجلترا أو فرنسا. هذا إلى جانب وجود ميول داخلية قوية للعزلة، وقلة معرفة الرأى العام، بل وأقطاب السياسة، بقضايا العالم الخارجى ومشكلاته. فجل الإهتمام هو بالقضايا الداخلية. ومن شأن كل هذا هو وقوع الإدارات أو المسئولين الأمريكيين فى أخطاء فادحة.

وضللته، وارتضى الشعب بدوره أن يسكت عما لا يرضاه من أجل أمنه وسلامة مدنه من الدمار النووى، وأن يتحمل نتائج تشوه أسس إقتصاده بسبب ما استثمر فى بناء القوة العسكرية ودعم برامج الأمن القومى.

وتطورت أثناءها أسلحة الأعمال التخريبية السرية وأساليبها وتقنياتها. وباتت الآن متاحة وفى متناول عتاة الإجرام العالمى فانفتحت فعلاً أبواب جهنم باتساع نطاق الإرهاب وتنوعه، وبانتشار شبكات الجريمة المنظمة التى تتاجر فى كل شئ من المخدرات والأسلحة، إلى النساء والأطفال، وكل ما هو محرم. فالشرعية التى أسبغتها الحكومات المتورطة فى الحرب الباردة على وسائلها الجهنمية سهلت لدى الخاصة والعامة تقبل الفكر الإجرامى وممارسة الأعمال المنحرفة. وهو ما يمكن ملاحظته فى المجتمع الروسى، مثلاً، بعد ما تهشمت قبضة الدولة الحديدية بقدرتها الرادعة ووسائلها القمعية، فى التغطية على أخبار هذه الجرائم، وما هو حادث فى المجتمع الأمريكى بما تتيحه لانتشارها أجواء الحرية والإنفتاح الديمقراطى، وما أضافته على ساحته الحرب الڤيتنامية من روح التمرد والإنفلات. وحرب ڤيتنام كانت فى الواقع جبهة ملتهبة فى الحرب الباردة، مات فيها فقراء البيض والسود فى غفلة منهم لن تتكرر، وتورطت فيها أمريكا بغباوة، وغاصت فى أوحالها أطول وأكثر من اللازم بسبب خوفها على هيبتها إذا ما تراجعت أو هزمت، وهى عنجهية نظامها السياسى التى حرمته من إختيار الوقت المناسب للإنسحاب من المنطقة كلها كما فعلت فرنسا قبله. ويتفق كثيرون من علماء الاجتماع والنفس والسياسة الأمريكيين على إعتبار حرب ڤيتنام[٤٤] عاملاً مؤثراً لما حل بالمجتمع الأمريكى من تفسخ، خاصة بسبب الأكاذيب التى روجتها بيانات إدارته لتضليله، والأساليب الوحشية التى لجأت إليها فى المعارك، مما أسفر عن وجه قبيح لأمريكا لم يكن يتوقعه الشعب من حكوماته.

---

(٤٤) مازالت آثار هذه الحرب القذرة تحت التقييم حتى اليوم. وظهرت كتب وروايات، أحدثها كتاب بريطانى Fathers Laws، وأفلام سينمائية، كلها تحاول أن تكشف عن آثارها، إلى جانب محاولة الإجابة عن السؤال: لماذا حدث كل هذا ولمصلحة من؟ وتعتبر المظاهرات، التى عمت أمريكا والعالم أجمع ضدها، بمثابة إقتراع بعدم الثقة فى "حكمة الأباء". ومن هنا تعتبر الستينيات حقبة تشكيل مؤثرة للمجتمعات وتوجهاتها، ظهرت آثارها فى العالم الغربى وفى أمريكا بالذات.

- ٤ -

وبعد الإنطلاق نحو التقدم، فى كافة المجالات وعلى مراحل، أواخر القرن ١٩ والنصف الأول من القرن العشرين، جاءت وثبة الولايات المتحدة الكبرى، صناعياً وعلمياً وتكنولوچياً، بعد الحرب العالمية الثانية. وقد مهدت لها العقول التى هاجرت إليها من أوروبا، وخاصة ألمانيا، ومنهم عدد كبير من اليهود هرباً من الإضطهاد العنصرى، وفى وقت سادت فى البلاد سياسة متقدمة فى مجال العدالة الإجتماعية. فكان الرواج والازدهار، والتضخم مع حرب ڤيتنام، وظهور أنماط حياتية جديدة، من محلات الوجبات السريعة والموتيلات المزدهرة وسينما الخلاء بالسيارات. وصور جديدة من الخدمات المتطورة هى من ملامح مجتمع "ما بعد الصناعى"(*). وتوسعت هوليوود بإنتاجها السينمائى الضخم والمتنوع، وازدهرت الصناعة الإعلامية، وتعاظم دور الإعلام فى الحياة الثقافية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية، والذى بلغ أوجه مع التليفزيون(٤٥) الذى أصبح يشار إليه باعتباره "صانع الرؤساء - رؤساء أمريكا". وتعتبر الولايات المتحدة من أولى البلاد التى اهتمت بالإعلام أكاديمياً، وتكاد تنفرد بوجود كليات قوية للإعلام، قديمة العهد، فى معظم جامعاتها الحكومية والأهلية، تحمل أسماءً مختلفة مثل الصحافة Journalism والإتصال Mass Communication. ويمثل اليهود شريحة كبيرة من طلبتها، إلى جانب أساتذتها. ومعظم وسائل الإعلام الأمريكى مملوكة لشركات عملاقة(٤٦) منها شركات صناعة السلاح.

---

(٤٥) عندما سئل الزعيم البولندى "ليخ فاونسا" عن السبب الجوهرى فى إنهيار الشيوعية أشار إلى جهاز التليفزيون. ويصفون هذا الجهاز بأنه "وحش الكترونى" يقوم بتنويم ضحاياه والسيطرة عليهم. وهو من أكثر الوسائل المؤثرة التى تستخدم فى تأجيج العواطف والإرتقاء بالأفكار الوطنية، أو تهديد مواقف المواطنين المتمردين. ويجد فى العالم الثالث، وخاصة إفريقيا، البيئة الصالحة حيث يستطيع أن يضخم من حجم الأشخاص ليظهروا فى حجم يفوق حجمهم الطبيعى، كأنه يغذى أساطير أو يخلقها.

(*) المجتمع الصناعى سعى إلى "المعرفة العملية" وقام عليها، وهى المعرفة التى ينتجها "الفعل"، وممثلوها كانوا المخترعين أمثال واطسون وإديسون ورايت وبنز وغيرهم. أما مجتمع "ما بعد الصناعى" فيعتمد على المعرفة النظرية التى تتطور وتنمو فى الجامعات ومراكز البحوث، وتؤدى إلى نمو "طبقة المعرفة" التى تتكون من العلماء والباحثين والمهنيين المتخصصين فى مجالات الإدارة والتخطيط المالى والإقتصادى والإعلام والأنشطة الثقافية والإبداعية وأمثالها. وينشغل هذا المجتمع بإنتاج وتوزيع الخدمات أكثر من السلع، وغالبية قوته العاملة من أصحاب "الياقات البيضاء".

(٤٦) فشركة (إن بى سى) التليفزيونية، الأكبر فى الولايات المتحدة وفى العالم، تملكها شركة وستنجهاوس كبرى =

ويعود إرزدهار الصحافة فى أمريكا إلى حرية الرأى الكاملة والواسعة، فنشر الأكاذيب والوشايات هو وحده الذى يحاكم بشدة. وإلى الإيمان بأن وجود الصحافة الحرة هو أثمن شئ فى نظام ديمقراطى، حيث يمثل دفاعها عن الفرد ضد السلطة واحداً من أهم أدوارها. وأيضاً إلى عدم وجود أية قيود على إصدار الصحف فى البلاد. فالرائج هو أن الإقلال من نفوذ الصحافة يتحقق بالإكثار من عدد الصحف. فيكون التنافس هو للخدمة الأفضل والأكثر نزاهة. ولهذا ما من قرية مهما صغرت إلا ولها جريدة أو نشرة، لأن الأمريكى تهمه الأخبار المحلية بدرجة كبيرة، فهى تتقدم على الأخبار الإقليمية والقومية. ولأن الرغبة فى التعبير عن الرأى لمختلف المجتمعات أمر له أولويته.

وتعتمد الصحف عموماً على الإعلانات التجارية. وأمريكا فى الواقع سوق عامة كبرى، والأمريكيون يريدونها كذلك. فقد كانت وصية "چيمس هاملتون"، السياسى ورجل الدولة (١٧٥٧-١٨٠٤)، هى قيام دولة ديناميكية تجارية(٤٧)، يقودها رجال أشداء، لهم نبوغ فى القيام بالأعمال، وإحساس بما هو فى صالح الشعب، مما يؤدى إلى قيام مجتمع مزدهر. والأمريكان بحق هم رواد صنع الحلقة المباشرة، التى تربط بين ما يطلبه الناس وبين ما يمكنهم الحصول عليه. ويهتمون بالأعمال التجارية التى تدر عليهم المال الكثير.

= شركات تصنيع السلاح فى العالم. ومن شأن وضع كهذا أن يلقى بالظلال على مدى موضوعية وحرية مثل هذه المؤسسات الإعلامية. ومع أن هامش الحرية الإعلامية فى أمريكا ليس موجوداً فى أى مكان آخر، فإن الأصابع تشير إلى وجود بوابات إعلامية تسمح أو تمنع نشر الأخبار والصور، وأن الحديث والنقد الموجع للنخبة الحاكمة أو لحراس الأيديولوچية المهيمنة قد يودى بمستقبل صاحبه.

(٤٧) لقد اتسقت، منذ البداية، أهداف السياسة الأمريكية ومصالحها القومية دائماً مع مبادئ حرية التجارة وحقوق المحايدة. وقد دعا الرئيس جفرسون إلى مبدأ حرية التجارة، وتبنى أكثر التفسيرات ليبرالية لحقوق السفن التجارية فى أعالى البحار وفى موانئ جميع الدول. بحيث تتخلص التجارة من كافة القيود. فتكون كل دولة حرة فى إنتاج الملائم، وحرة فى تبادل فائضها مع الآخرين لقاء استيفاء إحتياجاتها، مما يسهم فى تحسين معيشة الإنسان وسعادته.

- وكان الإهتمام بالتجارة الداخلية كبيراً لضمان الإكتفاء الذاتى فى كل شئ، وأيضاً بالإنتاج المحلى وتنوعه ورواجه من أجل إزدهار المجتمع. ولعل النزعة الاستهلاكية التى يتميز بها المجتمع الأمريكى وجدت جذورها فى هذا التوجه منذ البداية. وفى أمثالنا «لولا الكسورة ما كانت الفاخورة».

ومع كل تقدم تحرزه ثورة الاتصالات والمعلومات تتزايد قوة الإعلام[٤٨] ، ودوره فى تشكيل الرأى العام، الذى يؤثر بدوره على صانعى القرارات فى كافة الأمور وأدقها . فالعملية السياسية برمتها قد غيرتها التكنولوچيا الحديثة والمعجزات التى توالى إختراعها . وهى مهيأة لمزيد من التغييرات العميقة كلما توطدت "العولمة" ، التى تحيا وتتقوى بدورها بالمعلومات وتطور سبل الاتصال وشبكاته .

ومما يعظم دور الإعلام أن العديد من القيادات التنفيذية والقضائية ، إلى جانب السلطة التشريعية ، يجرى إختيارها عن طريق الاقتراع[٤٩] المباشر . وهى تستعين بوسائل الإعلام للدعاية لنفسها ، وسط مجتمع جماهيرى معقد التركيب ، وتتنوع فيه جماعات الضغط المتعددة بتعدد الأجناس والثقافات والديانات والمصالح ، والتكتلات المهنية والعمالية ، والمؤسسات المدنية الأخرى ، مما يجعل الساحة قبل وأثناء الإنتخابات عامرة بالألوان ، أشبه بموزاييك كبير ، أو بسيرك استعراضى ضخم . وهى أيضاً بازار واسع ، فالكل يبيع والكل يشترى . والكل يريد أن يصل صوته ويحقق مصلحته . ويقدر ما صرفه الحزبان الديمقراطى والجمهورى على إنتخابات عام ١٩٩٦ بحوالى مليارى دولار ، وضعف هذا الرقم عام ٢٠٠٠ .

والإنتخابات مناسبات تظهر فيها حيوية الشعب الأمريكى ، وإهتمامه بقضايا وطنه الأساسية إلى جانب مصالحه الخاصة ، وإصراره على حقوقه الدستورية بما فيها حقه فى عدم التصويت . وبعد إنتهاء الانتخابات ، وفوز من يفوز ، ينتظم الشعب وراء من فاز ويلتزم نحوه ، وهو تصرف عملى برجماتى وموضوعى ، ومن شيمة رجل الأعمال الناجح . ومن هنا يتضح أن ترتيب الأولويات والقرارات والتصرفات التى يتخذها المسئول

---

(٤٨) استطاعت الكلمة المقروءة لأحد الصحفيين أن تمهد لسقوط نيكسون الرئيس "الإمبراطور" كما دعاه بعض الكتّاب . فخرج من رئاسة الجمهورية عام ١٩٧٣ . والمعروف أن الإعلام وراء العديد من الاستقالات والإقالات لمختلف القيادات فى الساحة الأمريكية . وقيل إنه استطاع أن يحرم الرئيس كارتر من ولاية ثانية عام ١٩٨٢ .

(٤٩) أخذ حق التصويت فى أمريكا يتنامى خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة حتى صار اليوم حقاً للجميع . فمن ١٥٠ سنة كان التصويت من حق الذكور البيض فقط ، وبعد ٣٥ سنة صار من حق السود ، وبعد ٩٠ سنة صار من حق النساء . وتمكّن التكنولوچيا والإعلام والمواصلات الجميع بلا استثناء من ممارسة هذا الحق الذى يدعم الديمقراطية ، ويوفر الحرية ، ويتيح الفرصة - كما يقولون - أمام كل مواطن ليصبح جزءاً من هيئة الصفوة المضطلعة بالحكم .

فى موقعه، علا إلى مستوى رئيس الجمهورية أو هبط إلى مستوى مدير الشرطة، تتأثر كثيراً بتوجهات ومصالح الذين أوصلوه إلى منصبه وما أكثرهم، مما يخلق عنده حساسية إنتخابية "موسوسة"، لأن صوتاً واحداً قد يمثل الفرق بين النجاح والسقوط. ومع أن العمليات الإنتخابية هى جزء من نمط الحياة الأمريكية الثابت إلا أنها دائماً تشد غير الأمريكيين إليها لأسباب متباينة، وتنزعج شعوب كثيرة - خاصة فى أوروبا الغربية - من جو المغالاة والصخب الذى تجرى فيه. أما الشعوب الشرقية وشعوب العالم الثالث عموماً فترى فيها "ترفاً ديمقراطياً" مبالغاً فيه، وإسرافاً يتسم بالسفه. أما عند علماء السياسة والاجتماع الأمريكيين فهى القوة وراء تسيير عجلة الحياة فى أمريكا - للأفضل أو للأسوأ- وبالتبعية تسييرها فى مناطق العالم الأخرى. وتخضع هذه العمليات الانتخابية، بمستوياتها المختلفة، لدراسات واسعة جادة فى مراكز البحث المتخصصة(*)، ومراكز دراسة وقياس الرأى العام، وفى أقسام معينة بالجامعات، بإعتبارها تنطوى على مؤشرات قوية لنوع القضايا التى تسيطر على تفكير المجتمع، وللتوجهات المستقبلية للحياة الأمريكية، والفكر الأمريكى وللسياسة الأمريكية. وتتعلم الأحزاب السياسية منها الكثير. والواقع أنه ما من قضية، صغرت أو كبرت، وما من مشكلة محلية أو عالمية، إلا وتخضع لدراسات واسعة وموضوعية وعلمية. فلا شئ هنا يُترك للصدف أو يهمل. فمثلاً منذ عقود والـ CIA تقوم بدراسات متكاملة موثقة لشخصيات الزعامات والقيادات العالمية، التى فى الحكم وخارجه، بحيث صار لكل واحد منهم نموذج يستدل منه على فعله ورد فعله فى كل موقف يهم مصالح أمريكا أو يمس سياستها.

ويتعجب **سان** أننا، فى الغالب، نكتفى بمشاهدة هذه الإنتخابات، ومراقبة المؤتمرات الحزبية، ومتابعة مناوشات المرشحين، والتعبير عن استحساننا أو إمتعاضنا من طريقة سيرها، وكأنها شأن لا يخصنا. مع أن تأثيرها يتعدى بكثير الحدود الأمريكية. لأن عصر العولمة الراهن، يجعل من القرارات التى تتخذها الإدارة المنتخبة، أو التى لا تتخذها، تأثير الحياة أو الموت بالنسبة لجميع الأمم. فهى، وإلى حد بعيد، تقرر لبقية العالم نوع السلوك السياسى الذى ينتهجه، ونمط إقتصاده من حيث ما ينتجه ويستهلكه، وكيفية

(*) ومن المؤكد أن الانتخابات الرئاسية الأخيرة، عام ٢٠٠٠، ستخضع لدراسات عميقة. فقد أوصلت نتائجها وملابساتها النظام السياسى كله إلى ما يشبه الأزمة.

وتوقيت ذلك، بل وماذا يعمل ويعلّم أيضاً. وكل هذا يتقرر فى لجان الاقتراع وتفرضه حكمة الأمريكيين، صلحت هذه الحكمة أو فسدت. وهذا ما يجعل تيار العولمة الذى يفرض نفسه على كوكبنا يتلون باللون الأمريكى. وتعرف أمريكا هذا الوضع وتوظفه لصالحها.

ويرجع ذلك إلى أن الإقتصاد الأمريكى، مقاساً بالناتج الإجمالى المحلى يمثل ٢٤٪ من الناتج المحلى الإجمالى للعالم أجمع، ويزيد حجمه عن إقتصاديات بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا وكندا مجتمعة، ويزيد على إقتصادى اليابان وألمانيا مجتمعيْن، مما يعطيها مركزاً تحكمياً فى الإقتصاد العالمى ككل[٥٠]. فهى إذا إنتعشت انتعش معها العالم، والعكس يحدث إذا إنكمشت، وهو ما قد يعنى الفاقة والمجاعة فى العالم الثالث.

وهى الدولة الأكثر تقدماً فى التكنولوچيا المعلوماتية[٥١] والإتصالاتية والبحث العلمى، وأسواق المادة وإدارة الشركات متعددة الجنسيات العابرة للقارات والدول. أى أنها نافذة واسعة على جميع الأعصاب الحساسة التى تؤثر، مثلاً، على معدل البطالة والتضخم والنمو فى كل أرجاء العالم. كما اجتمع لها، ولسنوات قادمة، من أسباب

---

(٥٠) يشير تقرير صندوق النقد الدولى عن "آفاق الإقتصاد العالمى" (أكتوبر ١٩٩٩) أن الولايات المتحدة، رغم سوقها الداخلية الهائلة، هى الدولة الأكثر تصديراً بين الدول الإقتصادية الرئيسية، أى هى الأكبر بين الكبار، إذ تنفرد بحصة تبلغ ٨ر١٣٪ من الصادرات العالمية للسلع والخدمات. على أن مكانة أمريكا الإقتصادية لا ترجع فقط إلى تفوق قدراتها التصديرية وإنما ترتكز إلى نوعية هذه القدرات وبالذات إلى هيمنتها فى ميدان إنتاج وتصدير معارف ومواد التكنولوچيا الراقية فى مجال السلع والخدمات. ونصيبها من الناتج المحلى المجمع للعالم يبلغ ٨ر٢٣٪، وهى التى تضم ٦ر٤٪ فقط من سكان العالم.

- وفى تقرير حديث رفعته الإدارة الأمريكية للكونجرس الأمريكى (مارس ٢٠٠٠) عبرت عن رضائها التام عن أداء منظمة التجارة العالمية، فى الأعوام الخمسة الماضية، فيما يخص تحقيق أفضل مكاسب للإقتصاد الأمريكى. وأنها بمثابة رأس الحربة فى استراتيچية قيادة الولايات المتحدة للعالم من الناحية التكنولوچية. فالصادرات الأمريكية إرتفعت بأكثر من الثلث فى الفترة ١٩٩٤-١٩٩٩.

- ومع ذلك أعلنت مجموعة من الأعضاء المحافظين بمجلس النواب عن أعتزامها التقدم بمشروع قانون يدعو الرئيس كلينتون إلى سرعة الإنسحاب من منظمة التجارة العالمية نظراً للأضرار التى تلحق بالسيادة الوطنية من جراء عضويتها! بل إن الأصوات إرتفعت فى أوساط أمريكية تعرب عن تخوفها من العولمة ذاتها. وعبر كلينتون عن هذه المخاوف أمام الإجتماع السنوى لصندوق النقد الدولى الذى عقد فى أكتوبر ١٩٩٨!

(٥١) فهى تنتج وحدها فى مجال الكمبيوتر أكثر من إنتاج القارة الأوروبية مجتمعة، وما يزيد بكثير على ضعف الإنتاج اليابانى. وحققت بحق طفرة مذهلة فى الحاسبات الإلكترونية واستخدامها.

القوة العسكرية[٥٢] والإقتصادية والمعلوماتية ما لم يجتمع لقوة وحيدة فى التاريخ الإنسانى. وفى الستينيات كانت العبارات المحببة لدى الرئيس جونسون - الفلاح الجنوبى - هى عن "المجتمع العظيم" وعن أمريكا «أغنى وأعظم دولة على وجه الأرض وعلى مدى التاريخ»! أما اليوم فهى عبارات يرددها سياسيوها البارزون، ومعهم أفراد الشعب المغمورون. فأمريكا عندهم "قائدة العالم" وأقوى قوة على الأرض، والنموذج الديمقراطى الذى ينبغى أن يتحذى به الجميع.

- ٥ -

فماذا إذن عن قرب إنهيارها؟!

من الملاحظ أولاً أن معظم الأفكار والتنبوءات حول هذا الأمر إنطلقت فى البداية[٥٣] عن دوائر الفكر والفلسفة والدين الأمريكية ذاتها. صدر بعضها على سبيل التحذير. أو عن قراءة واعية فى التاريخ[٥٤] الذى يؤكد أن إنهيار القيم والأخلاق يمهد لانهيار

(٥٢) كانت أمريكا عسكرياً، عام ١٨٣٨، تدعو للضحك - كما كتب توكفيل. فلا مهارة ولا حنكة عسكرية، ولا مظهر. فالزى والسلاح والاستعراضات بمستوى "فلاحى" أما الآن فتشهد ثورة عسكرية عارمة هيأت لقواتها ثقافة متطورة للغاية، ومكنتها من إمتلاك ما يعرف "بنظام النظم" الذى سيساعدها ولعقود قادمة على التفوق على أى عدو فى المستقبل، بأعداد أقل من المحاربين، وبأعداد أكبر من الخبراء فى مجالات الصواريخ والكمبيوتر وحروب الفضاء.

(٥٣) أطلت المشكلة فى الواقع فى السبعينيات عندما طرحت الطبقة المثقفة، لأول مرة، إحتمال هبوط أمريكا كقوة عالمية. ثم تتابعت التحذيرات من أن الثقافة الأمريكية أصبحت أكثر عنفاً وفظاظة، حتى أن البعض تكلم عن موت الحلم الأمريكى. وتنبأ الكاتب "وليم باف" بإنهيار الإمبراطورية الأمريكية على غرار الإنهيار الهزلى للإتحاد السوفيتى. ويعتبر أزوالد شبنجلر، المفكر الألمانى، أول من كتب عن "سقوط الغرب". وتنبأ بول كيندى بإنهيار الإمبراطورية الأمريكية فى كتابه "ظهور القوى العظمى وسقوطها".

(٥٤) يشير التاريخ إلى أن إنهيار الحضارات، من عصر الإغريق إلى اليوم، يعود إلى الجنس والعنف اللذين ترتبط بهما الجريمة فى كل صورها، والتى وصلت فى الوقت الحاضر إلى معدلات مخيفة. فالحضارة اليونانية القديمة، مثلاً، قامت على أخلاق تقليدية استندت إلى الفضائل الأربع الشهيرة، وهى العدل والشجاعة وضبط النفس والحكمة. وضبط النفس هو الفضيلة الخاصة بالبعد عن المتع الحسية. وكان الإغريق يتمسكون بأرقى المستويات الأخلاقية، يزعجهم العرى وتصوير الجنس الفاضح ويعتبرونها تصرفات بربرية. ويسترشدون بالفضائل التى أرسى سقراط أسسها، ورسمها ونظمها أفلاطون فى إطار البحث عن الحق والخير والجمال. فلما تحولوا عنها فى العصر البطلمى إنهاروا وإنهارت حضارتهم معهم..

- وهناك الرأى القائل إنه بدون تأصيل الإعتقاد الدينى الصحيح تهتز الأسس القيمية وتتضعضع الأخلاق وتنهار.

المجتمعات والحضارة معاً. أو للتنبيه إلى وجود أزمة تحاصر المجتمع، هى فى الواقع جزء من أزمة كونية قائمة، تختلف الشعوب فى موقفها منها. فمنها من يهادنها. ومنها من ينكرها. ومنها من لديه الشجاعة للإعتراف بوجودها ويعمل الفكر الواعى محاولاً الإلمام بأبعادها، بأمل تفكيكها أو علاج أسبابها. وهذا كما يبدو هو الموقف فى أمريكا. فمع أن الدوائر السياسية - فى الحكم أو خارجه وخاصة فى موسم الانتخابات - قد تفاخر ببلادها باعتبارها الدولة الأعظم والأغنى والأقوى - أقوى قوة على الأرض، صاحبة الحلم الحى المستمر، أو الدولة المترقية رقم واحد، وصاحبة النموذج الديمقراطى الفريد، والدولة "الخيرة" القادرة بهذه الصفة على قيادة العالم، وتقديم المساعدة الملائمة للشعوب التى تحتاجها، فهناك من بين مفكريها من يعيد ترديد هذه الشعارات استخفافاً وسخرية، باعتبارها تُطلق للتسلية المحلية، أو من باب خداع الذات، أو نوع من الافتتان المرضى بالذات. فيقول أحدهم: إننا نقدم ثقافة تقوم على التسلية الجماعية، وعلى التفاخر بالذات، هى ثقافة "اللذة" بقيادة هوليوود(٥٥)، ونطالب العالم أن يكون مثلنا، ونفرض عليه مفاهيمنا ونظمنا من خلال شبكة إعلامنا الكوكبية.

وتوجد فعلاً حصيلة كبيرة من الدراسات المتعمقة الجادة التى تؤكد فى مجملها أن المجتمع الأمريكى يواجه أزمة إجتماعية، هى أزمة ثقافية فى لبها. وترى أن أمريكا منكفئة على ذاتها، وصار المزاج السياسى فيها مكتئباً متجهماً، وأصبح "حلمها" الأمريكى هو خيبة الأمل الأمريكى. ويُرجع البعض هذا إلى تراجع النخبة البروتستانتية البيوريتانية البيضاء من أصل سكسونى، والتى رحلت من إنجلترا فى القرن السابع عشر إلى نيوإنجلند بأمريكا الأرض الجديدة، والتى تعتبر نفسها ضمير الأمة، وإلى إختفاء قيمها ذات الصلة بالآباء الأوئل، الذين وضعوا أسس مجتمع الأسرة، والتوافق، والمثل الإنسانية العليا. إلى جانب نظام الحكومة المقيدة السلطات، التى عاشت البلاد فى ظلها حتى أيام الرئيس فرانكلين روزفلت، فى الثلاثينيات، الذى أرسى مبادئ "الصفقة الجديدة New Deal". فمنذ مائة وخمسون عاماً كان لرجال الدين قوة مؤثرة، وكان هناك تشدد وصرامة، ورأى

(٥٥) تقدر اليونسكو فى تقرير لها أن ٣٥٪ مما يعرض من أفلام فى عشرين دولة هى أفلام أمريكية، كما تستورد ٣٥ دولة أخرى ما يعادل ٣٥٪ من مواد برامج تليفزيوناتها من أمريكا. وكلها تعرض عادات أمريكا وتقاليدها وأفكارها: اللغة والكوكاكولا والهامبورجر والجينز والقمصان "تى شيرت" وما شاكل ذلك.

عام محافظ وقوى، هو عملياً أقوى من القانون، يلزم بحفظ يوم الأحد وبالظهور فى الكنيسة، ويمنع تماماً أى إنحراف لا يليق بالمؤمن الحقيقى. وهو وضع مازال الغرب الأوسط The Mid-West الزراعى، قلب الأمة، يحتفظ به تقليدياً إلى حد ما(*).

ويعترض على هذا التحليل فريق يرى أن هذا المجتمع البيوريتانى(٥٦) المتشدد هو نسبياً المسئول عن الإنفجار الأخلاقى الحالى. فليس هناك أشد إثارة على التمرد، والاستخفاف بقوانين المجتمع، كالحد من حرية الأفراد وكبت نوازعهم، كما حدث مثلاً أيام شارل الثانى فى إنجلترا، فى القرن السابع عشر، حين إندفع الناس إلى المجون والاستهتار، بعد الكبت والتقشف فى عهد البيوريتان. وإن كان المتشددون يردون بقولهم إن تبدل الأوضاع يعود إلى أن البروتستانتية القديمة، القائمة على المسئولية الفردية والعمل، حلت محلها المبادئ الاجتماعية، أو ما يعرف "بالإنجيل الإجتماعى"، الذى غيّر من تعريف الشر إلى كونه نوعاً من الشر "المشترك"، يشترك فيه الجميع، ويسمح بوجود فقراء فى البلاد كظاهرة له. وهو ما يخالف المفهوم الدينى التقليدى الذى يرى الفقر قدراً من الله، وربما يعود لأسباب فى الفقراء أنفسهم. وهكذا تخاذلت المسئولية الفردية، وهان الإلتزام المجتمعى، تمهيداً للإنحلال والتدهور.

ويركّز آخرون على "دور التلفاز"(٥٧)، الذى حل محل المدرسة والكنيسة والأسرة فى

(*) وهناك أيضاً من يغالون فى ذلك، جماعات شبه معزولة عن المجتمع، هى جماعات متدينة متصوفة، تمارس حياتها وكأنها لم تعرف أن القرن الثامن عشر قد ولى وجاء عصر جديد فيه كهرباء وسيارة وطائرة وغيرها من صور التقدم.

(٥٦) وهو ما يعرف الآن بالإئتلاف المسيحى الذى سبق التنويه به.

(٥٧) ويدعونه "العميل الإلكترونى"، الذى يمطر المشاهد ليل نهار بما يجرى خارج الأسوار، بصرف النظر عما يشعر به. ويوجهه إلى نمط مرسوم من المعايشة، نوع من "التقليد" للحياة، وليس الحياة ذاتها وتنوعها وعنفوانها. ويجمع الخبراء الآن على فشله فى تربيط أواصر المجتمع وتوحيد صفوفه. بل إنه متهم بأنه وسيلة عملت على تشجيع إنسلاخ الناس عن مجتمعاتهم، ومساعدتهم على الحياة فى صوامع متفرقة، لا يشعر فيها الجار بما يشعر به جاره. وسيتعمق هذا الوضع بإنتشار المحطات الفضائية وتنوع الإرسال والإستقبال، بحيث يصبح لكل فرد ملكوته. والأخطر من ذلك أنه أصبح جزءاً من الثقافة الأمريكية نفسها، وأداة فعالة لتشكيل فكر الحاكمين والمحكومين معاً. بل وبات ينافس مؤسسات الدولة فى مخاطبة الرأى العام والتأثير عليه أو إقناعه، مما حدا بأحد رجال السياسة الأمريكيين أن يحذر من أنه لو استمر فى تحريك السياسة فلن يكون للأجهزة التشريعية والتنفيذية مكان أو دور. وسيتضاعف التأثير بدخول شبكات الإنترنت إلى مدى يفوق التصور.

تشكيل ثقافة المجتمع ، وهى ثقافة يعتبرونها " لاتينية " المزاج والطابع ، تتجاهل الفضائل القديمة ، وتثير الغرائز والنزوات ، مما أدى إلى اهتزاز الحياة الأسرية ، ونشر الأمراض الاجتماعية فى المدن ، وإصابة المدارس والجامعات بنزعات تعيقها عن المعرفة والتقدم وباتت المؤسسات ومختلف ميادين الثقافة فى وضع أسوأ مما كانت عليه منذ أربعة عقود فقط .

وهناك من يحمّلون فلسفة " الثقافة النسبية " وتطبيقاتها المسئولية ، لعجز معتنقيها عن الاعتراف بما حل بالمجتمع من جرائها . وهذه الفلسفة هى محور التيار الليبرالى المناهض للعنصرية ، والذى يوجه السياسة العامة للولايات المتحدة منذ بداية القرن العشرين . أما ما حل بالمجتمع فهو إنهيار يتجسد فى شكل معدلات الجريمة المرتفعة ، وتقبل ما هو غير مشروع وكأنه شئ طبيعى ، والازدراء بقيم الإنضباط وتمدّن السلوك ، وزيادة الاعتماد على الحكومة ومعوناتها . وأكثر من تأثروا بهذا الانهيار هم السود والفقراء ، موضع إهتمام هذه الفلسفة .

ويتعجب الأخلاقيون moralists ، من جانبهم ، حول ما هو صحيح وما هو خطأ فى أمريكا المعاصرة ، ويتساءلون عمن يقرر ذلك ويبت فيه . فالكنائس لم تعد تقرر بالنسبة لشرائح واسعة من الشعب ، رغم ما يتبدّى من مظاهر الالتصاق بها . ولا الراديو وخاصة البرامج الدينية ، وإذاعات يوم الأحد بالذات . فالدين ، كما تشير الدلائل ، قد إهتزت صورته[٥٨] . وقد يعنى هذا أنه لم يبق غير القانون الذى يستطيع أن يفعل الكثير فى هذا المضمار ، وإن كانت هناك أمور لا يستطيع القانون القيام بها . فهو لا يستطيع أن يحل محل الإيمان والثقة . أو أن يغير طبيعة الإنسان . ثم أن التعويل عليه يدفع الحكومة إلى التدخل لتنظيم السلوك وحماية النظام العام مما قد يقضى رويداً رويداً على الحرية الفردية العامة ، وبالتالى على الديمقراطية .

(٥٨) قد يفسر هذا ما تعانيه قطاعات واسعة فى الشعب من الخواء الروحى والعقائدى ، تقود فى جانب إلى ظهور جماعات تقدم على الإنتحار الجماعى بإعتباره طريقاً إلى سعادة وهمية ، أو أملاً فى حياة أخرى بلا حيرة عقائدية . وتقود فى جانب آخر إلى الجرى وراء السحر وتحضير الأرواح وروايات الأطباق الطائرة التى ستحمل رسلاً لخلاص البشرية من آلامها . وتنتشر الكتب التى تتناول هذه المواضع إنتشاراً واسعاً ومبيعاتها بالملايين سنوياً . ويقدر عدد الجماعات التى تعتنق مثل هذه الأفكار الشاذة فى أمريكا بما يقرب من أربعة آلاف . وهو أمر غريب فى مجتمع بلغ الأوج علمياً وتكنولوجياً .

وفى الجانب المقابل يقف الفريق الذى يرفض التسليم بالتيار التشاؤمى . ورغم اتفاقه مع القائلين بوجود بعض المشاكل، خاصة ما تمثله أيديولوجية تعدد الثقافات وما ينبثق عنها من استقطاب عنصرى له خطره على النسيج الإجتماعى وتهديده له بالانقسام، فإنه يعتبر استمرار الهجرة[٥٩] دون رفض لها كدليل على أن المشروع القومى قادر كعادته على الاستحواذ على خيال العالم، وأن المجتمع الأمريكى وأسلوب حياته مستمر فى جاذبيته للآخرين بما يسمى "بالقوة الناعمة" . وهو لا يشارك وجهة النظر التى تندد بسوء حال المؤسسات . والقائلة إن أمريكا تترنح وتتجه نحو البلقنة . وعلى العكس من ذلك يؤكد أنه مع دخول القرن الحادى والعشرين ستكون البلاد قد مرت بفترة من الإصلاح ويعم الرخاء .

ويقف إلى جانب هذا الفريق فريق آخر ينتقد الذين يفرطون فى مخاوفهم من البلقنة والاستقطاب العنصرى والهجرة، على أساس أنهم يقللون من قيمة وقوة النظام الأمريكى، ويسيئون تفسير الفكر الأمريكى القائم على كرامة الإنسان وحريته الطبيعية . فأمريكا عند هذا الفريق هى بلاد الضمير، وهى فى النهاية تعتقد فيما تقوله عن نفسها . وتتمثل بارقة الأمل عنده فى أن الكثيرين من مختلف المذاهب والعقائد قد قرروا الخروج عن صمتهم الطويل، وعن الخضوع للنخب الحالية، ليبدأوا هم الإمساك بزمام العمل[٦٠] . ويتفق هذا مع أفكار المؤرخ والمحاضر "كريستوفر لاش"، فى كتابه "ثقافة النرجسية"، إذ يثير فى بنى شعبه الرغبة فى التغيير والسعى إليه .. ويرى أن الأمل معلق بالحركات الأهلية،

---

(٥٩) وتُقدر معدلاتها السنوية فى الوقت الراهن بسبعمائة ألف من المهاجرين الشرعيين، وبنصف هذا العدد تقريباً من غير الشرعيين .

(٦٠) وعن ذلك يقول "ديك موريس" : بعد شطحة طويلة مع ذاته، انتقل الأمريكى، خلال ثلاثة عقود، من العبثية والفردية والمادية (جمع المال) القحة، إلى التسعينيات والإهتمام بالمجتمع . وباتت دواعى قلقه تزايد معدلات الجريمة، وتزايد تناول الخمور وتعاطى المخدرات، وغيرها من الإنحرافات . كما إتجه إهتمامه إلى قضايا الإنضباط فى تربية الأبناء، والقيم الأسرية، وشئون البيئة . وظهر تأثير هذا على معدلات الجريمة التى تشير الإحصائيات الأخيرة إلى إتجاهها نحو الهبوط، طوال السنوات الخمس الأخيرة، لأول مرة منذ سنين عديدة، ولأول مرة منذ ربع قرن . وآخر الإحصائيات التى كشف عنها مكتب المباحث الفدرالية (FBI) تشير إلى إنخفاض معدل جرائم العنف خلال النصف الأول من عام ١٩٩٦ بنسبة ٣٪، وخاصة فى المدن الكبرى مثل نيويورك وشيكاغو ولوس أنجيلوس .

أو المجتمع المدنى[٦١] ، التى قد تبدأ بأفراد قلائل لتحيى مجدداً حركات وأفكاراً قديمة لها منزلتها ، كالدعوة لحقوق السود المدنية ، والمساواة بين الجنسين ، ومعارضة الروح العسكرية ، والدعوة الجادة لحماية البيئة ، والعودة مرة أخرى إلى المسيحية الأصيلة وقيمها السامية .

وهناك الموضوعيون الذين يؤكدون أن عرض الأزمة وعللها للمناقشة ، بهذا القدر من الشجاعة والصراحة ، والخوض فى كافة أبعادها بكل العلانية ، دون حرج أو خوف ، لاستكشاف ما خفى أو استتر منها ، ووضعها تحت المجهر بقصد النظر الدقيق والتشخيص السليم والبحث عن حلول ، إنما هو دليل صحة وعافية . وهو فى حد ذاته المدخل الموضوعى والعلمى لمعالجة الأزمة ، وربما لتجاوزها أيضاً . والأمريكيون بطبيعتهم ، خاصة على مستوى المثقفين ورجال الفكر والمؤسسة السياسية ، لا يقفون عند حد ، ولا يقيدون أفكارهم بقيود ، عندما يكون الأمر متعلقاً بواقعهم السياسى والاجتماعى . فهم يعرضون القضايا المثارة بكل جوانبها ، ما ظهر منها وما بطن ، حتى لو كان فيما يقولونه شئ يراه الآخرون جارحاً للذات . فبقدر ما يقال عن إفتتانهم بالذات ، وربما بسببه ، بقدر ما لديهم من شجاعة السخرية من الذات ، ومواجهة العيوب[٦٢] . وبقدر ما يثار حول فلسفتهم

---

(٦١) أى الهيئات غير الحكومية ومنظمات العمل التطوعى . ويكاد المجتمع الأمريكى أن يكون مجتمعاً مدنياً من كثرة عدد المؤسسات التى تقدر بعشرات الألوف ، وبعدد الأنشطة الإنسانية التى تمارسها هذه المؤسسات . فما من داء إجتماعى متفش إلا وتجد عشرات المنظمات ، بأسماء مختلفة ، تحاول التصدى له بجهود رائعة وبأداء تطوعى وبأموال خيرية . فمشكلة إدمان الخمر يوجد فى مواجهتها العديد من المنظمات ، منها ما يعرف باسم Alcoholics Anonymous ، تتكون فى معظمها من سكيرين سابقين يساعدون التائبين على عدم العودة إلى السكر . وفروعها منتشرة فى جميع أنحاء البلاد وتليفوناتها تعمل ٢٤ ساعة فى اليوم . ومثلها مشكلة إدمان المخدرات . وغيرها من القضايا كقضايا حماية البيئة ، وحماية الحقوق من المرأة إلى الطفل .

والألوف الذين تظاهروا فى سياتل (ديسمبر ١٩٩٩) ضد منظمة التجارة العالمية والعولمة ، دفاعاً عن الفقراء والجائعين فى العالم الثالث ، ينتمى بعضهم لمنظمات مدنية تهتم بقضايا إنسانية عامة ، وبالدفاع عن حقوق المستضعفين فى العالم ، رغم أنهم ليسوا من الفقراء أو مسلوبى الحقوق .

(٦٢) فى محاضرة لمادة الإقتصاد بجامعة أيوا بولاية أيوا الأمريكية ، عام ١٩٥٦ ، عندما كانت الدول النامية تدعى الدول المتخلفة Undeveloped ، استهجن الأستاذ الأمريكى هذه التسمية قائلاً إن فى بلاده مناطق أكثر تخلفاً وها هى " فيليس بينيس " ، الباحثة الأمريكية بمعهد الدراسات السياسية الأمريكى ، تنشر دراسة فى صحيفة "لوموند ديبلوماتيك – مايو ٢٠٠٠ " تتهم فيها بلادها بأنها تريد الإنفراد بتحديد معايير الحياة الدولية ، وترفض التوقيع على معاهدات وإتفاقات دولية تهم الإنسان فى كل مكان ، مثل إتفاقية إنشاء المحكمة الجنائية الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب ، وإتفاقية حظر الألغام ، وإتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٩٤ . وضربت عرض الحائط بالقرار ١٩٤ للجمعية العامة بشأن حق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة .

"الفردية"[٦٣]، بقدر إيمانهم بالعمل الجماعى Team work وممارسته فى أمور مجتمعهم وقضايا بلادهم. وباستعدادهم لمواجهة التحدى بمسئولية وتصميم. فمثلاً عندما سبقهم الإتحاد السوفيتى (السابق) وأرسل "سبوتنيك" إلى الفضاء أصابتهم صدمة قارعة، واندفعوا يبحثون عن أسباب تخلفهم. وعالجوا نظام التعليم وبرامجه عندما تأكدوا أن من أسباب تأخرهم هو إنصراف الشباب عن دراسة الرياضيات والفيزياء، واستسهالهم العلوم الإنسانية. ولم يمض عقد من الزمان حتى حققوا تفوقهم بنزول أول إنسان "أمريكى" على القمر.

ومهما يكن الأمر، فإنه لا ينبغى أن يغيب عن البال أن القضية أعمق من كل ما يجرى الجدل حوله فيما يتعلق بالمجتمع الأمريكى وأوضاعه وأدوائه، إذ أنها تعود أصلاً وبصورة قوية إلى إختلاف جوهرى حول أسس حضارته، حضارة الغرب عموماً. فالبعض يرى أنها تستند إلى أسس ثقافية وروحية وجمالية ممتدة الجذور فى المسيحية نفسها، ويتمحور هذا التيار حول البروتستانتية البيضاء، بما فى ذلك فصائلها من الراديكاليين. ومما يقال إن هذا التيار أو الإئتلاف[٦٤] الدينى كان قوة مؤثرة فى فوز ريجان ثم بوش. وقد وقف ضد

---

(٦٣) مضمون الفردية هو «أن الرجال والنساء ليسوا إلا أنفسهم عندما يتحدثون بحرية عما يجول فى خاطرهم وعقولهم، ويكوّنون أحكاماً مستقلة بتلقائية ودون كبت». وهو ما قد يفتح الباب للفجاجة والسوقية.
والفردية، التى هى أحد أركان الرأسمالية الفلسفية والإجتماعية والسياسية، برزت تاريخياً كرد فعل للقيم التى سادت المجتمع الإقطاعى المنهار، الذى ذابت فيه شخصية الفرد تماماً فى ذلك التنظيم الإجتماعى الإقتصادى المتخلف، الذى كان يعطى للإقطاعى التقليدى Fudal السيطرة على الفرد، طاقة وحركة وحياة، بحيث لم تكن له حقوق معترف بها. فكان شعار الرأسمالية فى مهدها «دعه يعمل دعه يمر» Laissez faire laissez passer. وقد عمل "چون ستيوارت مل" على التخفيف من هذه الفردية حتى لا تجنى على سعادة المجموع حين دعا الفرد إلى أن يضحى بسعادته لإسعاد المجموع. وأوجب على الحكومات أن تتدخل لحماية الأفراد من أنفسهم أو من عسف غيرهم (كحماية الزوجة من عسف زوجها. وإنقاذ الطفل من إجبار أبيه له على القيام بعمل يكرهه أو لا يتحمله).

(٦٤) فى كتابه "خلاص للبيع Salvation for Sale" يصف المفكر السياسى "چيمس توماس ستروب" كنائس التليفزيون بالكنائس الإلكترونية، ويحذر من خطرها بإعتبارها سلاحاً ضد الوحدة الوطنية والتسامح. فهو يرى أن المزيج الفتاك من الدين والسياسة والتليفزيون قد خلق "رعباً مقدساً"، ويهدد حريات يعتبرها المجتمع قضايا مسلماً بها.
- وهناك برنامج إذاعى تليفزيونى PTL تحت عنوان "مجد الرب"، مركزه مدينة شارلتون بولاية نورث كارولينا، ويقدر عدد متابعيه بعشرين مليوناً أسبوعياً، يركز على الأخلاقيات، ويؤكد أنه «قد حان الوقت لينتشر المؤمنون فى الشوارع والطرقات لكى يحاربوا منتجى ومروجى كل مصنفات الأدب الخليع والصور الإباحية، ولكى يقطعوا أيدى بعض من هم وراءها».

كلينتون فى إنتخابات الرئاسة لعام ١٩٩٦ ، وحاول إسقاطه . إذ كانت الكنائس ، كما ادعى كلينتون نفسه ، توجه أعضاءها للتصويت لصالح المرشح الجمهورى . ووقف أيضاً إلى جانب چورچ بوش الابن(٦٥) فى الإنتخابات التمهيدية للرئاسة عام ٢٠٠٠ ، بينما إتهم منافسه "چون ماكين" بعدائه للمسيحية ، وكان وراء خروجه من السباق .

ويذهب البعض الآخر إلى النقيض ، إذ يؤسسها - الحضارة - على قطيعة جذرية مع الدين والوحى المسيحى ، وإعتبار مفهوم الحداثة - القائم على العقل والعلم - هو الذى يحدد ماهيتها ، والتى تعنى تأكيد المبدأ القائل إن الإنسان هو ما يصنع ، وأنه ينبغى توافر ترابط عضوى بين الإنتاج الفاعل وبين التقنية والإدارة وتنظيم المجتمع على أساس القانون ، وإقامة الحياة الخاصة على المنفعة(٦٦) ، مع تحرر الإنسان من جميع أشكال القهر والقسر . أى أن العقل والعلم ، وليس الدين والوحى ، هما اللذان يحكمان الحياة الفردية والإجتماعية والسياسية . ويقوم بناء الأخلاق على المنفعة والمسئولية ، "والقصد العقلانى للقيم" ، من أجل تأسيس ما يطلق عليه بالمجتمع المدنى ، وليس على الإيمان الدينى أو طقوس العقيدة .

ومع أن الفرق بين الجانبين يمثل أخدوداً عميقاً خاصة بين المثقفين ورجال الاجتماع والسياسة ، ومدارس الفكر ، فالحال كما يبدو يختلف على مستوى الجماهير العريضة . التى تزاوج بين التيارين بسليقتها العملية البراجماتية . فتحتفظ بالدين كنشاط اجتماعى أكثر من كونه قوى غيبية ، وإن ظهرت وسطها فى عقد التسعينيات توجهات قوية نحو

---

(٦٥) حين سألوه عن الفيلسوف الذى يهتدى بفكره أجاب "يسوع المسيح" ، مما أثار لغطاً فى الأوساط العلمانية .

(٦٦) "المنفعة" صيغة أمريكية لأفكار "جيرمى بنتام" الفيلسوف الإنجليزى (١٧٤٨-١٨٣٢) الذى قرر مبدأها . والذى ذهب إلى أنه لا توجد مطلقات أخلاقية ، وأن سلوكنا الأخلاقى يمكن تفسيره مادياً فى إطار المنفعة واللذة . فالحق هو ما يبدو نفعه للإنسان وتتأكد فائدته للمجتمع . والفكرة تقاس بنفعها ، فهى صواب إذ نفعت ، وهى خطأ إذ لم تنفع ، وإلا دارت الطاحونة على خلاء ، وأمحلت الأرض وسكنت العجلات وجاعت البطون . والإنسان أقدر على معرفة ما ينفعه من غيره . وليس لأى سلطة أن تقرر طبيعة هذه المنفعة وكيفية تحقيقها ما لم يرض الناس عنها . والمنفعة هى أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس . وعلى أساس مبدأ المنفعة هذا يستمتع الأمريكى بتفسيره لكل تصرف أو عمل خاص يقوم به تقريباً . وكما يقال فإن حبه لنفسه بصورة رصينة يهديه دائماً إلى مساعدة الآخر . ولديه إحساس بضرورة التضحية بجانب من مصالحه الخاصة كى ينقذ الباقى منها لنفسه !

الحياة البسيطة التى تهتم بتلبية إحتياجات الفرد الروحية، مما يوحى بأن الدين مازال حياً ويمثل ركناً من أركان الحضارة والأخلاق. وتُظاهر فى الوقت نفسه العقل والعلم والقانون فى تأسيس "ملكوتها" الذى يعتد بالفلسفة النفعية، وقد ساوت بين قيمة الحرية وقيمة الفرصة-- الفرصة التى تتيح للفرد أن يكون شيئاً مذكوراً. ولعل ما يحققه أولاد المهاجرين الجدد من نجاح، وما يتبوأونه من مراكز مرموقة، يستوى فى ذلك الشرقى والغربى والعربى، والمسلم والهندوسى والبوذى والبهائى والمسيحى، تؤكد أن الفرصة متاحة للجميع فعلاً. كما أنه من السهل ملاحظة أن المجتمع ككل يتقدم برمته وحده، دون أى دليل أو مرشد، أو أية معاونة خاصة، أى بقوة الدفع الذاتى، وبقوة إلتقاء مجموع الإرادات الفردية. وحكوماته ذاتها تعمل من خلال هذا الالتقاء. وقد حقق هذا المجتمع، ويحقق تطوراً مذهلاً سنة بعد الأخرى، جعل المسافة بين بلاده وباقى دول العالم تتزايد وتتباعد، فأشار إليها أحد أعلامها(٦٧) «الأولى دون أن يكون لها أكفاء»! وأشار بعض كتابنا إلى ما يحدث على أرضها بإعتباره «معجزة إنسانية بكل المقاييس».

ويتردد أن الأمريكى العادى يرى أن ديمقراطية بلاده تعمل وتؤدى وظائفها فعلاً، وفى ظلها يكون لكل واحد من أفراد المجتمع الحق، والقدرة أيضاً، على الإختلاف مع الآخرين حول ما يجب أن تفعله الديمقراطية. كما أنه يعتقد أن "مجد الأمريكية"، وربما فشلها، يكمن فى أن معنى العظمة يحدده كل أمريكى حسبما يراه ويعتقد. وفى ذلك تقول "برباره وارد"(٧٨) إن الشعب الأمريكى هو الشعب الوحيد الذى فكر أولاً فى مثل أعلى ثم أنشأ بعد ذلك دولة تدور فى إطاره. وتضيف أن الشعب الأمريكى سيكون على الأمد البعيد أكثر سعادة وحرية، وأكثر قدرة على الإبداع عندما ينقل هذا المفهوم عن "المجتمع الحر" إلى العالم أجمع(*)، مما لو مكث فى دياره واقتصر على إحتضان هذا النظام داخل بلاده فقط!.

---

(٦٧) ريتشارد هاس مدير دراسات السياسة الخارجية بمعهد بروكنجر المعروف.

(٦٨) فى مقال لها نشر فى Naval College Review, May 1973.

(*) فقد استقر، كما يبدو، فى ذهن فريق من الأمريكيين أن بلاده هى "جزيرة الخلاص" للعالم كله، ولعلها من رواسب الفكر الدينى الذى ساد على أذهان المهاجرين "الحجاج" الأوائل، الذين رأوا فى أمريكا "فردوس" الحرية الدينية ونهاية لعذاباتهم التى عانوها فى مواطنهم الأوروبية.

ويبدو أن حدس الأمريكى العادى هذا قد صدق، وحقق نظام بلاده المعجزة. فمنذ عام ١٩٩١ والبلاد تعيش إنتعاشاً إقتصادياً غير مسبوق لمدة عقد كامل، وأصبحت قوتها ورخاؤها أعظم من أى وقت فى التاريخ كما قال صموئيل برجر مستشار الأمن القومى. وتحققت معه أعلى معدلات التفوق التكنولوچى خاصة فى مجالات الفضاء والحاسبات الفائقة. وباتت أمريكا تحتكر وحدها ٩٠٪ من تكنولوچيا العالم. واستفاد عموم الأمريكيين من عائداته. وأمكن الحفاظ على أرقام البطالة فى حدودها الصحية. كما سيصبح بالإمكان سداد الدين الداخلى، والمقدر بـ ٣ر٦ ترليون دولار، عام ٢٠١٣ بدلاً من عام ٢٠١٥، وعندئذ تتحرر الدولة تماماً من الديون لأول مرة منذ عام ١٨٣٥، ويتوافر مزيد من الاستثمارات للبنية التحتية وتلبية الاحتياجات الاجتماعية مما يؤدى إلى مزيد من إزدهار المجتمع ورفاهيته. هذا إلى جانب تراجع معدل الجريمة بشكل منتظم. وظهرت كتب تمجد النظام مثل "إنبعاث الاقتصاد الأمريكى" و"مجبرون على القيادة" و"أسطورة إنحطاط أمريكا" الذى يتندر بهذه المقولة ويدحضها.

- ٦ -

ولاشك، ياعزيزى **علام**، أن المجتمع الأمريكى، بتعداده الذى يتجاوز ربع المليار، يعج بالتيارات والصراعات، ويعانى ألواناً من التوترات الاجتماعية، شأن كل المجتمعات، رغم ما هو عليه من ثراء وتقدم وعصرنة، وما يملكه من تكنولوچيات وعلوم متفوقة، أو ربما بسبب هذا كله. وتنتشر فيه من بضاعة "القبح"[٦٩] الإنسانى ما هو متداول فى ساحات العالم الأخرى، بحيث ينطبق على الموقف العام مثلنا الشعبى الصادق «لا تعايرنى ولا عايرك دالهم طايلنى وطايلك».

وقد نندفع فنسخر من أزماته ونندد بها، أو نشمت فيه، فنقع فى خطأين: أولهما، الإنجراف العاطفى غير العقلانى فى تناول أمور الغير والحكم عليها. وثانيهما، الإخفاق

(٦٩) جرائم قتل بواقع جريمة كل ثلاث دقائق، أغلبها بلا مبرر وبلا سبب. وعمليات إغتصاب، واحدة أو أكثر كل دقيقة. ومدمنون بالملايين من كل الأعمار يستهلكون سنوياً ما قيمته ثلاثون مليار دولار. وتمزق فى العلاقات الأسرية.. ألخ.

فى محاولة إكتشاف ما عنده من إيجابيات ومقتربات سليمة وتجارب، قد نتعلم منها ونستفيد. أما الخطأ الأكبر فهو أن نتحصن فى وهم كبير اسمه "البر الذاتى"[٧٠]، الذى يغرينا على التصور أننا لسنا «مثل باقى الناس» (لو ١٨ : ١١)، كأننا مجتمع يرفل فى النقاوة، ويتسربل بثياب بيض هفهافة، تقلقنا رؤية «القذى» فى عين الآخر، ولا «نفطن إلى الخشبة» التى فى أعيننا تكاد تفقدنا نعمة البصر.

ومن القضايا التى تواجه كافة المجتمعات اليوم، قضية تغيُّر القيم أو إنهيارها، أو ما يُعرف بالتحول عن القيم القديمة والموروثات السلفية، إلى قيم أخرى مختلفة أو متدنية. وهى فى الواقع ليست قضية جديدة، فمنذ القدم والمجتمعات تواجه الموقف الذى تتغنى فيه بالماضى، وتنعى ما آل إليه الحاضر، غالباً لأنها لا تعى أنه، فى واقع الحال، لا توجد قيم ثابتة، لكن توجد مثل عليا، فالقيم تتغير مع تغير علاقات الإنتاج المرتبطة بالنظم السياسية والاقتصادية السائدة. أما المثل العليا فينبغى أن تترسّخ مستقرة فى ضمير كل أمة.

ثم أن هناك دورات من الحداثة وما بعد الحداثة يمر بها العالم من حقبة إلى أخرى، ليست وقفاً على عصر أو زمن معين، أو على شعب بحد ذاته. فالتاريخ، كما يراه "چان فرانسوا لويتاز" يتألف من طبقات متناوبة من الحداثة وما بعد الحداثة. فعند نقطة معينة يصل المجتمع - أىُّ مجتمع - إلى نقطة الرغبة فى التحرر من سلطة التقاليد وسيطرة الماضى على التفكير والسلوك، وينتهى معها الاعتقاد فى الوسائل القديمة الثابتة فى النظر إلى الأشياء. ويتفق هذا مع "تفكيكية" الفيلسوف الفرنسى الشهير "چاك ديريدا"، على الأقل بالنسبة للقارئ العادى الذى قد يكتفى برؤوس المواضيع. فهو يطالب الجامعة،

---

(٧٠) وقال (السيد المسيح) لقوم واثقين بأنفسهم ويحتقرون الآخرين هذا المثل ... أما الفريسى فوقف يصلى فى نفسه هكذا: اللهم أشكرك أنى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار.

- هناك حدثان ينمان عنه: الإعتداء الجنسى على فتاة العتبة (١٩٩٢)، وإكتشاف من سموا بعبدة الشيطان (١٩٩٦). فقد أثارا رجفة هستيرية سرت بقوة فى الشعب بطبقاته، وخلقا ذعراً مبهم الأسباب، ليس بالسوى، وأشبه بذعر من أمسك وهو يرتكب عملاً شائناً كان يحرص على أن يظل مكتوماً. الغضبة الصحية واجبة، على أن تكون بوعى وتفهم، ومصحوبة برغبة محمومة لمعرفة أسباب الحدث، ولا تهدأ حتى تعرفها وتكتشف العلاج الذى يمنع تكراره. أما أن تكون كإنفجار مرجل يغلى، فيتفتت المرجل وتتبعثر أجزاؤه، وينطلق البخار ويتبدد وينسكب الماء ويتسرب، فإنها تكون عرضاً لمرض.

والمجتمع من ورائها، إلى تفكيك فكرها القديم ومسلماتها "البائدة" - أى تنخلع من جذورها - توطئة لإعادة تأسيس فكرها. ويدعو العلوم الإنسانية أن تقوم بنسف السيادة الثقافية للمجتمع ليخرج من تاريخه ومن ثم يدخل فى مستقبل الإنسانية الواحدة الذى هو الآن فى طور التشكيل.

ولا يشذ المجتمع الأمريكى عن هذه القاعدة، خاصة وأنه يتمتع بدينامية عالية، وقد انتقل خلال نصف قرن[٧١] فقط من مجتمع ريفى زراعى إلى مجتمع صناعى متقدم. ومما يُؤاخذ عليه فى نظامه الأخلاقى، الذى استجد عليه، أنه يقوم حول مفهوم جديد "للواجب"، يتمركز حول «واجب الإنسان نحو نفسه»، بما يتعارض مع الأخلاقيات التقليدية لمفهوم الإلتزام نحو "الآخرين"[٧٢]، أو الغيرية. فالشعب والحكومة - كما يقال - قد عاشا التحول أو الانتقال من عهد الجمهورية البيوريتانية إلى نوع جديد من الديمقراطية ذات النزعة الأنانية. كما أن الدراسات تشير إلى أن أكثر من نصف المجتمع يرفضون نظام القيم القديم، القائم على مبدأ التضحية بالذات من أجل الأبناء مثلاً. وبات الاهتمام مركزاً على تحقيق الفرد لنجاحه الشخصى. وهو فرد يضغط دائماً من أجل الظفر بحرية أعظم، خاصة حرية التعبير عن دوافعه ورغباته، التى كان من المعتاد كتمها أو كبتها فى المجتمع القديم المحافظ، وذلك حتى يداخله شعور طيب مريح to feel good or cool!. وكان حظ الرغبات الجنسية فى التعبير عنها كبيراً، مما فتح الباب على مظاهر وصور الشذوذ والأدب المكشوف، والعرى الفاضح، واللقاءات الجنسية العارضة. فصار معنى الحرية لدى الفرد «سأفعل ما أريد وأود أن أفعله»، وإن كان القانون العام يقف له بالمرصاد. وهو فى الحقيقة صدى لدعوة أبيقورية قديمة (القرن الرابع قبل الميلاد) للاستمتاع باللذات، تجسدت فى الشعار "لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت"[٧٣].

وينسبون هذا التغيير الأخلاقى إلى:

---

(٧١) أى بعد إنتهاء الحرب الأهلية وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى.

(٧٢) وفى ذلك يقول الرسول بولس: «لا تنظروا كل واحد إلى ما هو لنفسه بل كل واحد إلى ما هو لآخرين أيضاً. فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع أيضاً... أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً فى شبه الناس. وإذ وجد فى الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» (الرسالة إلى أهل فيلبى ٢ : ٤-٨).

(٧٣) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ١٥ : ٣٢.

١- مذهب سيجموند فرويد فى التحليل النفسى ونظرياته التحررية الواسعة الإنتشار فى البلاد، رغم كونها مجافية للدين. فقد تأثرت بها سلوكيات الأمريكيين وأخلاقهم، ودفعتهم إلى الانشغال "المزمن" بالمسائل النفسية، حتى تجاوز عدد أطباء النفس ثلاثين ألفاً، فى السبعينيات، مقارنة بألف طبيب فقط فى فرنسا. والأمريكى العادى بطبعه وبحكم ميله لأن يعيش فى ذاته، يثيره كل ما يتعلق بنفسه، وبصحته البدنية والنفسية، لدرجة أن عالمىْ النفس والتر أرمسترونج وروبرت أشيرو يقولان إنه مصاب بجنون الخوف من المرض، الأمر الذى يدفعه إلى الإسراف فى العناية بصحته، وبالعقاقير التى يتعاطاها والأطعمة التى يتناولها، حتى صارت الكتب التى تكتب فى هذه الأمور هى الأكثر رواجاً فى البلاد. ومما دعم من تأثير نظريات فرويد التقاؤها مع الديمقراطية الأمريكية وضماناتها لحرية الفرد الشخصية.

٢- العقد الجديد The New Deal(*)، الذى أعلنه روزفلت فى الثلاثينيات لمواجهة الكساد وعلاج الإقتصاد، والذى غير من سيكلوجية الأمريكيين، بما استوحوه منه من إمكانية التحرر من مسئولية الخطأ الفردى ونسبته إلى آخرين، أو إلى ظروف خارجية أو قاهرة. فالتقى مع نظريات فرويد فى نسبة أخطاء الفرد إلى أخطاء الوالدين، أو سوء التربية، أو البيئة والمجتمع وما يفرضه من محرمات taboos. وأدى كل هذا، ومعه مبدأ "الفردية" و"المنفعة"، إلى تغيير كبير فى المفاهيم المتعلقة بالصواب والخطأ وبالمسئولية الفردية، وشجع ضمنياً على الإنحراف بكل أبعاده.

٣- وينسبه "فرانسيس فوكوياما"، فى كتاب جديد بعنوان "الإنهيار العظيم"، إلى ثورة المعلومات والاتصالات، رغم ما فيها من خير وحسنات. فهو يرى أن المجتمع الجديد القائم على المعلومات نزع إلى انتهاج المزيد من الحرية والمساواة، فتفجرت بالتالى حرية الإختيار، وذلك على خلاف المجتمع التقليدى الذى كان الشخص يتمتع فيه بقليل من الخيارات، تنحصر فى إختيار شريك الحياة والوظيفة ومكان المعيشة، وتحكمه فى الوقت نفسه الأواصر القيمية للأسرة والجماعة والدين وما إليها. واستفادت المرأة كثيراً من هذا المناخ، بعدما حققت الكثير بثورتها النسائية والجنسية فى الستينيات والسبعينيات،

(*) للمزيد عن تأثير هذا "العقد" على سلوكيات المجتمع، أنظر صفحة ٢٠٩.

الداعيتين لمزيد من حقوق المرأة والحرية الجنسية . فقد مكنتها الثورة التكنولوچية من دخول سوق العمل والمنافسة فيه ، ومن تراكم خبراتها وزيادة دخلها حتى فاق دخل الرجل فى بعض الحالات . وقدمت لها أيضاً حبوب منع الحمل التى حررتها من مخاوف الحمل خارج الزواج ، فتضاءلت قدسية الزواج وإنهارت العلاقات الأسرية . وقدمت الإنترنت للناس بديلاً إجتماعياً يتيح لهم الاتصال بالآخرين من كل مكان ، وإقامة إتصالات وعلاقات وفقاً للمصلحة أو السياسة المشتركة ، دون أية إرتباطات شخصية وجهاً لوجه ، مما أدى إلى تخلخل أواصر العلاقات الإنسانية ، وتفشى الفردية المفرطة التى أخذت صورة الأنانية الفجة المنغلقة ، التى قدمت الفردى والشخصى على مصالح المجموع . وصارت الحرية الشخصية المبالغ فيها غاية فى حد ذاتها دونما إعتبار للمسئولية تجاه الآخرين .

- ٧ -

وما يهمنا بعد هذا العرض الطويل هو محاولة إكتشاف المقتربات السليمة لبناء علاقة متوازنة وقوية مع هذه الدولة الأعظم التى لنا معها مصالح متشابكة ومعقدة وهامة وذات طابع استراتيچى ، وأوراق قضيتنا الفلسطينية فى يدها بنسبة ٩٩٪ كما قال رئيسنا الراحل أنور السادات ، بحيث يستقر الفهم المتبادل ، ويتحقق لنا أقصى ما نصبو إليه من طموحات قومية . ونحن نصيب كبد الحقيقة لو قلنا إن طريقنا إلى قلب أمريكا وعقلها هو الشعب أو الإنسان الأمريكى العادى ، الذى يستطيع أن يؤثر إلى حد كبير على نظام الحكم فى بلاده عن طريق صوته الذى يلقى به فى صناديق الإقتراع :

- فصانع القرار ، سواء فى الإدارة أو فى الكونجرس ، يأخذ فى إعتباره ، عند صياغة قراراته ، توجهات ورغبات الرأى العام الأمريكى ، الذى يتكون من القاعدة الشعبية العريضة من جماهير الإنسان العادى .

- والمجتمع الأمريكى - كما يقال - مجتمع مفتوح ومنفتح ، وهو قارئ جيد ومستمع يقظ ، ويحب أن يعرف ، خاصة فى العقود الأخيرة من القرن العشرين ، ويسعى إلى المعرفة من مصادرها الأولى . والذين درسوا فى جامعات أمريكا يعرفون مدى إهتمام الأندية والمؤسسات الثقافية والكنائس وغيرها بدعوتهم لإلقاء المحاضرات عن بلادهم

وقضاياها، إشباعاً لرغبة جمهورها الذى يسأل بحثاً عن الحقيقة، ويشجع على الحوار وتبادل الآراء، فى جو بعيد عن التشنج والضغوط، ويكره "لى الذراع" بحكم كونه مفطوراً على حب الحرية والاستقلالية، ويقدس الفردية التى تعنى أن الرجال والنساء ليسوا إلا أنفسهم عندما يتحدثون بحرية عما فى عقولهم ويكوّنون أحكاماً مستقلة(٧٤).

- والمواطن الأمريكى العادى «إنسان واضح التفكير، وعلى المستوى الأخلاقى الفردى من أرقى الناس خلقاً، وأكثرهم طيبة واستقامة»(٧٥). وهو ودود، على سجيته، وإن كان ينقصه شئ من ذلاقة الأوروبى الغربى وصقله وحذلقته. وهو يميل إلى الثقة فى الناس وإلى تصديق ما يقوله له الذى يثق به. وهذه الصفات هى التى هيأت النجاح للدعايات اليهودية خاصة إذا ما استغلت ميله إلى المسائل الدينية، التى حظيت بإهتمامه منذ وطئت قدمه الأرض الجديدة.
- والأمريكى القح، حفيد الآباء المؤسسين، يبدو وكأنه "صعيدى دولى"، فيه رجولة وخشونة "حمش" ويهتم بالأخلاقيات وصور الشهامة. ومن المتداول أن الجنوب الأمريكى، كجنوب بلادنا، يتميز رجاله بالحماس والحمية وسرعة الغضب والاهتياج، ويميلون إلى تصفية حساباتهم وثأرياتهم بأنفسهم.

---

(٧٤) فى مقال بعنوان "جولة فى عقل شريحة من الأمريكيين" (الأهرام ٢٠/٨/ ٢٠٠٠)، سجلت الكاتبة السيدة "أمينة شفيق" ملاحظاتها عن مؤتمر لنساء الكنيسة المشيخية الأمريكية، عقد فى ولاية كنتاكى بأمريكا، ودعيت إليه، وحضرته خمسة آلاف إمرأة، مدرسات وطبيبات وممرضات وإداريات وعاملات عاديات، «نساء وأسر كنائسنا وأسرنا، متعاطفين مع بعضهم، محبين للخير، محافظين على الخلق والأخلاق، يحتفظون بأبنائهم فى الجوار القريب، لا ينقطعون عن التوجه إلى الأحفاد، ينظمون الدعوات العائلية ليجمعوا الأبناء والأحفاد حول مائدة طعام مرة أو مرتين كل شهر». ومرت أثناء المؤتمر أوراق تُجمع عليها توقيعات المؤتمرات، تتضمن مطلباً لهن يُرفع إلى الكونجرس الأمريكى والرئيس كليتون والسكرتير العام للأمم المتحدة، والمطلب خاص بإسقاط الديون عن الدول الفقيرة.

وأمكن للكاتبة أن تطلع على قرارات سابقة لمؤتمر هذه الكنيسة خاصة بعدد من قضايا الشرق الأوسط: القضية الفلسطينية والقدس والمستوطنات واللاجئين، وقضية الحصار المفروض على بعض البلدان وخاصة العراق، وقضية أسلحة الدمار الشامل ونزع السلاح وغيرها. وعلقت عليها الكاتبة بقولها: «كانت جولة مختصرة فى تفكير هذه الشريحة من المواطنين الأمريكيين. وهى جولة تظهر التمايز فى هذه القضايا المطروحة. وهو تمايز قد لا نتفق معه مائة فى المائة، ولكنه تمايز يتجاوز المطروح رسمياً فى بلدان عديدة، منها بلدان فى الشرق الأوسط ذاته. فكم من البلدان الشرق أوسطية أو منظماتها ترفع صوتها منادية برفع الحصار عن شعب العراق، أو كاشفة الأسرار البترولية وإنفاقاتها العسكرية غير التنموية. أو حتى المطالبة بحجب الإعانات الأمريكية عن إسرائيل فى حالة استمرارها فى التوسيع فى المستوطنات؟».

(٧٥) عن مقال للكاتب الأستاذ رجاء النقاش "أخلاق أمريكانى" (جريدة الأهرام ٢٦/ ٥/ ١٩٩٧).

والقول الذى يتردد بيننا أن أرض المعركة حول قضية الشرق الأوسط هى فى وشنطن مثلما هى فى منطقتنا ، وأن حسم الصراع على أرضية المجتمع الأمريكى مقدمة لحسمه فى أرض الواقع ، قول فيه كثير من الصحة ، ويتقرر داخل الرأى العام الأمريكى ، الذى يمكن النفاذ إليه بالرأى والحجة ، ومخاطبة عقله بالاستعانة بكل وسائل الاتصال وما أكثرها ، وما أعظم تطورها الآن .

ونحن نشكو عن حق من تحيز الإدارة الأمريكية لإسرائيل . وواجبنا أن نسأل أنفسنا سؤالاً بسيطاً ساذجاً وهو : هل نام الشعب الأمريكى ليلته واستيقظ فى الصباح فإذا به يتكلم "عبرياً" ، ويتلعثم بشدة لو حاول لفظاً عربياً؟ ! وهل هو كله ، عن بكرة أبيه ، متحيز لإسرائيل كأنه مسلوب الإرادة لها ، أو كأنه قطيع من الدواب؟ فإذا كان الجواب "بلا" فمعنى هذا أن أمامنا عملاً ضخماً ينبغى القيام به ، وفى الحال .

ونحن فى المقام الأول بحاجة إلى التسلح بالثقة فى النفس ، والتخلص من التصور الذى استقر فى الأذهان من أن إنحياز أمريكا لإسرائيل هو بمثابة حالة مرضية لا شفاء منها ، وأن اللوبى اليهودى "أرمادا" لا تقهر .

فقوة هذا اللوبى تعود ، من جهة ، إلى وجوده فى الساحة الأمريكية منذ أكثر من قرن ، وقد دخل نسيج المجتمع من خلال نشاطه الاجتماعى والثقافى والاقتصادى الواسع . وتسرب إلى عصب الرأى العام الحساس ونفذ إلى قياداته ، ووطد علاقاته به . ونجح فى فهم المجتمع الأمريكى والتعامل الواعى مع آلياته السياسية والديمقراطية والاقتصادية والإعلامية . ويخاطبه بشكل يومى . وقد أقنعه بولائه وإهتمامه بقضاياه . وسانده طوال سنى الحرب الباردة . وتجسس لحسابه . وتآمر لصالحه ضد الشيوعية "بعبعه الكبير" بينما نجح السوڤييت فى تفويت الفرصة على العالم العربى لإقامة علاقة استراتيچية معه فى الوقت المناسب .

لقد تواءم قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ مع نذر الحرب الباردة تلبد سماء العالم ، وكان على أمريكا أن تبحث عن حليف يعول عليه فى المنطقة ، ووجدت ضالتها فى إسرائيل التى تحولت تدريجياً إلى قاعدة متقدمة لخدمة مصالحها ، ودعمتها بالسلاح سنة بعد أخرى حتى صارت قوة ضاربة مخيفة تعتمد عليها إعتماداً كلياً فى صراعها مع الإتحاد السوڤييتى

القديم. ومازالت تقوم بهذا الدور، حتى بعد سقوط الإتحاد، لأنها قدمت نفسها، بحكم موقعها فى أغنى مناطق العالم بترولياً، كحليف يعول عليه وأهل للثقة، وقاعدة صلبة لها وسط عالم عربى أشبه بالرمال المتحركة ولا يمكن الركون إليه.

وأدى ظهور التطرف الإسلامى إلى رد فعل مماثل فى بعض الأوساط المسيحية، خاصة وسط اليمين المسيحى الأمريكى، وتدعم هذا الوضع بتفاقم تيار الإرهاب، وانتهزت الصهيونية الفرصة لتغذى مخاوف هذه الأوساط، واستطاعت من خلال أطروحات دينية تتعلق بالمجئ الثانى للسيد المسيح أن تخلط الأوراق، وأن تخلق إنتهازية سياسية فى الوسط المسيحى، لا صلة لها فى الواقع بأركان التعليم المسيحى، مهمتها التصدى لما يشار إليه بالمد الإسلامى والعنف الإسلامى. وهكذا ربح اللوبى حليفاً يحقق من خلاله أهدافه.

وفى ميدان ضخم، من شارع برودواى بنيويورك، يقوم تمثال لـ "جولدا مائير"، رئيسة وزرائها السابقة، مع كلمات محفورة على جدرانه تخلد ذكراها وتشيد "بمآثرها" على أمريكا. وما أظن أن أمريكا هذه تنحاز لإسرائيل إنحيازاً أعمى، كما يتردد فى منطقتنا، فهى ليست بهذا الغباء. إنها إنما تنحاز لنفسها ولمصالحها التى تحميها لها إسرائيل، وتدفع لها الثمن شأن أى عميل. ويوم تجد حليفاً أفضل، أو تختفى حاجاتها لمثل هذا الحليف، فسوف يتغير الوضع ويتضاءل هذا الإنحياز بحكم البراجماتية الأمريكية.

ثم أن اللوبى اليهودى هو الذى صنع أسطورة قوته من خلال سمعة قوية بناها لنفسه عبر فترة زمنية طويلة، دأب خلالها على تأكيد سعة نفوذه، ونجح كثيراً فى التقليل من إخفاقاته أو هزائمه. ودعمناها له حين غزا إدراكنا وصرنا نردد مقولاته ونؤكد نجاحاته.

وهو قد ولج باباً مفتوحاً أمام الجميع، أى الضغط السياسى الذى يعتبر مفهوماً محورياً فى الثقافة السياسية، يشجعه الدستور وتمارسه كل الأطراف، ويكاد يفوق فى تأثيره الأحزاب الرئيسية فى ضغطها على مطبخ القرار، لدرجة أن العقلاء من الأمريكيين يجأرون الآن بالشكوى والتخوف من أن تنزلق حكومتهم فتعمل فى خدمة جماعات الضغط، أو المصالح الخاصة، أكثر مما تعمل للمصالح العامة، مما يؤثر على صناعة القرار السياسى الأمريكى.

ومعنى ذلك أنه لا يجوز لأى صاحب مصلحة فى الساحة الأمريكية أن يغيب عن لعبة الضغط متوهماً أن مصالحه ستُراعى وتتحقق على أساس من عدالتها أو المبادئ العامة . بل عليه أن يدخل حلبة المنافسة مع الداخلين فيها ، وهم من كل لون وجنس ، مؤهلاً تماماً وجاهزاً بالمال والعمل والتخطيط السليم كى يصل صوته للشعب الأمريكى ، ويوصل إليه المعلومة بشكل مقبول وسهل ومقنع ، خاصة وأن الفرد الأمريكى قد عودته وسائل إعلامه على عدم إجهاد نفسه .

ومن العجيب أن الرئيس كلينتون ، أثناء حضوره المؤتمر السنوى للمعهد العربى الأمريكى (أبريل ٢٠٠٠) ، حث العرب فى كلمته على الاستفادة من الحريات التى يمنحها النظام السياسى الأمريكى من خلال التنظيم . كما أن الأمريكيين أنفسهم يقولون إن التأثير الإسرائيلى على السياسة الأمريكية يمكن أن يوازنه نفوذ عربى فقط عندما يصبح للعرب (الأمريكيين من أصل عربى ويقارب عددهم سبعة ملايين) نفس التأثير اليهودى .

ومن المسلم به أن معركة الرأى العام هى أهم المعارك على الإطلاق ، بسبب طبيعة آليات صنع السياسة الأمريكية . وكسبها يتطلب جدية ومثابرة ، وعملاً شاقاً طويل الأمد لتغذية الإنطباعات الإيجابية نحو مصر ، والموجودة فعلاً فى العقل الأمريكى الجمعى .

ومما يبعث على الأمل أن عملية البحث فى الذات تتسع بيننا . وقد برز إتجاه بين مفكرينا وكتّابنا يدعو إلى العمل على كسب الرأى العام الأمريكى . ويعتبر فهم أمريكا من الداخل ، فهماً عملياً دقيقاً ، مهمة وطنية واجبة الأداء . لم يعد يكتفى بالنقد والتنديد أو الشجب والسب ، بل يتلمس الخطوات العملية السليمة نحو موقع قدم ثابت فى الأرض الأمريكية .

- وهو يدعو إلى أن يقوم التعامل مع الحكومة الأمريكية دوماً على أساس من التاريخية والموضوعية ، وتبادل المصالح ذات الوزن ، وضبط الإنتقادات . فالسياسة الأمريكية ، منذ نشأة الدولة ، تتسم بطبيعة لا تهتم بشئ إلا بالمصلحة والمنفعة العملية ، وتعرف بالبراجماتية . وليس لها أصدقاء أو أعداء دائمين ، زعماء كانوا أو أنظمة ، فمواقفها منهم تتغير وتتبدل ، أحياناً إلى النقيض ، وبصورة مفاجئة أحايين كثيرة ، تبعاً لإتجاه المصلحة أو المنفعة التى يتم تحديدها وتقييمها فى دوائر متعددة ، تحكمها ضوابط

صارمة، وأحياناً تكون متضاربة، من الرئاسة إلى البيت الأبيض والكونجرس والبنتاجون والـ CIA، والإعتبارات الحزبية، واستطلاعات الرأى العام، والمؤسسة The Establish-ment التى هى قوى هائلة أغلبها إقتصادية، ولها فلسفة سياسية وفكر إجتماعى تريد لهما السيادة[٧٦].

ومهما يكن الأمر فللولايات المتحدة لدينا مصالح ضخمة إقتصادية ومالية وتجارية طويلة المدى، ينبغى أن يعرفها الرأى العام الأمريكى، ويعرف المناخ المناسب لإزدهارها أو العكس، كى يدخلها فى حساباته، ويتخذ المواقف التى تؤثر على حكومته من أجل حماية هذه المصالح التى هى فى الواقع مصالحه. كما أن هناك مصالح عليا وحيوية للبلاد العربية يجب تحديدها وتوضيح حقها فى حمايتها. ولمصر عند الولايات المتحدة مصالح حيوية تتطلب وجود علاقة مشاركة مستقرة، وهى مطالبة الآن أن تكون شريكاً حقيقياً فى بناء وتقدم التكنولوچيا فى ربوعها.

– ويؤكد أن العمل داخل الرأى العام الأمريكى يتطلب وجود إعلام عربى قوى مؤثر، طال إنتظاره، يعمل بأسلوب علمى عقلانى مدروس، بعيداً عن الإنفعال والعصبية التى تفقدنا الكثير فى مضمار العلاقات عموماً، وفى أمريكا خصوصاً، حيث يتميز اللوبى اليهودى ببرود الأعصاب وشدة الدهاء وسعة الحيلة. على أن يقوم المجتمع المدنى بدعم هذا الإعلام على المستوى غير الرسمى والفكرى.

– ويعمل أيضاً على خلق تجمعات مؤيدة داخل الولايات المتحدة، تناصر الموقف العربى، وتكون قادرة على ممارسة الضغوط على الإدارة الأمريكية، ومقاومة اللوبى

---

(٧٦) فالسياسة الخارجية الأمريكية هى نتيجة تفاعل ومساومات بين كل هذه القوى، بجانب التوازن بين متطلبات التجمعات الأثنية المختلفة وإن كان ينسب إليها أحياناً قلة دهاءها أو "سذاجتها"، وإفتقارها للعراقة الدبلوماسية التى تُعرف بها ديمقراطيات الغرب الأوروبى. إلى جانب شئ من مزاج "راعى البقر" العضلاتى التلقائى. وربما بتأثير "العرافين والمنجمين" أيضاً. وتشير بعض الدراسات الجادة إلى أن السياسة الخارجية لأمريكا، خاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، يتجاذبها إعتباران أساسيان، أحدهما ينتمى إلى نوع من المثالية يسعى إلى مساندة قوى العالم القادرة على إحداث تطور تنموى فى مجتمعاتها، بما فى ذلك التنمية الإقتصادية والتقدم الديمقراطى. والآخر براجماتى نفعى يلبى المصالح الآنية لمؤسساتها الإقتصادية ذات الوزن السياسى الثقيل، والتأثير البالغ على صناعة القرار السياسى. ويؤدى هذا التجاذب إلى التأرجح والتضارب فى سياستها، والتصرف كمن يكيل بمكيالين.

اليهودى داخل كل دوائرها . وتضم هذه التجمعات ، بين من تضم ، العرب الأمريكيين الذين ينبغى تدعيم أواصر العلاقات معهم ، وربطهم بشبكة إتصالات قوية ليكونوا دائماً على علم بالتطورات ومجريات الأمور ، مع تفعيل دورهم بالتمويل والمساندة المعنوية . كما تضم شخصيات دبلوماسية عربية لها مكانتها لدى المؤسسات التشريعية والتنفيذية ، ولديها القدرة والخبرة على مخاطبة العقل الأمريكى . إلى جانب قيادات وشخصيات أمريكية صديقة ، لها صلات وإرتباطات بالشعوب العربية ، وتهتم بالعلاقات العربية وتوثيقها مع الشعب الأمريكى .

ويتطلب هذا كله جهداً عربياً شاملاً ومشتركاً من خلال أنشطة المكاتب الإعلامية والثقافية ، التى تؤسسها الدول العربية بقدرات وكفاءات بشرية متميزة تملك اللغة ، ومتمرسة على الإتصال الإعلامى ، ويجرى التنسيق بينها بآلية متفق عليها ، أو بإشراف مجلس يرسم ويباشر استراتيجة إعلامية موحدة ، تضمن الإنتشار والتغطية للساحة الأمريكية .

ويأتى قيام " مجلس العلاقات المصرى – الأمريكى " ، فى ٢٤ مارس ٢٠٠٠ ، كمنظمة أهلية (غير حكومية) ، خطوة فى الطريق الصحيح ، وإن جاءت متأخرة . وهو بحكم تشكيله من خبرات متنوعة فى كافة المجالات ، وجمعه لشخصيات مصرية وأمريكية لها دراية واسعة بتقاليد وعادات المجتمعين المصرى والأمريكى ، مؤهل لأن يلعب دوراً مهماً فى تنمية علاقات الشعبين وخدمة القضايا العربية . ومما يساعد على التحرك والنشاط والإتصال إنفتاحية المجتمع الأمريكى ، والشفافية التى تحكم الحياة العامة فيه[٧٧] .

---

(٧٧) ويتردد الآن ، وإنتخابات الرئاسة الأمريكية لعام ٢٠٠٠ جارية ، أن الصوت العربى حقق لنفسه بعض الوزن ، وقد يكون له تأثيره – ربما لأول مرة – فى ترجيح كفة مرشح على آخر .

نور الكون



- ١ -

يدرك **سان** أن القرن الجديد، والذى نبدأ به الألفية الثالثة بعد الميلاد، يحمل تحديات كبار لمصر، يكتنفها مزيج من المخاطر ومن الأمل. وقد تنبهت شعوب فى الغرب والشرق لمقدمه منذ مدة تزيد على العقدين، وذلك بالبحث والدرس، لتحسبها للتحولات الخطيرة السريعة الإيقاع التى يحملها معه للعالم وشعوبه. وتجمعت لديها خبرات مكنتها من ركوب موجة التغيير القادم، ومن وضعها فى موقع الاستعداد لإنطلاقات أكبر.

ولأن الأفكار هى دينامو التغيير، والمعرفة هي الطاقة المتجددة وقوة الدفع إليه، فقد تأسست مراكز للدرسات، وللدراسات المستقبلية بالذات. وعقدت الندوات، ونظمت ورش العمل، وكانت الحصيلة دراسات وكتباً تحمل العديد من الرؤى، وترسم الكثير من الخرائط لعالم الغد، وتوضح علامات المرور فيه نحو النهوض والتفوق. كما تعلّم لغته ورموزه وأساليب تفكيره، بإعتباره مقبلاً على ثورة عارمة - هى الثورة الرابعة - ثورة معلوماتية ومعرفية خارقة.

وقد لحقت مصر بهذا الركب مؤخراً، وإن كانت طلائع التنوير ورواد النهضة الحديثة مهدوا له منذ القرن الماضى بأفكار رجال مثل الشيخ رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك والإمام محمد عبده[١]. وإمتدت فى النصف الأول من القرن العشرين بالملاحم الفكرية لطه حسين وأنداده، وجمهور من شباب المفكرين ورواد الثقافة المصرية الحديثة، وكتاب مستقبليين أمثال فرح أنطون وسلامه موسى. فتحددت الشخصية المصرية بملامح من التسامح والوسطية، والقدرة على الإنفتاح على الآخر، والتقويم الأخلاقى للسلوك، والتركيز على الجوانب المعنوية وليست المادية فى تحديد المكانة، والنزوع المتزايد إلى العقلانية.

---

(١) إن قائمة الذين أضاءوا تاريخنا بأنوار العقل واستنارة القلب، وصنعوا اليقظة فى مصر، طويلة تضم المئات أمثال البارودى والنديم وقاسم أمين والمنفلوطى ولطفى السيد وطه حسين والعقاد وسعد زغلول ود. هيكل ومصطفى عبد الرازق وتوفيق الحكيم، وغيرهم ممن آمنوا بالحوار مع الثقافات، وإنتفاء الخصومة المفتعلة بين العلم والدين، والتأكيد على الحرية والديمقراطية والعدالة الإجتماعية، والإنطلاق الحضارى فى كافة مجالات الحياة.

ولما إنتصف القرن جاءت "حركة الجيش عام ١٩٥٢" كعامل تنبيه وإيقاظ هيأ لمصر منعطفاً تاريخياً جديداً. وهكذا توافرت روافد كثيرة لتصوغ نهضة مصر المعاصرة، واستطاع المجتمع المصرى أن يكوّن له أطرا ثقافية ووطنية تدعمه وتحميه، وأن يضيف من خلال مفكريه ومثقفيه مزيداً من قوة الدفع حقبة بعد حقبة[٢].

وتدعم هذا كله بالجغرافيا. فمصر تقع على مفترق طرق عالمية، كنقطة إلتقاء لليابس والماء، يؤهلها لأن تكون نقطة إلتقاء لمختلف الأفكار والتيارات التى يعج بها العالم. ونقطة إلتقاط سريعة للمؤشرات المؤثرة فى التحرك العالمى، وفى حركة التاريخ، وللتيارات السياسية والإجتماعية والفكرية التى تحدد هذه الحركة[٣]. وإن كانت حصيلة ما التقطته جدير بالتقييم وإعادة الاكتشاف. ويفرض هذا على المثقفين اليوم واجب إبداع خطاب متجدد يصادق الواقع ويحلق فى أفق الحلم ونحو المستقبل، على أن يجنب

---

(٢) قامت فى مصر حركة علمية من أوائل القرن التاسع عشر تدعمت بإدارة الترجمة، التى إنشأها محمد على وجعلها تتبع ديوانه مباشرة، ورأسها الشيخ رفاعة الطهطاوى، وتمت ترجمة ألفى كتاب على مرحلتين فى أمهات العلوم الطبيعية والإقتصاد والجغرافيا والتاريخ، ثم فى الطب والصيدلة والهندسة والزراعة والرى والفلك وغيرها، عن مصادر فرنسية وألمانية وإيطالية وأسبانية وإنجليزية وروسية. وإزدهرت هذه الحركة فى عصر إسماعيل، فإنتشرت المدارس، والصحافة، ونشط المسرح، وترجمت العلوم. وأنشئت أول جامعة فى بداية القرن العشرين، ثم توالت الجامعات، التى غدت مع الأزهر الشريف قبلة الطلاب من سائر العالم العربى والإسلامى. وصارت لمصر الريادة فى مجالات الآداب والفنون حيث نشطت حركة لترجمة الإبداع الأدبى والفكرى لمع فيها لطفى السيد وطه حسين وغيرهما، وكانت من أوائل الدول التى ظهرت فيها صناعة السينما، والأولى إقليمياً فى الإذاعة والتلفزة. وإتسع نطاق التطور العلمى والأكاديمى، وأنشئت مراكز البحوث المختلفة، يقترب عددها من الثمانين مركزاً وهيئة فى الوزارات المختلفة، إلى جانب أكاديمية البحث، والمركز القومى للبحوث، ومدينة مبارك للبحوث العلمية والتطبيقات التكنولوجية. وإن كانت تحتاج جميعها إلى خلق رابطة أو خطة مشتركة توحد من جهودها نحو أهداف واضحة ومحددة لخدمة قضايا التنمية والنهضة القومية.

- ومنذ عقود قليلة بدأت جهود أكاديمية لاستشراف مستقبل مصر، منها مشروع بحثى بمعهد التخطيط القومى عن "مصر والقرن الحادى والعشرين"، دارت حوله مناقشات شتى بين النخبة المصرية المثقفة. وبعده بسنوات استضافت وزارة التخطيط مجموعة من الباحثين والمثقفين لدراسة ومناقشة "مستقبل مصر فى القرن الحادى والعشرين". ويقوم "منتدى العالم الثالث" بالقاهرة، برئاسة د. إسماعيل صبرى عبد الله، بجهد علمى متميز فى هذا المجال، بعقد الندوات والدراسات حول مصر والقرن الحادى والعشرين.

(٣) وكما يقول د. مصطفى الفقى، ظلت مصر قلعة للثقافة العربية الإسلامية، وبوتقة تنصهر على أرضها الحضارات وتلتقى فوقها التيارات الفكرية المختلفة، وبقيت دائماً حافظة للتراث، حامية للقيم، حاضنة لأصحاب الرأى وطلاب الحرية ... فقد استقبلت القادمين من الشام الكبير، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، الذين وفدوا طلباً للحماية والحرية فى ظل الدور المصرى الرائد ولكى يسهموا على أرضه فى بناء الصحافة والمسرح والسينما وغيرها من الآداب والمعارف والفنون (الأهرام ٢١/ ٣/ ٢٠٠٠ ص ٣٠).

الجماهير من التعلق بآمال زائفة تحبط وتدمر لدى إنكشافها. ولا جدال فى أن الإبداع وشجاعة المبدعين شرطان أساسيان لاستمرار أى تطور إنسانى. فالشجاعة الخلاقة تؤدى إلى إكتشاف أشكال جديدة ونماذج ورموز مبتكرة تشكّل القاعدة لتشييد المجتمع الجديد.

على أن **سان**، بواقعيته وحسه الشعبى، تخوف من أن مثلاً شعبياً واحداً من أمثالنا "المجيدة"، يستطيع أن يلغى تأثير كل هذه العوامل، ويكبّل حركة وطننا. فمن الأمثلة المحببة لدى جمهور عريض منا، مثل "قاتل" ينصحنا «إمش سنة ولا تعدى قنا (قناة)»[٤]، رغم أن السنة يمكن إختزالها فى ثانية بمجرد "قفزة" لحاجز القناة، وهى واحدة من القنوات التى تمتد كالشبكة فى حقولنا الزراعية. ولكن القفزة هذه تحتاج إلى تدريب، وتحتاج إلى جرأة وقوة إندفاع. وكأن موروثنا العريق يزوّق لنا الترهل والتخاذل، ويزين لنا حكمة الجبن والتراجع عن "القفزة" فوق المواقع، ونحو المجهول أو إلى الأمام. وهو يعتمد، فى نصيحته الغالية هذه، على أن السنة، والتى تزيد على ثلاثة ملايين ثانية "متوفرة" وبسعر التراب، ولا داعى لمقايضتها بثانية واحدة قد تتسبب فى كسر الأرجل أو دق الأعناق. وبهذا يتحقق لنا مثل آخر يقول «من يومك ياخالة وأنت على دى الحالة». مع أننا تراثياً تعلمنا أن الوقت من ذهب. ونعرف اليوم، أكثر من أى وقت مضى، أن الوقت من الموارد المهمة والأساسية، شأن غيره من الموارد، كالماء والمعادن مثلاً. ولابد من التعامل معه واستخدامه بالأسلوب العلمى، كغيره من الموارد الثمينة، وإن كان يتميز عنها فى كونه مورداً نادراً لا يمكن تجميعه أو تخزينه، وما يمضى منه لا يعود مما يجعله من أنفس الموارد حقاً.

ويتساءل **سان** عما إذا كان الموقف اليوم يتحمل حكمتنا الغالية القائلة «كل تأخيرة وفيها خيرة»، فى وقت تجرنا فيه أية "تأخيرة" إلى خارج نطاق جاذبية كوكبنا الذى دخل القرن الحادى والعشرين. ذلك أن القضية هى قضية القدرة على استثمار الوقت الذى أصبح اليوم أغلى سلعة، وأقوى مهماز يدفع الشعوب أو يحثها ويمكنها من القفز نحو

---

(٤) يدعمه مثل عريق آخر يقول «فى التأنى السلامة، وفى العجلة الندامة»، مع صديق عمره الغالى «يا مستعجل عوقك الله».

المستقبل. فنحن نتحرك من عالم يأكل فيه الكبير الصغير إلى عالم يأكل فيه السريع البطئ، كما يقول كل من "كلاوس شواب" رئيس المنتدى الاقتصادى العالمى وتوماس فريدمان. والذين زاروا أمريكا فى الخمسينيات "صدمتهم" السرعة التى يتحرك بها الناس فى الشارع وفى كل مكان. فالكل يهرول كأن وراءه رجل شرطة أو مطالب بدين. لا وقت للكلام أو التسكع على الأرصفة. وحتى التحيات إختصرت إلى أقل القليل، إلى Hidi (إختصار أقصر تحية عادية How do you do). وهذه صورة من صور "إفتداء"[(٥)] الوقت، والحرص على عدم تبديده، لندرته وإرتفاع قيمته فى مجتمع ما بعد الصناعة. أما الآن، وبعد مرور قرابة نصف قرن، فزائروها يأخذهم الذهول، وقد بدا لهم كل شئ وكأنه يسير ويتطور بسرعة الفيمتو ثانية!.

وهناك مثل آخر يمكن ترجمته إلى أكبر "معطل" للتنمية والنهضة، لأن مضمونه يثبط همة الفرد عن تطوير إمكاناته وقدراته وحظوظه. فهو يقول «رزق نازل من السماء من خرم إبرة جه يوسعه سده». ويدعمه مثل آخر عزيز الجانب «قيراط بخت ولا فدان شطارة». ومع أن السماء لا تمطر خبزاً ولا ذهباً، وزمن سقوط "المن والسلوى" من فوق قد مضى وولى، إلا أننا مازلنا نلتمس الجلوس تحت النخلة ننتظر التمر الجنىّ يسقط مباشرة فى أفواهنا، ولا نكلف أنفسنا عناء هزها بدعوى أن التمر قد يتطاير إلى "أعلى" فلا يستقر فى أيدينا. مع أن هناك مثلاً آخر يتسم بالحكمة، يحمل تحذيراً "للمبلّطين فى الخط"، والجالسين القرفصاء تحت الشجر، بقوله «طول ما هو ع الحصيرة ما يشوف طويلة ولا قصيرة». ومن مظاهر "تبليطنا فى الخط" موقفنا من قضية **الأمية**، التى تمرح فى رحابنا مثل هذه الأمثال وتسيطر بتأثيراتها. فقد إنقضى قرن من مائة سنة (٣٦٫٥٢٥ يوماً)، ونحن نتغنى بمحاولات القضاء عليها، بينما هى فى تزايد. وهى نفس المشكلة التى قضت عليها كوبا فى سنة (غير كبيسة)، ولم تعرفها كوريا الجنوبية منذ مائة عام!.

وهذه الأمثال وغيرها جزء من تراثنا الشعبى ومجتمعنا الزراعى تعتز به شرائح عريضة من شعبنا. ويجدر بنا ألا ننخدع بسذاجة هذه الأمثال أو براءتها، كأنه لا خطر منها، إذ

---

(٥) تعبير إنجيلى: مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة (أف ٥: ١٦).

أنها، شأن الخرافات، قادرة على الترسب فى اللاوعى، والكمون فيه، لتصير مصدراً من مصادر توجيه الوعى[٦]، أو بالأحرى تشويشه، أو التشويش على بوصلة مساره.

بل إن تداول هذا اللون من الثقافة الشعبية، فى مجتمع تصل تقديرات الأمية فيه إلى حوالى ٤٠٪، يدل على "ثنائية" معرفية فى العقل المصرى. فالواضح، بل الثابت أن مجتمعنا دخل طور المجتمع الصناعى ومعه كثير مما كان سائداً فى المجتمع الزراعى من عادات، ومن تقاليد إكتساب المعرفة وتداولها، وهى فى مجملها تركن إلى السكون، وتجافى روح الحركة والتجديد، مما لا يساعد العقل المصرى على استكمال المقومات المعرفية للمجتمع الصناعى. وبات اليوم يواجه مأزقاً أصعب وقد اقتحم عالمه مجتمع المعلومات المعقد وما يتطلبه من القدرة على الإنتاج المعرفى المنتظم، العلمى والتكنولوچى، وعلى تخزينه واسترجاعه. واستخدامه بروح الإبتكار والتجديد فى مجالات التنمية الشاملة والتقدم الإنسانى. وهو مجتمع عالمى يجرى فيه الربط بين المعلومات فى مختلف بلاد العالم، فالإتصال الثقافى بات على مستوى العالم، وسيسود نموذجه القرن الحادى والعشرين، ويقوم إقتصاده على المعرفة الشاملة التى ستكون أساس إتخاذ القرارات. ويُخاف أن يرتد العقل إلى الماضى، فى مواجهة هذا المأزق/ الفجوة[٧] المعرفية، إما تمرداً عليها أو عجزاً عن سدها واللحاق بتيار التطور، فيقوى استمساكه

---

(٦) «قل لى كيف تفكر، أقول لك ماذا ستكون وما هو مصيرك». هذه مقولة صحيحة. فى كتابه "من همومنا التربوية والثقافية"، يسوق د. حامد عمار صوراً من صور التفكير التى لا تتسم بالعلمية والنقد، والتى تؤثر بالسلب على مسيرة مجتمعنا. ومنها التفكير من خلال الزمن، من خلال حكمتنا **«سيبها للوقت»**، بما يعنى "المطوحة"، على أساس أن الزمن كفيل بإيجاد حل المشكلة. فهى قد تحل نفسها، أو تنتهى إلى النسيان. مثل قصة جحا الذى قَبِل تنفيذ طلب السلطان تعليم حماره القراءة والكتابة فى خلال سنة. وإعتمد جحا على حدوث واحد من ثلاثة: أن يموت هو، أو يموت الحمار، أو يموت السلطان قبل إنقضاء السنة! . ومنها أيضاً التفكير من خلال **الهرب** بتجميل الواقع، أو المقارنة بالغير الأقل حظاً، حتى لا يواجه الواقع مواجهة صريحة صحيحة. أو التفكير من خلال الاسقاط على الخارج، وهو تبرير أى فشل بعوامل خارجية.

(٧) وتتمثل هذه الفجوة فى عدم تزامن التغيير الثقافى المعنوى، أو السلوكى كالقيم والتقاليد، مع التغيير الثقافى المادى. فقد يمتلك المرء العديد من الأجهزة والآلات الحديثة، سواء فى المنازل والمكاتب أو المصانع والمزارع ولكن تصرفه بها ومعها يفتقر إلى السلوكيات الصحيحة المرتبطة بها، ومثال ذلك سلوكياتنا بالنسبة للراديو والتلفاز اللذين باتا مصدر إزعاج وإقلاق للآخرين. وشراء مؤسساتنا مئات الأجهزة بمئات الملايين من الجنيهات، وتركها فى العراء أو فى المخازن كجثث من المعادن والزجاج، لغياب الكوادر العلمية ذات الثقافة المعنوية القادرة على تشغيلها التشغيل الأمثل، وعلى صيانتها. أو بناء مصنع وتركه مغلقاً دون تشغيل لسنوات لعدم وجود إعتمادات لشراء جهاز أو آلة لازمة لتشغيله.

بمرجعيات مجتمعه الزراعى . وقد إرتفعت فعلاً أصوات فى الغرب والشرق تقول إننا فى مصر " جامدون" فى مواقفنا رغم دعوات التحديث ومحاولاته ، لأننا جامدون عند موروثات تاريخية ، وتصورات وأساليب من تراكمات الماضى[٨] . وهو إتهام موجه للعرب عموماً لما يتميزون به - كما يقال - من إنغلاق دينى وثقافى . وهو أيضاً ما ردده حديثاً الكاتب والصحفى الأمريكى توماس فريدمان، سواء فى محاضراته أو فى كتابه الذى ترجم إلى العربية بعنوان "السيارة ليكسوس وغصن الزيتون" .

وبصرف النظر عن مدى حجية هذه الأحكام ، فإن هناك واجباً يفرض نفسه علينا بالمسارعة إلى أن نفض الغبار عن موروثاتنا كلها وغربلتها ، وإعادة قراءتها قراءة نقدية تستند إلى العقل وقوة البرهان . واستلهام ما هو جوهرى ونقى ليكون نقطة البدء والطاقة المحركة . وتنشيط الذاكرة القومية للتعرف على تجاربنا ومخزوننا الحضارى الضخم من ناتج إبداعاتنا الذاتية ، على مدى سبعين قرناً من الزمان ، لنلتقط منه عناصر الإبداع والخلق القادرة على تحركنا ودفعنا إلى الأمام لاستكمال مسيرة حضارتنا العريقة . فنتقدم نحو المستقبل إنطلاقاً من الماضى الغنى بقيم الحضارة المتعددة الألوان والسمات . أى أننا مطالبون أن نستدعى تراثنا وتاريخنا استدعاءً إيجابياً ، بحيث نستمد منه طاقة معنوية وسلوكية قادرة على بعث النشاط والإجتهاد فى أوصالنا . وإذا كنا نتحير بين مقولتى " التاريخ لا يعيد نفسه " ، و" التاريخ يعيد نفسه " ، فلنختر صيغة تجمع بينهما تقول "إن التاريخ المجيد يعيد نفسه للمؤهلين المستحقين " ، بينما " لا يعيد نفسه " غباءً أو عن قصر نظر ، مستهلكاً طاقته فيما لا يفيد ، أو من أجل شعب لا يتعلم منه أو يستفيد .

---

(٨) وينعى كتابنا أنفسهم واقعنا الذى نعيشه الذى مازال تحكمه عوامل التقهقر والإحباط . فمازالت الأمية الهجائية تستحوذ على مساحات شاسعة من عقول أمتنا ، ومازالت الأمية الثقافية تهيمن على مساحات أخرى كثيرة ، ومازالت التبعية الإعلامية تسهم أكثر فى تدشين هذا الواقع ، ومازالت العوامل الكثيرة للتخلف التى تحيط بنا تسعى إلى إجهاض أى مشروع أو أية نهضة تسعى إليها أمتنا للخلاص من أغلال هذا الحاضر . . ومازالت نظرية " المؤامرة" تقتحم هواجسنا ، وتؤكد لنا أن قوى أجنبية تعمل على تعطيل مسيرة نهضتنا ، وتسعى إلى حصارنا لتواصل تبعيتنا لها وحاجتنا إليها . وبذرتها وضعت فى بدايات القرن ١٨ حين تحالف الغرب ضد محمد على وإنطلاقة مصر وقضى عليهما معاً .

- ٢ -

وأهم ما نستدعيه هو فلسفتنا القديمة حول أهمية المعرفة والفهم. ويمكننا الرجوع إلى سفر الأمثال فى الكتاب المقدس، والذى قال "چيمس برستد" أنه يضم ما هو مقتبس من أمثال وحكم المصرى القديم(٩)، ويتكون من واحد وثلاثين إصحاحاً بها حوالى ألف آية، أو ما يعادل عشرة آلاف كلمة، تكررت بينها كلمات "**فهم، حكمة، معرفة**" عشرات المرات للتأكيد على منزلتها. ومن أجمل ما يناسبنا منها قوله «بالحكمة يُبنى البيت وبالفهم يثبت. وبالمعرفة تمتلئ المخادع من كل ثروة كريمة ونفيسة»(١٠). والمعرفة بحور واسعة، وهى تثرى الإنسان وتفتح الآفاق أمامه. وهى قوة كما قال "فرانسيس بيكون"، ومن يمتلكها، فى الغد يمتلك السلطة، كما يقول "إلفين توفلر". وهى المتغير الذى يقود كل التطورات الأخرى. فبامتلاكنا للمعرفة يصبح من اليسير تطبيق آليات النهوض بالأبحاث العلمية، وتوجيهها لخدمة المجتمع، خاصة وأن العلاقة وثيقة بين البحث العلمى والتكنولوچيا، التى هى الوجه التنفيذى للمعرفة. والتأثير المتبادل بين البحث العلمى والتكنولوچيا يشهد اليوم تسارعاً ضخماً حتى أن المتغيرات العالمية الكثيرة، التى جرت وتجرى فى السنوات الأخيرة فى كل مجال، إنما ترجع أساساً إلى سلطة المعرفة، التى باتت فعلاً هى الدافع والمهيمن، وصار مستقبلنا مرتبطاً بقدرتنا على الاستخدام التنافسى لها، وعلى قدرتنا وعزمنا على الإسهام فى إنتاجها. ذلك أن المجتمعات التى لا تستهلك المتاح من منتوج هذه المعرفة بنسب عالية، ولا تنتج منها أيضاً ما هو صالح للتعامل مع العالم المستقبلى معرضة - كما يقول علماؤنا - للإنقراض ثقافياً، أو للإنحدار بسرعة إلى عالم المتخلفين الجهلة، لأن القرن الحادى والعشرين سيكون أكثر علمية وأكثر تكنولوچية، تنتقل فيه البشرية من إجهاد العقل الإنسانى إلى "توحش العقل الإلكترونى"، بحيث

---

(٩) الأمر الذى يدل على أن "الروح" الذى يعطى الحكمة واحد، على مدى الأزمان، وهو الله.

(١٠) سفر الأمثال ٢٤: ٣و٤. وتضيف الأعداد الأخيرة: عبرتُ بحقل الكسلان وبكرْم الرجل الناقص الفهم. فإذا هو قد علاه كله القريص (حشائش) وقد غطى العوسج وجهه وجدار حجارته إنهدم.

وفى الإصحاح الحادى والثلاثين نموذج للأسرة المنتجة، إذ يقول عن المرأة الفاضلة: تطلب صوفاً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين ... سراجها لا ينطفئ فى الليل. تمد يدها إلى المغزل وتمسك كفاها بالفلكة ... تعمل لنفسها موشيات ... تصنع قمصاناً وتبيعها وتعرض مناطق على الكنعانى ... العز والبهاء لباسها وتضحك على الزمن الآتى (أعداد ١٣ و١٨ و١٩ و٢٢ و٢٤ و٢٥).

تتغير كل معالم الحياة. وتصبح "الميزة النسبية" لأى مجتمع هى القدرة على إكتشاف أساليب مبتكرة تحقق جدوى أكثر، وإنجازاً أسرع، وإخطاءً أقل، وفاقداً أصغر، وسعراً أرخص.

ومن الحظ أن المعرفة اليوم قد استكملت كل وسائل إنتصارها، بعد أن نضجت العلوم اللازمة لتطويرها نظرياً وإختبارها معملياً(١١)، بل ولتجديد وسائل استخدامها. وصارت فى غالبيتها بمثابة سلعة متاحة للتداول، بيعاً وشراءً، وصارت شبكة "الإنترنت" من أشهر وأسهل وسائل نشرها وتطويرها، إذ تتدفق من خلالها من مصادر عدة بلا رقيب أو قيد وبلا حدود. وصارت قادرة، ومعها المعلومات المتدفقة عبر وسائل الإعلام الأخرى وخصوصاً البث التليفزيونى، على إقتحام كل المجتمعات، مما يعنى "تهديداً" للمجتمعات المغلقة منها، وتمهيداً لكسر سطوة النظم المستبدة وشل قدرتها على إبقاء شعوبها جاهلة غافلة. وتتوالى تأثيراتها على عالم السياسة، كما يقول فوكوياما، من إسراع فى عملية التطور الديمقراطى فى العالم بإضعاف النظم الحاكمة المتسلطة، وإضعاف السلطة المركزية والسيادة القومية فى كل مكان، بحيث يتغير مفهوم القوة وطبيعة ممارستها.

وفى مواجهة هذه التحديات المستجدة، وتحصيناً لمجتمعنا ولمثله العليا، وتحفيزاً له ليقوم بإنطلاقته الكبرى، هناك أولويات مرتبطة بواقعنا ينبغى التعرف عليها وإعتبارها جيداً، وعلى رأسها تأتى حاجتنا التاريخية إلى معرفة الذات معرفة عميقة صادقة، مع استعدادنا لنقد العقل المصرى نقداً موضوعياً ناضجاً، بهدف تخليص الإنسان المصرى من أية سلبيات تعوقه عن إنجاز ما يستحقه من تقدم، ومن أجل تصحيح مسيرته باستمرار. وإذا كانت معرفة الذات هى بداية الحكمة ومركز الثقل، فإن معرفة **الآخر** هى الثقل الموازى والموازن. ويمثل الآخر بالنسبة لنا دوائر متداخلة يجدر معرفتها جيداً، أولاً بإعتبار هذا واجباً أولياً أو حتمياً؛ وثانياً بإعتباره نوعاً من التواصل الإنسانى فيه إثراء لتجاربنا؛ وثالثاً

---

(١١) فصار الخيال العلمى، الذى كنا نقرأ بعضه فى الكتب ونتصوره تخريفاً، حقائق تكنولوجية بفضل إنجاز ثورة المعلومات وتكنولوجيا الإتصال. وأصبح العلم لأول مرة قوة أساسية من قوى الإنتاج، كما استطاع الإبداع التكنولوجى أن يشبع عديداً من الإحتياجات الأساسية للإنسان.

لما قد نجد فيها من أمثولة نستلهمها؛ ورابعاً لأنه بات "قدراً عولمياً". على أن يتم ذلك مع عدم التفريط فى ثوابت الشخصية العربية، أو الإفراط الشيزوفرانى فى تمجيدها، ومع تأكيد خصوصية مصر العربية وشخصيتها التى صاغها تاريخنا السبع ألفى، من أعماقه الفرعونى ثم القبطى فالعربى الإسلامى. وأقرب هذه الدوائر، بعد العالم العربى الذى تربطنا به وحدة المصير، هى إفريقيا التى نتتمى إليها، وفيها جذور حضارتنا الأولى، ومجالنا الحيوى والأمنى ويقع فيها ثلثا العالم العربى. فدائرة البحر المتوسط، بحرنا الحضارى ونافذتنا على التقدم. ثم تأتى دائرة الغرب الواسعة ومعها اليابان، التى تمثل فى الوقت الراهن قاطرة المستقبل شئنا أو أبينا.

وهناك أيضاً حاجتنا إلى التماسك بحيث لا تستدرجنا الرغبة المحمومة فى الإندماج فى تيار الكونية والعولمة واللحاق بالآخر، إلى حرمان أنفسنا من الوقفة الموضوعية والتأمل الرصين فى موقفنا المحلى، بهدف إعادة البناء من الداخل، تأهيلاً لمجتمعنا للمغامرات الكوكبية ولإضطلاعه بدوره الإقليمى والعالمى. وتأهيله إنما يتحقق فى إطار مشروع قومى ينبع من ضمير الشعب ويتفق وتطلعاته وآماله، ويحظى برؤية واضحة متكاملة، ويركز بداية على بناء الفرد[١٢] - الإنسان عماد أى نهضة - وفق نسق عقائدى قيمى يحدد هويتنا[١٣]، ويؤكد مبدأ المواطنة فوق أى إعتبار آخر، ويرسخ وحدتنا الوطنية، ويحمى تعدديتنا بكافة صورها، ويجعل من سيادة القانون أساساً متمكناً للجميع، وينشر ركائز الديمقراطية الحقيقية، أى مشاركة الجماهير الشعبية الواسعة فى إتخاذ القرار فى كل مستوى، ومراجعتها لكيفية تنفيذ القرار، ثم الاستفادة من تنفيذ القرار فى حياتها اليومية

---

(١٢) الفرد المساند لتيار التعقل والوسطية الرشيد، الذى يملك مرونة وقدرة ذهنية للتمحيص والنقد ووزن الأمور. ولكى يكون هذا الفرد فاعلاً ومؤثراً لابد وأن يكون له وضع إجتماعى يعتز به، ودور إجتماعى يحرص عليه، فى مجتمع يحترم حقوقه، تشيع فيه روح النقد العقلانى البنّاء، ويوفر له الحرية المسئولة بكل معانيها وفى كل مستوياتها. مجتمع إتخذ الديمقراطية أساساً لشرعية الحكم، يطلق طاقات التنوع الإجتماعى والسياسى، وقد أنهى الحجر على إبداعات وملكات القوى السياسية المتباينة. يقدس التعددية والتنوع ثقافة وديناً وطبقات إجتماعية، ويسهر على قيم المساواة وتكافوء الفرص والحرية والتسامح، ويرعى آمال الأمة وأحلامها، بتحقيق معانى العدالة الإجتماعية من أوسع الأبواب، فى كافة القطاعات، وخاصة الإسكان والعمالة، التى تهم أجيال الشباب.

(١٣) راجع كتابنا "مصريات.. ثوابت وأولويات" ص ١١٣-١١٩.

وتأمين مستقبلها، ويضمن أيضاً حرية البحث والإبداع[١٤] والإجتهاد فى كل مجال، لكافة مدارس الفكر والعمل التكوينية على أرضنا الطيبة.

على أن تكون مهمة الإبداع الأولى هى إفراز أفكار جديدة، وإيجاد صياغة للتعامل مع المستقبل، بإعتبار أن لكل عصر فكره وفلسفته ومفاتيحه، وتدبيج خطاب ثقافى يشكّل الوعى المعاصر بما يتناسب مع المنهج العلمى المرن، ويوسع أفق الخيال الذى هو قراءة فى المستقبل، ويغذى الحلم بإعتبار الحلم الفردى والمجتمعى ركيزة إجتماعية ووطنية وروحية، ويحفز على التطور والتغيير لأن القدرة على التغيير باستمرار هى ضمان الاستقرار فى عالم اليوم والغد. والتغيير مرتبط بالقصد الوطنى الذى يتعدى التمنى، وهو مجموعة أفعال إرادية فى إطار أهداف مرسومة.

ومن الطبيعى أن يكون رجال الفكر والمثقفون هم القوى المهيئة لهذا الدور الإبداعى، بإعتبارهم فى طليعة القوى المعنية بالتراث القومى وهم رموزه وسندته. وباعتبار الفكر هو القادر على النفاذ عبر أسوار الحاضر ليتأمل ويستوعب، ويحلل حركة القوى الإجتماعية والسياسية فى المستقبل. وهذا ما بدأ يحدث عندنا، وإن كانت قوى متعددة تشتت جهده، أو تغبش رؤيته، أشدها تيار التشدد والتعنت ضد الجديد، وتيار الإنفلات باسم الجديد. الأمر الذى يتطلب إقتران الإبداع بالشجاعة لتخوض الأقلام النزيهة البحور والمفازات من أجل ما تؤمن به، وتفتح غابات من المجهول من أجل إقتناص الرأى المستنير، ومناصرته، فتكون للوطن ضميراً حياً، وللمجتمع رئة يتنفس من خلالها. ولا تعنى الشجاعة هنا التهور أو الخروج على النص، بل تعنى الجرأة لإعادة صياغته لينسجم مع واقع الحال وما يرجى من آمال. كما تعنى القوة المنقذة، أو ما يعرف بالشهامة، فى مواجهة خطر داهم أو مشكل طلسم. وهى الطاقة التى تتولد عن الحماس والغيرة من أجل الحفاظ على المثل العليا. ويثيرها الافتتان الجمالى فتتقدم الصفوف غير هيابة، تبشر بالفكر المبدع، وتقيم للجمال فى كل زاوية صرحاً أو هيكلاً، فتعبر بأمتها من الأزمة إلى النهضة، وبشعبها من الإنكفاء والمذلة إلى الآفاق السامقة حيث تحلّق النسور.

---

(١٤) أعلن مؤخراً أستاذ للطب النفسى، بجامعة وشنطن الأمريكية، أن ثمة جيناً خاصاً هو المسئول عن الإبداعات التى يحققها الإنسان. وبدراسة هذا الجين يمكن تحديد ملامح أى شخصية من الناحية الإبداعية، مثلما نتحقق من وزنه وطوله. وهكذا بات ممكناً تخليق الإبداع فى المعامل! وكأنه لم يعد نتاج عمل شاق وعرق وأرق. ومن يدرى فقد يتم "استنساخ" المبدعين بطريق الهندسة الوراثية فى المستقبل.

- ٣ -

ومن حظنا الآن أن الأحلام باتت تتقافز فى أفاقنا فى صورة مشاريع قومية الواحد تلو الآخر، من التعليم، إلى الطفل والأسرة، إلى التنمية البشرية وتثوير الإدارة، إلى المشاريع التنموية العملاقة فى سيناء وخليج السويس والصعيد والوادى الجنوبى. ولكل منها رنينه، لو تآلفت وتداخلت ونالت قسطها من الطاقة وقوة الدفع المستمرة، لانطلق نغم عذب لم يشنف مثله أرض مصر منذ بناة الأهرام وحضارتهم العريقة.

وآخر هذه المشاريع زمنياً، ولكنه يقف على قمة القائمة أهمية، هو المشروع القومى للتنمية العلمية والتكنولوجية، الذى تبناه رئيس البلاد وتابع خطوات تحقيقه خلال زيارته الأخيرة للولايات المتحدة الأمريكية (مارس ٢٠٠٠). وتعود أهميته إلى أنه يتعامل مع متطلبات التنمية، وهو أكثر المشاريع جدوى وعائداً، وضرورة حضارية للإفلات من التخلف والتبعية والفقر إلى المشاركة والمعاصرة فى عالم لا وزن ولا مكانة فيه للمتخلفين. فإنتاج المعرفة اليوم هو مصدر القوة الجديد لحياة الإنسان المعاصر، وله الصدارة فى قائمة عناصر الإنتاج التى لم تعد رأس المال والعمل والتنظيم وحسب كما طرحها فلاسفة الإقتصاد فى الماضى. ويتلازم معه مشروع الجامعة الحديثة للعلوم والتكنولوچيا الذى يقوم د. أحمد زويل بالتمهيد لإنشائها[١٥]. كما يجرى التخطيط لإنشاء أول قلعة لتكنولوچيا المعلومات فى مصر تحت اسم "القرية الذكية"، حتى تكون نقلة حضارية للأنشطة التكنولوچية التى تعتمد على الإبداع والإبتكار. ويبدأ تنفيذها خلال ١٨ شهراً (من مايو ٢٠٠٠) باستثمارات يساهم فيها القطاع الخاص بنسبة ٨٠٪. والمتوقع أن تستخدم قرابة عشرين ألف مهندس وفنى وموظف فى مراحلها الأولى. وهدف القرية توظيف تكنولوچيا دقيقة تعظم الطاقة الإنتاجية والعائد منها، وتتخصص فى مجال الإنتاج

(١٥) والمأمول أن تأخذ حقها من الدراسة، خاصة دراسة جدوى متأنية ودقيقة، حتى تتميز عن تجارب سابقة مثل تجربة جامعة حلوان، ثم تجربة معهد بنها للتكنولوچيا، ومدينة مبارك ووادى التكنولوچيا، وتجارب الجامعات الخاصة. ولعلها الحلقة التى تربط كل هذه التجارب فى عملية تجميع وتركيز نحو الهدف المأمول. ولقد طلب الرئيس مبارك (١٧/ ٨/ ٢٠٠٠) إنشاء مجلس أعلى للتنسيق بين كافة المراكز البحثية على مستوى الدولة. وليته يتحول، فى حالة إنشائه إلى قاعدة علمية صلبة أشبه بمؤسسة "ماكس بلانك" الألمانية التى تأسست بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لإنتشالها من حالة الدمار وإعادة بناء عظمتها، فحققت المعجزات.

والتسويق، وتكمل بذلك عمل "وادى التكنولوچيا" الذى يعمل فى المجال البحثى العلمى.

وفى إعتقادى أن الخريطة التى تحمل اسم "خريطة مصر الإستثمارية"، والتى أعدت ووزعت بمناسبة إنعقاد المؤتمر الإقتصادى للشرق الأوسط فى القاهرة (نوفمبر ١٩٩٦)، تمثل أملاً وتجسد حلماً لمستقبل بلادنا المشرق. فهى تطالعنا بمستطيل، هو أقرب إلى متوازى أضلاع، يمثل ثلث مساحة مصر تقريباً. ضلعه الشمالى الساحل من الإسكندرية إلى بورسعيد، وضلعه الجنوبى يمثل الثلث الأوسط بين الحدود الغربية وساحل البحر الأحمر. وهو يمثل قلب مصر أو "صرتها" جغرافياً، وجناحاه سيناء أرض القمر فى الشرق، والساحل الشمالى، ساحل مصر الذهبى ومنخفض القطارة فى الغرب. فجزؤه الشمالى يضم الدلتا وسواحل المتوسط وهى ما هى بالنسبة لتاريخنا البشرى والحضارى، وجزؤه الجنوبى كان منذ القدم منفذ تأثيرنا وتأثرنا بإفريقيا الأم. وهو اليوم مركز الثقل الواعد فى حاضر بلادنا ومستقبلها. ويعتمد هذا "المستطيل" على النيل باعتباره نقاط وثوب نحو التعمير والاستزراع، بحيث تمتلئ "الفراغات" الصحراوية على الجانبين، ليتكون بالتدريج مستطيل أخضر يناطح الزمن. ومنذ البداية كان على غزونا للصحراء أن يتحرك فى إتجاه بحيث يكون النيل وراء ظهرنا دائماً[١٦]، فى خطوط أفقية ورأسية يمثل تجمعها خطاً طولياً بطول النيل، يتقدم الهوينا بعيداً عنه غرباً وشرقاً، مستفيداً من أخواره ووديانه القديمة، وكل ما هو صالح للاستزراع على جانبى الدلتا والنيل، ويمد معه فى كل خطوة شريان الماء من ضفافه. فتوافر المياه وقربها ومعها القوى البشرية، ووجود البنية التحتية الأساسية يقلل من التكلفة ويعظم الفائدة. وإن كان التحرك مؤخراً يتم فى قفزات بعيداً عن وادى ودلتا النيل من أجل توزيع الكثافة السكانية بصورة أوسع وأنشط. ومن المفيد، فى هذا السياق، إعادة النظر فى التقسيم الإدارى لمحافظات الصعيد من الجيزة إلى أسوان، بحيث تُمد حدود كل محافظة لتصل إلى ساحل البحر الأحمر شرقاً، وإلى أبعد ما يكون غرباً، مما يساعد على توسيع "المجال الحيوى الجغرافى" لكل محافظة داخل

---

(١٦) وهو تحرك عكس تحرك المصرى القديم، حين كان الوادى مجرد مستنقعات مترامية، فتحرك من الهضاب المرتفعة على الجانبين نحو النيل، يجفف الأرض ويزرعها، ويحدد مجرى النهر ويروضه، ويرسم الخريطة الأولى لمصر الحضارة منذ أكثر من سبعة آلاف عام.

الصحراء نفسها، لا بإعتبارها عدماً بل بإعتبارها ضرورة حياة ينبغى قهرها يوماً بعد يوم، ونشر الخضرة والحياة فيها، كى نبتعد ما استطعنا عن الوادى القديم، ونخرج من "الحشر" إلى الرحابة والسعة. فمحافظة البحر الأحمر بحدودها الحالية تمتد وكأنها ذراع لرجل المرور إرتفعت لتقول للنمو شرقاً "قف"، بإعتبار أن النمو، ولو تخيلاً، لا يأخذ معنى أو مبنى إلا والنيل فى الصورة. وتمكين هذه المحافظات النيلية من العمل فى الفراغ الصحراوى الهائل من شأنه أن يضاعف من قدرة غزوه مرات عدة، يساعد على ذلك عوامل إدارية وتعبوية كثيرة إلى جانب عامل التنافس والمحفزات بينها.

قد يبدو موضوع هذه الخريطة وما نسج حولها نوعاً من الخيال، وليس هذا مما يعيبها فالخيال الجغرافى علم نحاول من خلاله فرض رؤيتنا على واقعنا الجغرافى من أجل تطويعه لصالح الإنسان وخيره. وفى الثلاثينيات، حين أطبق الكساد على الولايات المتحدة الأمريكية، كان من بين من ساهموا فى رد كيده جغرافى، هو د. چورچ مكارثر، لمع بنظريته الخاصة بالدوائر الإقتصادية حين قسم البلاد إلى دوائر إقتصادية ذات مراكز بمواصفات إنتاجية خاصة، تتكتل فيها الأنشطة الإقتصادية المتقاربة، مع تداخلها overlapping فى نقاط محددة، بحيث توفر الدعم والتعاون فى سهولة ويسر، من أجل زيادة الكفاءة الإنتاجية وتقليص الفاقد بأنواعه وتحقيق السيولة.

ويعتبر الجزء الجنوبى الغربى من المستطيل من المواقع المهمة على هذه الخريطة، حيث تقع منطقة المشروع الجديد، مشروع الوادى الجنوبى، أو جنوب الوادى، الذى قفز فجأة، وبدأ تنفيذه مباشرة، واقتحم تفكيرنا دون تمهيد سابق، وأشعل الخيال ودغدغ الأحلام، وإن كان قد أطلق العنان للهواجس والمخاوف والقلق فى الوقت ذاته. ذلك أن "الفجائية" التى خرج من عباءتها على الشعب والعالم، تذكّرنا بأسلوب "الصدمات" القديم الذى اختطته "الثورة" فى الكثير من تحركاتها، واكتسب سوء السمعة لما كان يسببه من خضخضات وإرتجافات فى أوساط الشعب، رفعت بينه معدلات ضغط الدم وقرحات الجهاز الهضمى. ثم أنها بدت وكأنها "حركة مسرحية" تستهدف الإثارة وشد الإنتباه، وكأن المشروع نوع من الدعاية أو لتجميل صورة الحكم. إلى جانب كونها تكريساً "للفوقية" التى تقلل من شأن الشعب كأنه قاصر فيكون آخر من يعلم، وآخر من يستشار أو يعتد برأيه.

وتندرج هذه السياسة تحت ما يعرف "بالتحديث السلطوى"، أو المقترب الأبوى الخيّر بإعتبار الأب هو خير من يعرف والأقدر على المبادرات السليمة. ويتمثل فى الجهود المتعاظمة التى تبذلها الدولة فى مجالات التنمية المختلفة، دون مشاركة حقيقية فى إتخاذ القرار فى أحوال كثيرة، مما يؤدى فى كثير من الأحيان إلى فشل المشروعات نتيجة لتسلط البيروقراطية عليها، أو غلبة آراء أصحاب المصالح وخصوصاً فيما يتعلق بتقرير السياسات وإختيار التشريعات، إلى جانب تغريب الشعب وتحييده وما ينشأ عن ذلك من عدم المبالاة.

وهذه البداية الإجرائية غير الموفقة، لمشروع ضخم كهذا، تعتبر على الأقل "سقطة" من جانب "العلاقات العامة"، التى عجزت عن سد الفجوة بين صانع القرار وأصحاب الرأي وجماهير الشعب، فلم تختر المقترب السليم للتمهيد له وتهيئة الأذهان لاستقباله، بنشر المعلومات الوافية عنه، وتقديم البيانات الخاصة به، وعقد الندوات حوله زيادة فى التوضيح وتأكيداً للشفافية وبناءً للثقة بين الحكم والجماهير. خاصة وأنه - كما قيل بعد إرتفاع الأصوات والتشكيكات - مشروع قديم(١٧) يعود إلى أكثر من عقود ثلاثة، قتل خلالها درساً وبحثاً، وما كان يضيره لو امتدت مدة دراسته بضعة شهور، لتكون دراسة حديثة علنية من قبل المختصين، مع دراسة جدوى حديثة تجريها هيئة معترف بها، تمكن الشعب من الإلمام بأبعاده، وبجدواه، بحيث يولد فى النور ومناخ الثقة، ويولد فى حضن ووجدان الشعب، الذى من حقه أن يعرف، وأن يتأكد بنفسه من أنه مشروع يحقق أحلامه وطموحاته، ويلبى إحتياجاته على مدى أجيال طويلة قادمة، ومن ثم تنطلق إسهاماته بحماس وسخاء، ويتحمل تضحياته عن رضا وبطيب خاطر. وهذه بعض ميزات المشاركة الشعبية الفعلية فى القرارات المصيرية، والتى هى أحد أوجه الممارسة الديمقراطية الصحيحة التى تتوق إليها البلاد.

(١٧) فمنذ أكثر من نصف قرن، خرجت مجلة "الثقافة" (عدد ٤١٠/ ١٩٤٦) ببحث ضاف عن المشروع كتبه عريان يوسف سعد، دقهلاوى من ميت غمر، وقد صوره وتصوره كما هو حادث الآن
- وقد تنبأ عنه عالمنا الفذ الجغرافى د. جمال حمدان فى موسوعته "شخصية مصر".
- وبعد الإنتهاء من إنشاء السد العالى، أواخر الستينيات قدم بعض الرواد مشروعاً خاصاً بترعة الوادى الجديد، أمثال المهندس عبد العظيم أبو العطا وزير الرى الأسبق، والمهندس محمد على عزت وكيل وزارة الرى الأسبق، والمهندس فريد نقولا والدكتور مصطفى شعبان من جامعة عين شمس.

ومما يحسب للحكومة أنها تنبهت للموقف وأخذت تستعين بوسائل الإعلام فى تزويد الرأى العام بالبيانات والمعلومات، لتبديد أية شكوك، وإلقاء الضوء على التحفظات(١٨) التى أثارها علماء متخصصون، محبون لوطنهم وأمناء على مصالحه، هم فى الواقع عملة نادرة فى عالم "الهمبكة والمسايرة". وحبذا لو أصدرت الحكومة "كتاباً أخضر" عن المشروع، يحدد له إسماً يتسم بالعلمية(١٩)، وأدق المعلومات عنه، ومراحل تنفيذه. وتكاليفه، ودوره النهضوى والحضارى، وعائده على الوطن والشعب.

والحق إن النقطة المضيئة وسط هذه الجهامة إن رئيس البلاد، حسنى مبارك، الذى سيذكر له التاريخ قيامه بهذا المشروع، يؤمن إيماناً مطلقاً بالمشروع، وقد نذر نفسه لرعايته ودفع مسيرته. وهو إيمان نرجو أن تنتشر عدواه بين القيادات والمسئولين والعاملين، وبين جماهير الشعب، وأن يترجم إلى عمل متواصل وجهد دءوب. فالمشروع أساساً بحاجة إلى ماء + ٤ ع، أى إلى الماء والإنسان: عزمه وعقله وعرقه وعفته، بمعنى طهارة اليد حتى يتسنى رسم خريطة جديدة لمصرنا، إمتداداً لخريطتها الحضارية القديمة.

ولا جدال فى أن المشروع عملاق بكل المقاييس هرمى الطموح، يرقى إلى مستوى "المشروع القومى"، الذى يُرجى أن يكون متكاملاً يقوم على رؤية تنموية شاملة لجميع جوانب الحياة من زراعة وتعدين وصناعة وسياحة وعمران وطرق وخدمات. وهو

---

(١٨) وأهمها ما يدور حول الفاقد من المياه، بسبب درجة تبخر المياه العالية جداً بمنطقة المشروع. والإرتفاع الشديد فى تكاليف رى الفدان (٢٠-٢٥ ألف جنيه). وغياب سياسة قومية مسبقة خاصة بترشيد مياه الرى فى الوادى القديم، وبتغيير السلوك الشعبى المغرق فى تبديد المياه. ومشكلة الكثبان الرملية، والتى تصل سرعتها إلى ١٠٠ متر/ ثانية، والتى قد تهدد مجرى الترعة. وقد تعرض المختصون لكل هذه المشاكل بالدرس والتحليل.

(١٩) "الدلتا" مصطلح جغرافى علمى معترف به عالمياً. وهى أرض على شكل حرف الدال (دلتا) اليونانى، يكونها النهر بترسيباته الفيضية التى يلقى بها عند مصبه، فى بحيرة أو بحر أو محيط. ولا يمكن استعماله خارج هذا التحديد إلا مجازاً.

- مما يجدر ذكره أن منطقة جنوب غرب الولايات المتحدة، وتضم جنوب كاليفورنيا وأريزونا ونيفادا، تشبه منطقة مشروع جنوب الوادى من حيث المناخ والطبيعة الصحراوية والإعتماد على الرى فى الزراعة من مياه نهر كولورادو وفروعه. وتم أول مشروع استزراعى فى كاليفورنيا عام ١٩٠٢ باسم Imperial Valley ترويه قناة All American بطول ٨٠ ميلاً، وصار مركزاً لزراعة الخضروات والقطن. وتوالت المشاريع التى تعتمد على نقل المياه فى قنوات طويلة من نهر كولورادو وفروعه، سواء فى كاليفورنيا أو أريزونا حيث مشروع نهر سولت Salt الضخم فى شرق الولاية الذى يشتهر بزراعاته الكثيفة من القطن والحبوب والحمضيات (3GS). وبالمثل فى ولاية تكساس إعتماداً على مياه نهر Rio Grande. وأيضاً فى أوروبا فى جنوب كل من إسبانيا والبرتغال. وهذه كلها مشروعات رائدة يمكن الاستفادة من خبراتها.

المشروع "الأمل"، الذى يخاطب كل الشعب ويثير خياله ويداعب أحلامه، لما يمثله من استجابة عقلانية متكاملة وكافية لحل بعض المعضلات الرئيسية التى تواجه تقدم البلاد، أو تعوق تحقيق غاياتها الكبرى. ولما يوجهه من دعوة رصينة إلى الشعب ليتكتل حوله لحاجته إلى كافة السواعد، ولكى يستنهض ذخائره المعرفية والتكنولوجية ليواجه بها ما ينطوى عليه من تحديات كبرى:

١- تحد **مستقبلى**، يدفعه إلى الإنشغال بالمستقبل بمتطلباته وطموحاته، والعمل من أجل أجيال قادمة. ويحفزه على إقتحام المجهول والعقبات، فالأرض بكر ولا تخلو من مفاجآت الإكتشاف الأول - من مياه وبترول ومعادن - وما تواكبه من دهشة وفرحة. ويغريه على الخروج من واديه الضيق المزدحم إلى الرحاب الواسعة.

٢- تحد **حضارى**، إذ يقدم له فرصة نادرة ليبنى وادياً جديداً موازياً لواديه القديم، وإقامة حضارة جديدة هى إمتداد لحضارته القديمة - التى بدأت من الجنوب أيضاً - بأثواب العصر ومقوماته، تراعى شمولية وتكاملية الأبعاد، ولها نظرة مستقبلية واسعة الأفق جداً، وبعيدة على قدر ما تسمح به الرؤية:

- حضارة تستعيد التاريخ القديم وثقافته ودروبه - فهنا كان يمر "طريق الأربعين" الذى ربط بين حضارة الشمال الإفريقى بالجنوب الإفريقى.

- حضارة تستفيد من أدوات العصر الحديثة كيماً تتخلص من الكثير من الأمراض والسلبيات التى يعانى منها الوادى القديم، بما فى ذلك الأمراض المتوطنة كالبلهارسيا وغيرها[٢٠]، من خلال نظرة متكاملة للمنظومة البيئية (الأرض والمياه والهواء والنبات والحيوان والإنسان) التى خلقها الله فى تناغم وتوازن وتكامل وتعاون.

- وتقوم على أساس من المشاركة الفعالة واسعة النطاق للمواطنين فى الإدارة السياسية والضبط الإجتماعى، لدعم روح الإلتزام والمسئولية، وقيام مجتمع شديد الحيوية والفعالية، وقادر على أن يقدم نموذجاً حياً لمجتمع تنويرى متطور، يحقق، بين ما

---

(٢٠) وقد نشر بريد الأهرام (١١/٦/١٩٩٧) رأياً لأخصائى، حول الوقاية من هذه الأمراض، بضرورة الكشف الطبى والتحليل لكل العاملين فى هذا المشروع ثم للمستوطنين بعد ذلك، وعلاج المريض منهم، وعمل التوعية الصحية اللازمة بينهم، والقضاء أولاً بأول على القواقع والحشائش.

يحققه، الإنصهار الوطنى بين كل المصريين أياً كانت دياناتهم ومذاهبهم، وهو ما يتمثل فى تجنيد طاقاتهم جميعاً دون تفريق، ومراعاة إحتياجاتهم الثقافية والديانية، كأن يراعى التوازن فى إقامة أماكن العبادة للمسلمين والمسيحيين على حد سواء[٢١].

كما يقدم نموذجاً فى عدالة توزيع الأراضى المستصلحة وعلى أسس الصالح العام وحده. فتعطى الأولوية للزراعيين من خريجى الكليات والمدارس الزراعية، بدءاً بمحافظات الجنوب والمناطق التى تعانى من أزمة بطالة حادة. وتفضل المستثمر الصغير الذى سيكون معنياً بتنميتها بشكل سريع بإعتبارها مورد رزقه الوحيد أو الأساسى، فتطرح مثلاً مساحات تتراوح بين مائة ومئتى فدان لتكوين مستعمرات (كميونات) زراعية، يحظى فيها المستثمر بالحرية فى إدارة زراعتها من النواحى التقنية والإقتصادية وبدون قيود عليه، فى إطار سياسة الإقليم العامة.

٣- وتحدى **ثورى** الطابع :

- فى **العلوم والتكنولوچيا**، إذ يفرض على الشعب تنمية مهاراته وتطويرها، وتحديث تكنولوچياته ومعارفه، فيما يتعلق بالماء والحصول على مصادر جديدة له، وعلوم التربة والتعدين للإستفادة بالخامات المتوافرة[*]، مما يمثل تحدياً تثويرياً لجامعاتنا ومراكزنا البحثية، ويدفعها إلى تلبية هذه الإحتياجات المستجدة. وهناك من يدعو إلى إنشاء مركز للبحوث فى منطقة المشروع ذاتها، يتزامن مع إنشاء الترعة، ليتعامل مع بيئته ويتجاوب مع واقعه، وتشارك فيه الجامعات.

ويتطلب هذا بداهة ثورة فعلية فى "التعليم" ليكون قادراً على إعداد الذهنية الجديدة القادرة على استيعاب ما هو حادث من تطور، والقادرة أيضاً على إكتساب مهارات جديدة من خلال التدريب المستمر، والقدرة على التكيف السريع مع متطلبات سوق العمل. كما يتطلب سرعة اللحاق بالثورة المعلوماتية المعرفية الحديثة واستخدام أدواتها الجديدة.

---

(٢١) راجع مقال للأستاذ/ أحمد السيد النجار، بجريدة الأهرام (١٩٩٧/٦/٩)

- وفى فرنسا دعا (يونيو ١٩٩٧) وزير العدل "چان بيير مشيفنمان" إلى الإسهام فى بناء المساجد من الأموال العامة أسوة بدور العبادة الخاصة بالمسيحيين واليهود. (الأهرام ١٩٩٧/٦/٢٧).

(*) وهى كثيرة ومتعددة خاصة الخامات التعدينية والمحاجر، يقوم عليها نشاط صناعى تحويلى واسع.

- وفى **الزراعة**، من أجل استنباط بذور ومحاصيل جديدة، خاصة تلك التى لا تحتاج لماء كثير، واستحداث دورة أو دورات زراعية جديدة، ونظم تسميد ومقاومة حديثة خالية من الكيماويات تحافظ على بنية التربة والبيئة عموماً، وذلك بتطبيقات التكنولوچيا الحيوية، ونظم رى مناسبة تطبق الرى الليلى للإقلال من البخر، وتخصص التنقيط للزراعات البستانية، والرش للمحاصيل الحقلية، وتحذف الغمر من قاموسها. ويتم إختيار الأنشطة الإنتاجية بشكل يسمح بوجود علاقات تبادلية بين منطقة المشروع وباقى مناطق الجمهورية. وتقوم سياسته الزراعية على محورين:

(١) الأخذ بالاتجاه العالمى الحالى للاستصلاح وهو الاستصلاح من أجل زراعة محصول بعينه، وليس استصلاحاً مطلقاً، بقصد الإقتصاد فى التكلفة والحصول على أعلى عائد لمشاريع الاستصلاح.

(٢) التخصص فى المحاصيل الزراعية والمنتجات الحيوانية التى تناسب المنطقة وحزامها الزراعى لأنها تحقق تفوقاً عالمياً وأسعاراً تصديدرية تنافسية.

وتُرشح منطقة توشكى لتكون أكبر مزرعة فى العالم للنباتات الطبية بإعتبار أن حزامها الجغرافى الزراعى مناسب لها، فالمنطقة صالحة لإنبات أغلب النباتات الطبية المعروفة بجودتها وتميزها. ومن ثم تقوم عليها صناعات متكاملة من استخلاص المواد الفعالة، وتصنيعها فى الشكل الصيدلى النهائى المعد للاستخدام.

- وفى **الإدارة**، فتقوم إدارة متطورة تأخذ بالمبادرات وتطرح الأسئلة، وتتبع إجراءات أكثر شفافية، بحيث ينشأ مجتمع بيئى لا مركزى تتحقق فيه المبادرة من خلال الإنجاز الشخصى الأصيل، وتقوم فيه مؤسسات منتخبة إنتخاباً حراً مباشراً تكون لها القدر الأعظم من إختصاصات الحكم وإقرار الخطط والبرامج. وهناك من يقترح إنشاء مجلس إقليمى إقتصادى إجتماعى ثقافى، يكون بمثابة رأس مفكر يعتنق ويستوعب واقع الإقليم ومستقبله، ويفرز رؤية جديدة لمجتمعه الجديد لتنمية روح الإلتزام والمشاركة والتضامن، ويضمن حيوية المشروع العظيم، بحيث يكون نموذجاً عصرياً نتخلى فيه عن أخطائنا التاريخية فى التنفيذ والمتابعة والتنبوء. ويُنشأ له جهاز إعلامى خاص به، على أسس علمية، ويشرف عليه المتخصصون، ويضمن خروج التصريحات والمعلومات من مصادرها ومن أهل الإختصاص.

- وثورة **إجتماعية** تتمثل فى نشر ودعم روح "الرواد" وشجاعة الهجرة والاقتلاع من المألوف، وإقتحام المجهول بعزيمة المغامرين، من أجل إقامة شبكة جديدة من التجمعات العمرانية، الحضرية والريفية والقرى التعاونية، ذات نمط استيطانى رشيد، يساعد على تصحيح التشوهات العمرانية والمكانية والإقتصادية، وقادر على جذب الملايين للاستقرار فيه. على أن تتسم هذه الشبكة بسلوكيات إجتماعية وبيئية متميزة متمدنة، تهتم بضبط الاستهلاك وخاصة المياه ومعدل السكان ومحاربة التلوث بكل صوره، وتظاهر بقوة قيم الأمانة والنزاهة وإحترام المال العام، وتقديس مذهب الإتقان فى العمل، فالله يحب أن من يعمل عملاً أن يتقنه: الإتقان فى أداء الخدمة، وفى إنجاز العمل، وفى إنتاج السلعة حتى تكتسب مصداقيتها فى تقديم نفعها للمستهلك. فمشاكل التصدير عندنا تعود، فى جانب منها، إلى عدم الإتقان، وغلبة أساليب "الكلفتة واللكلكة" على ما يجرى تصديره، والتى سرعان ما تنكشف فتخرج الصادرات من المنافسة، ومن دائرة الثقة والإحترام.

- **وسياسياً**، المطلوب استحداث صيغ جديدة تكفل للمواطن الإحساس العميق بأنه مواطن حر فى أرض حرة، توفر له الحياة الكريمة، ولا يخضع لسيطرة البيروقراطية التى تعامله كمجرد رقم من مجموعة أرقام. وقيام نظرية جديدة لممارسة الديمقراطية على المستوى القاعدى يشارك فيها كل المواطنين، خاصة فيما يتعلق بعملية إصدار القرار ومتابعة تنفيذه فى مختلف المراحل. والإعتراف بحق الاختلاف وشرعية التعبير عنه فى إطار إحترام المصلحة العليا والصالح العام. إلى جانب توسيع دائرة الحركة والنشاط للأفراد، على مختلف المستويات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية وغيرها، ووجود "سيولة" داخل نخب المجتمع ومؤسساته السياسية تسمح بنفاذ عناصر جديدة شابة بينها تحقق تجديد الدماء فيها، وتهئ مناخ التغيير المحسوب والتجديد النهضوى برؤى وأفكار جديدة ومتجددة.

وبالجملة، تدخل مصر الوادى الجنوبى الجديد بمفهوم عصرى جديد للعالم، بتأسيس سمات إيجابية جديدة، والتخلص من السمات السلبية، وخلق أجيال جديدة وفقاً لقيم جديدة مبنية على كل ما فى تراثنا الخصيب، الدينى والثقافى والإجتماعى، من قيم قديمة جاء الأوان لإحيائها بحيث تؤلف تأليفاً خلاقاً بين الأصالة والمعاصرة، وتفتح الباب أمام

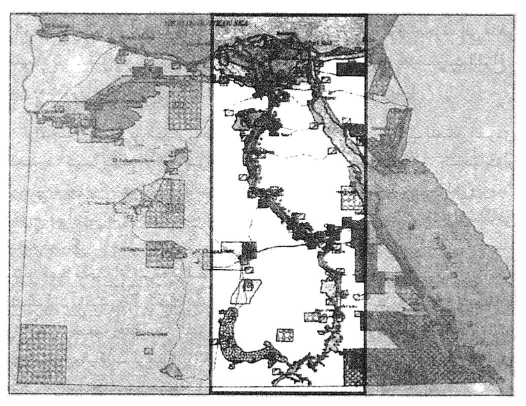
ثقافة إنسانية غامرة، ترسخ بين ما ترسخه قواعد التسامح الدينى المصرى التقليدى، وقواعد السلوك الأخلاقى القويم بإعتباره ضرورياً للتقدم الإنسانى.

وضخامة المشروع قد تغرينا برفع شعار "الضخامة"، والتعلق بأوهامها، وتبديد الطاقات فى مظاهرها والتغنى بها. ناسين أنه ما من شئ يولد ضخماً غير الوهم. الأحلام وحدها قد تولد عظيمة، أما تحقيقها فهو بالعرق وبالجهد اليومى الصادق المستمر والمثابر، الذى لا يتسرب إليه يأس أو ملل. هكذا إرتفع الهرم الأكبر فوق صحرائنا: خيال ضخم رائع فى عقل العلم والهندسة والفن، تحول يوماً بعد يوم، وحجرة فوق حجرة، إلى ما هو عليه الآن، بفضل شعب لم يعرف الدعة والميوعة والتواكل، بل لم يعرف وقت الفراغ. ففى وقت الزراعة كان يزرع، وفى إنتظار وقت الحصاد، كان يبنى ويشيد.

والأجدر بنا أن نرفع شعار "الصغير" أيضاً، بحيث نفتح الباب للعمل الفردى المحدود، كيما يندفع الأفراد سواء بمبادراتهم الشخصية، أو عن طريق جمعيات أو تعاونيات زراعية منهم، يملأون الفراغ الصحراوى حثيثاً، بحيث نفرح "ونطبل ونزمر" لكل سهم أو قيراط أخضر يضيفه الإنسان المصرى إلى أرضنا الطيبة. وحبذا لو بدأنا فى إقامة معسكرات عمل دائمة على طول الجبهة، من الجيزة إلى الوادى الجنوبى الجديد، يعمل فيها محبو الخضرة، والمسرحون من الخدمة العسكرية، والعاطلون، وإن أمكن المتسولون والمتشردون، تحت شعار "الأرض لمن يزرعها". يديرها جهاز مستقل، والأفضل جمعية أهلية، من الذين يعملون فعلاً فى الأرض، ويحملون الفأس، وليس من أصحاب الياقات البيضاء "والكروش" المكورة. تماماً على نمط ما يجرى فى أمريكا، مثلاً، من علاج المدمنين، بتشكيل جمعيات أو مؤسسات من المدمنين أنفسهم، الذين يريدون الحفاظ على استقامتهم، ويعرفون جيداً كيف ينقذون الآخرين.

إن الزراعة كانت مصر الماضى، وهى التى ستكون مصر المستقبل، مهما تطورت وتضخمت الصناعة. وتوصف بحق على أنها الموتور المحرك للحياة. وهى هى كما بدأت فى الماضى، من قطعة أرض صغيرة يزرعها الإنسان من أجل سد احتياجاته بصورة مباشرة. إنها فلسفة سليمة، تحتاج فقط إلى التطوير المناسب، على أساس أن كل "نقطة" خضراء تظهر فى هذا "الحلم المستطيل" ستكون بمثابة نجمة متلألئة هاجرت من مكانها فى القبة الزرقاء، لتزين صدورنا بقدر ما تجمل وجه أرضنا، وتطيل أعناقنا وقاماتنا.

وهناك شريانان أساسيان لحياة جنوب الوادى، شريان الماء ولابد وأن يحظى بالإهتمام والتركيز. أما الشريان الثانى فيتمثل فى شبكة من الطرق تغطى(*) المنطقة وتربطها بالوادى القديم. وهى حيوية للغاية من أجل تعمير الوادى وتغييره ديموجرافياً. ونحن لو تنبهنا فى الماضى للقدرة التعميرية للطرق، وساعدتنا مواردنا على إنشائها فى عمق صحارينا، لتغير وجهها منذ أمد، فالطرق خير ناقلات للتمدن والعمران(٢٢).



خريطة الأمل القومى

(*) أنظر كتابنا "مصريات.. ثوابت وأولويات". ولقد زرعنا مدناً جديدة معظمها فى الصحراء ولم نهتم بإقامة شبكات من المواصلات تربطها ببعضها وبالمدن.

(٢٢) ويقترح عالمنا الجيولوجى الكبير، د. رشدى سعيد، إستخدام المياه الجوفية لأنها أرخص بكل المقاييس من ماء النهر الذى يتطلب نقله شق قنوات تكلف أموالاً طائلة مما سيجعل تزويد المشروع بالماء باهظ النفقة. ويقترح أيضاً نقل المياه إلى الجانب الآخر من السد بواسطة طلمبات عائمة أو مركبة على أرصفة عائمة إقتصادا فى النفقات.

إن صحارينا التى تمثل ٩٤٪ من أرضنا تدعونا لأن نؤمن بها، وبقيمتها وبحدودها، وبكونها مستقبلنا، أى أنها ليست قفراً أو تيهاً أبدياً، وكأنها عبء ننوء تحت حمله جيلاً بعد جيل، ولها بجانب ذلك رومانسيتها وسحرها نقرأ عنه من خلال كتابات من إفتتنوا بها مثل رحالتنا أحمد حسنين باشا، وغيره من الأجانب.

وهى تطلب منا أن نعاملها كصحراء، فهى ليست الدلتا أو الوادى، وأن نعاملها معاملة خاصة وباستراتيجية مدروسة تمكّن من استغلال كل مواردها فى منظومة واحدة تقوم على الإكتفاء الذاتى بدءاً من حفر البئر واستخراج المياه بطاقة الرياح، وإنتهاءً بحظيرة البيت لتخمير وإنتاج البيوجاز لتزويد الأسرة بالطاقة المنزلية اللازمة.

وهى تذكرنا بضرورة نشر الوعى الصحراوى، ويبدأ ذلك بتثقيف الطفل وزيادة جرعات معلوماته عن الصحراء وسبل تنميتها وأهمية زراعتها وتشجيرها من خلال مناهجه الدراسية ومادتنا الإعلامية. فهى تعيب علينا عدم وجود كلية متخصصة فى زراعتها، أو أقسام فى الكليات العديدة بمناهج عن خصائص التعامل معها فى الزراعة واستصلاح الأراضى والتعدين وما إليها، وعن تحلية المياه مثلاً. فالتعليم، للأسف مازال منفصلاً عن واقعنا، وعن تلبية احتياجاتنا، وتحقيق أحلامنا.

- ٤ -

وعند هذا المنعطف التاريخى، أيها العزيز **علام**، أكرر تساؤلاتنا التى طالما رددناها عما ينقصنا لكى نحقق هذا الإنجاز التاريخى، ونخرج بهذا المشروع "الهدية" بصورة شمولية تكاملية ليكون متناسقاً فى الشكل والمضمون؟!.

- فنحن عندنا مصرنا، عبقرية المكان والزمان. فهنا بدأ كل شئ وخاصة الزراعة. وقبل كل شئ ولد **الضمير** كما قال "برستد".
- وتغطى رقعتها قرابة أربعمائة ألف ميل مربع، وملايين الأفدنة القابلة للزراعة من الدرجة الأولى حتى الرابعة. ومئات الأميال من الشواطئ الرائعة، ومصادر ثروة متنوعة، منها ثروات معدنية كثيرة فى مواد ترابها مثل الرمال والجبس والكاولين والحجر الجيرى والفوسفات.

- ومعاهد عريقة، ومراكز أبحاث رائدة، وكوكبة من العلماء والأدمغة العلمية فى كل علم وفن، مدت فروعها كالكرمة النبيلة إلى كل أقطار الأرض حيث أضافت وأثرت، ونالت التقدير والتكريم.
- ولنا تاريخ طويل من قدرة العقل المصرى على الإنتصار فى صراعه مع الطبيعة. والنيل وواديه يشهدان على ذلك. وفى صراعه الذاتى مع طموحه المشروع، فى إطار الإلتزام بالقيم الروحية والتعاليم السمائية. كما أن المسار المصرى الطويل بين الحضارات ترك فى مجمله بصمة رائعة على تكوينه الثقافى.
- وثروة بشرية تزيد على الستين مليوناً، يضمون بين جوانحهم قيماً أصيلة متوارثة يأتى على رأسها الإيمان بالله، والتحلى بالصبر والقدرة على التحمل، وبدرجة ذكاء عالية وضعته إحدى مؤسسات الأمم المتحدة لتقييم مستويات الذكاء بين شعوب العالم، بين مجموعة الدول التى تتميز بأعلى مستويات الذكاء، وإن نعتته بذكاء فردى «غير موجه لصالح المجموع».

فما المشكلة أو العائق إذن؟.

حالة للدراسة A Case Study

إن صديقى **علام** يرى أن المشكلة تتعلق **بالضمير** الإجتماعى والأخلاق والثقة فى المقام الأول. فالثابت أن الكثير من قيمنا قد إهتز خلال النصف الأخير من القرن العشرين، الذى شهد حروباً، وهبوب موجات إقتصادية وسياسية وثقافية مؤثرة، ومعها الإنفتاح الإقتصادى فى السبعينيات، ممأأدى بدون شك إلى تأثيرات بالغة فى الشخصية المصرية وفى السلوك الإجتماعى المصرى بوجه عام، وفى سرعة الحراك الإجتماعى الذى أدى إلى صعود طبقات إجتماعية وهبوط طبقات أخرى، ونشوء أنواع جديدة من الانحراف ومن بينها الفساد بكل صوره، والتربح وإهدار المال العام المتعمد، وتنامى نفوذ المصالح الخاصة وتأثيرها على السلطات التشريعية والتنفيذية، وظهور الشخصية "الفهلوية" التى تسعى لتحقيق المكاسب دون الإعتماد على الكفاءة أو العمل الدءوب(*).

(*) راجع مقال "إنهم يزرعون الشوك" للكاتب عزت السعدنى (الأهرام ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٠).

وهو باعتباره مهندساً إختار مجال البناء والتعمير ليكون موضوع "دراسة حالة Case Study" ليكشف أبعاد هذه المشكلة. وكانت نقطة انطلاقة انهيار العمارات، وفى منطقة مصر الجديدة على وجه التحديد، وتلك التى إنهارت بمنطقة روكسى عام ١٩٩٦ لأنها نالت إهتماماً إعلامياً كبيراً، محلياً وعالمياً، إذ تناقلتها وسائل الإعلام العالمية بمستوى نقلها لأخبار زلزال مدمر أو ثورة بركان مفاجئة.

ويستهل **علام** دراسته بقوله إن ظاهرة إنهيار العمارات الشاهقة الجديدة تكاد تكون مصرية صرفة[٢٣]. وهو ما يستقيم مع منطق التاريخ البشرى. فحين يفقد بانى الأهرامات العظيمة، فى أرض حضارة البنائين، مكونات شخصيته الحضارية والأخلاقية والقيمية يصير مهيئاً لأن يكون بانياً "للقرافات/ الجبانات" والعياذ بالله. مع أن الهرم الأكبر الذى بناه منذ آلاف السنين لايزال معجزة العالم الوحيدة فى البناء، رغم التقدم التكنولوچى الرهيب، باعتراف أحدث تقرير علمى صدر عن جمعية المهندسين المعماريين الأمريكيين. والمعابد التى شيدها قائمة مفخرة له، ومعها الكنائس والمساجد التى تتحدث عن دقته وفنه وجودة عمله.

ولو أخذنا هذه الظاهرة التعيسة كنموذج لمشكلة الفساد الذى يعيث فى حياتنا - بإعتباره أخطر حين يدخل فى قطاع مقاولات البناء - لاكتشفنا أن هناك سلسلة من الأخطاء تسير بكل يسر وسهولة، من مكتب إلى مكتب ومن مسئول إلى مسئول دون أدنى عائق. بل إنها تنزلق إنزلاقاً هينا دون ما صوت أو ضوضاء، بفضل عملية "التشحيم" المتقنة لعجلاتها! . كيف يحدث هذا؟ إنه ليس تعاوناً على عمل البر بل على عكسه،

---

(٢٣) ويصفها كاتب على أنها «قضية إهمال قومية خطيرة لابد أن تدرس على أوسع نطاق ... ولا يمكن القول إنها حالات فردية فى كل مجتمع. إنها حالة فساد فى قطاع المعمار أفرخت هذه الأخطار الجسيمة».

- عندما ضرب الزلزال الكبير غربى تركيا، فى خريف ١٩٩٩، كانت أغلب الإنهيارات مبانى حديثة جداً مما كشف عن «خراب الذمم وموات الضمائر».

- قد يحدث هذا لبيوت الفقراء حتى فى "أعظم وأغنى" دولة فى العالم. ففى ديترويت بالولايات المتحدة الأمريكية، مثلاً، إضطرت وزارة الإسكان، عام ١٩٦٩، إلى هدم ما يعادل ١١٪ من بيوتها المستصلحة لأن المقاولين الجشعين لم يصلحوها كما يجب، ورشوا الموظفين ليتواطئوا معهم. وكان الهدف من إصلاح البيوت، التى هجرها السكان البيض بسبب تزايد السكان السود حولهم، هو تسليمها للفقراء لتمكينهم من إمتلاك مساكن لهم مقابل دفعة مالية منخفضة. فلما دخلوها إكتشفوا سوء حالها فتركوها، لعجزهم عن إعادة إصلاحها ودفع أقساطها معاً.

فالإنسان لا يمكنه أن يكف عن العمل - أى عمل - كالفرخة البياضة لا يمكنها التوقف عن أن تبيض، وهى "تكاكى" عالياً لو تعسر معها الأمر. ما هى إذن "الكيمياء" التى تجمع بين عقول ونفوس وضمائر أناس مختلفين فى صفات كثيرة، لتخلق منهم "تركيبة" ذات سمية مرتفعة قاتلة؟ أمور كثيرة تأتى على رأسها بخاسة ثمن الإنسان، الذى استقر فى الوعى القومى، ربما من مخلفات بورصة التاريخ الإستعمارى الذى امتد قروناً(٢٤)، وشكل وسطنا عقلية النخاسة. فلقد تزامن مع سقوط العمارة القاهرية غرق عبارة فى قرية "تليدم" بمحافظة المنيا راح ضحيتها ٤٧ شخصاً، ومرت الفاجعة دون أن يهتز لها أحد تقريباً، ولم تحظ فى الإعلام إلا بسطور قليلة، مما يدل أيضاً على الحرص العام على تطبيق "تسعيرة" الإنسان، التى تتفاوت مكانياً وطبقياً وبنسبة تأثيرها على الرأى العام. صحيح هناك فساد فى كل المجتمعات، لكن قلما نجد هذا الذى يحدث عندنا(٢٥) من بيع الناس للموت نظير ثمن غاية فى البخاسة، وبمثل هذه الخسة. وإذا أخضعنا هذه السلوكيات للدراسة نجد تشابهاً بينها وبين سلوك القطط فهى معروفة بالخطف "والدناوة" والخيانة رغم نعومتها، تسرق الأكل فى غفلة من أصحابها وتختفى، مهما كان عطفهم عليها.

والمأساة تبدأ - كغيرها من المآسى المرتبطة ببيع الطعام الفاسد، والدواء فاقد الصلاحية، وحتى إجراء العمليات الجراحية التى لا حاجة إليها أو سرقة الأعضاء أثناءها- بتصور المالك "للكعكة" التى سيحصل عليها، وتنتقل الصورة تخاطرياً (تلباثياً) إلى كل الداخلين فى عملية إعدادها، ويسيل اللعاب، ويتهافتون جميعاً على نصيبهم منها، وهو ما يعرف عند العامة "بالدناوة والفجعنة". قد يُعزى هذا إلى الفقر أو سوء الأحوال

---

(٢٤) لاشك أن قيمنا قد عاورها الكثير خلال عهود القهر المملوكى/ العثمانى مما أثر على تكويننا، فتعودت فقرات الظهر على الإنحناء، والإنكفاء والإستجداء. وما مقولة «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» إلا تجسيداً للوضع الذى ساد وهو العيش على الفتات التى تتساقط من موائد السادة اللئام.

(٢٥) وفى هذا الصدد يتساءل الأستاذ عزت السعدنى (جريدة الأهرام ١٤/ ١٢/ ١٩٩٦): هل هناك بلد خربت فيه الذمم، واشترى فيه الفاسدون ضمير ضعاف النفوس من صغار الموظفين وكبارهم، لتمر شحنات اللحوم والدجاج والسمن الفاسدة، والتى لم تعد صالحة للاستهلاك الآدمى، لتباع علناً فى الأسواق والمتاجر؟! ... تصور أنهم يصبغون الزيتون بالورنيش الأسود السام، الذى يستخدم فى تلميع الأحذية؟! ... كثر الغش وتكاثر الخداع، وزاد عدد الهلّيبة والكسيبة بدون وجه حق، ووصل شرهم إلى المسكن الذى يلجأ إليه الناس كمكان آمن، هرباً من نكد الأيام... فإذا به يتحول إلى كومة من التراب.

الإقتصادية ، أو إلى "تعسير الحلال" كما قال أحد كتابنا . ولكن يبقى الطمع هو الدافع الأقوى خاصة بين المسئولين الكبار . "فالفقير" الحقيقى الذى يدخل فى العملية يدفع غالباً ثمناً باهظاً لتورطه ، لسهولة تحويله إلى "كبش فداء" وتغطية لباقى المتربحين .

وتكرارها دليل على عدم ولوج الطريق الصحيح للمواجهة الحاسمة ، وهو دراسة المشكلة بعمق وجدية وعلمية وإصرار ، لمعرفة أبعادها وجذورها والإحاطة بأسبابها الحقيقية ، تمهيداً لتحديد العلاج السليم المتكامل ، فهى كأى مرض عضال ، لا تنفع المسكنات معها كما أن أى تلكوء أو إهمال إنما يؤدى إلى استشرائها . وبدايات المشكلة لا تخفى على أحد . فقد نشأت مع الظروف التى **فرضت التمليك كخيار وحيد أمام المواطنين** . وهو خيار دعمته السلطة بتركها الحبل على الغارب ، وبدخولها هى نفسها ، بقطاعها العام ، تبنى أيضاً للتمليك .

ولا يحتاج الأمر لعبقرية خاصة لاكتشاف نتائج وضع كهذا ، أدى من جانب إلى حصار المواطن وسط حلقة محكمة من الاحتياج الملحّ والإمكانيات المتدنية وضغط المستغلين ، مما دفعه إلى العمل على فك هذا الحصار الخانق بما يتيسر له من سبل مشروعة وغير مشروعة . كما أدى ، من جانب آخر ، إلى فتح "منجم" للمستغلين الذين دخلوا ميدان التعمير والبناء ، دون تأهيل أو خبرة بالنسبة لأغلبهم ، وهمهم تعظيم أرباحهم بالتوسل "بالكلفتة" والغش ، وبالاحتيال والنصب أحياناً ، واختراق الأنظمة والقوانين بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة . وهكذا التقت الأطراف جميعها عند **غير المشروعة** بدرجات متفاوتة . وأخذت معها مستويات الأخلاق تهبط درجة بعد أخرى منذ بداية الأزمة أواخر عقد الستينيات . ووجدت عاملين مساعدين هيأتهما طبيعة الشمولية التى كانت سائدة ، وهما : عدم الشفافية ، فكل شئ – من قوانين وتشريعات ومخالفات – يتم خلف الكواليس ، بنظام الـ Hush Hush كما يقول الإنجليز . وعدم المساءلة بإعتبار أن القائمين جلهم من أهل الثقة . والمحاسبة إن جرت فهى صورية وعشائرية ، ومع غيابها غاب "التقييم" ، أى تقييم الإنجازات والأداء ، فتعطلت مؤشرات التقدم ، وغاب الثواب والعقاب .

ويختتم "علام" دراسته هذه بتوضيحه أن هذا كله جرى، فى غياب أمور أساسية[(٢٦)] منها:

(١) تخطيط عمرانى حضارى للقطر كله، بما فى ذلك تحديد المناطق السكنية zones بمستوياتها المختلفة واشتراطاتها واستخداماتها، تطبق بكل الحزم من قبل الأجهزة المعنية.

(٢) قانون إسكان متكامل يهتم بكافة خطوات وعمليات البناء الإجرائية والهندسية والإنشائية والإشرافية مع تحديد جهات وأفراد الاختصاص: قانون نصوصه واضحة دقيقة شفافة، ولوائح تنفيذية بنفس الدقة والحزم. ويتم تشريعه بعد طرحه على الرأى العام، وللمناقشة الموسعة من قبل الفعاليات والأطراف المعنية، لكى يخرج متوازناً رصيناً، وقد شارك فيه الجميع بنصيب، ولديه حصانة كاملة ضد التجاوزات والاستثناءات بأنواعها، وله أنياب حادة تنغرز دون رحمة، ومباشرة، فى جسم من يحاول لى ذراعه.

(٣) ثقافة سكانية واعية عن طريق الإعلام، وإصدار كتيبات تثقيفية للشعب، خاصة للذين يتعاملون مع مسائل الإسكان والبناء عند أى نقطة أو مرحلة من مراحلها المتعددة، ويتضمن باباً عن الصيانة وأهميتها وسبل تطبيقها لحماية الثروة العقارية.

(٤) ثقافة جمالية تهتم بترقية الذوق العمرانى(*) فى كافة مراحله. فنمو الوعى الجمالى يصب مباشرة فى الوعى الأخلاقى. فحب الجمال ودماثة الخلق وإنطلاقة الإبداع تسير ثلاثتها معاً. والعكس صحيح.

---

(٢٦) وهناك عوامل مساعدة أخرى مثل:

(١) تأميم قطاع المقاولات. فلم تتهيأ له الظروف الملائمة للتطور وملاحظة التكنولوجيات الحديثة، وإن دانت له فرص الإحتكار الذى أهدر عنصر المنافسة ومراعاة الجودة.

(٢) تهالك نظام الصرف الصحى لقدم عهده مما أدى إلى تسرب المجارى فى التربة لسنوات طويلة، وارتفاع منسوب المياه الجوفية مؤثراً على سلامة أساسات المبانى.

(٣) إلى جانب الأزمات الحقيقية أو المفتعلة فى مواد البناء، مما هدد صلاحيتها وكفاءتها، مع فتح ثغرة واسعة للفساد والإفساد.

(*) ويتضح غياب هذه الثقافة فى القبح الذى ينتشر فى عمائرنا ولا فتاتنا، وفى شوارعنا وميادينا، مما يؤكد تدهور مستوى الذوق فى تنسيقها وتجميلها.

(٥) دور إجتماعي متحضر للدولة، يتصدى بالسرعة والحسم لأية مشكلة، بل ويعمل على درئها قبل وقوعها. كأن تبنى "للإيجار" لإحداث نوع من التوازن في مواجهة "حُمّى" التمليك. أو تستأجر بالسعر الإقتصادى الحقيقى، وتؤجر بسعر إجتماعى لفئات معينة، إلى جانب مواجهة العلاقة بين المالك والمستأجر بموضوعية وبفهم يزاوج بين الاقتصاد والاجتماع، ويحقق مفهوم العدالة ومقتضياتها.

- ٥ -

والعارفون ببواطن الأمور، وبمدى التسيب والإهمال اللذين يسيطران على مرافقنا الحيوية، وغياب الصيانة ومعايير الأمان والسلامة، وضعف الضمائر، مع عجز الرقابة، في أسواق أساسية كسوق الطعام والدواء والعلاج، والتعليم أيضاً، ومظاهر سلوكنا المتهور الذي يطغى على العديد من أنشطتنا وأنماط حياتنا، من عربدة السيارات في طرقاتنا، إلى سوقية الجيران واستفزازاتهم - هؤلاء العارفون يتعجبون من سر نجاتنا من كوارث يومية لا حصر لها، كان لا مفر من أن تحل بنا. ولا يجدون تفسيراً لذلك إلا أن مصر "مكنونة" وتحميها قوة علوية تترفق بهذا البلد وبشعبه، سبق ووعدته بالبركة، وبالبركة فعلاً ترعاه وتستره. ولا يعود هذا إلى تميّز فينا، إنما يعود أولاً وقبل كل شئ إلى أمانة الله وصدق مواعيده، وإلى أعداد مجهولة من المؤمنين الصادقين، في كل دين، يملأون سماءنا بالدعاء والابتهال والتشفع[٢٧] من أجل الكنانة ونجاتها من كل سوء[٢٨].

---

(٢٧) في التوراة قصة عميقة عن تشفع إبراهيم أمام الله من أجل أهل سدوم وعمورة قبل أن يحم القضاء بها. بدأ إبراهيم بقوله «عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً»، وتناقص العدد حتى بلغ عشرة أبرار، ويجيبه الله في كل مرة «إن وجدت في سدوم ... باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم» (سفر التكوين الإصحاح ١٨ : ٢٣-٣٢). وفي إشارة السيد المسيح عن أهوال آخر الأيام يقول «ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام» (مت ٢٤ : ٢٢).

(٢٨) يقول داود النبي: «لأنه ينجيك من فخ الصياد ومن الوباء الخطر. . لا تخشى من خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار ولا من وبأ يسلك في الدجى ولا من هلاك يفسد في الظهيرة. . بخوافيه يظلك وتحت أجنحته تحتمى. .» (مزمور ٩١ : ٣-٦).

- وفي هذا يكتب د. مصطفى الفقي: ومازالت تقبع في خاطرى كلمات دبلوماسي مصرى مخضرم منذ سنوات طويلة، كلما تأزم الموقف الإقليمي وتكاثفت التحديات أمام مصر وأصبحنا أمام طريق شبه مسدود، فقد كان الرجل يردد دائماً: «هنا سوف يتدخل أولياء الله من حراس الكنانة عبر تاريخها الطويل». وكنت أعتبر مثل هذا التفكير نوعاً من سطوة الوجدان أو وهم العاطفة. ولكنني إكتشفت مؤخراً أن تلك العبارات التي لا تخلو من طيبة وعفوية هي ذات أساس نظرى في تاريخنا كله، ومازلت أعتقد أن مصر "محمية إلهية"، يباركها الله ويقف معها في أحلك الظروف وأصعب الأوقات.

والدليل على معقولية هذا التفسير أنه عندما تقع كارثة ما صغيرة أو كبيرة، يتكشف العديد من الثغرات والقصور والعجز، ليس فقط عن منع وقوعها، أو على الأقل التنبوء والاستعداد لها، بل وفى وسائل مواجهتها وعلاج آثارها، وبدائية الأدوات والمعدات وتخلف التخطيط(٢٩). ولقد نشرت صحفنا بعضاً من آراء وتعليقات الفرق الأجنبية، التى جاءت للمساعدة فى إنقاذ ضحايا عمارة مصر الجديدة المنهارة، فكتبت عن "هرجلتنا وعشوائيتنا" وأدواتنا وأفكارنا المتخلفة، وكثرة "الرؤساء" فى موقع المأساة، وتناقض توجيهاتهم، مع قلة الأيدى التى تعمل فعلاً فى التراب والحجر. إلى جانب الصخب والضوضاء-- جعجعة بدون طحين. ولا يخفى أن المسكوت عنه أبلغ من كل هذا.

إنه لا يمكن الطعن فى عقليتنا أو ذكائنا، أو الانتقاص من معرفتنا بطبيعة هذه الكوارث، وأسبابها، وسبل درئها وعلاج آثارها. فعندنا خبراء على مستوى رفيع من الخبرة والوعى. وعندنا علماء، ودراسات جاهزة فى الأدراج، فى مراكزنا البحثية ووزاراتنا، تتناول كافة المشاكل القائمة والمتوقعة وسبل تجنبها، منها مثلاً مشكلة السيول(٣٠) التى تتهددنا كل عام. ولكن وجهاً من أوجه ضعفنا هو بيروقراطيتنا القاتلة

---

(٢٩) وأحدثها ما جرى فى القاهرة فجر ١٧/ ٥/ ٢٠٠٠) حين إنفجرت ماسورة الغاز الرئيسية بشارع جسر السويس، أثناء عملية حفر لاستبدال مواسير شبكة المياه بالمنطقة، وهددت كلاً من حى مصر الجديدة والزيتون بكوارث واسعة، وفق ما قالته "مانشتات" الصحف. فقد فشلت محاولات وقف الحريق فى بدايته بسبب «الفشل فى العثور على أماكن محابس الغاز القريبة من الحادث!».

وقبل ذلك، فى ١٥/ ٥/ ٢٠٠٠ إنهارت عمارة بحى السيدة زينب، مات وأصيب فيها العشرات ومن مآخذ الناس أن مسئولى الحى تباطئوا فى الاستجابة لاستغاثتهم، وأرسلوا «أربعة رجال بفؤوس لعملية الإنقاذ!».

(٣٠) السيول من "النوازل الطبيعية" التى لها وجه خيّر، لو عرف الإنسان كيف يروضها، ويستفيد من حملين تحملهما هما الماء والرواسب. والظاهرة معروفة فى الجغرافيا باسم الوادى Wadi، وتعنى بين ما تعنى إندفاع المياه المباغت فى المجرى - الوادى - الذى حفرته على مدى القرون، فى سفوح جبال وتلال البلاد الصحراوية وشبه الصحراوية. وعندما تصل المياه بحملها إلى الأرض المنبسطة، أسفل الجبل أو التل، يبدأ الترسيب وتتكون دلتا على هيئة مروحة، تتميز بالخصوبة قد تستغلها بعض البلدان فى الزراعة. ورغم حاجتنا إلى المياه والرواسب، ورغم تاريخ الظاهرة القديم فى بلادنا، ومعرفتنا - من التاريخ - كيف عالج جدودنا مشاكلها بعلميتهم وحكمتهم فاستفادوا بوجهها الخير، فنحن نتركها تفاجئنا المرة تلو المرة، فتدمر أرضنا ومشاريعنا - التى نبنيها أحياناً فى مخراتها - وتقتل أبناءنا كأننا عقدنا معها "عهد موت" أبدياً. لم نتعلم من مأساة سيول ١٩٩٤. زدنا فقط من "الطنطنة" الفارغة بحجم الاستعدادات الوهمية لها، فضربتنا مرة أخرى فى خريف ١٩٩٦، رغم توافر المؤشرات بحدوثها، من زيادة الأمطار فى إفريقيا بصورة غير عادية، وفيضان النيل المرتفع جداً الذى يحدث مرة كل قرن. وهى مؤشرات كانت كافية لإدارة "لبيبة يقظة" أن تعرف أن تغيرات مناخية تحدث، إما دورية أو فى سبيلها إلى الدوام، وأن كمية المياه فى الطبقات العليا قد تزايدت، وهى مصدر خير للعاقل المتنبه، الذى يلجمها وراء السدود للاستفادة بها. ويقدرها رجال الأرصاد والعلوم الطبيعية بملايين الأمتار المكعبة، التى تكفى لاستصلاح مئات الآلاف من الأفدنة.

وترهلنا وتبلدنا اللذان يحولان دون ترجمة الأفكار إلى مناهج عمل وبرامج تنفيذ. فإذا حدث وترجمت عجزت عن بلوغ المستوى اللائق، إما لغياب التدريب المناسب أو لتسيب وإهمال المُدَّربين والمسئولين معاً.

ولا مجال للإدعاء بغياب الرؤى، فما أكثر المواثيق(*) الوطنية التى صدرت فى العقود الأربعة الأخيرة، تبشر برؤى مستقبلية، وترسم دوائر النهضة وخطوط تحقيقها. ومع أن الأصوات مازالت ترتفع مطالبة بميثاق وطنى جديد يشد أطراف الأمة، ويبعث الحيوية فى أوصالها، ويجمعها حول هدف مشترك، فالحاجة الحقيقية والأشد إلحاحاً هى إلى ميثاق شرف شعبى، نكتبه بالدم ونغمره بالضمير الحى، نتعهد فيه كباراً وصغاراً أن نقدس العمل، ونرعى أمانة المسئولية فى مواقعنا.

ولا يمكن التعلل بعدم المعرفة الإدارية، فبعد "ثورة ١٩٥٢"، وصدور قرارات التمصير والتأميم، نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، تكونت قاعدة القيادات الإدارية فى البلاد. وبتعاقب السنين تكونت قاعدة إدارية قوية فى العديد من التخصصات، واستطاعت أن تثبت ذاتها وتواجه العديد من التحديات وتحقيق الكثير من النجاحات، كإدارتها لقناة السويس، وبنائها للسد العالى، وإقامة الشركات الصناعية الكبيرة. كما تزايد عدد كليات التجارة وأقسام إدارة الأعمال، التى تخرج فيها الألوف من شباب الإداريين، إلى جانب المعاهد العالية والأكاديميات، والاهتمام ببرنامج تدريب الكوادر الإدارية، الذى تشرف عليه وزارة التنمية الإدارية، والأجهزة المتخصصة كالجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، ومركز القادة الإداريين، ومراكز التدريب بالقطاعين العام والخاص.

ولا مجال للتعلل بقلة القوانين(**) عندنا، لأنه ما أكثرها. لدرجة أن صحافتنا دأبت

(*) - فلسفة الثورة ١٩٥٤؛ الميثاق الوطنى ١٩٦٢؛ بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨.
- برنامج العمل الوطنى ١٩٧١؛ ورقة المتغيرات الدولية ١٩٧٣؛ ورقة أكتوبر ١٩٧٤.
- وثيقة العمل الوطنى (أمام مجلس الشعب) ١٩٩٣؛ مجموعة الحوار الوطنى ١٩٩٤؛ وثيقة "مصر والقرن الحادى والعشرين" ١٩٩٧.
- بالإضافة إلى إجتهادات الفكر السياسى المصرى من قبل المجالس القومية المتخصصة، والمفكرين والمثقفين والمهنيين. وأعمال أكثر من عشر مؤتمرات عن مصر عام ٢٠٠٠. وغيرها الكثير.

(**) فى مقال مهم بعنوان "فقه البلطجة وهمها" (الأهرام ٢٢/٧/١٩٩٧) أشار الأستاذ فهمى هويدى إلى استشراء ظاهرة البلطجة فى بلادنا، وذكر أنها وثيقة الصلة «بتراجع قيمة إحترام القانون والنظام العام».. والشعور بعجز القانون عن إيفاء الحقوق لأصحابها.

على الإشارة إليها بإعتبارها "غابة" من قوانين كتب عليها، كما يبدو، أن تغيب وقت شدة الحاجة إليها، لتبقى "الغابة وشريعتها"، تمرح فى قضايا ومسائل حياة أو موت بمجتمعنا. ورجالات القانون عندنا جهابذة، لم يمر جيل من الزمان لم يلمع فيه العديد منهم. ونزاهة قضائنا مشهود لها.

والتدين عندنا قديم العهد، سجله التاريخ معتزاً مباهياً. ومآذننا ومناراتنا تعلن عن حرصنا على العبادات، وإن شابها النفاق بين ضعاف النفوس، أو تهددتها الشعوذة والخرافة يلوذ بها قليلو الإيمان. أما المعاملات فلها معاناة طويلة، تتأذى لما يصيبنا من إنفصام روحى وخوار ضميرى، يؤديان إلى إختلال فى المعايير وإهتزاز فى الموازين، وإرتباك فى القيم وفى تطبيقاتها. وقد ينهار الجهاز المناعى الأدبى فتصاب الأخلاق بالتسمم الذى يملأ طرقات مجتمعنا بالقئ والغثاء.

ومع أن "**الدين المعاملة**" فكثيراً ما نرى مظاهر الدين فقط، وقد اختفت من الصورة "المعاملة" بكل ثقلها الروحى ووزنها ومنزلتها عند الله. وهذه الفجوة بين "التدين" وبين السلوكيات المنضبطة السوية، هى التى تهب منها على مجتمعنا الحسوم وكل صرصر مدمر. ويتذكر **سان** أن إشعياء النبى صورها، فى القرن الثامن قبل الميلاد، بأسلوب عبقرى، وهو يندد بأخلاقيات وسلوكيات أورشليم وشعبها:

لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات
وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر
حينما تأتون لتظهروا أمامى من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دُورى
لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لى.
رأس الشهر والسبت ونداء المحفل
لست أطيق الإثم والاعتكاف
رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسى. صارت علىّ ثقلاً. مللت حملها
فحين تبسطون أيديكم أستر عينىّ عنكم وإن كثرتم الصلاة لا أسمع
أيديكم ملآنة دماً.

اغتسلوا تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى
كفوا عن فعل الشر ... تعلموا فعل الخير
أطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة. (إش ١ : ١١-١٧).

فقد بلغت أورشليم أسفل الدرك: كيف صارت القرية الأمينة زانية. ملآنة حقاً كان العدل يبيت فيها. وأما الآن فالقاتلون. صارت فضتك زغلا وخمرك مغشوشة بماء. رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص. كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا. لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم[٣١].

ولقد حفلت صحفنا، إثر إنهيار عمارة هليوبوليس، بهذا المستوى من القسوة تندد بفساد الإدارة. أو كما قال أحدهم «ولا أقصد إدارة محلية ولا بلدية ولا إدارة عليا ولا وسطى، بل أقصد الإدارة بكل أسمائها وبكل أجهزتها ... فقد صارت الرشوة هى الصفة التى تتصف بها النسبة الغالبة من المسئولين صغاراً وكباراً. والإهمال هو المؤهل لتولى وظائف الحكومة»[*]. ويضيف آخر أنه يصعب على المرء أن يتصور كيف إنتقل داء الاستهتار واللامبالاة، الممتزج بالفساد والرشوة، إلى نخاع هذا المجتمع وإلى الصميم من أساليب العمل والتنفيذ.

وهذه التنديدات، وغيرها الكثير، أشبه برجع الصدى لمقال نشرته جريدة الأهرام منذ أقل من قرن (١٩٠٣)، بعنوان "الجرح الأليم فى جسم البلاد"، عن الرشوة التى «لاتزال عامة شاملة وأن عدداً من كبار الموظفين فى جميع المصالح مابرحوا يرتشون ليهضموا حقوق الناس ويهدموا مبانى العدل من أجل الأصفر الوضاح (الذهب)[٣٢].

فأبعاد الفساد إذن قد تضخمت[٣٣] عبر العصور حتى أصبح كثير من صوره المعتادة لا

---

(٣١) سفر إشعياء النبى ١ : ٢١-٢٣.

(*) الأستاذ سلامة أحمد سلامة (الأهرام).

(٣٢) الأهرام ديوان الحياة المعاصرة (١٦٧) - جريدة الأهرام ٦/ ٢/ ١٩٩٧.

(٣٣) وتشهد لوحة حجرية عثر عليها فى معبد الكرنك بالأقصر (١٩٨٢) على أن ظاهرة الرشوة تضرب فى عمق التاريخ المصرى القديم. فقد تضمنت بعض القوانين التى أصدرها الملك حورمحب (١٣٣٤-١٣٠٤ق.م) إشارات إليها، ومنها عقوبة الإعدام للموظف أو الكاهن الذى يقبل الرشوة وهو يقوم بمهام عمله، وللجنود =

يعتبرها معظم الناس فساداً. فالبعض يقبلها على أنها قضاء لا يرد. والبعض الآخر يرى فيها قيماً إجتماعية وقد استقرت. فالتهرب من الضرائب مثلاً شطارة، والتحايل على القوانين مهارة، وتسهيلات الموظفين، فى مقابل، مروءة. وهكذا.

والفساد كلمة واسعة الدلالة، فالفساد الإدارى يشير إلى الإنحراف بالإدارة عن غاية الصالح العام لتحقيق الصالح الخاص غير المشروع. والفساد القانونى هو كل عمل أو تصرف يخالف القانون ويهدف إلى تحقيق الصالح الشخصى لصاحبه، إهداراً للصالح العام وإعتداءً عليه، سواء كانت المخالة صغيرة أو كبيرة، وسواء تمت فى صمت أو صخب. والفساد، دينياً، هو كل خروج عن أوامر الخالق ونواهيه. وأخلاقياً يغطى كل خروج على ما اصطلح المجتمع على أنه مكارم الأخلاق. وليس للفساد ميزة واحدة. وعلى العكس فهو يعرقل قيام أى تنمية اقتصادية، ويقوض الشرعية السياسية، ويهدم الأسس الاجتماعية. ويفرز سياسات سيئة تفرز بدورها مزايداً من الفساد.

ورغم خطورة الفساد الإدارى، فليس من المعتقد أن التركيز عليه وحده، مع تعميم الإدانة بهذه الصورة الواسعة، يساعد كثيراً فى مواجهة القضية الخطيرة أو علاجها.

أولاً: لأن الفَساد ليس قاصراً على إدارات الحكومة أو المسئولين، بل هو أوسع إنتشاراً بين الناس على إختلاف طبقاتهم ومهنهم، من التاجر الجشع المحتال، إلى المتهرب من الضرائب والجمارك، إلى المصدِّر الغشاش الذى يغتال حلم مصر فى الإنتعاش الاقتصادى، إلى الحرفى المخاتل النصاب، إلى المهنى المبتز والمستغل، إلى آخر القائمة التى تبدو لطولها بدون آخر. ثم أن جريمة الرشوة - لب الفساد الإدارى - لا تتم إلا باتفاق أو "تآمر" أكثر من طرف، ومسئولية الراشى لا تقل عن مسئولية المرتشى، إن لم تكن أكبر لأنه البادئ بفتح الثغرة فى جسم النزاهة.

= الذين يستغلون سلطتهم للإثراء دون وجه حق. وظلت الرشوة مرضاً فى جسم المجتمع طوال العصور التالية إلى يومنا هذا. وقيل إن الملك السابق فاروق كان «أرفع المرتشين مقاماً» بحكم ما كان يتقاضاه مقابل منحه الألقاب للراغبين فيها. كما يقال إن الرشوة تطورت تطوراً كبيراً الآن ومنذ إنشاء الإدارة المحلية بإعتبارها مسئولة عن أكبر كمية من الفساد تعانى منه دواوين الحكومة فى مصر.

وللأسف يوجد فى موروثنا حكم وأمثال تفهم على أنها تشجع على الرشوة والنفعية مثل: «إطعم الفم تستحى العين»، و«شيلنى وشيلك». و«اللى يجوز أمى يبقى عمى». وفى المقابل يوجد فى كتبنا المقدسة ما يحذر ضد الرشوة وعواقبها مثل: ملعون من يأخذ رشوة (تث ٢٧ : ٢٥). والنار تأكل كل خيام الرشوة (أى ١٥ : ٣٤). وهى «تعمى أعين الحكماء وتعوج كلام الصديقين» (تث ١٦ : ١٩)، وتعوج القضاء، وتفسد سلطة الحكام.

وثانياً: لأن التعميم خطر للغاية. فهو من جهة يميِّع الوقائع والحقائق، ويتيح للفاسدين الحقيقيين مخرجاً ومنفلتاً، وهو من جهة أخرى يعطى إنطباعاً بوجود فساد عام يغطى وجه الحياة كلها بظلاله، مما يضر بسمعة المجتمع ككل، ويشيع فى الناس إحساساً باليأس وبعدم جدوى الإصلاح، كأن الفساد قدر محتوم لا فكاك منه، ويصيب الشرفاء الحقيقيين بالإحباط. فتتهيأ الفرص للفساد لأن يسدر فى غيه ويتسع إنتشاراً.

وثالثاً: لأن مسألة الفساد معقدة للغاية، وأسبابها متعددة ومتشابكة، تعود إلى إعتبارات إقتصادية وسياسية وثقافية وإجتماعية وقانونية وإدارية، وإن تصدرتها الأسباب الأخلاقية. وكل بند من هذه البنود يتطلب دراسات وافية وعلاجات(٣٤) ناجعة وحاسمة من أجل سد منافذ الفساد. فمثلاً العيوب فى الأنظمة والقوانين، مثل القيود والتعقيد المبالغ فيه، وطول الإجراءات وكثرة الموافقات والتوقيعات، إلى جانب تضخم الجهاز الإدارى نفسه، باب واسع لدخول الرشوة، وإنتشار الراشين والمرتشين.

رابعاً: لإنه لا يكفى الاعتراف بالأخطاء، ولكن - كما يقول چان بول سارتر - ينبغى إعطاؤها التكييف الصحيح. فعن الفساد مثلاً لا نكتفى بالقول إنه من الممارسات الخاطئة، أو أنه شائع فى كل بلاد العالم كما يردد المسئولون. بل واجبنا أن نتصدى بشجاعة لتكييف وتوصيف هذا الفساد لكى نشخص أسبابه على سبيل الحصر، ونكشف بنيته العميقة.

صحيح أن أغلب المهتمين بالحياة العامة فى مصر يتفقون على أن هناك إنخفاضاً واضحاً فى مستويات الأخلاق العامة والأداء الوظيفى و المهنى، وأن الاستهتار أصبح سمة لسلوكيات الكثيرين، وصار الفساد أساس التعامل وبديلاً لحكم القانون فى حالات

---

(٣٤) نُشرت فى جريدة الأهرام الغراء، فى باب "قضايا وآراء: ، للدكتور إبراهيم شحاته: "محاربة الفساد"، و "إصلاحات تستهدف الفساد بصفة خاصة" (٥/ ٤/ ٩٧ و١٢/ ٤/ ١٩٩٧). وتركز على إعادة هيكلة الجهاز الحكومى، والقضاء على صور البطالة المقنّعة من أجل جعله أكثر كفاءة وقدرة على الإنجاز السريع وتحقيق مصالح الناس، وتحديد الصلاحيات وتوصيف الوظائف بدقة، وسلطات إعطاء القرار، وقواعد الثواب والعقاب ومكافأة التميز. وإختيار المديرين على أساس الكفاءة والنزاهة والوازع الضميرى. وتبسيط الأنظمة والإجراءات الإدارية والإهتمام بشفافيتها، وتوضيحها فى كتيبات ونشرات للجمهور. وإصلاح النظام المالى وتحديد الضوابط من أجل محاسبة مالية دقيقة وناجزة، وتنظيم أسلوب الرقابة والمراجعة، ومنها التفتيش الفورى والمفاجئ. بما يتطلب إنشاء إدارة تفتيش مستقلة تتبع السلطة التشريعية، مزودة بآلية للمراقبة المستمرة للإلتزام بالقوانين واللوائح، وللإنذار المبكر ضد الإنتهاكات قبل استفحالها.

كثيرة، وقد سادت الأنانية بمصالحها الضيقة، وطغت المادية الصارخة النهمة للاستحواز، والمندفعة وراء إشباع رغبات الجسد وغدده، وقد تجردت من معانى الجمال والإبداع.

ولكن الصحيح أيضاً أن المجتمع الذى يستسهل رفع أصبعه ليشير إلى فئة معينة ليحملها مسئولية كل مصائبه إنما هو مجتمع مراهق، لم ينضج بعد ليستوعب معنى المسئولية المجتمعية أو المسئولية الجماعية. وواجب الذين يبادرون برفع الحجر ليكونوا أول من يلقمون به مشبوهاً أو مداناً فى الساحة العامة، أن يتوقفوا هنيهة ليواجهوا أنفسهم ويسألوا عن مدى مسئوليتهم عما جرى ويجرى. فالفساد مشكلة للمجتمع كله ولا يمكن مواجهته بفاعلية بغير المشاركة الحقيقية، والإلتزام من جانب الجميع، وعلى رأسهم من يتسببون فيه أو يتسترون عليه. والإعلام الذى بيده "البوق" ليس بريئاً. والأخلاق، على مستوى الفرد والجماعة، مهمة لأنها أساس التعامل والثقة. والثقة فى حد ذاتها عنصر هام فى قيام المجتمع السليم القوى، فالمجتمعات القائمة على الثقة استطاعت أن تقطع أشواطاً بعيدة فى التقدم. لأن الثقة وجه لعملة وجهها الآخر هو المسئولية والالتزام، اللذان يؤدى غيابهما إلى سيطرة الريبة والتربص على علاقات الناس ببعضهم، مما يكبّل حركة المجتمع ويعطل نهضته.

لعل القضية الآن باتت أوضح: فغياب الثقة يعنى غياب الإلتزام والمسئولية، لأنه لا مجال للثقة فيمن لا يلتزم أو لا يقدر المسئولية. وغياب الثقة ناجم عن غياب الأخلاق المرتبطة بوجود ضمير حى يقظ. وغياب الثلاثة يفتح الباب لخراب الذمم وموت الضمير وإنتشار الفساد. والفساد غول يأكل الأموال، ويبتلع ثمار التنمية أولاً بأول، ويفسد عمل آليات السوق، ويفزع المستثمرين ورءوس الأموال. والأخطر أنه يقوض أركان الثقة بين أفراد المجتمع، وبينهم وبين النظام القائم -حلقة مفرغة رهيبة. وهو فى الوقت نفسه عامل تخريبى يهدد مجتمعات العالم[٣٥] كلها، جنباً إلى جنب مع الإرهاب والمخدرات ومافيا

(٣٥) فقد شاع الفساد المنظم فى عديد من المجتمعات المعاصرة، بحيث لا نجد سوى فروق فى الدرجة وليس فى النوع، بين الفساد المستشرى فى بلاد متقدمة مثل إيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، وبين ما هو سادر فى بلاد العالم الثالث حيث يتخذ صوراً فجة فى الغالب. فالمافيا المعروفة تتوسل بأساليب خفية عادة للتأثير فى أوساط رجال الأعمال والأمن والإعلام والقانون.

- ولقد أصدر المؤتمر الدولى لمنظمة التعاون والتنمية الإقتصادية، المكون من ٢٨ دولة، فى إجتماعه الأخير بجنيف (١٩٩٦)، عدداً من التوصيات لمكافحة الرشوة فى دول العالم وخاصة الدول المتقدمة، التى طالبها بإصدار تشريعات تجرم الرشوة فى المجال الإقتصادى، كما تم الإتفاق على عقد مؤتمر دولى لمكافحة الرشوة فى ديسمبر ١٩٩٧. =

الجريمة، كعدو ينبغى محاربته دون هوادة. وقد أصدرت مؤخراً لجنة تابعة للأمم المتحدة، تختص بمحاربة الفساد، توصية بسرعة إنشاء ميثاق دولى لوقف ظاهرتى الفساد والرشوة على المستوى العالمى، وحثت على ضرورة إعطاء الأولوية لهذه المسألة.

فالحاجة إذن هى إلى نشر ثقافة الثقة على كافة المستويات. الثقة فى النفس وفى الآخر، والثقة فى الوطن والنظام، والثقة فى القوانين والأنظمة وعدالة تطبيقها، والثقة فى الغد والمستقبل، والثقة فى الأسس التى تنهض عليها الثقة فى كل هؤلاء. وهى تشع من القائد ومن الوالدين ومن المعلم، ومن القانون، ومن الكتّاب، ومن كافة مكونات مجتمعنا، فمعها تولد المسئولية، وبالإثنين يتحرك التقدم، ويتحقق الأمن والأمان أيضاً. وكما بدأنا هذا الفصل بالتنبيه إلى ضرورة استدعاء تاريخنا استدعاءً إيجابياً، لنستمد منه طاقة معنوية وسلوكية قادرة على بعث النشاط والاجتهاد فى أوصالنا، نعود لنؤكد حاجتنا إلى إعادة قراءة ثوابتنا ومقدساتنا، والالتفاف حولها، وتجديد الثقة فيها، وفى الله ذاته الذى به "نحيا ونتحرك ونوجد"، ومن عرشه ينفجر فى أعمقانا ينبوع دائم من اليقين والثقة.

= - ويؤكد تقرير أصدرته حديثاً (يونيو ٢٠٠٠) منظمة الشفافية الدولية، وهى هيئة أهلية دولية هدفها مكافحة الفساد، يؤكد تفشى الفساد والرشوة فى العالم. ويشير إلى أن شركات كبرى الدول المصدرة فى العالم تلجأ لرشوة المسئولين فى العالم النامى من أجل تسهيلات التعاملات والفوز بالتعاقدات. كما تتساهل بعض الدول الغربية بالنسبة لسلوك هذه الشركات، بل إن دولة مثل ألمانيا تعتبر مثل هذه الرشاوى جزءاً من المصروفات التجارية.

- وكشف تقرير للأمم المتحدة (أبريل ٢٠٠٠) عن أن تكلفة الفساد فى العالم باهظة للغاية، مشيراً مثلاً إلى أنه جرى إختلاس ٣٠ مليار دولار من المساعدات الدولية لإفريقيا تحولت لحسابات مفتوحة فى بنوك أجنبية. وأوضح التقرير أن البنك الدولى يقدر أن بإمكان الفساد خفض نسبة النمو فى أى بلد بنسبة تقترب من ١٪. كما أشار إلى تزايد عدد السكان الذين يواجهون طلب رشوة من أحد الموظفين، إذ تصل النسبة إلى ٢١٪ من عدد السكان فى أمريكا الجنوبية، و١٩٪ فى إفريقيا، و١٥٪ فى آسيا، و١١٪ فى أوروبا الوسطى والشرقية، و١٪ فى أوروبا الغربية.

- وحذر تقرير استراتيجى أوروبى من إتساع ظاهرة الفساد الوظيفى والغش وإرتكاب المخالفات التجارية بين الدول الخمسة عشر أعضاء الإتحاد الأوروبى، وقدر التقرير قيمة هذه المخالفات بنحو ٤٠٠ مليار فرنك فرنسى سنوياً (٢٤٠ مليار جنيه مصرى). وأشار إلى أن مشكلة الفساد الوظيفى تأتى على رأس المشاكل التى تهدد إنطلاقة الإتحاد الأوروبى.

- وفى عالمنا العربى نقلت جريدة الأهرام (٢٠٠٠/٦/٧) عن جريدة "تشرين" السورية ما كتبه أستاذ جامعى: أصبح الفساد يجسد ظاهرة موضوعية فى المجتمع العربى، لها أسبابها وبواعثها الإقتصادية والسياسية والتعليمية والعسكرية. وأرجع هذه الظاهرة إلى ما أسماه "بالدولة الأمنية العربية" بشعارها التدميرى: يجب أن يفسد ما لم يفسد، بحيث يصبح الجميع مداناً تحت الطلب... وهو ما يؤدى إلى الإنتقال من الفساد إلى الإفساد والتفسيد!

ومهما إختلف الناس حول تحديد الصلة بين الأخلاق والدين فستظل القاعدة الذهبية هى «رأس الحكمة مخافة الله». ذلك أن الذى يسقط فى جوف الفساد، كما يعلن داود الملك والنبى، إنسان «ليس خوف الله أمام عينيه» (مز ٣٦ : ١). إنسان «كف عن التعقل عن عمل الخير. يتفكر بالإثم فى مضجعه. يقف فى طريق غير صالح. لا يرفض الشر». وهو ما يتفق مع ثقافتنا القديمة. فقد آمن المصرى القديم بالبعث وبيوم الحساب. وآمن أيضاً أنه سيقدم حساباً عن كل إساءة للآخرين، وعن سلوكياته غير المرضية بما فيها تلويثه لمياه النيل!.

وبناء مجتمع الأخلاق والثقة عملية تربوية وتدريبية طويلة، يشترك فيها البيت والمدرسة والجامعة، والمسجد والكنيسة، والأندية والمؤسسات الأهلية/ المدنية. وتلعب فيها **القدوة** الدور الأساسى. وهناك مهمة حيوية جاهزة لتضطلع بها النقابات المهنية والعمالية، وخاصة المهن التى تمس بشكل مباشر حياة وكرامة الإنسان ومستقبله فى وطنه، وهى عملية توعية مستمرة بأخلاقيات كل مهنة والقيم التى ينبغى أن تراعيها، فى الممارسة والعلاقات وإحترام الحقوق، بعقد الندوات، وإعداد ورشات العمل، وتقديم دراسات تنشيطية refreshing courses على مثال ما تقدمه الجامعات فى الخارج.

كلمة أخيرة لـ "علاّم"

إن إنشغالنا بمستقبل بلادنا، وبدورها الحضارى، وموقعها فى عالم اليوم الذى يتغير بسرعة الصاروخ، أمر واجب فعلاً، بل هو أقل ما يجب من جانب أبناء مصر، الذين يعرفون قدرها وحقها فى أن تحتل مكاناً مرموقاً ورائداً، إقليمياً وعالمياً. فتسمية مصر بـ "نور الكون" لم يأت من فراغ. ولم يكن مجازاً. ولم يكن إبتداعاً أو افتراءً على التاريخ. فهى فجر الضمير. ونورها انبثق من ريادتها فى عالم المعرفة والعلم، والثقافة بكل صورها، منذ مهد التاريخ. وثراؤها الحضارى مازال كنزاً غنياً(*) يلتقط العالم منه كل يوم جديداً.

(*) ومن أحدث ما كُتب عنها العدد الخاص الذى أصدرته مجلة "لوبون" الفرنسية، بمناسبة نهاية الألفية الميلادية الثانية، وقال فيه رئيس تحريرها «إن مصر ليست مجرد موقع جغرافى أو تاريخ، وإنما هى حلم البشرية الذى كثيراً ما غذى عقول أجيال وحضارات بعيدة عنها. «وأن مجرد ذكر اسمها» يثير فى خيال العالم ذكريات بدايات التاريخ البشرى، وأساطير القدماء، وإنجازاتها الحضارية».

ومصر ستكون كما يريدها أبناؤها. فإرادتهم الجمعية هى التى تصنع حاضرها ومستقبلها. لا أحد غيرهم ولو كانوا مريخيين أو جبابرة هرقليين. ولا قوة غير قوتهم. ولا عزيمة غير عزيمتهم بإذن الله. والله لا يغير ما بقوم ما لم يغيروا هم ما بأنفسهم. فإرادة التغيير ينبغى أن تنبع من أبنائها، جميع أبنائها، ومن ثم تأتى الوثبة الكبرى.

ومما يبعث على الأمل أن المجتمع الثقافى والسياسى مشغول اليوم بقضايا غاية فى الأهمية تعالجها الأقلام بكل الجدية والموضوعية، فى الصحف والكتب وغيرها من وسائل الإعلام، وتدور حولها الحوارات والمناقشات الجادة على كافة المستويات الرسمية والأهلية. والحق إنها من أمور الساعة، ويتعلق بها مستقبل البلاد لأجيال طويلة قادمة.

وتأتى فى المقدمة القضية الخاصة بتحويل مصر إلى مجتمع **معلوماتى**، قادر على **إنتاج المعرفة** العالمية. وهو ما يفرض عليها الإنطلاق، وفى الحال، من مرحلة التطور الراهنة فى المجتمعات المتقدمة. وإتخاذ الخطوة الأولى نحو هذا الهدف وهو الإسهام الفعال فى استيعاب المعرفة المعاصرة من مصادرها المتعددة، خاصة وإنتاج الفكر العالمى زاخر ومتنوع ومبدع. وأعلامه فى كافة الميادين منتشرون فى الغرب والشرق، إلى جانب مؤسسات عالمية عريقة تأتى اليونسكو على رأسها. وهو فكر إنسانى رفيع، يعكس أثر ثورة الاتصالات، وطابع الإعتماد المتبادل فى عالم اليوم، سواء فى السياسة أو فى الاقتصاد أو فى الثقافة، فهو كونى ومحلى فى آن واحد.

ولكى نلحق بالركب المعرفى حقاً لابد من إطلاق روح الخيال والإبداع فى الشعب بلا خوف من حساب أو عقاب على فكر ما أو حلم. والإبداع شئ رائع، وهو ظاهرة مجتمعية وإن كانت بالأساس فردية تتعلق بالمبدع الفرد أياً كان تخصصه. والظاهرة الإبداعية لا تقف عند حد فهى فعل، وفرد إبداعى، وناتج إبداعى، وأساليب ثقافية وإعلامية، وعلاقات إجتماعية وممارسات سياسية ونظم إدارية، وهى بمثابة هواء نقى مجدد ومنشط يتسرب إلى كل أنشطة الإنسان فينعشها ويجددها. وأبرز ما فى هذه الظاهرة هو قدرة المبدع على إنتاج أفكار أو أشكال أو صور جديدة فى كل مجال يمسه، مما يجعل الإبداع ضرورة خصوصاً بالنسبة لاستشراف المستقبل، وذلك لأن الإنسان يواجه مواقف متعددة، بعضها يتسم بالتعقيد، مما يفرض عليه أن يستنهض قدراته الفعالة لكى

يواجهها بإبداع، ويصوغ لها حلولاً غير تقليدية . ومن المسلم به أن الإبداع لا يمكن نقله، بل لابد من تخليقه وتنميته ومتابعته فى التربية المحلية، من خلال نظم التنشئة الاجتماعية فى الأسرة، والتنشئة التعليمية فى معاهد العلم .

وتتعلق القضية الثانية **بتحديث** مصر . وتتركز الأفكار المثارة حولها فيما يلى :

- يجب أن يكون التحديث شاملاً فى كل المجالات، إذ لا مكان للتغييرات الجزئية . وأن يتم من خلال منهج يعتمد على الدراسة الكاملة للواقع . على أن ينطلق عن قناعة عامة وتامة بضرورته وحتميته .

- تحديث الدولة يعنى تحديث المجتمع وتحديث الناس، أى أنه لا يعنى تحديث الآلات والخامات والنظم واللوائح، بينما يبقى مستخدموها والمتعاملون معها متخلفين . فالتحديث إنما يمثل المشروع الوطنى للمجتمع بكل فئاته وعلى رأسها القيادات لتكون فعالة وذات مهارات إدارية فائقة قادرة على إحداث التغيير . وتخص المشاركة والإسهام فيه كل المساحات الاجتماعية دون استثناء أو استبعاد أية فئة منه .

- التقدم يصنعه البشر، وهم الذين يصنعون الثروة . ومن هنا ضرورة الاهتمام بالعنصر البشرى، الذى طال إهماله، رغم أنه بداية الطريق ومنتهاه، وإشراكه فى العملية بحيث يكون هناك تكامل فى الرؤية بين الفرد والمؤسسة، مع شمولية الرؤية ذاتها وعلميتها . علماً بأن الذى يدفع إلى تحفيز الناس نحو المشاركة، بالدرجة الأولى، هو إدراكهم فعالية قدرتهم على التأثير فى أسلوب حياتهم وبيئتهم، وإمكانية بناء نوعية حياة قادرة على إشباع حاجاتهم المتزايدة، وتأمين أمنهم وسلامهم . فالمستهدف من التحديث هو التغيير نحو الأرقى، ورفع قدرة المواطن على الوصول إلى مستوى أفضل فى جميع جوانب الحياة المادية والمعنوية .

- التحديث يتطلب إنساناً فاهماً واعياً عارفاً، وقادراً على إحداثه . وذلك الإنسان يصنعه التعليم فى كافة مراحله من الحضانة حتى الجامعة، وينميه التدريب، وتصقله الخبرة والبحث . **وسيظل التعليم أولاً والتعليم ثانياً والتعليم دائماً، هو النبع الصافى لأى تطوير نهضوى، والركيزة الكبرى للتحديث الحقيقى للمجتمع والدولة .**

- ينبغى التركيز على تعليم أساسيات العلوم والعلوم البينية، دون الدخول فى الحشو،

لتدعيم الشخص بالبنية الأساسية التى تعينه على امتلاك آليات التفكير الذاتى، وتزيد قدرته على الإبداع. ويجدر أيضاً الاهتمام بتعليم المنطق والفلسفة وعلم الاجتماع لترتيب فكر وشخصية الإنسان. ويكون الفكر التعليمى ذاته مبنياً على تنمية قدرة الطالب على التحليل والتفكير والربط والاستنتاج والقدرة على التعلم الذاتى، وذلك بأسلوب يحببه فى العلم واحترام الحقيقة.

- والتحديث عملية ثقافية بالدرجة الأولى. ويتطلب الأمر دعم وحماية ثقافة التحديث. فالثقافة هى مفتاح العلم والإدراك والنضج. وهى التى تنتج القناعات، وتؤدى إلى تنمية المهارات، وتمهد للحاق الحضارى المعاصر. وهى منطلق الإبداع الذى يعتبر من أهم عناصر التحديث.

- والحاجة ماسة إلى تنشئة أجيال من المبدعين باعتبارهم قاطرة التحديث الحقيقى والنهضة المتواصلة، والتنمية المستدامة. فالغلبة فى النظام العالمى الجديد هى للابتكار وليس للتقليد، وللتجديد وليس للمحاكاة. ولابد أن يكون للبلاد دورها فى ابتكار واختراع نماذج جديدة من التكنولوچيا، وتطوير العلوم المختلفة، والمعرفة ذاتها، ليكون للمجتمع إسهامه فى صياغة هذا النظام العالمى.

وعندما يتحقق لنا كل هذا **تتألق مصر التى فى خاطرنا**، وتظل حقاً وفعلاً بالنسبة لنا "**نور الكون**".

أهم المراجع

١- د. أحمد شـوقى ... دراسات مستقبلية
٢- أحمد عثمـان ... مخطوطات البحر الميت
٣- أحمد فؤاد رسلان ... نظرية الصراع الدولى
٤- أرنولـد توينبـى ... دراسة فى التاريخ
٥- إزبجنيو بـرجنسكى ... الإنفلات
٦- آل جـور ... الأرض فى الميزان - الإيكولوچيا وروح الإنسان
٧- د. السيد عليوه ... إدارة الأزمات والكوارث
٨- السيـد يسـين ... الكونية والأصولية وما بعد الحداثة
٩- السيـد يسـين ... الوعى التاريخى والثورة الكونية
١٠- أنيس منصور ... الذين هبطوا من السماء
١١- د. أنطون يعقوب ميخائيل ... مصريات . . ثوابت وأولويات
١٢- أوزوالد شبنجلر ... إنحطاط الغرب
١٣- أووين هاريـس ... الحرب الباردة القادمة
١٤- برنارد لويـس ... صراع الثقافات: المسيحيون والمسلمون واليهود
١٥- برنارد لويـس ... مستقبل الشرق الأوسط
١٦- بول كينـدى ... ظهور الدول العظمى وسقوطها
١٧- بيير بيارنيـه ... القرن الحادى والشعرون لن يكون أمريكياً
١٨- بيتر برجـر ... الثورة الرأسمالية
١٩- بيير كالام وأندريه تالمان ... الدولة فى القلب: مبادئ جديدة لتسيير آليات الحكم
٢٠- بيير كولـر ... المهمة الأخيرة
٢١- توماس فريدمان ... السيارة ليكسوس وغصن الزيتون
٢٢- توماس مـان ... تركيب الثورات العلمية
٢٣- جراهام فوللر وإيان ليسر ... الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة
٢٤- جريس هالسـل ... النبوة والسياسة

٢٥- جلال أميـــن ... ماذا حدث للمصريين؟
٢٦- جلال عبد الفتاح ... الكون - ذلك المجهول
٢٧- جوزيه بوڤيه ... العالم ليس سلعة
٢٨- چون جراى ... الفجر الكاذب أو أوهام الرأسمالية
٢٩- چون ستيوارت ... عن الحرية
٣٠- چون والفورد ... هرمجدون، النفط وأزمة الشرق الأوسط
٣١- چون كستى ... قناعات مفقودة
٣٢- چون ويلسون ... الحضارة المصرية
٣٣- حـازم الببلاوى ... التغيير من أجل الاستقرار
٣٤- د. حامد عمار ... من همومنا التربوية والثقافية
٣٥- د. حسن بكر ... العنف السياسى فى مصر
٣٦- د. حسين مؤنس ... مصر ورسالتها
٣٧- دانيال وجشيك ... نهاية العالم الذى نعرفه
٣٨- د. رأفت عبد الحميد ... الفكر المصرى فى العصر المسيحى
٣٩- رالف كيتشام ... ثورة الفكر الأمريكى
٤٠- رجـب البنـا ... الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام
٤١- روبرت ماكنمارا ... جوهر الأمن
٤٢- روچيه جارودى ... الولايات المتحدة . . طليعة الإنهيار
٤٣- ريتشارد نيكسـون ... ١٩٩٩ - نصر بلا حرب
٤٤- د. سمـير أمين ... مناخ العصر
٤٥- سمير مرقـس ... الحماية والعقاب
٤٦- صلاح الدين حافظ ... عرب بلا غضب
٤٧- صموئيل بيكيت ... فى إنتظار جودو
٤٨- صموئيل هنتنجتون ... صدام الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمى
٤٩- صموئيل هنتنجتون ... الغرب والآخرون
٥٠- عادل حمـوده ... أمريكا الجنة والنار

٥١- د. عباس رشدى العمارى ... إدارة الأزمات فى عالم متغير
٥٢- د. عبد الجليل شلبى ... اليهودية واليهود
٥٣- د. عزة عزت ... صورة العرب فى الغرب
٥٤- فرانسيس فوكوياما ... نهاية التاريخ
٥٥- فرانسيس فوكوياما ... ثقافة الثقة
٥٦- فرانسيس فوكوياما ... الانهيار العظيم
٥٧- قسطنطين رزق ... معركة الحضارة
٥٨- كارل بوبر ... المجتمع المفتوح وأعداؤه
٥٩- كارل بوبر ... بحثاً عن عالم أفضل
٦٠- كارل ساجان ... كوكب الأرض - نقطة زرقاء باهتة
٦١- كارولين بيترسون وچون برانت ... رؤية هابل
٦٢- كاسبر واينبرجر ... الحرب القادمة
٦٣- كريستوفر لاش ... ثقافة النرجسية
٦٤- كيرك باتريك ... فتح الجنة
٦٥- لستر ثرو ... مستقبل الرأسمالية
٦٦- مارتن برنال ... أثينا السوداء
٦٧- د. محمد أحمد سليمان ... سياحة فضائية فى آفاق علم الفضاء
٦٨- د. محمد السيد السعيد (المحرر) ... حكمة المصريين
٦٩- محمد حسنين هيكل ... سلام الأوهام
٧٠- د. نظمى لوقا ... كيف تحكم أمريكا
٧١- هال ليندسى ... الكرة الأرضية العظيمة المأسوف عليها
٧٢- هلدجارد هوثورن ... توم بين
٧٣- هنرى توماس ... أعلام الفلاسفة
٧٤- والتر ماكدوجال ... أرض الميعاد والدولة الصليبية
٧٥- وليم شروان ... بائعو الحظ
٧٦- د. وليم سليمان قلادة ... الحوار بين الأديان

1-Berger, Peter ... Pyramids of Sacrifice - Political Ethics & Social Change

2- Brzezinsky, Zbigniew ... Power and Principle

3- Brzezinsky, ... In Quest of National Security

4- Brzezinsky, ... Out of Control

5- Carson, Ruth ... Silent Spring

6- Ericson, Barbara ... Blood Rites: The History & Origins of War

7- Haymann, E ... Au Coeur De L'Integrisme Juif

8- Heilbroner, Robert ... Paradox of Progress

9- Huntington, Samuel ... American Politics

10- Kennedy, Paul ... Preparer Le XXI Siecle

11- Kuhn, Thomas ... The Structure of Scientific Revolution

12- Mohamed, Mahathir & Ishihara, Shintaro ... The Voice of Asia

13- Smith, Adam ... The Wealth of Nations

14- Smith, Adam ... The Theory of Mental Sentiments

15- Strobb, Thomas ... Salvation For Sale

16- Taylor, Charles ... World Handbook of Political & Social Indicators

17- Thurow, Lester ... The Zero - Sun Solutiom

18- Thurow, Lester ... Building a World - Class Economy

19- Tofler, Alvin ... Future Shock

20- Tofler, Alvin ... The Third War

21- Weigel, George ... Idealism Without Illusion

محتويات الكتاب

